عبد المجيد سباطة

ساعة الصفر 00:00

رواية



المركز الثقافي العربي

مكتبة | ٣٨٣

عبد المجيد سباطة

ساعة الصفر

00:00

الكتاب

ساعة الصفر

00:00

تأليف

عبد المجيد سباطة

الطبعة

الأولى، 2017

عدد الصفحات: 477

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-855-8

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

عبد المجيد سباطة

ساعة الصفر
00:00

رواية



من يقرأ الماضي بطريقة خاطئة سوف يرى الحاضر والمستقبل بطريقة خاطئة أيضاً، ولذلك لا بد أن نعرف ما حصل كي نتجنّب وقوع الأخطاء مرة أخرى، ومن الغباء أن يدفع الإنسان ثمن الخطأ الواحد مرتين. . .

عبد الرحمن منيف (1933-2004)

ما قبل البداية
(وقد تكون النهاية!)

لوتا . . .

قرية صغيرة هادئة، أعلم أنك لم تسمع عنها من قبل، تابعة لمحافظة كونيتس، في الجنوب الغربي من العاصمة سرايفو، ولا يتجاوز عدد سكانها الثلاثين شخصاً فقط بحسب آخر الإحصائيات الرسمية في البوسنة والهرسك.

بلدة وديعة مسالمة، قفزت بسرعة فائقة إلى واجهة الأحداث، عندما أعلنت السلطات البوسنية عن اكتشافها لمقبرة جماعية في التلة المطلّة على القرية أواخر الشهر الماضي، في وقت تستعد فيه البلاد لإحياء الذكرى العشرين لنهاية حرب مدمّرة اكتوى الجميع بنيرانها في تسعينيات القرن الماضي.

تمّ العثور على المقبرة بالطريقة المعتادة نفسها، في البداية مكالمة هاتفية غامضة من متّصل مجهول، يحدِّد فيها المكان المفترض للمقبرة بدقة، ويرفض الكشف عن هويته، فتتوجه المصالح المعنية إلى المكان، وتبدأ عملية التنقيب التي تؤكد في النهاية صحة المعلومات التي أدلى بها المتصل.

لا تحتاج المسألة إلى ذكاء خارق، فغالباً ما يتعلق الأمر بسفّاح صربي متخَفٍّ عن الأنظار، يحاول التخلص من عذاب الضمير،

فيعترف بالجريمة، لكن خشيته من الملاحقة القانونية تدفعه لاستخدام هذه الأساليب الملتوية، وقد تكرّر المشهد بحذافيره في أوسورا وبرييدور وكامينتشكا بردا وسربرنيتسا وغيرها.

المختلف هنا هو موقع المقبرة، فمن المعروف أنّ مذابح التطهير العرقي الممنهَج قد تمركَزَت في مناطق أخرى، شرق البوسنة وشمالها ووسطها، ولم تسجّل المصالح المعنية أيّ كشف عن مقابر جماعية في هذه المنطقة قبل الآن، فكانت بالفعل مفاجأة صادمة فتحت الباب على مصراعيه أمام كلّ التكهنات حول حقيقة ما جرى في القرية الوديعة قبل عشرين عاماً.

عندما اتصل بي صديقي قاسم ديفيتش، الناشط في مؤسسة إنسانية تُعنى بشؤون ضحايا الحرب من جرحى ولاجئين ومفقودين، ورفيق السلاح السابق في معركة الدفاع عن سراييفو، ودعاني لمقابلته في مقر المؤسسة، اعتقدتُ بأنه مجرّد لقاء عابر بين صديقين باعدت بينهما مشاغل الحياة وهمومها، فلبّيت الدعوة بلا تردّد.

قاسم إنسانٌ عملي جداً، لم يضيع وقته في الرسميات المعتادة، بل ابتدرني بالكلام مباشرة، ففهمتُ أنّ السبب الحقيقي للّقاء أهم بكثير ممّا ظننت.

بحكم طبيعة عمله، فقد شارك بنفسه في عمليات التنقيب عن المقبرة في لوتا، والتي أسفرت في النهاية عن استخراج بعض الرفات التي قدّر الخبراء، بعد معاينةٍ أولية، أنها تعود إلى سبعة أشخاص، وذلك استناداً إلى عدد الجماجم المتوفرة في الموقع، وهذا قبل نقلها إلى المختبر للتأكد من المعلومات المتوفرة حولها بشكل أكثر دقة، ثم تحديد جنسها وربما الهوية الحقيقية لأصحابها بعد إجراء اختبارات الحمض النووي.

تتلخّص مهمّة قاسم وفريقه في جمع الأوراق والوثائق الثبوتية التي يتمّ العثور عليها في المقابر بين الرفات، لعلّها تساعد في عملية البحث عن أقارب الضحايا وذويهم، ولو أن هذا أصعب من العثور على إبرة في كومة قش، فغالباً ما يعمَد القتلة إلى التخلّص من الوثائق قبل الدفن لإخفاء معالم الجريمة، وحتى إنْ وَجَدَ الفريق بعضها بمعجزة ما، فإنّ طول المدة الزمنية وتعاقب المتغيّرات المناخية يؤثر عليها بشكل كبير ويحوّلها إلى ما يشبه الفتات المهترئ الذي يخفي أكثر ممّا يكشف.

لكن مقبرة لوتا حملت معها مفاجأة أخرى غير متوقَّعة. . .

عثر فريق البحث على حقيبة ظهر صغيرة بين الرفات، مهترئة وشبه ممزقة، لكنها نجت من التلف بأعجوبة، إذ أثبتت المعاينة الميدانية أنها من علامة تجارية عالمية معروفة بجودتها وقوة تحمّلها.

استغرب قاسم ورفاقه وجود الحقيبة في هذا الموقع، فقدروا أنها تعود لأحد الضحايا المفترَضين، وربما ألقاها القتلة في الحفرة قبل الدفن بلا اكثرات، بعدما تبيَّن لهم أنها لا تحمل شيئاً ذا قيمة تُذكَر.

وبالفعل، لم يجد أعضاء فريق البحث في الحقيبة المذكورة سوى بعض الخرق البالية، ومعها ساعة يدوية معطّلة اتّحدت عقاربها في الرقم الثاني عشر، بالإضافة إلى بوصلة صَدئة، وقلم حبرٍ منتهي الصلاحية، فقاموا بجرد المحتويات لنقلها إلى المستودع فيما بعد.

وحدها سرعة البديهة التي تميّز قاسم، والتي خبرتُها عندما جمعتنا جبهات القتال في الماضي، دفعته إلى تفتيش الحقيبة مرة أخرى، فقد أحسّ بأنّ وزنها أثقل من اللازم رغم إفراغها من محتوياتها.

أزاح عنها الأتربة العالقة، وأعاد تقليبها بين يديه، ثم فتحها مرة أخرى، ولامس بأصابعه الخبيرة ظهرها، فاصطدمت سبابته بزمام منزلق صغير تعامل معه بحرص شديد خشية إتلافه.

وكان شكّه في محله...

كشف زمام المنزلق عن جيب سري يضم أوراقاً مصفرّة نجت من التلف، مع كراسة صغيرة تمزّقت بعض صفحاتها، وخريطتين مهترئتين، واحدة للبوسنة قبل التقسيم الحالي للبلاد بين جمهورية صربسكا والفيدرالية البوسنية الكرواتية وأخرى للعاصمة سراييفو ومحيطها.

وصل قاسم إلى هذه النقطة في كلامه معي، فأدركتُ في قرارة نفسي السبب الحقيقي الذي دفعه لاستدعائي.

أنا رئيس قسم الدراسات التاريخية في جامعة سراييفو، وأملك خبرة طويلة في التعامل مع هذه النوعية من المخطوطات، وأستطيع تحليلها بشكل دقيق، كما أنني أملك كلّ الوسائل الضرورية للمحافظة عليها وحمايتها من التلف.

وهنالك سبب آخر...

أضافَ قاسم في معرض كلامه بأنّ محتوى الأوراق مكتوب باللغة العربية، التي أتقنها بحكم دراستي في مصر قبل الحرب واطّلاعي الجيد على الثقافة الشرق أوسطية والأدب العربي.

وهكذا وجدتني في نهاية المطاف محملاً بصندوق خشبي صغير جمعَ فيه قاسم كلّ ما وجده في الحقيبة، منتزعاً مني وعداً بالاهتمام بالموضوع ودراسة الأوراق بشكل معمّق، لعلّ محتواها يفيد التحقيق في ملابسات الجريمة المنسيّة.

لا حاجة لقاسم بالضغط عليّ، فقد أثارت هذه القضية اهتمامي

وفضولي لسببين رئيسين، أولهما موقع المقبرة غير المألوف، وثانيهما اللغة العربية التي كُتبت بها الأوراق المذكورة، فودّعت قاسم وركبت سيارتي متوجهاً نحو القرية لألقي نظرة متمعّنة على المكان.

عرض عليّ جهاز الجي بي إس الخروج من سراييفو والتوجّه جنوباً نحو لوتا عبر الطريق الرابطة بين العاصمة ولوكافيتسا وكالينوفيك، لكنني رفضتُ ذلك وأدخلت إحداثيات أخرى.

سأزور جبل إيجمان، ولو لدقائق معدودة، أتملى طلعته البهية وسفوحه التي تغطيها أشجار الصنوبر والتنوب، وأمارس هوايتي المعتادة في استرجاع الماضي البعيد الذي يربطني به.

هو يوم خريفي جميل، يُغري بقضاء وقت هادئ على سفوح الجبل الضخم، الذي يقصده هواة التزلج في الشتاء، رغم تأثّر البنية التحتية، التي شهدت تنظيم سراييفو لدورة الألعاب الأولمبية الشتوية عام أربعة وثمانين، بما جرى في التسعينيات، بخاصة مضمار القفز على الجليد الذي دمّر إبان الحرب ولم يرمَّم حتى الآن، فيما يحوّل المناخ المعتدل الجبل إلى قبلة للهاربين من صخب العاصمة، والراغبين في الاستمتاع بأجوائه الساحرة، وأيضاً للسياح القادمين من كلّ أنحاء العالم للتعرّف على بلد لم يسمعوا عنه ربما سوى ما تتناقله وسائل الإعلام.

قوة خفية تدفعني في كلّ مرة إلى زيارة الجبل الذي أحفظ تضاريسه كما أحفظ خطوط يدي، قوة لا علاقة لها بكلّ ما سبق، فنظرتي أنا مختلفة لهذا المكان، الذي يرتبط في مخيلتي كما قلت بماضٍ بعيد يرفض التواري خلف جدار الذاكرة.

أن تكون مجرّد شاب خجول مسالم أخذته الحرب على حين غرة، وامتنعَ عن خوضها خوفاً على حاضره ومستقبله، فأتاه الجواب

على هيئة قذيفة دمَّرت منزله الصغير في سراييفو وحوّلت أجساد أمه وأبيه وأخته إلى أشلاء.

ضربة قاضية أسقطته أرضاً، وأقنعته بأنّ المقاومة على طريقة غاندي ضربٌ من الخيال، لكن بعد فوات الأوان...

شهد جبل إيجمان آخر معاركي وأصعبها بعد انضمامي للجيش البوسني الفتيّ الذي تمكّن في النهاية من دحر الغزاة وطردهم من مواقعهم المحصّنة هنا، مواقعهم المطلة على سراييفو والتي حاصروا منها المدينة وقصفوها لإجبارها على الركوع والاستسلام، لذلك لم أستطع أبداً طرده من مخيلتي.

نعم، وضعَت الحرب أوزارها في النهاية، وتوصّل الساسة إلى سلام مصطنعٍ وهشّ، لكن صدمات ما بعد الكارثة دائماً ما تكون أقوى وأشد، خاصة مع الثمن الباهظ الذي دفعناه جميعاً.

مضى وقت طويل، أدركتُ بعده بأنني لن أتجاوز آثار الكارثة، التي لحقَت بي وأفقدَتْني أعزّ من أملك وحكمَت عليّ بالوحدة الأبدية، إلّا بالعمل، حتى أتمكّن من فَهم حقيقة ما وقع، وأستطيع الوصول للسلام مع نفسي وأستمر في حياتي، أو بالأحرى مع ما تبقى منها بعد خسارتي كل شيء، الماضي والحاضر والمستقبل.

تجتاحني مشاعر متضاربة كلما ألقيت نظرة سريعة على سفوح جبل إيجمان، ورغم أنها مليئة بالشجن والذكريات التي يمتزج فيها الغضب بالحزن إلّا أنها تُشعرني براحة عظيمة لا أدري كنهها.

ربما لأنني لن أجد خيراً من البوح طبيباً لجراحي، ولن أهزم مخاوفي إلّا بمواجهتها.

عدتُ إلى سيارتي مواصلاً المسير نحو القرية، ومررتُ بجانب جبل بيلاشنيتسا أو الجبل الأبيض، الذي لا يبعُد كثيراً عن إيجمان،

فاكتفيت بإلقاء نظرة سريعة من نافذة السيارة على قمته التي اشتعل رأسها شيباً، وابتسمتُ في مرارة وأنا أتذكّر كيف شهد هذا الجبل أيضاً معارك طويلة بين القوات البوسنية والميليشيات الصربية للسيطرة عليه، فتحوّل اليوم إلى موقع سياحي يضمّ هو الآخر مضماراً للتزلج وبعض المطاعم وفندقاً مشهوراً، فيما نُصِبَت على قمته محطّة للأرصاد الجوية.

وصلت إلى لوتا بعد ساعة ونصف تقريباً، فتوجّهت مباشرة نحو الموقع الذي وصفه لي قاسم في التلة المطلة على القرية.

لست محققاً، ولا علاقة لي بكل التفاصيل المملة عن الأدلة المادية والمساطر الإدارية التي تأخذ وقتاً أطول من اللازم، أتيتُ إلى هنا فقط بدافع الفضول، محاولاً وضع نفسي في الصورة، قبل مباشرة العمل الذي ينتظرني للكشف عن الأسرار التي تخفيها تلك الأوراق.

لم أتمكَّن من تجاوز الحاجز الخشبي الذي وضعته السلطات في الموقع، مع لوحة خشبية كتبت عليها عبارة: ممنوع الاقتراب، فتوقفت غير بعيد عن المقبرة المفترضة وأنا أحاول تخيل سيناريو الحادثة التي جرت أطوارها هنا قبل عقدين كاملين تقريباً.

سبعة أفراد لا نعْرف عنهم شيئاً، ولم يتمّ تحديد جنسهم بعد، فالرفات الآن في المختبر لتحليلها، لكن الواضح والأكيد أنّ أحد الضحايا أو بعضهم أو ربما كلهم ليسوا بوسنيين، عطفاً على محتوى الأوراق المكتوب باللغة العربية، والتي أرجِّح الآن، قبل الاطِّلاع عليها، أنها قد تكون مذكّرات شخصية.

تحوم شكوكي حول فرضيات بعينها. . .

الأولى مفادها أنّ الرفات تعود لمقاتلين بوسنيين أو عرب جرى أسرهم في معركة معيَّنة ثم أعدموا ودفنوا في هذا المكان.

الثانية ترجح أنّ حافلة أو سيارة مدنية مرَّت من المكان فقادها سوء حظها للوقوع في قبضة الميليشيات الصربية التي لم ترحم ركابها وقتلتهم بدم بارد.

الثالثة تتعلق بهجوم مفاجئ على القرية وارتكاب مجزرة بحقّ مَن فيها، ولو أنها الفرضية الأضعف في نظري، فمثل هذه القرى جرى إخلاؤها من المدنيين منذ البداية نظراً إلى مواقعها الاستراتيجية على خطوط التماس بين القوى المتحاربة.

باختصار، لن أتمكن من كشف جزء من الحقيقة إلّا بدراسة الأوراق التي بين يدي، وهذا يضعني أمام تحدٍّ من نوع آخر بعد عودتي إلى سراييفو.

دراسة مخطوط دُفِنَ في ظروف صعبة وتعرَّض لمختلف المؤثرات المناخية المتعاقبة ليس بالأمر الهين، ويحتاج مني إلى صبر كبير واستخدام جيد لكلّ الوسائل التقنية المتاحة، وهذا يعني ضرورة استعانتي بمختبر الجامعة حتى أنجز العمل المطلوب في أفضل الظروف الممكنة.

من الحسنات القليلة للوحدة أنها تجعلك متحرّراً من كلّ الالتزامات المعتادة، لا زوجة تنتظرني أو أطفال، لا علاقات عامة أو سخافات مرتبطة بضرورات النفاق الاجتماعي، لا شيء يشغَلني عن عملي سوى عملي.

حتى أصدقائي القدامى انشغل كلّ واحد منهم بحياته الجديدة، بالواقع المشوه الذي فرضته مرحلة ما بعد الحرب، في محاولة بائسة يائسة للاندماج والنسيان، منهم مَن عالجوا الأمر بإدمان الكحول

والمخدرات، فدمّروا البقية الباقية من اتّزانهم النفسي، ومنهم مَن وجدوا الحلّ في العزلة التامّة والتديّن على الطريقة الصوفية التي تجد تربة خصبة لها هنا في البوسنة، ففصلوا أنفسهم تماماً عن الواقع، فيما فقدَ البعض عقولهم ببساطة شديدة!

على أية حال...

لم تكن مهمة صيانة الأوراق وترميمها بتلك السهولة المتوقّعة، فقد تطلّب مني ذلك جهداً كبيراً وصبراً طويلاً، قبل أن أتمكّن في النهاية من قراءتها بعناية ووضوح.

تستلزم هذه العملية المعقّدة تصنيفاً أولياً للمؤثرات الخارجية التي أضرّت بجودة الأوراق، فتبيّن لي أنّ الرطوبة لعبت دورها في إفسادها بشكلٍ جزئي، إذ أدّى ارتفاع نسبتها إلى إحداث تشوّهات في شكل المخطوط وتكوّن بقع صفراء عليه ونمو بعض أشكال الفطريات والبكتيريا على سطحه.

نحن نتحدّث هنا عن أوراق مدفونة في تلة بمنطقة جبلية قاسية المناخ، خاصة في فصل الشتاء الذي تنزل فيه درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، لذلك فقد ساهم التردّد المستمر بين الحرارة والبرودة خلال هذه الفترة الزمنية في تلف بعض المواد المكونة للأوراق، سواء الحزمة المصفرة أو الكراسة الصغيرة، فتشقّقت بعضها نتيجة سرعة التمدّد والانكماش المتكرِّر في هذه المواد.

ظهرت أيضاً بعض البقع والبصمات المشوّهة على قسم مهمّ من هذه المخطوطات وصفحاتها، ولا تفسير لذلك في نظري سوى تقليب وتناول الأوراق بأصابع قذرة أو ملوثة بالحبر أو مبتلّة بالعرق، وقد يؤكّد الاطّلاع على محتواها فيما بعد هذه الفرضية.

أما فيما يخصّ الترميم، فقد فصلت بين الأوراق الملتصقة

ببعضها، ونظّفتها لتخليصها ممّا علق بها من أتربة وآثار أقلام، وأيضاً بعض الفطريات وبويضات الحشرات المختلفة، ثم أصلحت ما أصابها من تمزّق أو تكسّر لبعض الأطراف، وذلك بتثبيتها وتقويتها بالمحاليل واللواصق الكيميائية، وأشير هنا إلى أنّ الحقيبة قد ساهمت بشكل كبير في التخفيف من آثار التلف الذي أصاب الأوراق والكراسة وباقي المحتويات.

أنهيتُ عملي بتصوير الأوراق بعد إصلاحها الجزئي، الذي بلغت نسبته تسعين في المئة، ثم ملأت استمارة خاصة لتشخيص حالة المخطوط قبل البدء بعملية الترميم، تتضمّن حقولاً متعدّدة تتعلّق بطبيعة ووضع الأوراق، وبعض المعلومات والتفاصيل الأخرى عن مقاساتها وعدد صفحاتها، حتى أعود إليها وقت الحاجة.

اعتقدتُ بأنّ التعرّف على رفات الضحايا السبعة سيتمّ بسهولة تامة، اعتماداً على اختبارات الكشف عن الحمض النووي، لكن العملية أصعب بكثير ممّا ظننت، فقد أكّد لي قاسم بأنّ الحقيقة مختلفة تماماً عمّا نتابعه في الأفلام والمسلسلات البوليسية، إذ تتطلب المسألة وقتاً طويلاً موزّعاً بين الإجراءات الإدارية والدراسات الطبية والكشوفات المخبرية والمقارنات المضنية مع سجلات المختفين والمفقودين قبل التمكّن من تحديد الهوية الحقيقية لكل ضحية، ولو أنّ واحدة منها على الأقل معروفة، أتحدث عن صاحب الأوراق والحقيبة بطبيعة الحال.

وصلت أخيراً إلى الشقّ الأهم في مهمتي، وهو قراءة الأوراق والكراسة وتدقيق محتوياتهما، فوجدتني منغمساً فيهما حتى النخاع، فقد أخذتني الأحداث المدوّنة وأعادتني سنوات طويلة إلى الوراء وفصلتني تماماً عن الحاضر.

يبدو لي أنّ صاحب الأوراق، وهو ليس بوسنياً كما توقّعت، لم يكن من المهتمين بكتابة المذكرات بانتظام، فهو لم يدوّنها في دفتر أو كراسة جامعة، كما أن معظم الأوراق التي بين يدي (قطع A4) لا تتضمن تأريخاً دقيقاً للأحداث المروية، لكنني تجاوزتُ هذه المشكلة بقراءة ثانية متأنِّية مكّنتني من ضبط معظم التواريخ بدقّة، وذلك بحسب السَّير الطبيعي للأحداث في النصف الأول من تسعينيات القرن الماضي.

لاحظتُ أيضاً أنّ الخط الذي كُتبَت به المذكرات يشُوبه بعض الاضطراب تبعاً للظروف التي صاحَبَت التدوين، وبدا واضحاً أنها كُتبَت على عَجَل، أو ربما بأصابع مرتجفة من الخوف، كما أنّ الخط صغير بعض الشيء، ما يدلّ على رغبة الكاتب في المحافظة على الكمية المتوفّرة من الأوراق بين يديه، وهذا طبيعي جداً ما دمنا نتحدث عن ظروف قاسية لم نكن نجد فيها حتى ما نسدّ به رمقنا من مأكل ومشرب، أما كتابة مذكرات بهاته الدقة في توثيق الأحداث ووصفها رغم كلّ الأخطار المُحدِقَة بصاحبها ففيها بطولة منقطعة النظير أحيِّيه عليها.

أما فيما يخصّ الكراسة الصغيرة (قطع A5)، فقد استغربتُ كتابتها باللغة الفرنسية وبخطٍّ مختلف تماماً عن الأوراق، فاستعنتُ بالدكتور رشيد خاليلوزيتش أستاذ الأدب الفرنسي في الجامعة، والذي تطوّع لترجمتها عن طيب خاطر، ما مكّنني من فَهم حقيقتها فيما بعد، إذ يتعلق الأمر بمذكّرات والدة صاحب الأوراق، والمدهش هنا هو دقّتها الشديدة، فالتواريخ مضبوطة بشكلٍ رهيب، باليوم والشهر والسنة، رغم أنّ معظمها تعود إلى ستينيات القرن الماضي، عكس الابن المُهمِل قليلاً في تدقيق التواريخ، كما أنّ

الخط منمَّق واضح، لكنني اكتفيتُ بإدراج صفحات قليلة من الكراسة، صفحات لها علاقة وثيقة بالأحداث الرئيسة.

لم أهتم في البداية بقصاصات الجرائد والخرائط المهترئة المرفَقَة التي أشرتُ إليها في البداية، لكن القراءة المتأنية للأوراق بعد ترتيبها أثبتت لي دور هذه القصاصات الأساسي في توضيح الصورة الكاملة للأحداث، فقمت بإدراجها في المذكرات، مع الإشارة إلى الصعوبات الجمّة التي واجهتني في ترميم قصاصات الجرائد، نظراً إلى جودتها الرديئة، سواء على مستوى الورق المستعمَل أو حبر الطباعة، ما سهَّل إصابتها بالتلف الجزئي.

هي في المُجمل مخطوطة قيِّمة تتجاوز في مضمونها حدود البوسنة، وتحكي عن تجربة إنسانية معقَّدة ورحلة بحثٍ مضنية عن الذات المفقودة، رحلة محفوفة بالمخاطر والهزّات النفسية والروحية العنيفة، وأعتقد بأنها تستحقّ النشر لعدّة أسباب سأترك للقارئ مهمة اكتشافها.

وجبَت الإشارة إلى أنّ عنوان المذكرات من وضعي، كما هو الشأن بالنسبة إلى العناوين الفرعية، أمّا في ما يخصّ التواريخ التي أهملها صاحب الأوراق في أثناء كتابته للمذكرات، فقد ساهم البحث الذي أجريته في ضبطها، مع استثناءات قليلة اكتفيتُ بإضافة تواريخ تقريبية لها، الهوامش أيضاً من وضعي، إذ ارتأيتُ أنّ شرح وتصحيح بعض الحقائق والمعلومات المتنوّعة، التي أدرجها الكاتب في مذكراته، ضروري لإيصال الفكرة الواضحة والمبسَّطة إلى القارئ.

وحيد سيباهيتش - سراييفو

2015-10-20

الجزء الأول

ولادة

هناك حقيقة رائعة علينا التفكير بها، وهي أنّ كلّ مخلوق بشري عبارة عن سرّ غامض ومعقّد للآخرين.

تشارلز ديكنز

أنا المستجير من الرمضاء بالنار، الهارب من سطوة الماضي إلى قيود الحاضر، أنا عابر السبيل الطارق لباب الحقيقة المغلق، فهل من مجيب لندائي الضائع؟

الراوي المجهول

أنا مجبَرَة على الاعتراف بهذه الحقيقة المرّة، الحقيقة التي سمّ علقمها بدني وحوّلت الغصّة في حلقي إلى ما يشبه المشنقة الضاغطة على أنفاسي حتى الموت.

بريجيت نوسي

1- أوراق... ذكريات... ودماء...

الأحد 12 يوليو 1992

على متن الطائرة المتوجّهة من مطار أنكونا الإيطالي إلى مطار سراييفو الدولي في البوسنة:

أخيراً حلّقت الطائرة مبتعدة عن أجواء مطار أنكونا الإيطالي، فاختلج قلبي بين ضلوعي وسَرَت رجفة خفيفة في أطرافي أصابني معها دوار شديد كاد يقذف بي في غياهب اللاوعي، لولا تشبّثي بخيط واهٍ من التماسك أمام العاصفة الهوجاء التي أوشكت على اقتلاع روحي، هي التي قلبت حياتي رأساً على عقب وحوّلتني إلى حطام بشري لا أعتقد أنّ أي قوة أرضية قادرة على ترميمه.

أدرتُ بصري في المكان محاولاً تبيّن تفاصيله، فلم أجد ما يستحقّ الوصف، مجرّد طائرة عسكرية كئيبة تابعة لحلف شمال الأطلسي، تعالى هديرها كزئير أسدٍ جائع، وهي تحمل على متنها عشرات العسكريين، اختلفت سحناتهم بين الشقراء والقمحية والسمراء، فيما تشابهت بزّاتهم العسكرية الموحّدة وقبعاتهم الزرقاء المميزة.

وأنا؟ أنا النشاز، أنا المدني الوحيد بينهم!

بلّلت حبات العرق جبيني، وتسلّلت خلسة لتشكّل ما يشبه الغشاوة بين عيني المكدودتين وزجاج نظاراتي، فنزعت هذه الأخيرة وأغمضتُ جفني باحثاً في يأس عن الهروب من كلّ الخيالات التي تطاردني في إصرار غرائبيّ مقيت.

النوم، تلك الغيبوبة المؤقتة التي لم أجد ملجأ سواها للخلاص، ولو أنني أدركتُ مع مرور الوقت عجزها عن إنقاذي من سطوة الواقع المرير وقسوته.

لم أكَد أغرق في بحر السرمدية اللامتناهي حتى انتبهَت حواسي كلها إلى وَقْع خطوات منتظمة لحذاء عسكري ثقيل، تَبِعَتها يد ربتت على كتفي الأيسر بهدوء.

رفعتُ عيني في تساؤل مشُوب بالحذر، فأنا لم أتبادل كلمة مع أحد منذ صعودي إلى الطائرة.

وجدتُ أمامي كهلاً قدَّرت أنه في الخمسين من عمره، لم يخفِ البيريه الأزرق الذي يغطي رأسه خصلات شعر غزاها الشيب، فيما أوحى هندامه الأنيق بأنه ضابط أو شيء من هذا القبيل، فأنا لا أفهم شيئاً في الرتب العسكرية المختلفة.

رمقني بعينين متفحِّصتين رغم برودهما الظاهري، قبل أن يقول بإنجليزية سليمة:

- أنت تتصبَّب عرقاً ولا أعتقد بأنك على ما يرام، هل هو الدوار؟ لعلّه سفرك الأول بالطائرة، هي كما تعلم مخصَّصة للنقل العسكري وأبعد ما تكون عن توفير شروط الراحة لركّابها...

ثم أضاف بلهجة لم أخطئ نبرة السخرية فيها:

- خاصة المدنيين منهم!

أجبته بإنجليزية مماثلة وأنا أتطلّع إليه بثبات:

- لا ، لا عليك، هو مجرد تعب بسيط لا علاقة له بالسفر. . .

رسمتُ على وجهي ابتسامة مرحة مصطنعة وأنا أكمل:

- أنا طبيب، وأعي جيداً ما أقول. . .

بادلني الابتسامة بواحدة كشفت عن صفٍّ من الأسنان المتناسقة ناصعة البياض، ثم قال:

- أم تراه الخوف؟ لا أبالغ عندما أقول بأنّ هذه الطائرة ذاهبة بنا إلى الجحيم، جحيم اسمه سراييفو!

تزامَنَ كلامه مع ارتجاج مفاجئ في بدن الطائرة دفعني للتشبّث بمقعدي وأنا أصرخ في جَزَع حقيقي، فأطلقَ بعض الجنود ضحكات ساخرة طويلة، فيما اكتفى هو بوضع يده على المقعد الأمامي ببساطة شديدة، ليقول:

- ألم أقُل لك؟ لا تقلق، هو مجرد مطبّ هوائي لا خوفَ منه.

رسَمَ على وجهه ملامح الجدية شاعراً ربما بأنه بالغ في سخريته المبطّنة مني، ثم قال وهو يمدّ يده مصافحاً:

- أعرِّفك بنفسي، أنا العقيد جوناثان رايلي، ضابط في الجيش الكندي، وعضو في قوات الأونبروفور[1]، وأنت؟

تردّدت للحظات طويلة ثقيلة ارتفع معها حاجبا العقيد في دهشةٍ واستغراب، فهو لا يعلم بأنّ الإجابة عن هذا السؤال التافه أصعب بكثير ممّا يظن، لكنني خشيتُ بأن يثير تصرّفي فضوله فيعمَد إلى محاصَرَتي بأسئلته أكثر، فصافحته قائلاً بصوت متهدِّج:

- تشرفنا، أنا طبيب فرنسي متخصِّص في جراحة الحوادث.

---

(1) قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة في البوسنة والهرسك.

قلتها باقتضاب، ففهم ربما رغبتي في الانفراد بنفسي، ما دفعه للانصراف دون أن يتفوّه بكلمة واحدة إضافية.

كنت مخطئاً...

لحظات قليلة عادَ بعدَها محمَّلاً بحزمة كبيرة من الأوراق البيضاء الفارغة، وضعها أمامي بحركة سريعة اتَّسعت معها عيناي في تساؤل، فيما قال هو بثبات:

- لا تكابِر يا دكتور، أعلم بأنك خائف، قسماتُ وجهك تفضح دواخلك، أنت خائف ربما من المجهول الذي ينتظرك في البوسنة، ولا أرى حرَجاً في ذلك ما دمنا جميعاً أعداء لما نجهل، لكن صدِّقني، تجربتي كبيرة وعايشتُ ظروفاً مماثلة لا تُعدّ ولا تُحصى أقنعتني بأنك لن تتجاوز مخاوفك إلّا بالكتابة عنها، خُذ، ها هي الأوراق أمامك، اكتُبْ أيّ شيء، عن الماضي الجميل، عن نفسك، عن وطنك، عن حبيبتك، لا أدري، المهم أن تمسك بالقلم وتشاطر الأوراق همومك، لا أقول بأنك ستشفى من آلامك الروحية، لكنك ستخفِّف من آثار ندوبها الغائرة على الأقل.

قالها ثم مضى نحو مقعده وجلس بهدوء مستفزّ كما لو أنَّ شيئاً لم يكن، ولم يتفوّه بكلمة واحدة بعد ذلك.

خيِّل إليّ أنّ حزمة الأوراق والصفحة ناصعة البياض التي تتصدَّرها أشبه بدوامة توشك على ابتلاعي، أو أنها حسناء لعوب تعرض عليّ مفاتنها وأنا المكابر الذي يرفُض الانصياع لإغرائها الغرائزي المسموم، فحوَّلت بصري عنها متمنِّعاً وأنا الراغب في معانقتها بقلمي حتى الموت.

أصلاً ماذا جنيتُ أنا من المذكرات غير الشؤم والمعاناة الأبدية؟

تستقرّ في حقيبتي كرّاسة صغيرة أحالت حياتي جحيماً وجعلت الماضي الجميل الذي أوصاني العقيد بالكتابة عنه مجرّد سراب وهمي لن أبلغه مهما اشتدّ ظمئي.

كيف سأكتب عن نفسي وأنا لا أعرف عنها سوى تلك الصورة الملوَّنة التي يحملها جواز سفري، فقد تحوَّلت كل المعلومات والتفاصيل الأخرى إلى مبهمات غامضة قد تحتمل الخطأ كما الصواب؟

أيّ وطن سأتكلّم عنه وأنا ممزّق بين خيال كنت فيه ابن عاصمة الجنوب الفرنسي مارسيليا، وواقع هو أبعَد ما يكون عن ذلك؟

حبيبتي؟ أين هي أصلاً؟ هل ما زالت جيوش غرامي تحتلّ مواقعها المحصّنة في قلبها؟ أم أنها تراجعت تحت وطأة ضربات القدر القاتلة؟

البوسنة؟ قد تكون آخر محطّة يصلُ إليها قطار المعاناة الذي ركبته مرغماً، وقد تكون أيضاً مجرد حلقة في سلسلة أحاطت بعنقي وضغطت على أنفاسي حدّ الاختناق، مَن يدري؟

فليكن، سأتكلّم، سأمزج بين الماضي والحاضر، سأناجي هذه الأوراق وأشاطرها كلّ ما مرَّ بي في مسار حياتي المتقلّبة التائهة، سأسكُب فيها كلمات من دمي إنْ اقتضى الأمر.

* * *

عندما ألقى القدر بذلك الحجر الصغير فوق سطح مياه حياتي الراكدة كنت أعمل جرَّاحاً متخصّصاً في قسم الحوادث بمستشفى دو لا تيمون العريق في مارسيليا، عاصمة الجنوب الفرنسي.

كنت أعلم أنّ تلك الليلة الخريفية الماطرة شهر نوفمبر الماضي هي الأخيرة لوالدتي قبل توديع هذه الدنيا الفانية إلى الأبد، لكنني لم

أتصوَّر أبداً أن يكون احتضارها صعباً ومتعسِّراً كما شهدتُ ذلك بنفسي.

ناقشت مع زميلي الدكتور دوشاريت، وهو المُشرف على حالتها، تطوّرات وضعها الصحي، فأكّد، وبكل صراحة، أنَّ الأمل في تجاوزها لهذه الانتكاسة الصحية صعب جداً، وربما أقرب للمستحيل، ففهمتُ أنّ ساعة رحيلها عن عالمنا قد دقَّت.

لم أجِد في نفسي أيّ قدرة على الدخول إلى غرفتها، فاكتفيتُ بمراقبتها من النافذة الزجاجية التي تفصل الردهة عن الداخل، وقد شعرتُ ببرودة ثلجية تسري في أطرافي، وضاق صدري بما يعتمل داخله من مشاعر، حتى خيِّل إليّ أنني أنا المحتضَر لا هي.

استقرّ جسدها الصغير فوق الفراش، وقد أحاطت به أجهزة تنظيم ضربات القلب والإنعاش الرئوي، فيما غطّى قناع التنفّس الصناعي نصف وجهها، واكتفت عيناها الزرقاوان الذابلتان بالدوران في محجريهما ببطء شديد، قبل أن أميِّز بصعوبة إصبع يدها اليمنى التي برزت عروقها وهو يرتفع نحوي، مشيراً ربما إلى رغبتها في دخولي إليها.

نعم، كانت تعاني من مرض عضال، لكنه الأجَل المحتوم، فقد دلَّت كلّ المؤشرات الحيوية على أنها تقضي آخر لحظاتها على سطح هذا الكوكب. وقد بذلتُ كلّ ما في وسعي لأتجنَّب رؤيتها في تلك الحالة المزرية، لكنها أمسكَت بذراعي لاستبقائي بجانبها، رغم تحذيرات زميلي الدكتور دوشاريت من عواقب هذا التصرّف، هو يعلَم كما أعلم أنا بأنها تحذيرات لا معنى لها، لكنه يقوم بالواجب الذي يُمليه عليه ضميره المهني في كلّ الأحوال.

أمسكتُ بأناملها الضعيفة والدموع تُغرق وجنتي ليقيني بأنّ لحظة

الفراق قد حانت، فيما أصرَّت هي على الكلام رغم صعوبة ذلك عليها وبذْلها مجهوداً خرافياً للتفوّه بحرف واحد بعد نزعها لقناع التنفس:

- الم. . . ذ. . . كرا. . . ت. . .

- فلتحفظكِ عناية الرب يا أمي، أرجوكِ لا تُتعِبي نفَسَك بالكلام، صحتك لا تحتمل هذا المجهود!

قلتها وأنا أمسَحُ حبات العرق الغزير الذي بلَّل جبينها، لكنها ضغطت على يدي بقوة غريبة لا تتناسب أبداً مع حالتها، وقالت بصوت متحشرج لم أخطئ فيه تلك النبرة الحازمة التي تعوَّدت عليها منها منذ نعومة أظافري:

- ك. . را. . سة. . . المذ. . . كرا. . . ت. . . . الأ. . ب. . . فران. . . سوا. . .

قالتها ودخَلت في نوبة من السعال أجبرت دوشاريت على مطالبتي مرة أخرى بالخروج، لكنها استجمعَت كلّ ما تبقّى لديها من قوة، ومدَّت يدها نحوي وهي تقول:

- المذكر. . . ا. . . ت. . . فر. . ا. . . نسوا. . .

اعتقدتُ بأنها تريد أن تلمس خدي، لكن يدها اليمنى تشبَّثت بالسلسلة التي يتدلى منها الصليب الفضي الصغير حول عنقي حتى انتزعتها، وأطبقت بأصابعها عليها، لتنهار في النهاية ويختلط صوت ارتطام الصليب بالأرض مع الأزيز المتَّصل المميّز لجهاز تنظيم ضربات القلب، الذي أعلن عن توقف عضلتها الحيوية عن ضخّ الدم لباقي الأعضاء.

إلى الأبد. . .

دفعني دوشاريت بعيداً، ثم نادى على مساعديه، وقام بإعداد

مزيل الرجفان بأقصى سرعة، ووضع القطبين على الصدر وضغطهما بقوة للحصول على تلامس وتوصيل جيد يقلّل المقاومة عبر الجلد، ليبدأ بشحن الأقطاب بعد تأكّده من عدم ملامسته لجسد أمي، ويفرغ الشحنة الكهربائية المطلوبة.

حاول مرة أولى... وثانية... وثالثة... لكن بلا جدوى...

لقد فارقَت أمي الحياة...

استندتُ إلى الجدار البارد، محاولاً استيعاب آثار الصدمة، لكن مقاومتي انهارت دفعة واحدة، فسقطتُ أرضاً بعدما عجِزَت قدَماي عن حملي، وانخرطتُ في نوبة بكاء حارّ اعتقدتُ معها أنّ عيني تحوَّلت إلى مَعين دموع لا ينضب.

لن أقول بأنّ ما حصلَ كان مفاجئاً، فقد هُيِّئت نفسي لاستقباله منذ فترة طويلة، لكنني لم أتوقّع أن يكون بمثل هذه القسوة القاتلة.

- فلترقد روحها بسلام، لقد بذلتُ كلّ ما في وسعي لإنقاذها، ولكن...

هكذا قال دوشاريت وهو يعاونني على النهوض ويعانقني مواسياً، وأنا عاجز عن مدّ بصري نحو الجسد المسجى بلا حراك، فخرجتُ من الغرفة بأقصى سرعة تسمح بها حالتي المتهالكة، دون أن أجسر حتى على معانقة جثة أمي لآخر مرة، ليستوقفني الطبيب بيده القوية التي وضعها على كتفي.

التَفَتُّ لأجده ملوّحاً أمام عيني بالسلسلة التي انعكس عليها ضوء مصابيح الممرّ، وقد لمع الصليب الفضي الصغير الذي يتدلى منها بنور يكاد يخطف الأبصار.

قال بنبرة مشفقة:

- خذها، لقد سقطَت منك، لا أعتقد بأنك ستجد مواساة أفضل من مناجاة ربك، لعلّه يخفِّف عنك هول الصدمة القاسية، كنْ قوياً يا عزيزي، لا تقلق، سأتولى الإجراءات الإدارية بنفسي.

التقطْتُ منه السلسلة ودَسَستها في جيبي وقد ألجمَني الصمت، ثم غادرت المكان بخطوات متثاقلة لم أكُن أدري إلى أين ستقودني، إلى فردوس الخيال أم جحيم الحقيقة...

اجتزتُ بوابة المستشفى الرئيسة المُشرفة على شارع سان بيير، لتستقبلني زخات مطرية قوية صفعت خدي بقسوة وقطعت ذلك الخيط الفاصل بين اللاوعي والإدراك، كما لو كنت مجرّد سكير وضيع أيقظه سطل ماء بارد من سكره، فاستعدتُ وعيي الكامل على وقع الأسئلة المحيرة التي تركَتْها الراحلة بلا جواب.

عن أية مذكرات تكلَّمت المرحومة؟ ومَن هو هذا الأب فرانسوا الذي كرَّرت اسمه على مسامعي أكثر من مرة؟

* * *

تسارعت دقات قلبي، مع قرب ارتطام عجلات الطائرة بمدرج مطار سراييفو، فتمسّكت بالحقيبة الصغيرة وأنا عاجز حتى عن بلع ريقي الجاف.

تأكَّدت من ربطي للأحزمة ثم تشاغلتُ بالتطلع إلى العاصمة البوسنية من زجاج النافذة المحاذية لمقعدي.

تحيط المرتفعات والجبال بسراييفو من كلّ جوانبها، إحاطة السوار بالمعصم، في منظر مهيب امتزج فيه سحر الطبيعة الخلابة بقذارة الإنسان الغادر.

نعم، فرغم بُعد المسافة وجَهلي المطبق بكلّ ما يتعلق بالميدان العسكري، إلّا أنني تمكَّنت من تمييز بعض المدافع والدبابات التي

احتلَّتِ مواقع متقدِّمة فوق هذه المرتفعات، متربِّصة بالمدينة كذئابٍ متلمِّظة تستعدّ للانقضاض على فريستها المستضعفة.

وهبطت الطائرة أخيراً، لقد وصلنا رسمياً إلى سراييفو...

تفحَّصتُ الطوابير المتناسقة التي شكَّلها الجنود بعد مغادرتهم للطائرة، فتبيَّن لي أنني ربما الخائف الوحيد هنا، فهم لم يتوقفوا عن تبادل النكات السمجة والدعابات السخيفة، التي قد توحي لمن يراهم لأول مرة بأنهم قادمون لقضاء نزهة لطيفة في منطقة هانئة وديعة، لا ساحة حرب عنيفة دخلت الآن شهرها الرابع.

أصَخت السمع فوصَلت إلى أذني بعض الأصوات المتقطِّعة لتبادل إطلاق النار من بعيد، فيما امتلأت ساحة المطار بعددٍ كبير من الصناديق الخشبية والكرتونية مختلفة الأحجام.

- هذه أول دفعة من المساعدات الإنسانية تصل إلى المطار بعد الزيارة المفاجئة التي قام بها رئيسكم للمدينة المحاصرة قبل أسبوعين[1].

كان هذا صوت العقيد رايلي، الذي أشار إليّ بيده حتى أتبعه، فأطعته بلا مناقشة، تاركاً خلفي أولئك الجنود بصخبهم واستهتارهم المَقيت، وراودني شعورٌ عابرٌ بأنّ هذا الكندي سيُساعدني على تخطي حاجز الرهبة أولاً، واكتشاف مجاهيل المكان ثانياً.

بالفعل، فقد سلَّمني خريطتين صغيرتين، قلبتهما بين يدي ثم رفعتُ رأسي مستفسراً، فقال بصوته الجهوري:

---

(1) في الثامن والعشرين من يونيو 1992 زار الرئيس الفرنسي ميتران مدينة سراييفو المحاصرة، وترافَق ذلك مع إقامة أوّل جسر جوي لنقل مواد الإغاثة وتسلّم قوات الأمم المتحدة رسمياً مهمة الإشراف على المطار.

- لم أكُن أعلم بأنّ اقتراحي سيروق لك هكذا، فقد أخذَتْكَ الكتابة إلى عوالم أخرى بعيدة، على أيّ حال، الخريطة الأولى للبوسنة والهرسك، والثانية للعاصمة سراييفو، قد تحتاج إليهما حتى تتعرّف على المكان بسهولة أكبر.

لم ينتظر مني كلمة شكر، بل واصل حديثه:

- سراييفو محاصَرَة بالكامل، فالصرب يسيطرون على كلّ المخارج والمداخل المؤدية إلى المدينة، يحصون أنفاس الجميع ويمنحون أنفسهم أيضاً حقّ تفتيش عرباتنا ومدرّعاتنا ضاربين عرض الحائط بكلّ الاتفاقيات والقرارات الدولية.

اتسعت عيناي في خوف شديد، واحتبست الكلمات في حلقي، قبل أن أقول بصعوبة:

- هل سنبقى هنا في المطار، أم أننا سندخل إلى سراييفو؟

هَمّ بالإجابة، فاستوقفه جندي أدّى التحية العسكرية باحترام وسلّمه ملفاً اطَّلع عليه العقيد بسرعة ثم أعاده إليه مواصلاً طريقه.

- مقتل أربعة أطفال قبل قليل في قصف مدفعي استهدف منطقة هراسنيتسا القريبة من هنا، ووزارة الصحة البوسنية تعلن اليوم عن ارتفاع عدد ضحايا حصار سراييفو إلى ما يقارب الـ 1500 قتيل و8000 جريح، يا إلهي! ما هذا الجنون؟

قالها بصوت خافِتٍ كأنما يخاطب نفسه، ثم وجَّه كلامه إليّ:

- كنت تسألني عن وجهتنا القادمة، أليس كذلك؟ حسناً، أنت كما تعلم مكلَّف بمهمة مراقبة الوضع الصحي في المدينة والمساهمة في إعداد تقارير عن أعداد الضحايا، ولن يتأتى ذلك إلّا بالدخول إلى قلب سراييفو، لكن لا تخَف، أنت في حمايتنا ولن يمَسَّكَ أي مكروه.

لم تكن تطميناته كافية لإزالة مخاوفي، لكنني حاولتُ إقناع نفسي بالعكس وأنا أرسم على شفتي ابتسامة لم أكُن بحاجة إلى مرآة حتى أدرك بأنها باهتة بائسة.

ركبنا مدرعة بيضاء ترفع علم الأمم المتحدة الأزرق، لم تكُن تحمل على متنها سواي أنا والعقيد، بالإضافة إلى جنديين ومدني آخر لم أتبيَّن هويته.

قال موضحاً:

- سيرافقنا الأستاذ سميح سيهيتش، وهو موظف في وزارة الداخلية البوسنية، كان في مهمّة رسمية خارج سراييفو.

صافحني البوسني مبتسماً، فبادلته الابتسامة مجامِلاً، وأنا أنصتُ إلى جوناثان الذي قال:

- يتموقع المطار في الجنوب الغربي من العاصمة، بين منطقَتَي دوبرينيا وبوتمير، وهما واقعتان تحت سيطرة القوات الحكومية البوسنية، لكن الصرب متحكِّمون بحاجز نحن مُجبَرون على عبوره قبل الدخول إلى سراييفو لأننا...

صمت للحظات ألقى خلالها نظرة على الطريق من النافذة الجانبية، وقال:

- تشجَّع، سيكون كلّ شيء على ما يُرام، حافظْ على رباطة جأشك واحتفظْ ببرودة أعصابك، فهذا مجرَّد إجراء روتيني فرضته ظروف الحرب.

فهمتُ قصده بالتزامن مع توقّف العربة التي فتح بابها الخلفي مسلَّح أشقر الشعر نحيف البنية، رمقنا بنظرات طويلة تفوَّه بعدها بكلمات لم أفهم منها شيئاً، فتدخّل البوسني مترجماً كلامه إلى الإنجليزية:

- يأمرنا بالنزول، أنا وأنت، لأننا المدنيان الوحيدان هنا، ويودّ التأكّد من هوياتنا...

استنجدتُ بالعقيد الذي كرَّر على مسامعي قوله:

- تشجَّع، هذا إجراء روتيني...

غادرتُ المدرعة رفقة سميح، فوجدتُ أمامي حاجزاً عسكرياً التَفَّ حوله ما يُقارب العشرين مسلحاً، تشابهوا في سحناتهم الشقراء ونظراتهم السادية المخيفة، لكنهم بدوا أقرب إلى الميليشيا، بملابسهم العسكرية غير الموحّدة وأسلحتهم الفردية المرعبة كذلك.

انتزع مني أحدهم جواز سفري، وتفحَّصه بسرعة ثم أعادَه إليّ وأشار بعينيه إلى المدرَّعة مُصدِراً همهمة فهمتُ منها أنه يأمرني بالعودة ففعلت، لكنني فوجئت بصرخة متحشرجة التفتُّ على إثرها لأصدم بمشهد مرعِب لا أعتقد بأنني سأنساه ما حييت.

جثة ملقاة أرضاً، مسلح يبتسم في وحشية، وسكين تقطر منها الدماء!

* * *

2- إنجيل الأسرار

الأربعاء 15 يوليو 1992

فندق هوليداي إن - شارع الموت - سراييفو:

اليوم الثالث لي في سراييفو، وما زلت طريح الفراش، مستسلماً للحمى التي قيَّدتني وكبَّلت حركتي، أنا الذي أتيتُ إلى هنا حتى أساهم في إنقاذ أرواح الناس، فوجدتني بحاجة إلى مَن يهتمّ بحالتي الصحية المتدهورة، والتي أعلم جيداً أنّ أسبابها نفسية وروحية لا عضوية.

لم أكن أتخيل حتى في أسوء كوابيسي أن أفتتح زيارتي للمدينة المحاصَرَة بجريمة بشعة جرت أطوارها أمام عيني وذهب ضحيتها بوسنيّ أعزل ذبحه الصرب بدم بارد.

السبب؟ قالوا إنها منطقة عسكرية مغلقة يُمنع مرور المدنيين منها، وأنني نجوت بأعجوبة لأنني أحمل تصريحاً خاصاً من قوات الأمم المتحدة.

ما هذا الهراء؟ قولوا إنكم ضباع قمئة تحرِّكها شهوة الدم، فهذه هي الحقيقة!

لم يحرِّك جنود القوات الأممية ساكناً، واكتفى العقيد بحشري

في العربة المدرَّعة وتوجيه الأوامر لسائقها بالانطلاق بعيداً عن المكان، وقد أفقدَتْني الصدمة والذهول القدرة على النطق، فيما ردَّد رايلي كلاماً كثيراً عن الأوامر الصارمة بعدم التدخل في مثل هذه الحوادث، وعن ضرورة فتح تحقيق، وعن جحيم سراييفو الذي كان هذا المشهد المرعب مجرّد عيّنة صغيرة منه وعن... وعن...

كلام لا معنى ولا طائل منه، لم أعُد معه بحاجة إلى معرفة الكثير عن طبيعة الصراع الدائر هنا، فالأمور واضحة جداً ولا تحتاج إلى أيّ تفسير.

أجبرتُ نفسي على النهوض، رغم الآلام الرهيبة التي اجتاحت كل ذرة في جسدي النحيل، ثم أزحت الأغطية وجلستُ على طرف الفراش أكتشف تفاصيل الغرفة لأول مرة، بعدما منعني المرض والهذيان من ذلك في السابق، ولم أتذكر سوى زيارات العقيد السريعة التي أجبرني فيها على تناول كميات قليلة من الطعام خوفاً عليّ من الموت جوعاً بحسب قوله.

الغرفة أنيقة، رغم أثاثها القليل، فراش ومقعد خشبي نظيف ومنضدة صغيرة استقرّت فوقها حقيبتي الصغيرة وزجاجة مياه معدنية وبعض الفواكه التي أعتقد أنّ رايلي أحضرها معه إلى هنا.

خزانة فارغة إلّا من حقيبة ملابسي، وتلفاز من طراز قديم بعض الشيء.

اقتربت من النافذة لأزيح الستائر وأسمح لنور الشمس بالدخول، لأتذكّر فجأة ما قاله العقيد قبل يومين وحفظته ذاكرتي التائهة بين الحقيقة والهذيان:

- سأزورك يومياً للاطمئنان على حالتك الصحية، أنت أضعف بكثير ممّا كنت أظن، على أية حال، إياك والاقتراب من النافذة أو

حتى التفكير في إزاحة الستائر، صحيح أنّ فندق الهوليداي إن هو الوحيد القادر على استيعاب هذا العدد الكبير من موظّفي الأمم المتحدة والصحفيين والإعلاميين وغيرهم[1]، لكن موقعه خطير للغاية، فهو يشرف على شارع تنين البوسنة الذي تحوّل اسمه اليوم إلى شارع الموت الذي أضحى هدفاً سهلاً لنيران القناصة، العشرات وربما المئات لقوا حتفهم، سواء على قارعة الطريق أو بين ردهات الفندق، كنْ حذراً!

تراجعت بحركة غريزية بعد تذكّري لهذا الكلام، ولم أجد بداً من العودة إلى الفراش، لتتناهى إلى مسامعي أصوات خطوات سريعة تبعتها طَرَقات خفيفة على الباب.

- ادخُلْ!

ومَن غيره، العقيد رايلي الذي دلف إلى الغرفة راسماً على وجهه ابتسامة مشجّعة كبيرة.

- أخيراً استيقظتَ، خشيت أن تموت هنا قبل أن تبدأ عملك!

قالها وهو يجلس إلى جانبي ويحدجني بنظرات غريبة، أضاف بعدها:

- أتدري، يخيل إليّ أنك عصفور شارد أضاعَ عشّه فَتاهَ ولم يدرِ إلى أين سيقوده جناحاه، فبَحَثَ عن الأمان في عشّ النسر، أليس كذلك؟

أدهشني تشبيهه الدقيق، والذي يعبّر تماماً عمّا أعانيه، لكنني غيّرت دفة الحديث بالقول:

---

(1) اشتهر هذا الفندق أيام الحصار كمأوى رئيس للأجانب في سراييفو، وكقاعدة انطلاق للصحافيين لتغطية يوميات الحرب، وجرى قصفه أكثر من مرة.

- هل من مستجدات في قضية سميح؟ ستحاسبون القتلة، أليس كذلك؟

قال بسرعة كأنما يتهرّب هو أيضاً من الإجابة:

- بالطبع، لقد فتحنا تحقيقاً في الجريمة وسنلاحق مرتكبيها حتى ينالوا الجزاء العادل المستحق، ارتَحْت؟[1]

ثم نهَضَ من مكانه وشغل التلفاز الذي عرَضَت شاشته مشاهد من القناة المحلية الرسمية، لكنه تراجَع عن الأمر وأطفأ الجهاز بسرعة، إذ تبيَن لي وله أننا لن نفهم شيئاً ممّا يُقال باللغة البوسنية.

بدَت الجدّية على ملامحه وهو يوجّه كلامه إليّ:

- أعتقد بأنك قادر الآن على مباشرة عملك، ستلتحق بنا ابتداءً من صباح الغد، مهمتك واضحة، إعداد تقارير عن أعداد الضحايا وتفشي الأوبئة في المدينة، لا شأنَ لك بالطبيعة المعقّدة للصراع وتبيّن الفَرْق بين القتلة والضحايا، التزمْ بالحياد، فهو الكفيل بإنجاح مَهمتك و...

ضاقت عيناه وهو يضيف:

- والإبقاء على حياتك، مفهوم؟

قلت معترضاً:

- ولكن...

---

(1) كلام فارغ، فقد تحرّش الصرب بالرئيس علي عزت بيغوفيتش نفسه وأسروه هو وابنته سابينا بعد عودتهما من محادثات السلام في لشبونة في الثاني من مايو 1992، ثم أفرجوا عنه بعد مفاوضات دراماتيكية، وقتلوا نائب رئيس الحكومة البوسنية-حاكيا توراليتش مطلع عام 1993 بالطريقة نفسها وفي المكان نفسه الذي وَصَفَه الراوي في مذكّراته، ولم تحرّك قوات «الحماية» الدولية ساكناً ولم تحاسب أحداً!

قاطَعَني بحركة من يده:

- أتعلم لماذا أتكلّم عن الحياد؟ لأننا مكلَّفون فقط بمراقبة الأوضاع وغير معنيين بالبحث عن الحقيقة، فالحقيقة حمّالة أوْجُه في كلّ الأحوال.

التقطَ تفاحة حمراء وجدها فوق المنضدة وأضاف:

- هذه التفاحة مثلاً، هناك مَن يرى فيها معنى للخطيئة التي طَرَدت آدم وحواء من الجنة، وهناك مَن يرى فيها معنى للجاذبية وشهوة الغواية.

ثم قضم منها قضمة كبيرة نهمة وهو يقول:

- وهناك مَن يراها مثلي، مجرَّد وسيلة لإسكات جوع رهيب، فأنا لم آكل شيئاً منذ الصباح الباكر!

وكالعادة، حيّاني بحركة سريعة من رأسه قبل أن يغادر الغرفة بهدوء ويتركني فريسة للأفكار والظنون المتضاربة.

الحقيقة؟ لقد بحثت عنها باستماتة يا عزيزي، وعندما تخيّلت أنني وصلت إليها أخيراً، أفلتت مني مرة أخرى كحبّة زئبق عنيدة! أنا المستجير من الرمضاء بالنار، الهارب من سطوة الماضي إلى قيود الحاضر، أنا عابر السبيل الطارق لباب الحقيقة المغلق، فهل من مجيب لندائي الضائع؟

كنت أعرف أنّ فضولي سيتغلّب على مخاوفي، لذلك لم أستغرب أن تقودني قدماي المتهالكتان نحو النافذة، لأفتحها بحركة بطيئة أشبع معها رغبتي في استطلاع المكان وأحتفظ في الوقت نفسه بهامش معقول من الحيطة والحذر.

مبنى الفندق كبير وشاهق جداً، وقدرت بعيني أن غرفتي قد تكون ربما في الطابق الرابع أو الخامس.

يمكن القول بأنّ المدينة بُنيت على الطراز الأوروبي الحديث، فالمباني الشاهقة متناثرة هناك وهناك وإنْ بدَت علامات الدمار واضحة على بعضها.

النكهة الشرقية حاضرة أيضاً، وتجسّد ذلك في بعض الكنائس الأثرية الضخمة، وعدد كبير من المآذن مخروطية الشكل التي أهاج مرآها بعض الذكريات السابقة التي لا أريد الحديث عنها الآن، وقد تضرّرت معظم دور العبادة هذه أيضاً جراء القصف.

يخترق المدينة من الجهة الشرقية نهر طويل لا أعرف اسمه[1] يشطرها إلى نصفين، كما إنّ الجبال والمرتفعات المحيطة بسراييفو، تجعل هذه الأخيرة أشبه بقعر الفنجان.

أشارت عقارب ساعة حائطية إلى الرابعة عصراً، وقت الذروة الاعتيادي، لكنني لم ألمح أحداً في الشارع المقابل الذي سمّاه رايلي شارع الموت، باستثناء شابة شقراء ترتدي تنورة وتركض بأقصى سرعة لتعبُر إلى الجانب الآخر، وهي تحمل كيساً قدَّرت من موقعي البعيد أنه مليء بشرائح الخبز، ثم أبصرت عيني في الجهة المعاكسة شيخاً هرماً تثاقلت خطواته المستعينة بعكاز وهو يسير ببطء شديد، حتى خيّل إليّ أنه لا يدرك ربما مدى خطورة الوضع الميداني، أم تراه يعلم لكنه غير مبالٍ؟ لا أدري...

مزيج غريب من الأصوات التي وصل صداها إليّ، إطلاق نار كثيف وإن كان بعيداً عن موقعي، وزقزقة عصافير قادمة من حديقة قريبة!

أقول غريب لأنه كان متناسقاً بطريقة جعلتني عاجزاً عن وصفه

---

(1) نهر ميلجاكا.

وتحديد مغزاه، هل يرمز لأجواء القتل التي تجثم على صدر المدينة وتكتم أنفاسها، أم أنه يعبّر عن العكس، عن الصبر والمقاومة الشرسة لسراييفو وتشبّثها بالحياة في وجه آلة الحرب المميتة؟

نعم، للحقيقة وجهان، وأحياناً عدة أوجه، وقد يكون هذا ما قصده رايلي بكلامه قبل قليل!

أغلقت النافذة بإحكام ثم عدتُ إلى المنضدة، إلى الحقيبة والأوراق التي أعلم أنها خير أنيس لي هنا.

الماضي يصرّ على ملاحقتي بإصرار، فلأواجهه بشجاعة إذاً، مهما كلّفني ذلك من خسائر...

* * *

كلّما رحل حبيب أو قريب عن عالمنا، إلّا وارتبط ذلك بظروف أو تفاصيل معينة يعجز معها النسيان عن محوِها من ذاكرتنا، قد تكون كلمات الراحل الأخيرة، أو رائحة الموت التي خيّمت على المكان، أو حتى ملمس يده وهو في النزع الأخير قبل تسليم الروح.

ارتبطت وفاة أمي بكلّ ما سبق، لكنها كانت وفاة عاصفة بكلّ ما في الكلمة من معنى، واقعياً كان هذا التعبير أو مجازياً، فقد خلفت كلماتها الأخيرة إعصاراً هادراً زلزل كياني وقذف بي إلى أعماق الخوف والشك، كما أنّ الأجواء الماطرة التي رافقت مراسيم الجنازة والدفن رسّخت هذا الشعور أكثر وحوّلته إلى خنجر مسموم اخترق قلبي ببطء شديد كأنما يتلذّذ بتعذيبي قبل الإجهاز عليّ في النهاية.

لا فرق بيننا وبين أحبائنا من الأموات إلّا بمساحة القبر، قبورهم ضيقة بالكاد تسع أجسادهم، وقبورنا واسعة بحجم الأرض التي نحيا فوقها.

وقبري أنا واسع بحجم الأسئلة المبهمة التي تركتها أمي بلا إجابة قبل رحيلها. . .

ماذا قصدت بكلامها عن كراسة المذكرات والأب المدعو فرانسوا؟

أعلم أنها كانت مولَعَة بالأدب إلى حدّ كبير، ربما بحُكم عملها كمعلمة للغة الفرنسية في مدرسة أودو الابتدائية في مارسيليا، وربما أيضاً تبعاً لظروف تنشئتها الدينية الصارمة التي جعلتها مواظبة على قراءة فصول من الكتاب المقدّس وسِيَر القديسين والشهداء التي تصرّ على الاحتفاظ بها في المكتبة الصغيرة الملحقة بغرفتها، أما كتابة المذكرات فهذا ما لم أتوقعه أبداً.

أقول ذلك لأنني لازمتها طويلاً خلال الفترة الأخيرة، خاصة بعد وفاة أبي وتقاعدها هي عن العمل، وكنت دائم التردّد على غرفتها تلك، للاعتناء بها والاطمئنان على حالتها الصحية المتدهورة، والتي لا أعتقد بأنها كانت تسمح لها ببذل مجهود إضافي في الكتابة، لذلك أستبعد تماماً فرضية تركِها مذكرات شخصية.

إلّا إذا. . .

ليس في المكتبة ما يريب، فقد حرصت الراحلة على ترتيب محتوياتها بنظام واضح وبسيط، في الأعلى الكتب الدينية التي أدعو الرب أن يغفر لي نفوري منها، وفي الأسفل أعمال أدبية خالدة، متنوعة بين الأدب الفرنسي والإنجليزي والروسي، وهي التي عشقتها وأقبلتُ عليها بنهم منذ سنوات طفولتي الأولى.

اصطفّت في الأعلى نسخ مختلفة من العهد الجديد، الأناجيل الأربعة متى ولوقا ومرقس ويوحنا، بالإضافة إلى سفر أعمال الرسل وسفر الرؤيا ورسائل بولس الرسول، مع بعض الكتب والمؤلفات

اللاهوتية الأخرى، وكلها بترجمات فرنسية وعربية، مع مراعاة وضع كلّ نسخة عربية إلى جانب نظيرتها الفرنسية، لتسهيل الرجوع إليها وقت الحاجة.

كما قلت، نظام بسيط جداً، يكشف عن اهتمام الراحلة بعلم اللاهوت المسيحي، الذي لم أكن أطيقه رغم إلحاح أمي ورغبتها الحقيقية في إطلاعي عليه، مكتفياً بمشاركات قليلة في قداس الأحد، وقراءة مقاطع من الكتاب المقدس، واعترافات بالذنوب للكاهن من حين إلى آخر، ربما لأنّ المسألة مرتبطة بصراع قديم بينها وبين والدي، حول إصرارها هي على إلحاقي بسلك الرهبنة في الكنيسة الكاثوليكية، ومعارضته هو بعدما لمسَ بعض التطرّف في تصرفاتها، وهذه قصة أخرى...

واصلتُ تفقّد محتويات المكتبة، فلاحظتُ وجود نسخة عربية من إنجيل توما، الذي يطلق عليه البعض اسم الإنجيل الخامس[1]، لم تكن تقابلها نظيرتها المترجمة إلى الفرنسية، فاسترعى ذلك انتباهي.

كانت أمي حريصة على الدقة في عملها، حدّ المرض أحياناً، ولأنني أعرف ذلك حقّ المعرفة، فقد شعرتُ بأنّ في الأمر سراً ما، لا علاقة له بالسهو أو الإهمال أو ما شابه.

فتحتُ الكتاب وتصفحتهُ بعناية، فعلمتُ أنّ حدسي في محلّه،

---

(1) الأناجيل القانونية المُعتَرَف بها في العهد الجديد أربعة وهي بالتسلسل: متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وفي ديسمبر 1945 تمّ اكتشاف أبوكريفون ضمن مخطوطات نجع حمادي المصرية، يعتقد بأنها كتبت في الفترة الممتدة بين القرنين الأول والثاني الميلاديين وأطلق عليها اسم إنجيل توما أو الإنجيل الخامس.

نعم، أنا الذي دفنتُ أمي قبل قليل، وذرفتُ الدموع حزناً على موتها، فوجدتني أبحثُ في ماضيها الغامض الآن!

سطّرت الراحلة على مقاطع متفرّقة بقلم رصاص، وهذا يتعارض تماماً مع هوسها الشديد بصيانة الكتب وحزنها إذا ما أصابها خدش واحد، فما بالك بتشويه صفحاتها بأقلام الحبر أو الرصاص، إلّا إذا كان تصرفها الغريب هذا مقصوداً.

أربعة مقاطع بالتمام والكمال، ورد ذكرها في إنجيل توما، على الشكل الآتي:

- هل كشفتم البداية حتى تسألوا إذ ذاك عن النهاية؟ فحيث هي البداية، هناك تكون النهاية. طوبى لمن يقف في البداية: ذاك سوف يعرف النهاية ولن يذوق الموت.

- اعرف ما يواجهك، وما يخفى عليك ينكشف لك. فما من خفيّ إلّا وسينكشف.

- ها إني قد أصليت العالم ناراً، وها إني ساهر عليها إلى أن تضطرم.

- هناك نور داخل امرئ من نور، وهو ينير العالم بأسره. فإذا لم يُنِر، كان ظلمة.

ارتعدت فرائصي وأنا أعيد قراءتها للمرة العاشرة، فقد شعرتُ بأنّ في الأمر لغزاً حله سهل جداً وإنْ بَدَت الأمور ضبابية ومعقَّدة، ولأنني حينها لم أكن قد قابلتُ العقيد رايلي بعد، فقد غاب عني ساعتها تفسيره المبسط لمعاني الحقيقة، سواء الظاهرية والعميقة.

عقدتُ ساعدي خلف ظهري وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهاباً كأسدٍ حبيس، وغرقت في التفكير حتى خيِّل إليّ أنني غوليالمو دي

باسكرفيل، ولم يكن ينقصني فعلاً سوى مراهق كأدسو دي مالك ليشدّ أزري ويساعدني على فكّ رموز هذا اللغز[1].

اللغز الذي سيكشف أنّ والدتي كانت أذكى وربما أخطر بكثير ممّا كنت أتصور...

(هل كشفتم البداية حتى تسألوا إذ ذاك عن النهاية؟ فحيث هي البداية، هناك تكون النهاية. طوبى لمن يقف في البداية: ذاك سوف يعرف النهاية ولن يذوق الموت)

ما الذي قصدته أمي باختيارها لهذا المقطع من إنجيل توما؟

سأعتمد أولاً على المعنى الظاهري المباشر، الذي يقول بأنّ النهاية مرتبطة بهذه الغرفة، فهنا عاشت أمي أيامها الأخيرة قبل نقلها إلى المستشفى ووفاتها، فهل تعني بالبداية مدخل المنزل؟

لم تُقنعني هذه الفكرة المرتَجلة، لكنني قرَّرت تجربتها، فأسرعتُ الخطى نحو المدخل، ووقفت أمام الباب باحثاً عن شيء لا أدري كنهه، و...

(اعرف ما يواجهك، وما يخفى عليك ينكشف لك. فما من خفيّ إلّا وسينكشف)

رفعت رأسي لأجد أمامي في الجهة المقابلة للباب تلك المدفأة الأثرية التي لطالما تحلَّقنا حولها في الليالي الباردة للسمر والسهر،

---

(1) غوليالمو دي باسكرفيل وأدسو دي مالك هما بطلا رواية اسم الوردة للكاتب الإيطالي أمبرتو إيكو، صدرت لأول مرة عام 1980، وهي رواية بوليسية فلسفية تاريخية تجري أطوارها داخل دير إيطالي تابع للرهبنة البنديكتية سنة 1327، أعتقد بأن الراوي شبّه نفسه بغوليالمو لأنّ هذا الأخير كان محقّقاً في سلسلة جرائم قتلٍ غامضة ارتكبها قاتل مجهول، وكلها على علاقة وثيقة بمكتبة الدير.

فتجاهلتها بسرعة لعلمي أنها بعيدة كلّ البُعد عمّا أفكر فيه، خاصة أنها...

(ها إني قد أصليتُ العالم ناراً، وها إني ساهر عليها إلى أن تضطرم)

اتسعت عيناي في ارتياع، وانتفض جسدي الذي سرى فيه ما يشبه التيار الكهربائي، فاقتربتُ من المدفأة بخطى وئيدة خائفة.

نعم، أنا أسير في الطريق الصحيح، ظاهرياً على الأقل...

(هناك نور داخل امرئ من نور، وهو ينير العالم بأسره. فإذا لم ينر، كان ظلمة)

ما الذي يقصده هذا المقطع الأخير إذاً؟

استقرّ فوق المدفأة نموذج مقلّد للوحة ميلاد يسوع التي رسمها فنان هولندي نسيت اسمه، وهي تُظهر الطفل ومريم ويوسف والرعاة[1].

عالج الفنان لوحته بطريقة تُظهر جسد الطفل مشعّاً بالنور ومضيئاً لظلمة المكان الذي ولد فيه بحسب الاعتقاد المسيحي.

لكن ما علاقة ذلك بما أبحث عنه؟

انتزعتُ اللوحة من مكانها، لعلني أجد خلفها درجاً سرياً أو شيئاً من هذا القبيل، الحيلة المكرَّرة في معظم الأفلام السينمائية الشهيرة، لكنني لم أجد شيئاً، مجرّد جدار عادي لا يخفي شيئاً، فأسقط في يدي وشعرتُ بأنني كنت مخطئاً منذ البداية.

---

(1) غالباً يقصد لوحة ميلاد يسوع للرسام الهولندي فان هونثورست (رسمها عام 1622).

(هناك نور داخل امرئ من نور، وهو ينير العالم بأسره. فإذا لم ينر، كان ظلمة)

نور داخل امرئ من نور؟

نعم وجدتها! الدرج السري موجود، لكن ليس في الجدار الخلفي للوحة، بل في اللوحة المقلّدة نفسها!

وبالفعل، نزعتُ الإطار بحركة حذرة، فعثرتُ أخيراً على ما أبحث عنه، مجرّد كراسة صغيرة وخفيفة الوزن، ما ساعدَ الراحلة ربّما على إخفائها بسهولة.

فليرحمك الرب يا أمي، لم أكُن أتخيلك بمثل هذا الدهاء!

فتحت الكراسة وقرأتُ بضعة أسطر، ففهمتُ أنني لم أفتح معها صندوق بندورا فقط، بل كلّ أبواب الجحيم.

* * *

3- الحقيبة أو التابوت

صفحات من مذكرات الراحلة بريجيت نوسي مترجمة إلى العربية[1]:

السبت 7 يوليو 1962

على متن السفينة المتوجّهة من مدينة وهران الجزائرية إلى ميناء مارسيليا البحري في فرنسا:

إنها النهاية...

نعم، أنا مجبرة على الاعتراف بهذه الحقيقة المُرة، الحقيقة التي سمّ علقمها بدني وحوَّلت الغصة في حلقي إلى ما يشبه المشنقة الضاغطة على أنفاسي حتى الموت.

لقد طردني الأعراب من بلدي، ولم يعُد لي أيّ مقام فيه، أنا التي أبصرتُ النور هناك في وهران، وقضيتُ فيها أجمل سنوات عمري، ولم أعرف غيرها وطناً، قبل أن يدمّر الإرهابيون كلّ فرصة لي في البقاء.

---

(1) فرَضَت عليّ الأمانة الأدبية ترجمة نصّ مذكرات السيدة بريجيت نوسي من الفرنسية إلى العربية بمساعدة الدكتور رشيد خاليلوزيتش، حرفياً دون زيادة أو نقصان، وعليه فأنا غير مسؤول عن أيّ غضب أو استهجان قد تسبّبه اللهجة القاسية والعنصرية للراحلة في أثناء حديثها عن العرب والمسلمين والأفارقة بشكل عام.

يسمّون أعمالهم التخريبية ثورة تحرير، فليذهبوا إلى مكانهم الطبيعي في الجحيم، فهم ليسوا سوى حفنةٍ من الأوغاد الحفاة العراة، أعداء الرقيّ والحضارة التي بنيناها نحن بعقولنا وسواعدنا، ليأتوا هم بعدنا، حاملين الخراب والدمار.

كنت أعلم أنّ ما يسميها العرب شعرة معاوية قد انقطعت بيننا وبين هؤلاء القتلة، رغم تأكيداتهم المستمرة بأننا سنكون معزَّزين مكرَّمين في ما يسمونها جزائر ما بعد الاستقلال، لكن هيهات، فقد طلبوا منّا المستحيل، كيف تجرَّأ السفلة على القول بأننا سنكون على قَدَمِ المساواة معهم في الحقوق والواجبات؟ ما هذا الجنون؟

منذ متى كان السادة متساوين مع العبيد؟

نعم، لقد عشتُ في وهران، استنشقت هواءها، شربتُ ماءها، مشيت على رمال شاطئها، وتشبعتُ بثقافتها المتوسطية الغنية، وتعلّمت حتى لغتها العربية، عكس ما هو متعارف عليه بيننا نحن أصحاب العرق الأوروبي الأصيل، لا لشيء إلّا لأنني عشقتُ هذا الوطن بكلّ جوارحي، لكنني لم ولن أقبَل بأيّ كلام يعارض قناعتي الأولى والأخيرة: الجزائر أرض فرنسية، وستبقى فرنسية إلى الأبد.

كانت الأيام القليلة الماضية رهيبة بكلّ ما في الكلمة من معنى، سواء هناك في وهران، أو في باقي المدن، بخاصة تلمسان والجزائر العاصمة وغيرها...

اغتيالات، اشتباكات متبادلة، طرود مفخّخة، حتى خيِّل للجميع أنّ أرض الجزائر برميل بارود قد ينفجر في وجه الجميع في أية لحظة.

وبدأت أفواج المهاجرين في مغادرة البلاد، بأعدادٍ ضخمة، إذ

اتَّضح للكثيرين أن العيش جنباً إلى جنب مع الأعراب لم يعُد ممكناً، حتى لو تطلَّب الأمر التخلي عن كل شيء.

رفضت بإصرار شديد مرافقة أفراد عائلتي إلى مارسيليا، رغم إلحاحهم المتكرِّر، خاصة بعد اقتراب الإرهابيين من تصفية أبي، القيادي البارز في منظمة الجيش السري البطلة[1]، وقلت بأنني سأبقى هنا في وطني، ولتشملني ساعتها عناية الرب.

أعترف بأنّ إلحاحهم كان في محلّه، وأن ما قلته كان مجرّد هذيان، فقد أجبرتني الفظاعات التي شهدتها بأمّ عيني يوم الخميس الماضي على الاستسلام والرحيل.

لم أتصوّر حتى في أسوء كوابيسي أن يحدث ما حدث ذلك اليوم، عندما اجتاحَت جحافلهم المسعورة الأحياء الهادئة الآمنة في وهران وعاثت فساداً وقتلاً وتنكيلاً في الأبرياء، لحملهم على الرحيل، رافعين الشعار المقيت «الحقيبة أو التابوت» لإجبارنا على الاختيار بين المنفى القسري أو الموت.

كنت يومها في خلوة تعبّدية فوق جبل مرجاجو، هناك في كنيسة سانتا كروز، منفصلة تماماً عن العالم، تحفّني بَرَكَة يسوع وكلّ القديسين والشهداء.

كان مألوفاً أن تجتذب هذه الكنيسة الأثرية الكثير من المؤمنين

---

(1) منظمة الجيش السري هي منظمة إرهابية فرنسية مناهضة للتوجّه الفرنسي الرسمي بمنح الجزائر استقلالها، نفذت سلسلة من الأعمال التخريبية قبيل الاستقلال، لعلّ أشهرها إحراق مكتبة الجزائر العاصمة، وتفجير دار بلدية وهران، ومكتبة البلدية، وبعض المدارس، بالإضافة إلى سلسلة من التفجيرات الإرهابية، أمّا عن وصفها بالمنظمة البطلة فسأكتفي بعبارة: لا تعليق!

المسيحيين، وأيضاً غيرهم، نظراً إلى مكانتها البارزة في قلوب أبناء الرب، إذ ساهمت بَرَكَة السيدة المقدسة التي يُطلق عليها البعض اسم عذراء وهران في شفاء الكثيرين من وباء الكوليرا الذي ضرب المدينة أواسط القرن الماضي، فتعوَّد الجميع على قصدها طلباً للشفاء من الأمراض وقضاء الحوائج.

لكن الوضع اختلف كثيراً الآن، لدرجة خلت معها جنبات الكنيسة من أيّ مؤمن، باستثنائي أنا!

نعم، الهجرة الجماعية أو الهروب الكبير، كيفما كان اسمه، مَهُوْل جداً، لدرجة أتساءل معها بكلّ ذعر: كم بقيَ منّا نحن؟

كنت غارقة في تأمّلاتي، قبل أن تخترق جدار الصمت أصوات إطلاق نار قادمة من بعيد.

لم ألقِ بالاً للأمر، فقد تعوّدنا على ذلك، منذ فترة طويلة، أو على الأقل منذ بضعة أيام، عندما تأكّد لنا بأنّ الإعلان عن استقلال الجزائر مسألة وقت، وهي أعيرة نارية احتفالية يُطلقها الأوباش المتخلّفون أعداء الحضارة.

لم يكن تصوّري في محله، فقد فوجئتُ بالأب فرانسوا قادماً نحوي وعلامات الخوف بادية على وجهه المصفر.

- الأوضاع غير مطمئنة يا بريجيت، إياك والتفكير بمغادرة الكنيسة الآن يا ابنتي، مفهوم؟

حاولتُ التظاهر بالشجاعة، لكن نبرة صوتي خانتني وأنا أقول:

- ماذا هناك؟ إنها مجرد طلقات نارية احتفالية! أليس كذلك يا. . .

لم يمهلني حتى أكمل كلامي، بل جذَبني من يدي بقوّة كأنما يستحثّني على اللحاق به فأطعتُه.

وهكذا صعدتُ معه إلى قمة برج الدير، الذي انتصب فوقه تمثال العذراء، ثم وقفنا إلى جانب الجرس الضخم، فأطلقت صيحة انبهار وقد فتنني المشهد الرائع للمدينة وخليجها الساحر، والذي أراه لأول مرة من موقعي ذاك.

- ليس هذا وقت الانبهار يا بريجيت، خذي...

التفَتُّ إليه في دهشة، فوجدته يحمل بين يديه منظارين مقرّبين سلّمني أحدهما وهو يقول:

- أعلم أنّ المسافة بعيدة، لكنه منظار ممتاز، وجِّهيه ناحية شارع المارشال جوفري ومقرّ الولاية.

استغربتُ طلبه، لكنني نفَّذته بلا تردّد ووجَّهت المنظار نحو الساحة، ليصدمني بشدة ما رأيته.

مظاهرات غاضبة للمسلمين الذين رفعوا شعارات غبية عن حكم الشعب الجزائري للجزائر المستقلة، وعن ضرورة طردنا نحن أصحاب الأصول الأوروبية، وإلّا فسيكون مصيرنا الموت!

تصدّرت المظاهرات نساء يرتدين الحايك وأطفال صغار، وقادَها إرهابيون مسلحون ممّا يسمى جيش التحرير الوطني الجزائري، وقد توجَّهت جحافلهم مباشرة نحو ساحة فوش!

- أتعلمين ما الذي يعنيه هذا؟

قالها الأب فرانسوا بصوته العميق الواثق رغم الخوف، فأجبتُه بصوتٍ مرتجف مبحوح:

- هذا يعني أن الجحافل المسعورة تريد الوصول إلى الأحياء الأوروبية! ما هذا الجنون؟ سيرتكبون مجزرة بحق الأبرياء!

رغم صعوبة الموقف إلّا أنه حافظ على هدوئه قائلاً:

- بل يعني أنك عندما تسلّم زمام الثورة للجهلاء، فأنت تشحذ

سكين ذبحكَ بيدك، الخراب قادمٌ يا بنيتي، ورحيلنا عن هنا باتَ مسألة وقت لا أكثر...

انتقلت رجفة صوتي إلى يدي وأنا مُمسكة بالمنظار لأتابع ما يجري، ففهمتُ إلى أيّ حدّ كان كلام الأب في محله.

من الواضح أنّ إطلاق الرصاص كان عشوائياً، وربما مجهول المصدر، فقد تساقط عدد كبير من المتظاهرين العرب إمّا قتلى أو جرحى أو منبطحين أرضاً، وهربت النساء والأطفال إثر عجز المسلحين، سواء كانوا عسكريين شبه نظاميين أو مدنيين متحمّسين، عن التوفيق بين الردّ على مصادر إطلاق النار الغامضة والسيطرة على الجموع التي اختلط حابلها بنابلها ولم يُعرَف فيها مَن الصديق ومَن العدو.

كل هذا ولم تبدأ الفظاعات الحقيقية بعد...

أطلقت صيحات غاضبة مقهورة، وبلّل شلّال الدموع وجنتي، وأنا أرى من موقعي الآمن في برج الدير ما حلَّ ببعض الأوروبيين الأبرياء ممَّن ألقى بهم حظّهم العاثر أمام تلك الوحوش المسعورة المتعطشة للدماء، سواء في ساحة فوش، أو الشوارع المؤدية إليها، كشارع سيباستوبول والشارع الصناعي وشارع جوزيف أندريو.

منهم مَن ذُبِحَ بالسكاكين في مبنى البريد المركزي كما علمتُ فيما بعد، أو قُتِلَ رمياً بالرصاص، كما قام القتلة باقتياد بعضهم مكبَّلين مذلولين إلى أماكن مجهولة لم تسمح زاوية الرؤية بتحديدها، ودمّرت رصاصات رشاشاتهم واجهات المقاهي والسيارات في تعبيرٍ واضح عن الحقد والتشفّي.

أعترف بأنّ هذه الفوضى المرعبة قد تسبَّبت أيضاً في مقتل عدد كبير من المسلمين الذين ملأت جُثثهم النتنة الشوارع، واستطعتُ

تمييزهم من موقعي اعتماداً على سحناتهم وملابسهم، لكن هذا لا يهمّني، هم أصلاً مجرد حشرات وضيعة تستحق الإبادة والسحق، أليسوا هم السبب الرئيس في ما وقع؟

حاول الأب فرانسوا مواساتي وهو يربت على كتفي، لكن ارتجاف يده ضاعف من خوفي وحنقي، فاحتبست الكلمات في حلقي من شدّة القهر وعجزتُ عن التفوّه بحرفٍ واحد.

- الآن اكتملَت الصورة. . .

التفَتُّ إليه باكيةً وأنا أقول:

- أية صورة؟

كان يتابع ما يجري من مجازر بمنظاره، لكنه أجابني بجسم:

- في البداية اتفاقية إيفيان التي أقرَّت بحقوق وسلامة أصحاب الأصول الأوروبية في جزائر ما بعد الاستقلال، ثم نشر إشاعات قوية بين الأوروبيين عن ضرورة ترحيلهم أو قتلهم، في تناقض فاضحٍ مع شروط الاتفاقية، وبعدها تخفيف للقبضة الأمنية الفرنسية على الحدود المشتركة مع المغرب، ليتبعها انتشار كثيف لعناصر ما يسمى بجبهة التحرير الوطني الإرهابية، ثم تحريض للجهلاء علينا، وانسحاب مريب للشرطة الجزائرية والقوات الفرنسية الموجودة في وهران، لتكتمل الصورة الآن بحمّام دم بشع تجري أطواره أمام أعيننا، هل فهمتِ؟

رمقتهُ بنظرات خاوية كنت أعلم أنها تحمل معها كلّ معاني التبلّد والغباء بعدما حرمتني المشاهد المرعبة من التفكير بعقلانية، فأمسكَ بذراعي وساعدني على النزول من البرج، ثم رافقني إلى مخدعه، قبل أن يُواصل كلامه الواثق:

- الجميع متواطئون على طردنا من الجزائر، حكومة ديغول

وجبهة التحرير الجزائرية وآخرون، أما هؤلاء الجهلة فليسوا سوى أدواتٍ للتنفيذ، من الواضح أنّ الأوامر أتت من باريس بعدم التحرّك لإنقاذنا، وذلك لإجبارنا ودفعنا دفعاً نحو الرحيل، فما يحصل الآن يقضي على أيّ أمل لنا في التعايش مع العرب في المستقبل.

أوشك البكاء على إفقادي الوعي، لكنني حاولتُ التماسك وأنا أسأله:

- وذكرياتي الجميلة هنا؟ أنا لا أعرف بيتاً لي غير هنا في وهران، لا أعرف وطناً لي غير الجزائر!

احتضنني بين ذراعيه بحنان أبويّ ثم قال:

- نحن أبناء الرب يا بنيتي، وكل بلاد الربّ أوطاننا، أنت خادمة مطيعة ليسوع، ولا أعتقد بأنك ستواجهين صعوبات تُذكر في الاندماج مع أسرتك في مارسيليا، أنا واثق من أنك ستحبينها، فمناخها ومعمارها مشابهان تماماً لوهران، ومعظم مَن غادروا الجزائر استقروا بها، حتى الحكومة الفرنسية لن تدّخر جهداً في مساعدتكم هناك، لتكفّر ربما عن خطأ تخلّيها عنكم هنا.

أضاف وهو يمسح دموعي بيده:

- من حُسن حظك أنك قمت بنقل متعلقاتك إلى الدير قبل بضعة أيام، كنا سنجد صعوبة في العودة إلى منزلك.

سألته باهتمام:

- والميناء؟ إنه قريب جداً من موقع الأحياء الأوروبية المنكوبة، كيف سنصل إليه إذاً؟ قد يذبحنا الإرهابيون القتلة!

خيّل إليّ أنه قد تجاوز تماماً آثار خوفه السابق، فقد برقت عيناه واتسعت ابتسامته الواثقة وهو يقول:

- فلننتظر قليلاً، سأتدبّر أمر سفرك يوم غد أو بعد غد على أبعد

تقدير، لا تنسي ما قلته، كلّ هذا العبث هدفه إجبارنا على الرحيل، لذلك لن نجد أدنى صعوبة في الوصول إلى الميناء، اطمئنّي، فنحن. . .

قاطعته أصوات إطلاق النار التي تجدّدت مرة أخرى، فشهقت في رعب وارتميت على أريكة مجاورة وقد خارت قواي، فيما غادر هو الغرفة بسرعة مستطلعاً الأمر، ويعود بعدها بدقائق قليلة ويتوجّه مباشرة نحو المذياع ويضبط تردّده على الإذاعة الفرنسية، فانطلق صوت الرئيس ديغول وهو يتلو بياناً يُعلن فيه حصول الجزائر رسمياً على استقلالها.

- ألم أقُل لك؟ إنها قطع دومينو متراصّة، تكفي لمسة واحدة مدروسة بعناية لتحريكها بتناسق رهيب لا يملك أمامه الأغبياء إلّا التصفيق بحرارة، غير عالمين بأنهم أيضاً جزء من هذا العرض المثير.

رغم أنّ تعليقه الغامض كان يحمل بين طياته الكثير من المعاني، إلّا أنني تجاهلته عن عمد، إذ لم يكن يهمني ساعتها سوى مستقبلي أنا.

- سترافقني إلى مارسيليا، أليس كذلك؟

داعب الأب خصلات شعري الأسود بيديه المباركتين، وهو يحدجني بنظرات طويلة، أجابني بعدها:

- قلتُ لك بأنني سأتدبر أمرَ ترحيلك إلى فرنسا، أمّا أنا فيراودني شعور قوي بأنّ قدري المحتوم مرتبط بهذه الأرض.

اتسعت عيناي في دهشة وأنا أهتف:

- ستبقى هنا!

حافظ على نبرة صوته الهادئة قائلاً:

- سيساعدني بعض أبناء الرب المخلصين على مغادرة وهران والذهاب إلى تلمسان، سأمكث هناك لبضعة أيام قبل عبور الحدود.

قلت بغباء غير معهود مني:

- الحدود؟ أية حدود؟

تراقصَ شبح ابتسامة خفيفة على محيّاه، خيِّل إليّ أنها تخفي سخريته مني، لكنه تداركَ الأمر بسرعة وباركَني بعلامة الصليب قائلاً ببساطة:

- الحدود الغربية يا بنيتي، الحدود الجزائرية المغربية!

* * *

اكتظّت السفينة المتوجّهة إلى مارسيليا بالمهاجرين الأوروبيين، وأغلبهم طبعاً ممّن أجبرتهم الظروف على التخلّي عن كلّ شيء والاكتفاء بحقيبة واحدة أو حقيبتين على الأكثر، هرباً من جحيم وهران.

يا لقسوة الأيام التي حوَّلتني من مواطنة متمتِّعة بكامل حقوقها في بلدها، إلى لاجئة تنتمي رغماً عنها إلى مَن وَصَمَهُم التاريخ باسم جديد: الأقدام السوداء![1]

تجاهلت النظرات الفضولية التي رمقني بها بعضهم وأنا منزوية في ركن قصيّ لوحدي ومنهمكة في الكتابة، بعدما شعرتُ بأنّ القلم سيكون رفيقي ومؤنسي الوحيد في غربتي القسرية الجديدة.

---

(1) يطلق اسم الأقدام السوداء على أصحاب الأصول الأوروبية الذين استوطنوا الجزائر أو ولدوا فيها ما بين عامي 1830 و1962 (فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر) ويختلف المؤرّخون حول أصل هذه التسمية، فهناك مَن يقول إنها ترمز لسواد أرجُل عاصري عناقيد العنب المخصَّصة لإنتاج النبيذ، فيما يقول آخرون إنها تقصد سواد أحذية الجنود الفرنسيين في الجزائر.

تطايرت خصلات شعري وقد داعَبَتْها نسمات البحر الأبيض المتوسط المنعشة، وانعكست أشعة الشمس على الصليب الفضي الذي استقرّ فوق صدري، فيما انشغل بالي بوصيّة الأب فرانسوا الأخيرة قبل افتراقنا:

- بريجيت، أعلم أنّ الصدمة قاسية ومؤلمة، لكنني واثقٌ من قدرتك على تجاوزها يا ابنتي، أنت ذكية جداً وحالة نادرة متفرِّدة، لم أقابل يوماً شابة مطيعة مثلك وهَبَت نفسها لدرب المسيح بهذا الحماس، رغم أنّك غير منخرطة رسمياً في سلك الرهبنة، لكنّ حرصك على دينك مثير للإعجاب، وإتقانك للّغة العربية مذهل، وهذا ما شجَّعني على اتخاذ قرار بتسليمك أغلى ما أملك، ليَقيني التام بأنك ستحافظين عليه، هذه المكتبة الصغيرة تضمّ بين جنباتها نفائس لا تقدَّر بثمن، الأناجيل الأربعة بترجمات عربية طُبعت خصيصاً في مطابع بيروت، بالإضافة إلى سفر أعمال الرسل وسفر الرؤيا ورسائل بولس الرسول ومخطوطات أخرى قيمة، أوصيك بالمحافظة عليها والاعتناء بها، فقد بذلتُ جهداً مضنياً في جمعها، ورحيلي عن وهران يعني وقوعها في يد الكفّار وضياعها إلى الأبد!

شعرتُ يومها كما لو أنّني قدّيسة مكلَّفة برسالة سماوية قد أبذل حياتي ثمناً لها، فأطعته بلا مناقشة، لأجد نفسي الآن محمَّلة بحقيبة ضخمة قد يتّهمني رفاق السفر في السفينة بالجنون إذا ما علموا بأنها محمّلة بالكتب والمخطوطات عوض الملابس والمجوهرات!

- لا تقلقي يا بريجيت، أنا أعرف عنوان عائلتك في مارسيليا، سأراسلك فوق استقراري بالمغرب، وسأبذل كلّ ما في وسعي للإطمئنان عليك بانتظام، سيتجدَّد اللقاء بيننا يوماً ما، اطمئني!

ووصلنا أخيراً إلى عاصمة الجنوب الفرنسي، إلى مارسيليا. . .

قبّلت الصليب الفضي الذي تحيط سلسلته بعنقي، محاولة إقناع نفسي بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، ودعوتُ الرب راجية منه التوفيق في ما أنا مُقبِلَة عليه.

ميناء مارسيليا، قلب الجنوب النابض، وأقرب نقطة للعودة إلى بلدي الأم، نعم، فأنا لن أفقد الأمل أبداً في العودة يوماً ما إلى وهران.

مجنون هو هذا الأمل، لكنه أعقل بكثير من واقعي الأخرق، قاتلٌ هو هذا الأمل، لكنه ترياق بقائي حية هنا!

يبدو أنّ حركة النقل البحرية إلى المدينة لم تتوقف منذ فترة طويلة، فأفواج القادمين من أفريقيا تتزايد باستمرار، لكن المفارقة كانت في تزامن وصول سفينتنا مع رسوّ واحدة أخرى قادمة من المغرب، لذلك لم يكن مستغرباً أن أقابل في أثناء دخولي إلى الميناء عدداً كبيراً من المهاجرين، هم خليطٌ غير متجانسٍ من أولئك القذرين الذين أتوا لتشويه حضارة أوروبا، وبعض المتحضّرين الضحايا الذين طُردوا من بلادهم شرّ طردة، فلم يجدوا سوى فرنسا ملجأ لهم، مثلي تماماً.

كان التدافع شديداً، وساهَمَ بقائي لفترة طويلة تحت أشعة شمس يوليو اللاهبة في انهياري بعد إصابتي بالدوار والغثيان، ثم اكتملَت المعاناة بعجزي عن جرّ الحقيبة الثقيلة.

- أيها الحقراء، فلتذهبوا إلى الجحيم! كلّ ما جرى كان بسببكم أنتم، أيها ال. . .

لم تكتمل صرختي اليائسة المتلاشية وسط الزحام الخانق، واختلّ توازني فكدتُ أسحق بلا رحمة تحت الأقدام المهرولة، قبل

أن يتلقّفني ساعدان قويان ويحملاني ببساطة، كريشة في مهب الريح.

- هل من طبيب هنا؟ حرارتها مرتفعة جداً وقد تفقد وعيها في أية لحظة!

لم أتبيّن ملامح صاحب الصوت جيداً، فقد غامت الدنيا أمام عيني وسقطت فعلاً في بئر اللاوعي السحيقة...

* * *

POŜTA! -4

الثلاثاء 4 أغسطس 1992[1]

مقبرة لاف - سراييفو:

تناقضٌ غريب ذاك الذي عشته في الأيام الماضية، فرغم انهماكي في عملي بهمة ونشاط، حتى أنني لم أجد الوقت الكافي لكتابة حرف واحد، إلّا أنني شعرتُ في أعماقي بقدرٍ كبيرٍ من الخجل والتفاهة.

لماذا تقتصر مهمتي على تحديد أعداد القتلى والجرحى الذين سقطوا في سراييفو كلّ يوم، أو التدقيق في سجلات المساعَدات الطبية التي تصل إلى المدينة المحاصَرَة عبر الجسر الجوي من وقت إلى آخر؟

أنا طبيب، جئت إلى البوسنة للمساهمة في إنقاذ أرواح الأبرياء والتخفيف من معاناتهم، لا إحصاء أعداد مَن ماتوا منهم!

---

(1) لم يحدد الراوي تاريخ 4 أغسطس 1992 في أوراق مذكّراته، فأضَفْتُه بنفسي لأن الحادثة التي وصَفَ تفاصيلها في هذا الفصل مشهورة وموثّقة هنا في سراييفو.

وأقسى ما في الحرب أن يتحوّل ضحاياها إلى مجرد أرقام باردة لا روح فيها. . .

ما معنى أن يتلو المراسِل الصحفي أو المذيع خبر مقتل خمسين شخصاً في سراييفو في يوم واحد فقط، ثم يمرّ إلى الخبر الموالي ببساطة شديدة دون أن يرفّ له جفن؟ ألا يعلم هو وغيره أنّ كلّ قتيل راح هو بحدّ ذاته قصة تستحق أن تُروى؟

قد يكون شاباً قَتَلَت رصاصة واحدة كلّ أحلامه ومستقبله، أو سيّدة ذهبَت قبل أن تطمئنّ على مستقبل أبنائها، أو حتى رضيعاً لم يتعلّم النطق بَعد ولا يعرف مَن هو راتكو ميلاديتش أصلاً!

وهذا ما حصل بالضبط قبل ثلاثة أيام، عندما وقع هجوم على مركز ليوبيتسا إيفازيتش لرعاية الأطفال، وقتل الصرب أيضاً طفلين اثنين بدمٍ بارد، رغم أنّ عمر أكبرهما لا يتجاوز العامين!

كلّ هذا وأنا لم أفهم بعد حقيقة ما يجري هنا رغم محاولاتي المتكرِّرة، ربما لأنني منعزلٌ في مكتبٍ كئيبٍ يعجّ بموظفين هم أيضاً من جنسيات مختلفة وغريبة عن المكان، ولا علاقة لنا بما يحدث في الخارج.

أو ربما أيضاً لأننا نعيش الآن أيام الحرب الأهلية الأولى، وكلّ مَن عاشوا مثل هذه التجارب المريرة يعلمون أنها أصعب أيام الحرب وأبشعها، ففوضى القتل والموت المجاني تُلقي بظلالها القاتمة على الجميع ومهما حاولت فلن تعرف مَن مع مَن أو مَن ضدّ مَن.

كنت أعلم أنّ العقيد رايلي، وبصفته مسؤولاً مباشراً عن سلامتي الشخصية، سيمنعني من حضور جنازة الطفلين، لذلك قرّرت المشاركة فيها لوحدي، دون أن أكلّف نفسي عناء طلب الإذن منه، وليقُلْ بعدَها ما يقول. . .

مَن أنا حتى تكون حياتي أهمّ بكثير من حياة الآخرين؟

أنا قَدِمتُ إلى سراييفو بعدما فقدتُ كلّ شيء ولم يعُد في جعبتي ما أخسره، وتحوّل مفهوم الحياة والموت بالنسبة لي إلى لعبة نرد مقامِرة، قد تصيب في الوقت الخطأ أو تُخطئ في الوقت الصائب!

ارتديتُ سترتي الجلدية، وتسلحت بتلك الخريطة التي زوّدني بها رايلي، رغم يقيني التام من أنها لن تُفيدني في شيء، ثم غادرتُ الغرفة.

كان الخروج من الباب الرئيس للفندق مستحيلاً، فهو تحت مَرمى نيران القناصة كما أشرتُ إلى ذلك في السابق، لذلك فقد تعوَّد النزلاء على استعمال الباب الخلفي لأنه أكثر أماناً، ولو بشكل نسبي.

المشكلة هي أنني لا أعرف حتى عنوان المقبرة التي سيُدفن فيها الطفلان، لا معلومات لدي سوى عن المستشفى الرئيس الذي يتولّى مهمة إغاثة سكان سراييفو ويُصدر التقارير الميدانية عن أعداد الضحايا يومياً واسمه مستشفى كوشيفو، وهو الوحيد الذي قد يساعدني في بحثي عن المقبرة.

أوصاني أحد موظفي الفندق بالاتجاه شرقاً مع مجرى النهر حتى الوصول إلى مسجد اسمه علي باشا، ثم الاستعانة بمئذنته كمَعلَم للصعود شمالاً نحو المستشفى الذي يقبع في منطقة بولنيتشا، كما لم يستبعد الموظف أن يكون الدفن في مقبرة اسمها لاف، وهي غير بعيدة عن المكان.

طبّقت توجيهاته حرفياً، دون أن أنسى وصيته بالحذر والابتعاد عن الأماكن المكشوفة قدر المستطاع، خشية الوقوع في دائرة الاستهداف من قبل البنادق الصربية المتمركزة في الجبال.

فوجئتُ بأنّ المنعطف الذي وصفه الموظّف مسدودٌ، لسببٍ غريب لم أفهمه، فقد أغلقته حاويات قمامة حديد وثقيلة، تجعل إمكانية تحريك أحدها ضرباً من المستحيل[1].

أدرتُ بصري في المكان، ومن حُسن حظي أنّ حدّة المعارك قد خَفَّت هذا اليوم، ما سمح لعدد كبير من السكان بالخروج من منازلهم، غالباً للبحث عن طوابير لبيع الخبز أو خزانات متنقلة لتوزيع المياه.

– **صباح الخير يا سيدتي، أريد الوصول إلى مستشفى كوشيفو، والطريق إليه عبر شارع مسجد علي باشا مسدود، ما العمل؟**

كانت عجوزاً قدَّرتُ أنها في السبعين من العمر أو أقل بقليل، ترتدي ملابس بسيطة وتلفّ رأسها الصغير بوشاح مزركش خيِّلَ إليّ بأنه يختزل كلّ ألوان البهجة والفرح التي انتزعها الصرب من هذه المدينة المسالمة.

تطلَّعت إليّ بنظرات متسائلة، ورسمَت على وجهها ابتسامة بريئة، فكرَّرتُ سؤالي مرة أخرى.

فهمتُ متأخراً بأنها لا تتقن الإنجليزية، فاستعنتُ بالإشارات وأنا أقول:

– **مستشفى كوشيفو، كوشيفو، مسجد علي باشا، علي باشا!**

اتسعَت ابتسامتها، فاعتقدتُ بأنها فهمت قصدي، فأشارت بإصبعها ناحية الشرق، ثم الشمال، وهي تقول بلغتها البوسنية:

– **بوشطا، بوشطا، بروميت شيفيرو، كوشيفو!**

---

(1) هي حيلة قديمة انتهجها أبناء سراييفو لمواجهة غدر القنّاصة الصرب في بعض الأحياء والمنعطفات المكشوفة.

خابَ ظنّي، فقد عقَّدَت كلماتها المُبهمة مهمّتي أكثر، فحييتها برأسي وبادلتها الابتسامة بأخرى أكثر ودية، ثم واصلتُ طريقي باحثاً عن شخص آخر.

كنتُ على وشك استفسار شابٍّ مرّ بجانبي، جازماً في قرارة نفسي بأنه يتكلم الإنجليزية، عندما رفعتُ رأسي لأجد أمامي مبنى كبيراً اتّضح لي من حالته المزرية أنه مهجور، خاصة أنّ بعض الثقوب الصغيرة والكبيرة قد زيّنت واجهته.

كلّ هذا ليس مهماً، فالمهم أنّ أحرفاً كبيرة احتلّت موقعها البارز في واجهة المبنى:

POŜTA

بوسطا، بوشطا، البوسطة...

يا لي من مغفل! لقد فهمَت العجوز الطيبة قصدي وأرشدتني إلى مبنى البريد!

وبالفعل، وجدتُ أنّ الطريق يقود إلى الالتفاف على مسجد علي باشا ومواصلة الطريق شمالاً نحو المستشفى، وربما هذا ما قصَدَته هي بكلماتها الأخرى...

هممتُ بمتابعة الطريق، عندما استوقفتني كلمات غريبة كتبت على جدار مبنى البريد، ورغم دقة الموقف وخطورته إلّا أنّ فضولي دفعني لتأمّلها طويلاً، مع أنني لم أفهم منها حرفاً واحداً.

كتب أحدهم بحروف كبيرة:

ово Србија

ثم كتبت تحتها عبارة أخرى بخط مختلف:

!TO JE POŜTA, BUDALO

- **لعلّك تتساءل عن معنى هذه العبارات الغريبة، أليس كذلك؟**

التفتُّ لأجد أمامي ذلك الشاب الذي تجاوزته قبل قليل، وهو يتطلع إليّ بعينيه الزرقاوين ويبتسم في لطف مضيفاً:

- معذرة، لقد سمعت جزءاً من حوارك مع العجوز، وفهمتُ أنّك أجنبي، فلحقتُ بك.

انتبهتُ إلى أنه شاب في منتصف العشرينيات تقريباً، أعتقد بأنه يجسِّد أوضح مثالٍ للشباب العابث في جميع أنحاء العالم، بتسريحة ذيل الحصان والقرط الذي يتدلى من الأذن، والسترة الواسعة المفتوحة التي كشفت عن قميص طبعت عليه صورة للمغني الأميركي الشهير مايكل جاكسون.

- نعم، أنا أبحث عن مستشفى كوشيفو، أريد حضور جنازة الطفلين الذين...

قاطعني بسرعة قائلاً:

- لعلّك تقصد فيدرانا غلافاش وروكي سوليمانوفيتش، سمعتُ بأنه سيتمّ دفنهما مع ضحايا آخرين في مقبرة لاف، اتبعني، يجب أن نلحقَ بهم في أسرع وقت ممكن!

قالها ثم بدأ بالركض، فتسمّرت في مكاني مندهشاً، فجرّني من معصمي بحركة قوية وهو يصرخ:

- هيا، أنت لا تفهم، نحن في مكان مكشوف وقد يصطادنا الصرب ببنادقهم كالذباب!

وبالفعل، لم يكد يكمل عبارته حتى دوى أزيز رصاصة ضربت جدار الصمت لتخترق باباً من حديد لا يبعد كثيراً عن موقعنا، مُحدِثة دوياً مرعباً انتزعني من مكاني من شدّة الخوف، فأطلقتُ ساقي للريح وأنا ألحق بالشاب الذي دلّني على مدخل بناية متهالكة فتبعته.

- ألم أقُل لك؟ نحن متعوّدون على مثل هذه المفاجآت، فالهدوء النسبي ليس سوى وهمٍ لم تعُد آثاره الكاذبة تنطلي علينا.

سألته لاهثاً:

- كيف عرفت؟

- بعد أربعة أشهر على اندلاع الحرب صرنا خبراء بمثل هذه الأمور، المهم أن تأخذ بالأسباب، فقدرك مكتوب أصلاً...

ضاقت عيناه وهو يضيف مبتسماً:

- ولا معنى للضجيج من حولك، فالرصاصة التي ستقتلك لن تسمع صوتها...

صمتت للحظات قبل أن أقول بحزم:

- أريد أن أفهم...

- معنى الكلمات المكتوبة على الجدار؟

التقطتُ أنفاسي بصعوبة، ثم قلت:

- بل كل شيء، أريد إجابات واضحة عن أسئلة: متى، كيف، ولماذا بدأ كلّ هذا الجنون؟

* * *

كثيراً ما ارتبط الصمت في مخيلتي بالهدوء والسكينة، لكنه كان مرادفاً هذه المرة لمعنى واحد فقط: الخوف...

كانت المقبرة فارغة وصامتة، فمن حسن حظنا أننا وصلنا إليها قبل المشيّعين، ورغم أن هذا قد منحني فرصة لتجاذب أطراف الحديث مع الشاب، الذي لم أجد الفرصة حتى لأسأله عن اسمه، إلّا أنّ ذلك الشعور المبهم بالخوف لم يفارقني.

لم يكن خوفاً من الموت، فنحن نحيا هنا فوق أرضه، لكنه خوف من شيء غامض لا أدري كنهه...

انتصبَت المقبرة بشواهد قبورها الرخامية الرمادية والبيضاء فوق هضبة تمنح بعض أطرافها إطلالة عامّة على الأحياء والشوارع التي مَرَرنا بها في طريقنا إلى المكان، من كوشيفو إلى بولينتشا، فتمكّنت بسهولة من تحديد موقع المسجد ومجرى النهر، وأيضاً فندق هوليداي إن الذي أنزل فيه.

مشهد غير مألوف جمعَ رهبة الموت وروعة الجمال في لوحة واحدة لا أعتقد بأنّ ريشة أي فنان مهما بلغت عبقريته قادرة على إبداع مثيل لها.

ابتدرتُ الشاب بالكلام قائلاً:

- لقد راجعتُ بعض كتب التاريخ، في محاولة مني لفهم أصول الصراع الدائر هنا و...

استوقفني بحركة من يده معترضاً:

- لا تثق بكتب التاريخ كثيراً، ما دام البعض قادرين على التلاعب بحاضرنا نفسه!

من الواضح أنّ ملامح عدم الفهم قد رسمت خطوطها على وجهي، لأنّ الشاب استدركَ عبارته الغريبة بعد بُرهة من الصمت:

- طيب، ما الذي تريد فهمه؟

سألته باهتمام:

- دعنا من الماضي البعيد إذاً، وحدّثني عن الماضي القريب، كيف تفجّرت الأوضاع بهذا الشكل بين المسلمين والصرب والكروات في البوسنة؟

سارَ لبضعة أمتار، محافظاً على صمته، كأنما يبحث عن كلمات مناسبة ليبدأ بها شرحه، قبل أن يستدير نحوي ويقول:

- المسألة معقدة جداً وليست بذلك الوضوح الذي تتخيّله، كما

أنني لستُ من المهتمين بالتاريخ، فلا تتوقع مني إذاً أن أحيطك علماً بالحقيقة كاملة، أنا مجرّد شاب عايَشَ هذه الأهوال الرهيبة فتركَت ندوبها وآثارها في قلبه، ولو أنّ الأوضاع الحالية لا تبشّر بالخير وتوحي بأنّ حفلة الدم الحقيقية لم تبدأ بعد، لكن سأحاول تلخيص القصة قدر الإمكان.

التَقَطَ نفساً عميقاً ثم أكمل:

- بعد وفاة الماريشال تيتو، تسرّبت علامات الضعف والتفكّك إلى يوغوسلافيا، وبدأت الجمهوريات التي شكّلت هذا الاتحاد في السابق تُعلن استقلالها تباعاً، أتحدَّث هنا عن كرواتيا وسلوفينيا اللتين نالتا اعترافاً دولياً كبيراً، ولأنَّ هذا لم يُعجب الصرب، أبرز ورثة نظام الراحل تيتو، وأكثر الطامحين لإحياء حلم إقامة دولة صربيا الكبرى على أنقاض يوغوسلافيا المنهارة، فقد لجأوا إلى خيار القوّة ضد الجميع، بخاصة أنهم كانوا متحكّمين بكلّ مفاصل الجيش اليوغوسلافي القوي آنذاك، لكنهم كانوا بحاجة إلى ذريعة لتأليب الجمهور الصربي ودَفْعِه للقتال حتى النهاية.

داعبت نسمة عابرة خصلات شعري، لتسقط أحدها على جبهتي، فأزحتُها بأصابع مرتجفة وأنا أسأله:

- ما هي هذه الذريعة؟

أجابني بنبرة امتزجَت فيها السخرية بالمرارة:

- الدين طبعاً!

ثم أضاف:

- فجأة تذكّر الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش أنّ الصرب مسيحيون أرثوذكس، وأنهم في حالة صراع تاريخي وأزلي مع الكروات الكاثوليك، والبوشناق المسلمين، فبدأ أتباعه ببثّ النعرات

والأحقاد ذات الأصول الدينية، وقاموا مثلاً باستخراج رفات بطلهم القومي المدعو لازار الصربي، وهو قائد هزَمَه العثمانيون في حروب البلقان قبل أزيد من 600 عام، وطافوا بها في أحياء وشوارع العاصمة الصربية بلغراد، محذِّرين من الخطر الإسلامي الذي يتهدَّد بلادهم وكلّ أوروبا، مع أنّ الواقع لا علاقة له بكلّ هذه الترّهات السخيفة.

لقد أدار ميلوسوفيتش اللعبة ببراعة، فالمعادلة هنا واضحة وبسيطة جداً، حذّر أتباعك من خطر وهمي يتهدَّد وجودهم، ثم قدِّم نفسك على أنّك الوحيد القادر على صدّ هذا الخطر، وأيِّد كلامك بوقائع دينية وتاريخية، وسترى كيف سيتحول هؤلاء الأتباع إلى وحوش مسعورة قادرة على تنفيذ أوامرك والدفاع عنك حتى الموت!

أومأتُ برأسي كعلامة على الفهم، وقلت:

- هذا واضح، كلما ضَعُفَت قبضة الدولة الموحّدة إلّا وبدأ المواطنون في البحث عن ملاذٍ آخرَ يحميهم، وهنا تجد النعرات القومية والعرقية والطائفية وَقودها الذي تتغذّى به.

برقت عيناه في ظفر وهو يجيبني:

- بالضبط، لقد دمَّر ميلوسوفيتش اقتصاد صربيا المنهكة إثر الانهيار الشيوعي الذي ضرب كلّ بلدان أوروبا الشرقية، وساهمت سياسته الفاشلة في الرفع من نسبة التضخم وغلاء الأسعار وفقدان المواطنين لمدّخراتهم في البنوك، لكنه نجح في هروبه إلى الأمام بتصدير مشاكله الداخلية إلى الخارج، لو راقبتَ الجماهير الصربية المتعصِّبة وهي تهتف بحياته وحناجر أتباعه تكاد تنفجر وهم يردِّدون بلا انقطاع: سلوبو! سلوبو! لفهمتَ حينها قصدي.

المهم أنّ إعلان السلوفينيين والكروات عن استقلالهم دفَعَ

الصرب لتحريك دبّاباتهم ومدافعهم نحو كرواتيا، فحاصروا مدينة فوكوفار شرق كرواتيا ثم دمّروها عن بكرة أبيها، وهنا تدخّلت القوى العظمى كالمعتاد لإيقاف المجازر وإجبار الصرب على الانسحاب، والاعتراف رسمياً باستقلال الدولتين.

لكن، لم تكن هذه سوى بروفة لما هو آتٍ، فقد بدا واضحاً أنّ عيون الصرب كانت موجَّهة منذ البداية نحو البوسنة.

قاطعَت كلامه أصوات قادمة من بعيد، فانتبهنا إلى دخول بعض المشيّعين إلى المقبرة، وفهمنا أنّ الأمر لا يتعلق فقط بجنازة الطفلين، بل أيضاً بضحايا آخرين.

وجوهٌ خيَّم عليها الحزن وبلَّلتها دموع القهر، واختلفَت هيئاتها بين شبان وكهول هم بالتأكيد من أقارب الضحايا؛ تشابهوا جميعاً في بياض بشرتهم وزرقة أو خضرة عيونهم وهزال أجسادهم بفعل قسوة الحصار والنقص الحاد في المواد التموينية الأساسية، ونساء شقراوات ارتدَت بعضهن تنانير طويلة وأقمصة قصيرة الأكمام بفعل ارتفاع درجة الحرارة، فيما تشابهت أخريات مع العجوز التي قابلتُها في طريقي إلى هنا، بخاصة في الوشاح المزركش الذي تحوّل في نظري إلى ما يُشبه العلامة المميّزة لنساء البوسنة.

قال الشاب بصوت منخفض، احتراماً للحاضرين:

- من حسن حظهم أنّ بعض الأماكن ما زالت شاغرة هنا، بعض المحاصرين في منطقة دوبرينيا المحاذية لمدرج المطار اضطروا لدفن قتلاهم في الحدائق العامة!

لم يكد يُكمل كلامه حتى أدخلت التوابيت وبدأ الحفر، فتعالت أصوات البكاء، وقد امتزجت بصوت الفقيه الذي بدأ في تلاوة آيات من القرآن الكريم:

﴿يسٓ (1) وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (3) عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (4) تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (5) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)﴾

كانت نبرة صوته مميزة، ومخارج حروفه رقيقة، بشكل مختلف تماماً عن التجويد الذي سمعت به هذه الآيات نفسها هناك في ال. . .

مالَ الشاب على أذني هامساً:

- الجثامين الأخرى تعود لخمسة أطفال وسيّدتين، قُتلوا أثناء جنيهم لثمار الكرز في حيّ كوبلي غلافا و. . .

سَرَت قشعريرة في جسدي، وكدتُ أفقد توازني، فأمسكَ بي الشاب وهو يقول في جزع:

- يا إلهي، ماذا جرى؟ ما بك؟

حاولتُ المحافظة على تماسكي وأنا أقول بصوت خافت:

- لا، لا شيء. . .

مستحيل! لا يمكن أن تلتقي ذكرى ثمار الكرز وآيات سورة يس هنا، وبهذه الطريقة!

لماذا تصرّ الذكريات القاسية على ملاحقتي إلى مكان لم أتوقع أبداً أن تتبعني إليه؟

ثم حدثَ ما لم يكن فعلاً في حسبان أشدّ المتشائمين هنا. . .

فقد نزلت القذيفة الأولى، ثم تبعتها الثانية، لتحوّل المقبرة الهادئة؛ التي استقرت فيها رفات مئات الموتى؛ إلى جحيم على رؤوس الأحياء الذين قدموا إليها!

* * *

5- يا الرايح...

صفحات من مذكرات الراحلة بريجيت نوسي مترجمة إلى العربية:
الأربعاء 12 سبتمبر 1962
حي بيلزانسي - وسط مارسيليا:

قلت في السابق إنها النهاية، لكنها لم تكن في الواقع سوى بداية أخرى لحياة جديدة، أشرقت عليها شمس الحب فمنحتها دفئاً لذيذاً دغدغ قلبي ورسم على محيّاي ابتسامة دائمة أنستني كلّ عذابات الماضي ودفعت بها إلى غياهب مظلمة لن أسمح لها بأن تطفو مرة أخرى على سطح ذاكرتي.

خرجت من مدرسة أودو الابتدائية وأجنحة الفرح تكاد تطير بي إلى السماء، وكان بإمكاني الذهاب إلى حي بيلزانسي عبر إحدى وسائل المواصلات المتوفرة، لكنني فضّلت المشي رغم بُعد المسافة، لأستمتع بنسائم البحر العليلة فقط، التي أعلنت بخجل عن قرب توديع المدينة لفصل الصيف، وأيضاً لأتلذّذ باسترجاع ذكرياتي السابقة في الميناء.

الميناء الذي لعنت الخطوة الأولى التي قادتني إليه، قبل أن تتحوّل في نظري إلى خطوة مباركة بتوجيه رباني محكَم، فقد غيّرت

مسار حياتي إلى الأبد، وساقتني إلى شعور مبهم غامض لم أعرف له مثيلاً من قبل.

نعم، إنه الحب، ذاك النور العلوي الذي يخترق ظلمة الحياة وطريقها الموحش، ولا يمنحه الربّ إلّا لأبنائه البارين المخلصين.

وأنا مقتنعة بأنّ حادثة الميناء كانت قدراً ربانياً لا أستطيع ولا أريد فَهم تفاصيله.

عندما فقدتُ وعيي يومها إثر التدافع الشديد، لم أدرِ كم استغرق ذلك من دقائق أو ربما ساعات، ولم أستعِدْ شعوري بما حولي إلّا وأصوات متداخلة تنفذ إلى سمعي، ففتحت عيني بصعوبة بالغة وآلام رهيبة تجتاح جسدي المتهالك.

وجدتني مستلقية فوق سرير قذرٍ في غرفة ضيقة حقيرة، ووجوه مستغربة تتطلّع إليّ في فضول.

لكنني لم أعِرْها أيّ اهتمام، فقد توجّهت ببصري ناحية ذلك الشاب الذي تذكّرت ملامحه بصعوبة بعدما تلقفني بين ذراعيه عندما سقطت، ولم أحتج إلى الكثير من الذكاء حتى أتبيّن أصوله الحقيقية.

- هل أنت بخير؟

قالها بفرنسية سليمة ونبرة هادئة، فتفرّست في ملامحه لبعض الوقت وأنا عاجزة عن النطق، كما لو أنّ مخدّراً قوياً يسري في عروقي، لأنتفض بعدها بشكل مفاجئ:

- الحقيبة! الحقيبة! أين هي؟

قلتها وأنا أنهض من الفراش القذر وأبحث كالملسوعة عن حقيبتي، فأمسك الشاب بكتفي ليمنعني من التقدّم، ورغم اللّذة الخفية التي اجتاحت كلّ شبر في جسدي الصغير إثر لمسته القوية الحازمة، إلّا أنني قاومته باستماتة، فقال بالعربية معتقداً بأنني لا أفهمها:

- يا لها من مجنونة!

فأجبته باللغة نفسها:

- لا مجنون هنا سواك، ابتعد عن طريقي وإلا قتلتك!

كان ردّي الهجومي مفاجئاً له، فاتّسعت عيناه في دهشة حقيقية، وتراخت قبضته المُمسكة بكتفي وهو يقول:

- حسناً، حسناً، كما تريدين، لا تقلقي، حقيبتك في الحفظ والصون.

قرن قوله بالفعل وهو يزيح عن طريقه بعض الفضوليين الذين تجمهروا حولنا في الغرفة، ويسلّمني الحقيبة التي تظاهرتُ بقدرتي على حملها، رغم تعبي الشديد وثقلها الذي لم تكن بُنيَتي الضعيفة تسمح بتحمّله.

خرجتُ من الغرفة التي كانت مجرّد مخدع حقير لأحد حراس الميناء، وغالباً أحضرني إليها الشاب بعد فقداني الوعي للاطمئنان على حالتي، فلفحتني أشعّة الشمس اللاهبة وأسقط في يدي وأنا أعلم في قرارة نفسي أنّ الوصول إلى عنوان منزل عائلتي لن يكون سهلاً، كيف لا وهذا يومي الأول في مارسيليا، وأنا لا أعرف أحداً هنا!

لا داعي للقول بأنّ خلافي الحادّ مع أفراد عائلتي حول مغادرة الجزائر قد تسبّب في حدوث قطيعة لم تكن تسمح لأحدهم بانتظاري في الميناء، كما أنّ الأحداث العصيبة التي مررتُ بها في وهران سواء يوم المجزرة أو بعدها منعتني حتى من إرسال برقية مستعجلة تُعلمهم بقدومي.

- تعالي إلى هنا أيتها المجنونة، حقيبتكِ أثقل من أن تحمليها لوحدك!

تعمَّد قولها بالعربية ليلفت انتباهي، لكنني تجاهلته، أو ربما تظاهرتُ بذلك لا أدري، المهم أنني واصلتُ طريقي بالإصرار نفسه، لكنه سبقني بخطواته الحازمة وحاصَرني بجسده ليمنعني من التقدّم.

سحنته غريبة قليلاً، فقد تعوّدت على صورة نمطية معيّنة للعرب، هو أبعد ما يكون عنها، كما أنّ لغته العربية تحمل لكنة غريبة لم أعرف ولم أسمع مثلها في وهران.

- لماذا تلاحقني؟ ابتعدْ عني! نعم أنا مدينة لكَ بمعروف، لكن هذا لا يمنحك أيّ حق في ملاحقتي! مَن أنت؟

داعب الشارب الأسود الذي يزين وجهه الحليق، كتعبير عن الثقة بالنفس، قبل أن يقول:

- نحن نشبه بعضنا يا آنستي، تائهان في أرض بعيدة وغريبة عنا!

انتبهت لأول مرة إلى أنه يحمل أيضاً حقيبة سفر، وإن كانت أصغر من حقيبتي، لكن كلامه استفزّني للغاية، فأجبته بحدّة:

- نشبه بعضنا؟ هل جننت؟ مَن تحسب نفسك أيها الأخرق المتخلّف؟

اعتقدتُ بأن كلامي سيُغضبه، لكنه صدَمَني بردّة فعله الباردة، بعينيه السوداوين العميقتين، بابتسامته الواثقة التي كشفت عن صفّين من الأسنان البيضاء المتناسقة.

- حسناً، أنا عرضتُ المساعدة من باب الإنسانية فقط، لكنك مجنونة ومتعجرفة أيضاً، تدبَّري أمرك فهذا شأنك، أنا أعرف طريقي، فابن عمي ينتظرني غير بعيدٍ عن هنا في حي بيلزانسي كما شرح لي في رسالته، مع السلامة.

قالها ثم واصل طريقه مبتعداً عني بلا اكتراث. . .

نعم، أنا محقّة في كلامي، مَن يحسب نفسه هذا المغرور القذر؟ منذ متى كان أمثالي على درجة المساواة نفسها بأمثاله من الأوباش؟

ولكن. . .

- **هيه، انتظر أرجوك!**

كان قد ابتعدَ بمسافة معقولة، لكنني لم أغفَل ابتسامته الساخرة عندما استدار وعاد نحوي ليحمل عني الحقيبة ببساطة.

- **ما اسمك؟**

- **بريجيت، بريجيت نوسي. . .**

- **قادمة من وهران، أقدام سوداء، أليس كذلك؟**

حدَجته بنظرة كادت تحرقه بنيرانها المتوقّدة، فأطلق ضحكة ساخرة قال بعدها:

- **فهمت، ما علينا، أنا اسمي أحمد. . .**

- **أعراب الجزائر؟**

قلتها مقاطِعَة، فتغيّرت سحنته وانعقد حاجباه في غضب وهو يقول:

- **أوف، ألن تتوقفي عن إطلاق مصطلحاتك العنصرية الغبية؟ لقد مللت! مَن تحسبين نفسك؟**

ثم أضاف:

- **أمّا عن سؤالك، فأنا لست جزائرياً، بل مغربي، لقد رأيتِ بأمّ عينك كيف تصادف وصول سفينة وهران مع رسو السفينة القادمة من المغرب.**

احمرّت أذناي في خجل، وتسارعَت دقات قلبي وقد حارَ عقلي

في وصف ردّة فعله، هل هي دقات غضب، فأنا لم أتعوّد أن يخاطبني أحد مهما كان بمثل هذه النبرة، أم أنها دقات سعادة، فأنا لم أتعوّد أيضاً على هذا الشعور اللذيذ بالضآلة والضعف أمام رجل، مهما بلغت قوته!

- بالمناسبة، حقيبتك كبيرة وثقيلة فعلاً، هل أحضرت معك كلّ وهران إلى هنا أم ماذا؟

قلت بلهجة مائعة تعمّدت في سرّي أن أغيظه بها:

- هذا ليس من شأنك!

* * *

لم أتمالك نفسي عندما وصلت ذكرياتي إلى هذه النقطة، فأطلقتُ ضحكة جذلة عالية انتبه لها بعض المارة، فتجاهلتهم مواصلة المشي بخطوات متسارعة تحوّلت إلى ما يشبه القفز.

لم يجانب الأب فرانسوا الصواب عندما قال بأنني سأندمج بسرعة في مارسيليا، فهي تشبه حبيبتي وهران إلى حدٍّ كبير، في مناخها وطبيعتها وطرازها المعماري و...

والجحافل المغاربية المتخلّفة التي لحقت بنا إليها...

عجيبة هي السرعة التي حوَّلوا بها أحياء بيلزانسي وبانيي ونوايل وسط المدينة إلى ما يشبه المستوطنات، وقد نقلوا إليها تخلّفهم وفقرهم وبعدهم التام عن كلّ مظاهر الحضارة والرقي.

مبانٍ قذرة، أسواق تقليدية عفنة، ووجوه مخيفة توحي بالشرّ المستطير والسادية المطلقة!

نعم، تضمّ هذه الأحياء بين جنباتها مزيجاً من الأجناس المتنوعة الأخرى، إيطالية وكورسيكية ولبنانية، لكن اجتياح شمال

أفريقيا لا مثيل له بحقّ، سواء تعلّق الأمر بالجزائريين أو التونسيين أو حتى المغاربة.

أستغرب فعلاً كيف يُشاطرهم أحمد الأصول الوضيعة نفسها، كيف تجري في عروقه الدماء القذرة نفسها، مستحيل!

لا، أحمد فارس نبيل لا علاقة له بهم، بل أشكّ حتى في انتمائه إلى زمننا هذا أصلاً!

دخلت إلى حيّ بيلزانسي من الناحية الجنوبية، لأنها الأقرب لمسكن أحمد، في التقاطع بين لاكانبيير ونوايل، ومررتُ بجانب قاعة أفراح ألكزار العريقة، والتي سمعتُ بأنها قد بنيت في القرن التاسع عشر وتحوّلت الآن إلى سينما.

قاعة شهدت البدايات الأولى والمجد الخالد لعددٍ من المبدعين والفنانين، كإيف مونتان وتينو روسي، والحسناء داليدا أيضاً.

لكنها الآن أقرب إلى الذبول، ولا أستبعد إغلاقها في أقرب وقت، وهذا طبيعي، فلا مكان للإبداع الراقي في وسط يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى بؤرة للفقر والتخلف.

فليذهبوا إلى الجحيم! فلا مكان لهم هنا، وسأظلّ أردِّدها حتى آخر نَفَسٍ في صدري!

اقتربتُ من البناية التي يضم طابقها الثالث مسكن أحمد، فصمَّت أذني أصوات منبعثة من محل بقالة عربي الطابع.

لم تكن سوى أغنية مشهورة بينهم، يصدح بها جهاز فونوغراف عتيق، ومن فرط تكرارها خيِّل إلي أنها أشبه بنشيد وطني يستقبلني كلما قادتني قدماي إلى حي بيلزانسي.

يا الرايح وين مسافر تروح تعيا وتولي
شحال ندمو العباد الغافلين قبلك وقبلي

شحال شفت البلدان العامرين والبر الغالي
شحال ضيعت أوقات وشحال تزيد ما زال تخلي

رغم حنقي من تكرارها المملّ ولحنها الحزين، إلّا أن فضولي دفعني لأسأل عنها أحمد في السابق، فشرح لي بأنها أغنية جزائرية لمطرب اسمه دحمان الحراشي، وترمز كلماتها لمعاناة المهاجرين وشوقهم إلى أوطانهم الأصلية.

أحمد...

تناسيتُ كلّ هذه التفاصيل وأنا أتذكر اسمه، فدخلتُ إلى المبنى وصعدتُ الدرجات بخطوات سريعة، وأنا أستغرب في سرّي عادتهم العجيبة في ترك أبواب شققهم مفتوحة، تنبعث منها روائح طبخهم، وصراخ أطفالهم ولغط نسائهم.

هممتُ بطرق باب شقة أحمد ففوجئتُ به يفتحه قبل أن تصل يدي إليه، ويجذبني إلى الداخل.

- **أيها المجنون، كدتَ تكسر يدي!**

قلتها بدلال وأنا أقبّله، فابتسم وهو يجيبني:

- **اعذريني يا بريجيت، أنت لا تفهمين طبيعة عاداتنا وتقاليدنا هنا...**

لم أتمالك نفسي من شدّة شوقي إليه فقاطعتُ كلامه وعانقته بقوة، ولأنّ فارق الطول بيننا واضح فقد تداركه هو عندما أمسك بفخذي ورفعني إليه بسهولة، فطوّقت ظهره بساقي وعنقه بذراعي، ثم قبّلته في وجهه وعنقه بنهم شديد، فيما قادني هو إلى غرفة النوم.

تسابقنا حول مَن ينزع ملابس الآخر بسرعة، ليرميني بعدها بعنف على السرير وأنا عارية تماماً، وعندما أقبلَ علي استوقفته بحركة سريعة من يدي:

- في جعبتي أخبار سعيدة يا حبيبي.

بدا لي أنه يصمّ أذنيه عن سماع أيّ شيء، وقد انشغلت أصابعه الطويلة بمداعبة كلّ شبر في جسدي، ورغم أنّ اللذة قد أعمَت بصري وعطّلت كلّ حواسي الأخرى، إلّا أنني واصلتُ كلامي قائلة:

- الخبر الأول هو تسوية وضعيتي القانونية أخيراً، سأتسلم عملي كمعلمة للغة الفرنسية بمدرسة أودو الابتدائية، أما الخبر الثاني فهو عثوري على واسطة متنفذة، وعدني صاحبها بتدبّر عمل إداري يليق بك وبمستواك، في ميناء مارسيليا الرئيس.

أطلق صيحة فرح عندما بلغتُ هذه النقطة، حتى أنه عجز عن التفوّه بكلمة واحدة، معوّضاً ذلك بإغراقي في قبلة طويلة كدتُ أفقد معها وعيي من شدّة الإثارة.

لكنه فاجأني بحركة غريبة لم تسمح حالتي وقتها بفهمها، فقد حدج السلسلة التي يتدلى منها الصليب الفضي حول عنقي بنظرة طويلة قبل أن ينتزعها من صدري بحركة قوية ويرميها جانباً في احتقار.

لم أهتم بما فعله، فقد ضمّني بعنف إلى صدره وأنا أتأوه من فرط اللذة، ثم....[1]

* * *

(1) وجدتُ أنّ صفحتين من كرّاسة مذكّرات بريجيت نوسي قد تمَّ تمزيقهما بشكلٍ متعمَّد عند هذا الحدّ، ولا تفسير لذلك في نظري سوى أنّ الراحلة قد مزَّقتهما لسببٍ معيّن، أو أنّ الراوي مزَّقهما في تعبير عن الامتعاض الشديد أو ربما الغيرة بعد تمادي أمه في وصف تفاصيل علاقتها الحميمية بهذه الجرأة، وشخصياً أميل إلى التفسير الثاني، فهذا متوقّع ومفهوم بحسب رأيي.

6- قصة صراع

الثلاثاء 4 أغسطس 1992

بين مقبرة لاف ومستشفى كوشيفو - سراييفو:

انفضّت الجموع المتحلّقة حول شواهد القبور، وتعالى صراخ النساء والأطفال بعدما أصابت القذيفتان أطراف المقبرة، وانبطح الجميع أرضاً، بمن فيهم أنا والشاب، فيما انشغل صحفيان رافقا الجنازة بتوثيق هذا المشهد المرعب بكاميراتهم.

لكن، هل تستطيع صورة أو مقطع فيديو أو حتى قلم أمسكه بين يدي الآن وأنا أكتب، وصف هذا الهول؟

لا أظنّ ذلك، فأن يلاحقك الموت إلى أرض الموتى، هذا تخصّص صربي لا مثيل له ولن ينافسهم عليه أحد!

صرختُ بكل ما أوتيت من قوة:

- جميعكم بخير؟ هل أصيب أحدكم بمكروه؟

ضاعت صرختي بلغتها الإنجليزية في العدم، ليكرّرها الشاب بلغته البوسنية، فتكلم بعضهم وأعطوا إشارات فهمت منها أن أحداً لم يُصَب بأذى.

بدأ بعضهم بالنهوض، النساء متحلّقات حول الأطفال،

والرجال يتظاهرون بحماية الجميع من خطر مجهول، محاولين الابتعاد ومغادرة المقبرة في أسرع وقت ممكن.

لكن الرصاصات الصربية كانت أسرع...

- الأوغاد، إنه كمين، القذائف والرصاصات آتية من الشمال، ابتعادنا عن دائرة الاستهداف في الجنوب إلى ما وراء نهر ميلجاكا لا يعني انحسار الخطر عنا، فالحصار يُطبِق على المدينة من كل ناحية!

لم أكُن بحاجة إلى هذا الشرح الذي قدّمه الشاب، فقد توجَّهت بسرعة غالبتُ بها كلّ خوفي إلى مكان تجمّع البعض ممّن لم يحالفهم الحظ في مغادرة المقبرة بسرعة.

فوجئت بهم متحلّقين حول عجوز تسيل الدماء من ساقها بغزارة، وبعض الأطفال حولها يبكون قائلين:

- باكا روجا، باكا روجا!

كنت أعلم أنّ محاولة التواصل معهم لن تضيع منّا سوى لحظات ثمينة نحن بأمسّ الحاجة إليها، فاكتفيتُ بالصمت وأنا ألقي نظرة على ساقها اليمنى المصابة.

في جميع الأحوال، تفُوْق الإصابات بالطلقات النارية أو شظايا القذائف قدرتي أنا أو أيّ مُسعِف آخر على تقديم أيّ شيء ملموس قبل نقل المصابة إلى المستشفى، فكان هدفي الأساسي إيقاف النزيف قدر الإمكان.

أخرجتُ من جيب سترتي منديلاً نظيفاً، ثم ضغطتُ به على موقع الجرح في ساق العجوز، وحاول بعض أقاربها إسناد رأسها لكنني منعتهم من ذلك لعلمي بضرورة إبقاء الرأس في مستوى الجسم نفسه في البداية، ثم حدّثت العجوز مكرراً الكلمات نفسها التي ردّدها الأطفال رغم جهلي بمعناها الحقيقي:

- باكا روجا، باكا روجا...

فتحت عينيها بصعوبة ورمقتني بنظرات خاوية، قبل أن تغلقهما مرة أخرى، فأدركتُ بأنها ما زالت محتفظة بقليل من وعيها بعد ضغطي بطرفي سبابتي ووسطاي على رسغها في جهة الإبهام، للتأكّد من وجود نبض.

فتحتُ بعد ذلك فَمها لأتأكّد من أنّ لسانها لا يعيق تنفسها، وأشرتُ إلى الشاب الذي ساعدني على نقلها بسرعة وحرص إلى جانب أحد القبور، فرفعتُ رجلها المصابة فوق مستوى القلب وأسندتها إلى شاهد القبر في محاولة للتقليل من تدفق الدم إليها وإيقاف النزيف ولو بشكلٍ جزئي، ثم قمتُ بتعديل وضعية رأسها لتصبح ذقنها مرفوعة إلى أعلى، ما قد يساعد على فتح مجرى تنفسها بشكل أفضل.

قدَّم إليّ أحد الحاضرين قارورة ماء وهو يشير بإصبعه إلى العجوز، فمنعته من ذلك، نحن أمام مصابة تحتاج إلى عملية جراحية عاجلة، ما يعني أنّ تقديم أيّ طعام أو شراب إليها لن يكون أبداً في صالحها.

قدرت مرور عشر دقائق على ضغطي على موضع الجرح بالمنديل، ورغم تحوّل لونه الأبيض إلى الأحمر، إلّا أنني لم أنزعه، بل ناديتُ الشاب الذي سلّمني منديلاً آخر وضعته فوق الآخر مواصلاً الضغط.

كلّ هذا وأنا أبذل كلّ ما في وسعي لتجاهل أصوات البكاء والصراخ التي أحاطت بي، خاصة بعد توقف إطلاق النار، فأنا أضعف بكثير من أن أتحمّل كلّ هذه المعاناة!

لست خبيراً بإصابات القذائف والطلقات النارية، فهذه أول مرّة

أتعامل معها بشكل فعلي، لكن معاينة الجرح والثقب الكبير الذي خلَّفه لم تدَع أيّ مجال للشك في أنها طلقة نارية وليست شظية قذيفة، ولو أنّ الوقت كان في صالحنا لتمكَّنت من تحديد سبب الجرح بدقة، هل هو ناتج عن دخول الطلقة أو خروجها، لكن هذا لم يكن مهماً في تلك اللحظة[1].

- هيه، أطلب من أقارب العجوز التعاون على حملها بحرص، وليواصلوا الضغط على الجرح ما أمكن، وليحذروا من إمالة رأسها، وأنت قدني إلى مستشفى كوشيفو حتى أتولّى مهمة إعداد غرفة العمليات هناك، من حسن حظنا أنه لا يبعد سوى بأمتار قليلة عن المقبرة! أليس كذلك؟

أطاعني بحركة من رأسه، ثم وجّه كلامه إلى أقارب العجوز فنفَّذوا أوامره بالحرف.

وهكذا تبعت الشاب الذي أرشدني إلى موقع المستشفى، وأنا منشغلٌ بالاطمئنان من بعيد على العجوز وأقاربها، وأيضاً الصحافيين المنهمكين في توثيق اللحظة بعدساتهم[2].

---

(1) أرى أنه كان بإمكان الراوي الاكتفاء بالقول إنه أسعَفَ العجوز، لكنه أصرَّ كأيّ طبيب متمرّس على ذكر كلّ هذه التفاصيل المتعلقة بعمله، تجدُر الإشارة إلى أنها لن تكون المرة الوحيدة التي يقوم فيها بذلك خلال كتابته لمذكراته!

(2) حادثة استهداف مقبرة لاف في أثناء تشييع جنازة الطفلين المذكورين مشهورة وموثّقة كما قلت، وقد راجعت مقطع فيديو للحادثة، تمكَّن أحد الصحافيين من تصويره، عدّة مرات، وهو متوفّر حالياً على موقع YouTube لمن يريد الاطّلاع عليه، لكنني لم أتمكّن لسوء الحظ من التعرّف على الراوي نظراً إلى اهتزاز الصورة والفوضى الكبيرة التي صاحَبَت سقوط القذائف وإطلاق النار على المكان.

نعم، هي أمتار قليلة تفصل مقبرة لاف عن مستشفى كوشيفو، لكنها كانت أولى خطواتي نحو المجهول...

* * *

- أنا بانتظار التتمّة...

رمقني الشاب باستغراب قبل أن يقول:

- التتمة؟ أية تتمة؟

عقدتُ ساعدي خلف ظهري كعادتي عندما أشرع في التفكير، ثم أجبته:

- لقد تمكّنا ولحسن الحظ من إنقاذ باكا روجا، أو الجدّة روجا، فقد أتينا بها إلى هنا في الوقت المناسب، وأنا معجب حقاً بحنكة الطاقم الطبي الذي يعمل في ظروف بالغة السوء بسبب ضعف الإمكانات، الآن وبعد الاطمئنان عليها أنت مُطالَب بإكمال فصول القصة التي بدأتها في المقبرة!

أطلق ضحكة غريبة لا تتناسب مع الأجواء التي تعمّ المكان، لكنه استدرك الأمر بالقول:

- حسناً كما تريد، لكن قبل ذلك، ألا ترى معي أنّ ما حصل قبل قليل فيه من سخرية القدر ما لا يخفى على أحد؟

- ماذا تقصد؟

- قَدِمَت الجدة روجا إلى المقبرة لتشييع جنازة حفيدتها فيدرانا غلافاش فكادت تلحق بها إلى العالم الآخر، مَن كان يتخيّل هذا؟

شردتُ ببصري بعيداً وأنا أقول:

- ربما لأنّ الموت هو الحقيقة الثابتة الوحيدة التي يحسبها الجميع مجرد وهم...

قلتها بصوت خافت كأنما أخاطب نفسي، كما أنّ الشاب لم ينتبه لها، فقد واصل كلامه بالنبرة الهادئة نفسها:

- عندما قرَّر البوسنيون الحصول على استقلالهم عارض الصرب ذلك بشدّة وهدَّدوا بإغراق البلاد كلها في حمّام دم، وبدا واضحاً أنها تهديدات جدّية وأنهم خطَّطوا لهذا السيناريو بعناية، وهنا يجب أن أشرح لك بعض الأمور حتى أوضح لك الصورة بشكل أفضل.

قادنا سيرنا إلى ردهة جانبية وجدت فيها صنبور مياه، فتوجّهت نحوه مباشرة وفتحته لأروي عطشي، لكنني لم أتمتع بنقطة ماء واحدة.

- ألا تعلم بأنّ خطوط المياه مقطوعة؟ والكهرباء كذلك؟ لقد تحوّلت المسألة إلى ما يشبه لعبة القط والفأر بيننا وبين الصرب، هم يقصفون الخطوط ونحن نتحدّاهم بإعادة إصلاحها، مشكلتنا الوحيدة هي مع إمدادات الوقود التي لا تدخل إلى المدينة باستمرار بسبب الحصار.

كل هذا معلوم ومفهوم، لكن العطش الذي استبدّ بي كان شديداً، وبدا ذلك واضحاً على محيّاي رغم محاولتي إخفاء ذلك، فقد ابتسم الشاب وهو يمسك بيدي ليقودني إلى غرفة استراحة الأطباء ويقول بلهجة ذات مغزى:

- تدبّر أمرك، لقد مكنتك مشاركتك في العملية الجراحية التي أنقذت الجدة من ربط علاقات سريعة بطاقم الأطباء...

ثم غمزني مضيفاً:

- والممرضات...

استغربتُ في قرارة نفسي محافظته على روح السخرية والدعابة

رغم كلّ هذه الكوارث، إلّا أنني تجاوزت هذا عندما وجدتُ أمامي في غرفة الاستراحة ممرضة شابة كانت ضمن الطاقم المكلّف بإجراء العملية، تذكرتها لأنها الوحيدة التي قابلتها هنا بشعر أسود فاحم وعينين عسليتين، ما جعلها مختلفة تماماً عن كلّ مَن قابلتهم في سرايفو منذ قدومي إليها، كيف لا وقد ذكّرتني ب. . .

لا، ليس هذا وقت استرجاع ذكريات الماضي، فالحاضر يناديني الآن ولا بد لي من تلبية دعوته. . .

- لو تأخّر إنقاذك للجدة روجا لتعرّضت ساقها للكسر أو البتر، شكراً جزيلاً لك على تعاونك، طاقم مستشفى كوشيفو كله مدينٌ لك، و. . .

قاطعها الشاب متكلّماً بلغته البوسنية، وبدا من نبرته أنه يستحثّها على تجاوز هذه الرسميات، فصمتت وهي تشير إليّ حتى أتبعها إلى داخل الغرفة.

قادتني إلى خزان مياه صغير، ثم التقطَت كوباً بلاستيكياً نظيفاً وملأته وهي تقول:

- آسفة، لن يكون مسموحاً لك بتجاوز كوب واحد فقط، هذه هي التعليمات، ومخزون المياه محدود جداً، كما أن الأولوية هي للمرضى و. . .

رغم ما في الأمر من انعدام للياقة، إلّا أنني تظاهرت بعدم الاهتمام بما قالته وأنا أدفع ما في الكوب إلى جوفي مرة واحدة، قبل أن ألتفت إليها قائلاً:

- ما اسمكِ؟

أجابتني ببراءة:

- مديحة، مديحة بيتروفيتش!

فقلت بحدّة:

- أشكرك!

ثم غادرتُ الغرفة بحركة فجائية لا بد أنها أصابت الممرضة بالذهول وربما الشك في قدراتي العقلية...

* * *

- يخيَّل لمن يقابلك أول مرة أنك كتلة من الغموض تتمشى على قدمين، لكنك أبسط وأوضح بكثير ممّا ظننت...

- ماذا تقصدين؟

- أنتَ تداري خجلك وضعفك تجاه النساء بمعاملتهن بفظاظة وقسوة غير مفهومة، ولا تفسير لذلك في نظري سوى تعلُّقك الشديد بأمك.

- أنتِ تبالغين...

- بل أنتَ الذي لا يعرف عن نفسه شيئاً يا عزيزي، وأعتقد بأنني سأتولى هذه المهمة رغم صعوبتها!

- أشكركِ، لكن لماذا أنا بالذات؟

- ألا تفهم؟ لأنني أحبك أيها الأبله![1]

* * *

وكما لو أنّ الأمر يتعلق بآلة تسجيل حديثة، لم ينتظر الشاب جلوسي إلى جانبه في مقاعد الاستراحة بالمستشفى حتى يواصل سرده الشيق للأحداث بتلك النبرة المميزة نفسها التي تجعلني منتبهاً لكلّ كلمة يقولها:

(1) لا أدري ما علاقة هذا المقطع بمحتوى الفصل، لكنني نقلته كما كتبه الراوي في أوراق مذكراته، وقد يتكرَّر هذا الأمر مع مقاطع وفصول قادمة!

- للبوسنة والهرسك خصوصية جغرافية وتاريخية وعرقية لا مثيل لها في كلّ أوروبا، ورَغم وجود بعض المناطق الخاصة بكلّ قومية تسكنها الأغلبية التي تمثلها، إلّا أنّ السمة الغالبة هي وجود تداخلات بين القوميات الثلاث في معظم المناطق، بكلّ ما يحمله ذلك من إرث تاريخي وديني، أقصد بالتاريخ ذلك العداء القديم بين القوميات، إذ يتّهم الصرب الكروات مثلاً بالتعاون مع النازيين في الحرب العالمية الثانية على تنفيذ بعض الجرائم الوحشية، فيما ينظر هؤلاء للمسلمين على أنهم من بقايا الإمبراطورية العثمانية، أمّا في ما يخصّ الدين، ففي البوسنة ترتبط القومية بشكلٍ وثيق به، البوشناق بالضرورة مسلمون، والصرب مسيحيون أرثوذكس والكروات مسيحيون كاثوليك، وهذا ما ساهَمَ في تحويل التهديدات الصربية بإغراق البلاد في الدم إلى حقيقة، فقد بدأت ما يمكن اعتبارها حرب فتاوى دينية كانت السطوة فيها للتشتنيك الذين نالت ميليشياتهم المسلحة تصريحاً خاصاً من الكنيسة الصربية الأرثوذكسية بذبح الأعداء واغتصاب النساء، وأعتقد بأنّ هذه الجرائم المروعة هي السمة المميزة لحرب قذرة كهذه، رغم أنّ هاته التشنجات لم تجد طريقها إلى كثيرٍ من المناطق إلّا بعد اشتداد الشحن والحشد القومي والديني الممنهج في وسائل الإعلام، تصوّر معي أنه كان من الطبيعي مثلاً أن تجد بعض القرى التي لا يربي مسيحيوها الخنازير احتراماً لمشاعر المسلمين، وفي المقابل تجد مسلمين حاضرين في قداس عيد الميلاد لتهنئة النصارى بأعيادهم، كما أنّ علاقات الزواج والمصاهرة بينهم كانت عادية ومألوفة جداً، المهم أنّ اندلاع المعارك بعد إجراء البوسنيين لاستفتاء على استقلالهم واكَبَه اطمئنان صربي وكرواتي إلى وجود دعم مادي وعسكري ممّا يمكن اعتبارها

الجمهوريات الأم صربيا وكرواتيا، مقابل بقاء مسلمي البوسنة بلا أيّ دعم خارجي، كما أنّ التجاهل الأميركي والأوروبي لما يقع لم يكن ليخفى على أحد. . .

اعتقدت بأنه أنهى كلامه، وربما أحسّ هو بإطالته في الشرح، فقد قال مبتسماً:

- أعترف بأنني أطلتُ قليلاً في الكلام، لكنني شارفتُ على النهاية، بقيت فقط نقطة واحدة تستوجب الشرح، وتتعلّق بالحالة الفريدة للعاصمة سراييفو.

أجبته بلهجة حاولتُ أن أجعلها مرحة:

- ذاكرتك ضعيفة يا عزيزي، بقيت نقطتان، اشرح لي الأولى، وسأذكّرك بالثانية في حينه!

فرك الشاب عينيه في تعبير واضح عن الإرهاق، ومدّ رجليه باحثاً عن تنشيط دورته الدموية، قبل أن يُكمل كلامه:

- قلت بأن سراييفو تتمتع بحالة فريدة من التجانس العرقي والديني المميز، ما جعل الكثيرين يطلقون عليها لقب قدس أوروبا، فقد سكنها الصرب والكروات مع أغلبية مسلمة، كما أنها تضمّ بين جنباتها عدداً كبيراً من المساجد الأثرية والكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية وحتى الكنس اليهودية، ولم تشهد يوماً مثل هذا التمزّق الذي انطلق بشكل فعليّ ومباشر شهر مارس الماضي بعد إجراء الاستفتاء الشعبي الذي أكّد رغبة البوسنيين في الاستقلال، عندها بدأت عمليات الاغتيال والقتل الممنهج، وتبعها القصف المكثف بالمدافع والصواريخ، والذي أكّد عزم التشتنيك على تحويل المدينة إلى خراب، تحت القيادة السياسية لرادوفان كاراديتش، والإشراف العسكري لراتكو ميلاديتش، وهما من صرب البوسنة طبعاً، وحدث

كلّ هذا على حين غرة، ولم تجد سراييفو ما تدافع به عن نفسها سوى نحن!

وأضاف بلهجة ذات مغزى:

- أعلم أنك تنظر إليّ بعين الاستغراب، فتسريحة شعري العابثة وملابسي الغريبة وأقراط أذني تتعارض بشكل تام مع هذا الإلمام بتفاصيل ما يجري من حولي، لكنها الحرب بكلّ تناقضاتها وعجائبها التي لا تخفى على أحد، على أية حال، قلت لك في السابق بأنّ الصرب كانوا مسيطرين بشكل تام على كلّ ما تبقى من الجيش اليوغوسلافي، وعليه فإن مفهوم جيش بوسني لا وجود له على الإطلاق، ولم تشكّل نواته الأولى إلّا قبل أسابيع قليلة، وعندما بدأت الاشتباكات هنا بيننا وبين التشتنيك، وهو مصطلح نقصد به المتطرفين الصرب، كان المشهد سريالياً عجيباً ولو قدّر لك أن تعاينه لفغرت فاهك في دهشة.

أطلق ضحكة قصيرة أكمل بعدها:

- تخيَّل معي أنّ مَن دافعوا عن سراييفو وطردوا منها التشتنيك الذين عاثوا فساداً وقتلاً واغتصاباً في الأبرياء، كانوا في معظمهم شباباً عابثين من أمثالي، تخيّل معي شاباً يقاتل دفاعاً عن أرضه وهو يرتدي قميصاً طبعت عليه صورة مايكل جاكسون أو أعضاء فرقة سكوربيونز، ويحلق شعره بطريقة غريبة ويرتدي قرطاً، ولم يسبق له أن أمسَكَ بين يديه مسدساً أو قاذفة صواريخ، كلّ هذا لأنّ ما حصل كان أكبر من قدرتنا على التصديق أو الفهم، ولم نعرف سوى أنه من واجبنا القتال حتى الموت دفاعاً عن أعراضنا، مهما كان عرقنا أو ديننا، فنحن لم نسمِّها أبداً حرباً بين المسلمين والصرب، بل خضناها كحرب بين بشر يحبون الحياة ووحوش لا تعترف بملة أو

دين، وبالفعل، رغم الفارق المهول في القوى، تمكّنا في النهاية من طردهم من المدينة ودفعهم إلى أطرافها، فرحنا ورقصنا طرباً، لكنه كان احتفالاً مؤقتاً، فهم كانوا جاهزين لضرب حصار خانق على سراييفو، في محاولة لقتلها ببطء، لكننا صابرون هنا، ومتأكّدون من أننا سننتصر في النهاية![1]

قلت في انبهار حقيقي:

- أفهم من كلامك أنك كنت ممّن حملوا السلاح دفاعاً عن سراييفو!

لم يُجبني، بل نهض من مكانه، وعدل تسريحة شعره أمام زجاج نافذة مكسورة، وهو يقول:

- أمّا العبارات التي قابلتها في جدار مبنى البريد، وهي النقطة التي حسبتَ ربما أنني نسيتها، فمعناها طريف صراحة ويدلّ على أننا نحن أبناء سراييفو لم نجد في مواجهة آلة القتل الصربية سوى الضحك وروح الدعابة، لعلّها تخفّف عنّا هول المأساة!

ثم التفَتَ إليّ مكملاً:

- العبارة الأولى ово Србија كتبها أحد المتطرفين باللغة الصربية، ومعناها «إنها صربيا» أي إن البوسنة جزء من الكيان الصربي.

شعرتُ بأنه يغالب ضحكة ساخرة وهو يضيف:

---

(1) قد لا أتفق مع كلّ ما وَرَدَ في شرح هذا الشاب لجذور المأساة البوسنية، فالمسألة أقدم وأعقَد بكثير وترتَبط بعدة تفاصيل أخرى أغفَلَها هو في سرده، سواء كان ذلك عن جَهل أو عن عَمد، وقد غالبت غريزة الباحث التاريخي في أعماقي عدّة مرات حتى لا أتدخل بمعلومات إضافية، ففي كلّ الأحوال هذه مذكرات شخصية وليست درساً في مادة التاريخ!

- أما العبارة الثانية !TO JE POŠTA, BUDALO فقد كتبها أحد الظرفاء من أبناء سرايفو، كردٍّ ساخر على العبارة الأولى، ومعناها باللغة البوسنية «إنه مكتب البريد، أيها الأحمق!».

لم أتمالك نفسي، فأطلقت ضحكة صافية حاولتُ أن أخفِّف بها من ذلك الانقباض الذي لازمني، لكنني أوقفتها بشكلٍ مفاجئ، بعدما تابعتُ الشاب ببصري وهو جالس القرفصاء ليُعيد ربط خيوط حذائه الرياضي، قبل أن ينهض بسرعة قائلاً:

- معذرة، أنا مضطرّ للذهاب الآن، لن أقول وداعاً، بل سأكتفي بإلى اللقاء، فأنا لا أدري إنْ كان هذا لقاءنا الأخير، أم أنّ القدر يخبئ لنا لقاءات أخرى!

كنت شبه مخدّر، وأنا أهتف بصوت متحشرج:

- صربي، أنت صربي! أليس كذلك؟

ضاقت عيناه وهو يحاول فهم عبارتي، ثم انتبه متأخراً للصليب الذي تدلّى من عنقه عندما انشغل بربط خيوط حذائه، فابتسم وحيّاني بحركة من رأسه وغادر المكان، دون أن يكلِّف نفسه حتى عناء الردّ على سؤالي.

ولأن قدري مرتبط دوماً بالمفاجآت، فقد ترافق غيابه عن ناظري بظهور آخر شخص أتمنى مقابلته في هذه الظروف، كيف لا وقد دلّت ملامحه الغاضبة على أنّ لقاءنا لن يكون لطيفاً وودياً كما تعودنا على ذلك في السابق...

* * *

7- الحقيقة والسراب

صفحات من مذكرات الراحلة بريجيت نوسي مترجمة إلى العربية:
الثلاثاء 18 ديسمبر 1962
بين كاتدرائية نوتردام دولاكارد وميناء مارسيليا:

هل هناك مَن هي أسعد من امرأة أخبَرَها الطبيب قبل لحظات قليلة فقط بأنها تحمل في أحشائها جنيناً في الشهر الثالث، هو ثمرة قصّة حبّ عنيفة، ناضَلَت من أجلها وحاربت الجميع؟

وهل هناك مَن هي أتعس من امرأة أخبَرَها حدسها الأنثوي بأنّ حبيبها قد تغيَّر فعلاً ولم يعُد يحبها كالسابق؟

لماذا تغيّر أحمد بهذا الشكل؟ الأفريقي الوسيم الذي أنقذَتْه من جحيم الفقر والحرمان، الوغد الحقير ناكر الجميل، لماذا يُقابل إحساني بالجحود؟

أنا المخطئة، فقد اعتقدتُ بأنه مختلف عن تلك المخلوقات البائسة والمتوحِّشة!

مهلاً، لماذا كلّ هذه القسوة؟ قد يكون الفتور الذي أصابَ علاقتنا مجرّد سحابة صيف عابرة يعود بعدها حبّنا إلى سابق عهده!

أجل، حبيبي أحمد يعشقني بجنون، وبالتأكيد سينسى كلّ خلافاتنا عندما يعلَم بحملي!

تلاطَمت أمواج الشكّ والتردّد في أعماقي، وأنا حائرة بين حبي وتوجّسي، فرسمتُ علامة الصليب ودعوت الربّ في سري، راجية منه أنه يمنحني قوة أنا بأمسّ الحاجة إليها.

هو خبر واحد سألقيه على مسامع حبيبي، خبرٌ سيمرّ بي من عنق الزجاجة ليصلني بإحدى النقطتين، إما نقطة اللقاء، أو نقطة اللاعودة.

رفعتُ رأسي لأجد أمامي، على مرمى البصر، كاتدرائية نوتردام دولاكارد، والمعروفة هنا باسم كاتدرائية الأم الطيبة.

انتابني حماسٌ عجيب، فأسرعتُ الخطى وأنا أتّجه نحوها بنشاط متزايد.

لم يكن الوصول إليها بالأمر السهل، فهي متموقعة بين تقاطع حيّ روكا بلان وحي فوبون، على مرتفع يبلغ علوّه المئة وخمسين متراً تقريباً، كما يتطلّب صعود الدرجات المفضية إلى الكاتدرائية لياقة بدنية عالية.

كانت رغبتي في الوصول أقوى، فلم أشعر بأيّ تعب رغم المجهود المبذول.

نعم، إنها رغبتي الصادقة في خدمة الربّ، تبارك اسمه المقدّس في السماوات!

لستُ ملمَّة بالتفاصيل التاريخية، كلّ ما أعلمه عن الكاتدرائية أنها بُنيت منتصف القرن التاسع عشر على أنقاض كنيسة قديمة يعود بناؤها إلى القرن الثالث عشر.

سحرتني الهندسة المميزة والأسوار الضخمة لمبنى الكاتدرائية، وحتى الأيقونات والزخارف المنمّقة التي تجسِّد بروعة بالغة صور القديسين والشهداء، ما منحني شعوراً قوياً بالسكينة والأمان.

كانت الكاتدرائية شبه فارغة من الداخل، فليس هذا وقت الزيارات المعتادة للمؤمنين المخلصين.

لم أجسر على التقدّم أكثر نحو المذبح في القاعة الرئيسة، مكتفية بالتطلّع إلى مجسَّم العذراء المقدّسة، حتى خيِّل إليّ أنها تراقبني من موقعها العلوي بحنوّ بالغ.

تحسَّستُ بطني بأنامل مرتجفة وأنا أفكِّر في المستقبل...

يا تُرى هل كانت مشاجراتنا الأخيرة عفوية؟ أم أنّ الوغد يخطِّط لشيء ما واتّخذ قراره بالتخلي عني منتظراً اللحظة المناسبة فقط؟

لا، مستحيل، أحمد شهم خلوق وأنا لم أحبّ أحداً سواه، والطفل الذي سأنجبه بعد أشهر قليلة هو ابنه، ثمرة هذا الحب!

هدَّني التعب والتفكير، فضممتُ يديّ إلى بعضهما، ثم تهاويتُ على ركبتي راكعة أمام المذبح، لأغرق في صلاة خاشعة ودموع غزيرة تبلّل وجنتي.

هبني التبصُّر والحكمة يا رب، فأنا بحاجة ماسة إليها!

وأتاني الجواب بالفعل، عندما تذكرت هذه الكلمات النورانية التي وردت في سفر يشوع بن سيراخ[1]:

(رأس الحكمة مخافة الله، إنها تولَّدت في الرحم مع المؤمنين، وجعلت عشَّها بين الناس مدى الدهر، وستسلم نفسها إلى ذريتهم).

تدبَّرت معاني الكلمات بقلبٍ منشرح، فتحوّلت دموعي الغزيرة

---

(1) سِفر يشوع بن سيراخ كتاب من العهد القديم، موجود في السبعينية أو الترجمة اليونانية للكتاب المقدّس، يعمل به الكاثوليك والأرثوذكس الشرقيون ويرفضه معظم البروتستانت.

إلى ابتسامة مشرقة وواثقة حفَّزتني على المضيّ قدُماً في ما أنا عازمة عليه.

* * *

خيِّل إليّ أنني أتتبع خطوات أحمد نفسها عند ذهابه إلى عمله، بالخروج من كانبيير والمرور عبر شارع الجنة العريق، قبل الوصول إلى الميناء[1].

بحثتُ بعيني عن مكتب الاستيراد والتصدير الذي يعمل فيه أحمد موظفاً، ثم أسرعتُ الخطى وأنفاسي تكاد تنقطع، رغم تحذيرات الطبيب من الاستسلام للتوتر والإجهاد الزائد الذي قد يؤثّر على صحة الجنين.

أحمد، أنا قادمة إليك يا حبيبي...

تجاوزتُ حاويات ضخمة تملأ كلّ الأرصفة، وبعض الصناديق المعدَّة للتصدير، والتي تحمل شعاراً مميزاً لصابون مارسيليا الشهير، قبل أن أدلف إلى المبنى وأنا أنادي باسم حبيبي عدّة مرات.

تجاهلتُ عدداً من الموظفين الذين خرجوا من مكاتبهم مستفسرين عن سرّ هذه الجلبة، رغم السخرية الواضحة على وجوه بعضهم.

أطلَّ أحمد برأسه متسائلاً، فاختصرتُ الخطوات المتبقية التي تفصلني عنه وأنا أرتمي بين أحضانه، لكنه لم يربت بيده اليسرى على

---

(1) زرت المدينة سنة 2013، بمناسبة الاحتفال بمارسيليا عاصمة للثقافة الأوروبية، وأذكر جيداً هذا الموقع الذي وَصَفَته الراحلة بريجيت نوسي في مذكراتها، تجدُر الإشارة إلى أنه قد تحوَّل الآن إلى مرسى ترفيهي، أمّا الميناء الجديد المطابِق للمعايير الدولية الحديثة فقد جرى نقله إلى خليج فوس.

ظهري كما كان يفعل دائماً، بل أبعدني عنه بشيء من الخشونة التي فاجأتني.

- ما الذي يحصل هنا؟ لماذا أتيتِ؟

أمسكتُ بوجهه بين يديّ وتأملته في هيامٍ حقيقي، ثم خطفتُ من وجنته قبلة قلت بعدها:

- لا شيء، فقط اشتقت إليك يا حبيبي، هذا كلّ ما في الأمر!

لم يُجِبني، بل أمسكني من ذراعي في غلظة وهو يقتادني خارج المبنى، ولم يتوقف إلّا ونحن على حافة الرصيف، إذ لم يعُد يفصلنا عن مياه البحر المتوسط الزرقاء سوى حاجزٍ إسمنتي صغير.

- بريجيت، متى ستكفّين عن ألاعيبك الصبيانية؟

صدمتني لهجته القاسية، لكنني حاولتُ تجاهلها بما تبقّى لي من كرامة، وأنا أقول بنبرة مضطربة:

- أتسمّي اشتياقي لك ألعاباً صبيانية؟

أطلق زفرة حارة دلّت على شعوره الواضح بالضيق، ثم أجابني:

- هذا مكان عمل محترم يا بريجيت، أنا أعمل هنا بجدّ لأكسب قوت يومي، وأتحمّل سيلاً من الضغوطات الرهيبة والممارسات العنصرية البغيضة، لا أعتقد أنّ ظروفنا الحالية مناسبة لتقليد مشاهد الأفلام الرومانسية السخيفة، مفهوم؟

قلتُ بلهجة حازمة:

- أحمد، أجبني بصراحة، تحبني أم لا؟

أشاح بوجهه هارباً من نظراتي القلقة، وهو يقول في ضجر:

- ينتظرني عمل كثير، مع السلامة، أراكِ فيما بعد، فأنا. . .

أمسكتُ بذراعه، وقد أدركتُ في قرارة نفسي بأنّ احتمالات نجاحي ضعيفة جداً، لكنني قرَّرت المضي حتى النهاية:

- أحمد، أنا حامل...

تصوّرت للحظة أنني أصبتُ هدفي، فقد استدار نحوي ببطء شديد، ورمقني بنظرات خاوية رافقها خرس مؤقت، لتتحرك شفتاه بعدها بالقول:

- ماذا تقولين؟

تهلّلت أساريري في سعادة حقيقية وأنا أكرر:

- أنا حامل يا حبيبي! حامل! سنرزق بطفل قريباً، و...

لكنه صدمني بصيحة مجلجلة كادت تقتلعني من مكاني وتلقي بي في مياه البحر المتوسط من شدّة قوتها:

- كفى، اصمتي!

اكتفى بعض العمال والموظفين بالتلصّص علينا من بعيد دون أدنى نيّة للتدخل، فيما غامت الدنيا أمام عيني وأنا أستجمع ما تبقى لدي من قوة لأقول بصوت مبحوح:

- و... ولكن...

قاطعني بصوت جمد الدم في عروقي:

- كلمة واحدة إضافية، وأخنقك بيدي هاتين، لماذا يا بريجيت، لماذا؟ أنت تدمّرين بتصرفك الأخرق هذا كل ما بنيته هنا!

حطَّمتني كلماته القاسية، ورغم أنني توقّعت ردّة فعله هذه منذ البداية، بعد سلسلة من المقدّمات السابقة التي جعلتني أشكّ في حقيقة مشاعره نحوي، إلّا أنّ مفاجأتي كانت قوية بالفعل.

لكن عنادي كان أقوى، ولم يُخِفْني تهديده الأجوف، بل واجهته بالقول:

- ما بنيته؟ ألم نخطّط لمستقبلنا مع بعض يا أحمد؟ وأنا، أنا التي انتشلتك من مستنقع الفقر والتخلّف في بلدك الوضيع، وأتيتُ بك إلى هنا بعيداً عن الهمجية والجوع، ليكون هذا جزائي؟

وسرعان ما ضعفتُ مرة أخرى وأنا أقول بنبرة متوسّلة مناقضة لما سبق:

- أحمد، أنا أحبك!

أطبقَت أصابع يده اليمنى على معصمي حتى صرختُ من الألم، وثبَّت عينيه الناريتين أمام عيني، ثم قال بصوت مخيف وشاربه الأسود يرتجف من شدّة التأثر:

- مستقبلنا؟ أنتِ واهمة يا عزيزتي، بالله عليك يا حلوتي، منذ متى شاركتك في التخطيط لأيّ شيء؟ بالعكس، أنا ألعن اليوم الذي قابلتكِ فيه هنا في الميناء لأول مرة، فقد عرضتُ عليك المساعدة من باب الإنسانية، لأجدني مع مرور الوقت غارقاً في علاقة غريبة مع إنسانة غير طبيعية، هي أشبه بالإعصار الهادر، أنانية متطرفة لا تفكر سوى في نفسها، وعنصرية حمقاء تعتبر نفسها فوق مستوى البشر.

حاولتُ التملّص منه بكلّ ما أوتيت من قوة، لكن الأصابع السحرية التي لطالما تحسَّسَت كلّ شبر في جسدي بشبق ورغبة حقيقيين تحوَّلت في غمضة عين إلى أصابع فولاذية تكاد تحطّم معصمي.

- الحب هو ذلك الوهم الذي صوّرت لك أنانيتك أنه حقيقة...

كانت عبارته الأخيرة أكبر من قدرتي على التحمّل، لكنها لم تكن سوى مقدّمة لما هو أفظع:

- لقد منعني إعصارك الهادر حتى من إخبارك بأنني أتيت من

قرية بعيدة في عمق جبال الأطلس المغربية، اسمها عين اللوح، لأبني مستقبلي هنا، وأساهم في إعالة والدي وإخوتي و...

ثم أطلق رصاصته الأخيرة:

- **وزوجتي الحامل...**

* * *

- **آنسة بريجيت! ما الخطب؟ لقد غادرت المستشفى قبل وقت قصير وكنت بمزاج رائع وصحة جيدة!**

هكذا استقبلني الطبيب المشرف على حالتي في مستشفى القديس جوزيف، ولا داعي للقول بأنّ حالتي المزرية كانت واضحة للعيان، وَجْهٌ كَشَفَ زجاج مدخل المبنى عن شحوبه الشديد، وأهدابٌ تكاد تنكسر من شدّة البكاء، وأنف لا أدري كيف لطّخته قطرات دم سالت بسرعة لتترك أثرها على معطفي وحقيبتي الصغيرة.

- **أنا... أنا...**

كنت عاجزة عن التفوّه بكلمة واحدة إضافية، فساعدني على الجلوس واتّخذ مكانه خلف مكتبه وهو يحدجني بنظرات متفحِّصة.

- **آنسة بريجيت، اهدئي أرجوك! ما الذي حصل؟**

كنت أرمق السقف بنظرات فارغة طويلة، محتفظة بصمتي، رغم تكراره لعبارته المستفسرة مرة أخرى، ثم استجمعتُ ما تبقى لدي من قوة وقلتُ بصوت هامس:

- **أريد التخلّص من هذا الجنين، فوراً...**

فَغَرَ فاه في دهشة حقيقية، ثم قال:

- **لا أصدق ما سمعته أذني الآن، مستحيل!**

قلت متوسلة:

- أرجوك يا دكتور، إنها بذرة شيطانية لا تستحقّ أن أحملها في أحشائي!

رمقني بنظرات طويلة واضحة المغزى، ثم نزَعَ نظارته ومسَحها بمنديل كأنما يتعمَّد إغاظتي بصمته، ليُجيبني بلهجة رسمية وهو يوجِّه بصره ناحية أيقونة صغيرة للسيدة العذراء.

- ما تطلبينه مستحيل يا آنسة نوسي، هذا مخالف تماماً لمبادئي وللتعاليم الكاثوليكية المقدّسة، كما أنني أجهل السبب الحقيقي وراء انقلابك العجيب الذي...

لم أمهله حتى يكمل كلامه، فقد نهضت بحركة سريعة ومفاجئة، وانتزعت مقصاً حادّ الأطراف وجدته فوق المكتب، وتجاوزتُ المسافة التي تفصلني عنه بيدي اليسرى وأنا أوجه الطرف المدبّب لعنقه.

- خلِّصني من هذا الجنين وإلا قتلتك! مفهوم؟

لكنه صرخ بكلّ ما أوتي من قوة:

- كريستين، جورج، بيير، أنقذوني، سأموت!

حاولتُ إغلاق فمه لمنعه من الصراخ لكنني لم أفلح، فقد اقتحم الغرفة ثلاثة ممرّضين تمكّنوا من تخليص الطبيب من قبضتي ومحاصرتي، فلم أجد بداً من إطلاق صرخات مجلجلة حملت معها كلّ غضبي وقهري وشعوري العارم بالضعف، وانخرطت في بكاء حارّ وعنيف.

- أخرجوا هذه المجنونة من هنا وبلغوا الشرطة، لن أسامحها أبداً!

أطاعه الممرضون، وحاولوا جرّي إلى خارج الغرفة وأنا أحاول

التملّص منهم، بقوة غريبة لا أدري كيف سَرَت في جسدي الضعيف المنهك، قبل أن يقول الطبيب وهو يتحسَّس جرح عنقه:

- مهلاً، مهلاً، كريستين، أحضري حقنة ديازيبام مهدئة...

نفّذت الممرضة التي ترتدي ملابس الراهبات أوامره بصمت، فيما تعاون الممرضان الآخران على دفعي إلى سرير الكشف، فحدجتُ الطبيب بنظرات نارية وأنا أقول:

- ما الذي تنوي فعله؟ هيا، كن شجاعاً واتصل بالشرطة! أم أنك خائف مني؟ أنت جبان يا دكتور!

تجاهل صراخي، منشغلاً بإعداد الحقنة، وإفراغ محتواها في عروقي، مستغلاً تحكّم الممرضين في أطرافي.

- ستدفع الثمن غالياً أيها ال...

لم أكمل عبارتي بعدما انهارت مقاومتي دفعة واحدة، وغالبتُ في يأس تلك الهلاوس التي شوَّشت الرؤية أمام ناظري لدقائق طويلة بعد مغادرة الطبيب للغرفة، حتى خيِّل إليّ أنني انتقلت بسرعة البرق إلى كنيسة سانتا كروز هناك في وهران، إلى جانب الأب فرانسوا، ثم استسلمتُ لأثر الحقنة المهدِّئة التي أجبرتني على السقوط فاقدة للوعي وقد تناهى إلى مسامعي صوت قادم من بعيد عجزتُ عن تبيّن مصدره:

- أتوسل إليك يا دكتور، المسكينة تعاني بشدّة، أريد أن أراها الآن!

* * *

8- أميرة النور

الأحد 27 ديسمبر 1992

مستشفى كوشيفو - سراييفو:

كم هو مؤلم أن نستعين بجراح الماضي الكئيب على مواجهة قساوة الحاضر الرتيب...

ارتجفت يدي اليسرى الممسكة بالقلم من شدّة البرد والتعب، بعد كتابتي لآخر سطر في مذكرات ما قبل قدومي إلى سراييفو، مذكرات أصف فيها سيلاً من الأهوال، بدأت بقراءة أول كلمة في كراسة مذكرات والدتي، ولا أظن بأنها ستنتهي بعد مَقدَمي إلى هنا.

ألتحف غطاء شبه ممزّق، وأحاول أن أبثّ في أوصال جسمي بعض الدفء، فقد أوشك البرد القارس على تحطيم أطرافي المتجمّدة، إثر انخفاض درجة الحرارة إلى ما دون الـ 13 درجة تحت الصفر وتسبّب نقص إمدادات الوقود في تعطل نظام التدفئة المركزي لمستشفى كوشيفو.

بجانبي صحن به حساء خضراوات نسيت اسمه[1]، ورغيف من

---

(1) غالباً يقصد حساء الباشا أو Begova čorba وهو أشهر حساء هنا في البوسنة.

خبز السمون البوسني، وقطعة جبن أخشى أنّ مدّة صلاحيتها قد انتهت؛ وإن أكّد لي أصدقائي الجُدد في المستشفى بأنها من الجبن الطازج الذي يعدّ في الأرياف، ولا أدري صراحة كيف تمكّنت إحدى الممرضات من إيصال كميات قليلة منه إلى هنا.

مدفأة عتيقة متهالكة لا أستخدمها إلّا في الحالات القصوى، نظراً إلى النقص الكبير في إمدادات الغاز والخشب أيضاً، و...

وأوراق وجدتني مجبراً على مشاركتها ما رشح من ذاكرتي الجريحة...

- لن تتجاوز مخاوفك إلّا بالكتابة عنها...

قالها العقيد رايلي ونحن على متن الطائرة العسكرية القادمة إلى سراييفو، ويبدو أنه كان على حق، فأنا لم أفهم مغزى كلماته تلك إلّا الآن.

العقيد رايلي...

هل كان قراري بفكّ الارتباط معه هو وكلّ أنشطة الأمم المتحدة في البوسنة صائباً؟ أم أنها مغامرة غير محسوبة وحماقة سأتحمل عواقبها لوحدي وقد أندم عليها فيما بعد؟

لا أدري...

* * *

حدجني العقيد بنظرات صامتة طويلة، حملت معها كلّ معاني الغضب والامتعاض، قبل أن يتكلم أخيراً ويردّد ممر المستشفى صدى صوته:

- أريد تفسيراً مقنعاً لما حصل هذا اليوم...

لم أكن في وضع يسمح لي بتكرار قصة بحثي عن المقبرة

ومقابلتي مع الشاب، وما جرى بعد ذلك من أحداث، فاكتفيتُ بجواب مقتضب:

- لم يحصل شيء!

اقترب مني أكثر، ثم قال بلهجة مُخيفة لم أتعوّد عليها منه:

- أنت تلعب بالنار، تصرّفك هذا مخالف تماماً للضوابط التي أعلنتَ عن التزامك بها يوم قرّرت القدوم إلى هنا، أم تُراكَ تريد الاطّلاع مرّة أخرى على الأوراق التي وقّعتَ عليها بخطّ يدك؟

لذتُ بالصمت، فيما واصل هو كلامه:

- أنت تعمل تحت إمرتي، وسلامتك الجسدية تقع ضمن دائرة مسؤوليتي، طبيعي إذاً أن أضعك تحت المراقبة، وأتتبّع خطواتك بوسائلي الخاصة، لن أكرِّر سؤالي هذا مرة أخرى، أريد تفسيراً مقنعاً لخروجك من الفندق وذهابك إلى مقبرة لاف ومشاركتك في إجراء عمليات جراحية هنا.

بدا واضحاً أنّ حادثة المقبرة قد منحتني شجاعة غريبة، فقد أجبتُه بحزم:

- مهلاً يا سيادة العقيد، أنا لستُ جندياً حتى أعمل تحت إمرتك، فعلتُ ما يُمليه عليّ ضميري الإنساني والمهني، هذا كلّ ما في الأمر!

صاحَ في ثورة:

- أنت تعرِّض نفسك لخطر شديد، كما أنّ تصرفاتك الصبيانية والمتهوّرة تضرب مصداقيتنا وحيادنا في مقتل، ماذا لو ظهَرَت صورتك في وسائل الإعلام؟ سيتّهمنا الصرب عندئذٍ بالتخلي عن الحياد وتجاوز مهامنا الإدارية المحدودة والمرتبطة بالمحافظة على استقرار الأوضاع الميدانية التي. . .

قاطعته هنا بعدما تفوّه بما أرغبُ في سماعه:

- هكذا إذاً، سلامتي الجسدية لا تهمّك بقدر ما يهمك موقف الصرب ممّا جرى وخشيتك من ردّة فعلهم، أليس كذلك؟

تصاعَد الدم إلى وجنتيه، وتلعثم لسانه الذي أوقعه في الفخ، فسعلَ في حرج شديد قبل أن يقول:

- أنت تُدخِل نفسك في لعبة أكبر منك بكثير، هذا آخر إنذار أوجّهه لك، وإلّا...

وضعتُ يدي في جيبي وأنا أسأله بهدوء:

- وإلّا ماذا؟

شدّ قامته في اعتداد، ثم أجابني بلهجة رسمية جافة:

- سأضطرّ عندئذٍ لرفع غطاء قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة عنك، وشطب اسمك من لائحة المتعاونين معنا، لتتدبّر أمورك بنفسك هنا، وأنت تعلم كما أعلم ماذا يعني ذلك...

قلت في تحدٍّ حقيقي:

- أصلاً هذا ما أبحث عنه، على الأقل لن أخالف قناعاتي ومبادئي، حتى لو غامرتُ بسلامتي الشخصية، يا سيادة العقيد.

هو لا يعلم بأنني اتّخذت قراري هذا مع أوّل قطرة دم سالت من رقبة المسكين سميح سيهيتش، الذي فقدَ حياته أمام عيني، قرب الحاجز العسكري الصربي، أمّا الأحداث اللاحقة فلم تساهم سوى في تحفيزي على المضي قُدُماً في ما أنا عازم عليه.

مكّنتني المشاركة في العملية الجراحية التي أجريتُ للجدّة روجا من ربط علاقات طيبة بطاقم مستشفى كوشيفو الطبي، الذي نقل إليّ صورة قاتمة عن الوضع الصحي لسكان المدينة المحاصَرَة، ممّن

تفشت بينهم الأوبئة والأمراض المزمنة، لدرجة أصبحت معها شحنة المساعدات الطبية العاجلة التي أرسلتها الدول الأوروبية ووصلت إلى مطار سراييفو؛ قبل يومين تقريباً من حادثة المقبرة؛ غير ذات قيمة وغير كافية لسدّ النقص المَهول في مخزون المدينة من الأدوية.

أضِفْ إلى ذلك أنّ فريق أطباء مستشفى كوشيفو يحتاج إلى جرّاح متخصِّص في قسم الحوادث، تخصصي أنا نفسه!

صحيح أنّ خبرتي في الإصابات الحربية شبه معدومة، لكنني أستطيع التعامل معها بكلّ تأكيد.

هذا هو العمل الحقيقي، أمّا الاحتماء بمكتب مكيّف، وإحصاء أعداد القتلى والجرحى الذي يتساقطون يومياً في سراييفو فهراء ما بعده هراء...

- للمرة الأخيرة أنصحك، تراجَع عن قرارك الأحمق هذا ولا تكن متهوّراً، أين خوفك السابق يا رجل؟

حافظتُ على هدوئي وأنا أجيبه بثبات:

- سأذكِّرك بكلامك يا سيادة العقيد، نحن أعداء ما نجهل، هذا ما قلته أنتَ ونحن على متن الطائرة العسكرية، أنا واجهتُ هذا المجهول خلال الساعات القليلة الماضية فقتلتُ بذرة الخوف في أعماقي، هذا كلّ ما في الأمر!

* * *

- كلانا يخشى الحب يا عزيزتي، ولو أنّ أسبابنا مختلفة...

- ماذا تقصد؟

- أنتِ تخشينه لأنّك مكبَّلة بقيود الماضي، وأنا أتجنّبه لأنني خائف من المستقبل...

- فلنعِشْ حاضرنا إذاً، للماضي دواء اسمه النسيان، وللمستقبل كفيل اسمه إرادة القدر، أليس كذلك؟

* * *

انشغلتُ بترتيب أوراقي، وأنا أمنّي النفس بقيلولة سريعة أستعيد فيها بعض النشاط، بعد سلسلة من العمليات الجراحية المتواصلة التي أجريتها لعددٍ من جرحى القصف المتواصل، واستراحة أمضيتُ ثلاثة أرباع مدّتها القصيرة في كتابة آخر ما تبقى من مذكرات ما قبل قدومي إلى سراييفو.

فركتُ عيني في إرهاقٍ حقيقي، والتقطتُ الملعقة لأتذوّق القليل من الحساء الساخن، لعله يخفِّف عني قسوة هذا البرد الذي لم أتعوّد على مثله في مارسيليا، بمناخها الساحلي المتوسطي وجوِّها المعتدل الجميل.

- واضحٌ جداً أنّ الحساء قد أعجبك!

فوجئتُ بالصوت، فسارعتُ إلى إخفاء الأوراق في حقيبتي الصغيرة، قبل أن ألتفت لأجد أمامي الممرّضة مديحة بابتسامتها الهادئة.

- أنتَ تكتب مذكّراتك باللغة العربية التي لا يُتقنها أحد هنا، لا تبالغ إذاً في حذرك هذا، ولا تسألني كيف خمّنت أنها مذكرات، فهذا واضح وضوحَ شمسٍ غابت عن سماء سراييفو في الآونة الأخيرة!

كنت أعلم أنها محقّة في ما قالته، فحاولت تغيير دفّة الحديث بالقول:

- متى عدتِ؟

لكنها واصلَت كلامها بنبرة مزجت بين الحزن والدلال:

- حاولتُ دفعكَ أكثر من مرّة للكلام، لعلكَ تستسلم وتبوح لي بمكنونات قلبك، لكن يبدو أنك تثق بأوراقك أكثر مني...

قاطعتُها بمرحٍ مصطَنَع:

- ما اسم هذا الحساء؟ لقد نسيتُ اسمه مرة أخرى!

تجاهلت سؤالي هذا، وأطلَقَتْ زفرة حارّة دلَّت على فشلها مرة أخرى في دفعي للكلام، ثم قالت وهي تنزع معطفها الشتوي الأحمر:

- وصلتُ إلى المستشفى قبل قليل، تراجعَت حدَّة القصف بعض الشيء، لكن أغلب الطرق مقطوعة بفعل انهمار الثلوج، الأوضاع تزداد سوءاً، مخزون المدينة من المواد التموينية الأساسية على وشك النفاد، قوات الأمم المتحدة تمنع 500 مدني من مغادرة العاصمة، والضغط يزداد على الشباب المدافعين عن مواقعهم في جبل إيجمان الاستراتيجي، لولا صمودهم لأحكَمَت القوات الصربية طوقها على سراييفو بالكامل.

قلتُ في حسرة:

- تعدَّدت الأسباب والموت واحد، مَن لم تقتله القذائف والرصاصات الصربية سيقتله البرد والجوع...

لكنني تداركتُ حسرتي بالقول:

- ورغم ذلك أثقُ في صمود أبناء سراييفو وقدرتهم على الوقوف في وجه وحشية الميليشيات الصربية.

وقفت أمام النافذة المطلّة على الخارج وأنا أكمل:

- أتعلمين يا مديحة، كثيرة هي الحوادث والمواقف التي عايشتُها هنا وأثبتَت لي أن سراييفو لن تركع، لكنني لن أنسى أبداً

حادثة قصف المكتبة القومية، يومها أيقنت بأنّ هذه المدينة الجميلة ستنتصر.

منحتني ابتسامة عذبة، فتابَعت كلامي:

- مواطنون يواجهون أبشعَ حصار في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، قَتلاهم وجَرحاهم بالآلاف، الموت يتربَّص بهم في كلّ مكان، لكنهم هبّوا لإنقاذ المكتبة القومية التي تضمّ بين جَنَباتها إرثَ البوسنة الحضاري والثقافي، وتعاونوا مع رجال الإطفاء على إخماد الحريق رغم أنهم يعانون أصلاً من نقصٍ كبير في مياه الشرب، يا لها من إرادة![1]

صمتت للحظات، ثم راقبتُها وهي تصفِّف شعرها الأسود بعناية أمام مرآة صغيرة، وتغلق أزرار كنزتها الصوفية قبل ارتداء وزرتها البيضاء.

شابة في الثانية والعشرين من عمرها، طويلة القامة، ممتلئة الجسم لكنها أبعد ما تكون عن البدانة، حلوة التقاسيم، تتفجّر حيوية وأنوثة، و...

- مديحة، أنتِ جميلة بحقّ...

---

(1) ليلة 25-26 أغسطس 1992، استهدفت القذائف الصربية المبنى الأثري للمكتبة القومية فيتشنيستا، ممّا أدى لإحراقها بالكامل، في إطار سياسة صربية واضحة المعالم، عملت على تدمير كلّ مظاهر الحضارة الإنسانية في سراييفو، من مساجد وكنائس ومكتبات ومسارح، ولولا بعض المخلصين الذين تفطّنوا إلى أنّ استهداف المكتبة القومية قادمٌ لا محالة ونجحوا في تهريب معظم كنوز المكتبة وإخفائها في مكان آمن قبل استهدافها لَفَقَدَت المدينة أزيد من مليونَي كتاب ومخطوطة ولربما أصبحت سراييفو بلا ماضٍ وبلا تاريخ.

فغرت فاها في دهشة، وسعلَت بشدّة قبل أن تقول بتلعثم:

- ماذا... حقاً؟

خشيتُ أنْ تفسِّر كلامي بطريقة خاطئة وبعيدة تماماً عن طبيعة ظروفنا المعقّدة الحالية، فأضفتُ بسرعة:

- أقصد أنك تشبهينها إلى حدٍّ كبير...

لم أغفل ملامح الخيبة التي ارتسمَتْ على محيّاها الجميل، لكنها تجاوَزَتْها بسرعة بعدما هزَمَها فضولها الأنثوي الغريزي:

- مَن هي؟

أدرتُ بصري مرة أخرى ناحية النافذة وأنا أقول:

- شابّة جميلة مثلك، قابلتُها هناك في المغرب، واسمها ج...

قطَعَت كلامي بسرعة، إذ لمحت من موقعي قرب النافذة سيارة قديمة متوقّفة في منتصف الطريق، وقد غطَّت الثلوج سقفها ومقدِّمتها، فيما تتابع وميض الأضواء الأمامية بشكل منتظم، رغم أنّ الساعة لم تتجاوز على الأرجح الرابعة مساء ولم يحلّ الظلام بعد.

لا تفسير لذلك سوى أنّ سائق السيارة يطلب المساعدة...

- مديحة، أعتقد أن أحدهم بحاجة إلينا.

قلتها وأنا أقفز من مكاني بسرعة نحو باب الغرفة، فتبعَتْني هي بحركة آلية.

لم يكن الوصول إلى السيارة سهلاً بعد خروجنا من المستشفى، فالعاصفة قوية للغاية، وسماكة الثلوج المنهمرة يجعل الحركة صعبة جداً، لكنني تجاوزت كلّ ذلك وأنا أبذل كلّ ما في وسعي لقطع الأمتار المتبقِّية في أسرع وقت.

وجدتُ في المقاعد الأمامية للسيارة شيخاً في السبعين من عمره تقريباً، يرتدي معطفاً شتوياً ثقيلاً وقبّعة سوداء، وبجانبه عجوز قدَّرتُ

أنها في منتصف الستينيات، تشبه معظم مسنّات البوسنة ممَّن قابلتهن في السابق.

تحدَّث الشيخ قائلاً كلاماً ما باللغة البوسنية، فتشاغلتُ عنه بمدّ عنقي نحو المقاعد الخلفية.

شابّة في أواسط العشرينيات، تغالِبُ آلامها مُطلِقَة أنيناً خافتاً، وهي تمسك ببطنها المنتفخ، وإلى جانبها ملاك في الرابعة أو الخامسة من العمر.

طفلة شقراء الشعر، خضراء العينين، متورِّدة الخدين، لم أرَ أجمل منها في حياتي، لكنها تبكي بحرقة شديدة وهي ترى ملامح الألم على وجه مَن خمَّنت أنها والدتها.

انتظرتُ وصول مديحة التي حاوَرَت العجوز لبعض الوقت قبل أن تنقل إليّ فحوى كلامه.

- أميرة خافيروتش، حامل في الشهر التاسع، ويبدو أنها على وشك وضع مولودها، الطفلة ابنتها والشيخ وزوجته جيرانها.

قلت بسرعة:

- قومي بإعداد غرفة العمليات، سأتعاون مع الشيخ على نقل الشابة إلى الداخل و...

قاطعتني مديحة بانفعال:

- ولكن قسم النساء والتوليد خارج الخدمة منذ القصف الأخير[1]، والجرّاح المتخصّص في هذا القسم، الدكتور علم الدين

---

(1) في السادس من ديسمبر 1992، تعرّض مبنى رئاسة البوسنة والهرسك لقصف عنيف، وجرى استهداف مستشفى كوشيفو الذي تدور فيه هذه الأحداث بـ 30 قذيفة دفعة واحدة!

بازداريفيتش، غادر المستشفى بعد إصابته بشظايا قذيفة، ليقضي فترة نقاهة طويلة في منزله!

فتحت باب السيارة الخلفي وأنا أمدّ يدي للشابة، وأجيب مديحة في الآن نفسه:

- أعلمُ ذلك، سنتدبَّر أمورنا، المهم أن ننقذ الشابة المسكينة...

تعاونتُ مع الشيخ على حمل الشابة التي غالبَت آلامها الرهيبة، ومن حسن حظي أنّ المسن البوسني قد فهم إشاراتي، فلم أكُن بحاجة إلى مساعدة مديحة التي انطلقت بسرعة لإعداد قاعة العمليات.

- تحمّلي قليلاً يا سيدتي، سيكون كلّ شيء على ما يرام!

قلتها بالإنجليزية، وبلا وعي مني، لكنني فوجئت بالشابة وهي تجيبني بصعوبة:

- ابنتي... نور... لا تتركها... أرجوك!

التفَتُّ لأجد الطفلة مُقبِلَة نحونا برفقة العجوز البوسنية، وقد غطَّت الثلوج معطفها الصغير ومنعتها من الركض بسهولة، حتى أوشكَت على السقوط أرضاً.

عادَت مديحة ومعها كرسي متحرِّك أجلَسْنا عليه الشابة بحِرص شديد لينطلق بها ممرِّض آخر صوب قاعة العمليات، فهَمَمتُ بالعودة إلى الطفلة لمساعدتها على الوصول إلينا، لكن صوت مديحة المرتاع استوقفني:

- كارثة يا دكتور، يبدو أنّ المولدات قد تعطَّلت مرة أخرى، الكهرباء مقطوعة عن المستشفى بأكمله!

* * *

9- بذرة شيطانية!

صفحات من مذكرات الراحلة بريجيت نوسي مترجمة إلى العربية:
الثلاثاء 29 يناير 1963
مستشفى القديس جوزيف - مارسيليا:

لا أصعَب من سجن الجدران والأسوار إلّا سجن الماضي والذكريات...

أفقدَتني الأيام الماضية القدرة على النطق، فلجأتُ إلى الصمت كمَهْرَبٍ أخير من قسوة هذه الحياة الظالمة التي أفقَدَتني كلّ شيء.

يقولون عني إنني مجنونة، لكنني مجرد ضحية أخرى لسوء الحظ، الذي نهشتني كوارثه ومزّقتني كفريسة مستسلمة لجوارح الجبال.

احتضنتُ كرّاستي وأنا جالسة في مقعد منعزلٍ بحديقة المستشفى، ولم أهتمّ للممرضة التي أقبَلت نحوي وقد رسمت على وجهها ابتسامة مصطنعة.

- كيف حالك اليوم يا بريجيت؟ أنتِ قوية بما يكفي لتتجاوزي محنتك هذه، فلتحفظك بركة القديسين والشهداء.

قالتها وهي تباركني بعلامة الصليب، لكنني لم أتفاعل مع حركاتها وحافظتُ على سكوني، فأضافت:

- أرى أنك تشغلين معظم وقتك بالكتابة، علاقتك بهذه الكراسة الصغيرة قوية للغاية، وهذا مؤشر إيجابي جداً، هل تسمحين لي بإلقاء نظرة؟

مدَّت يدها إلى الكراسة، فمنَعْتُها بحركة سريعة وأنا أطبق بأصابعي وأظافري الطويلة على معصمها، فصَرَخَتْ من شدّة الألم، لكنها بذلت مجهوداً خرافياً للمحافظة على برودة أعصابها والاستدراك بهدوء أعلم أنه مصطنع أيضاً:

- حسناً، حسناً، أنا آسفة، لن يقترب أحد من كراستك، اطمئني!

تحسَّسَت آثار الخدوش في معصمها، ثم أكمَلَت كلامها:

- بالمناسبة، ضيف خاص جداً أتى لزيارتك اليوم، أعتقد بأنه سيلعب دوراً كبيراً في شفائك...

تطلَّعتُ إليها في تساؤل حقيقي هذه المرة، فمنحتني ابتسامة كبيرة مشجِّعة قبل أن يتناهى إلى مسامعي صوت خيّل إلي أنني لن أسمعه أبداً:

- مساء الخير يا بريجيت...

مستحيل!

انسحبت الممرضة ليظهر هو، بشعره الأشيب ووقاره المعهود، بملامحه الهادئة ونظرته الثاقبة وابتسامته الواثقة.

الأب فرانسوا...

انهمرت دموعي بغزارة، وتحوَّلت ابتسامتي الشاحبة إلى ضحكة غريبة ممطوطة، وعجزَت قدماي عن حملي وأنا حائرة بين الوقوف والمشي، أو البقاء في مكاني، فكدتُ أن أسقط، ليتلقَّفني هو بين ذراعيه ويحتضنني بحنانه الأبوي الذي افتقدتُه هنا في مارسيليا.

- أنا هنا، اطمئني، نعم، أتيتُ بعد فوات الأوان، لكنني سأصلح كلّ شيء يا عزيزتي.

بللتُ صدره بدموعي وأنا أشهق وأضحك في الآن نفسه، فرَبَتَ على ظهري بيده وهو يقول:

- أنا المسؤول عن كلّ هذا، أنت شابّة بلا تجارب وعلاقتك بوالديك متوترة أصلاً، كان من المفروض أن أرافقك إلى مارسيليا، أو أصطحبك معي إلى المغرب.

أجلَسَني إلى جانبه، وأضاف مستدركاً كلامه السابق:

- فليسامحني الرب وليشملني برحمته، قد تكون هذه مشيئته التي لا نملك فعل أيّ شيء أمامها!

أخيراً تحرَّك لساني، كاسراً حاجز صمتٍ استمرّ لعدة أيام:

- أنا محطَّمة يا أبت، لقد فقدتُ كل شيء، أنوثتي، مستقبلي، لا بل حياتي كلها!

أجابني:

- بل افتقدتِ للحكمة يا ابنتي، والدليل على ذلك أنكِ لم تنفِّذي وصيتي كما يجب...

قاطعته بانفعال:

- بل نفَّذتها كما يجب يا أبتِ، الكتب كلها في الحفظ والصون!

لكنه استوقفني بحركة حازمة من يده:

- أعلمُ ذلك، لكنك لم تفهمي روح الوصية، التعاليم المقدَّسة مكانها هنا...

وأشار بإصبعه إلى صدري ناحية القلب وهو يضيف:

- مكانها في القلب والروح والوجدان قبل الكتب يا عزيزتي، ما معنى احتفاظك بهذه الثروة إن لم تلتزمي بتعاليمها؟

قلتُ بتخاذل:

- أنا...

حان دوره ليقاطعني:

- التعاليم التي تقول: «هَا أَنَا أُرْسِلُكُمْ كَغَنَمٍ فِي وَسْطِ ذِئَابٍ، فَكُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَامِ»[1] أين حكمة الحيّات يا بريجيت؟

دافعتُ عن نفسي بالقول:

- لا حكمةَ مع الحب، ولا سلطة للعقل على هوى القلب يا أبت...

قال في حدّة:

- حبّ الأعداء من الضلال، والوقوع في وحلِ الخطيئة انتحار.

تسلَّل الغضب إلى نبرة صوتي وأنا أهتف:

- الكتاب المقدّس يقول: «لكِنِّي أَقُولُ لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ»[2].

احمرّ وجهه وارتفعت حدّة صوته:

- خطأً يا بريجيت، خطأ! أنتم دائماً هكذا، تسيؤون فهم النصوص المقدسة، وتفسّرونها على هواكم، فتفتحون الأبواب على مصراعيها أمام الفتن والكوارث!

---

(1) **إنجيل متى** (الإصحاح العاشر).

(2) **إنجيل لوقا** (الإصحاح السادس).

ثم أضاف:

- ألا تعلمين بأنّ الإجهاض جريمة كبرى عقوبتها الحرمان الكنسي؟[1]

أصابَت سهام كلماته كَبد الحقيقة، فأجهشتُ بالبكاء وأطلقتُ العنان لدموعي مرَّة أخرى:

- لقد خانني الوغد ودمَّر حياتي، فحاولتُ إصلاح خطئي بالتخلّص من تلك البذرة الشيطانية التي...

قالَ في سخرية مريرة:

- اقترفتِ خطأ فعالجتِه بمصيبة، أليس كذلك؟ أجريتِ عملية إجهاض غير قانونية، على يد نصّاب مُرتشٍ، وفي ظروف أقلّ ما يُقال عنها إنها كارثية، خيّل إليكِ أنك تخلصت ممّا أسميتها أنتِ بذرة شيطانية، لكن لعنتها لاحقتكِ، فأدت مضاعفات العملية فيما بعد إلى إصابتك بالعقم وفقدانك لأية فرصة في الإنجاب...

لم أكن في موقف يسمح لي بالاستمرار في المكابرة، فصرختُ بكل ما أوتيت من قوة:

- كفى!

بدا واضحاً أنّ صرختي قد أجبرته على استعادة هدوئه، فقد لان صوته وهو يقول:

- على أيّة حال، لقد أخبَرني دانييل بكلّ ما جرى، وشرح لي

(1) من الناحية الدينية، لا يوجد نصّ تحريم صريح للإجهاض في كتب العهد القديم والعهد الجديد من الكتاب المقدس، لكن الكنيسة الكاثوليكية تمنعه، وتعتبره جريمة عقوبتها الحرمان الكنسي، أي قطع الصلة بين الشخص والكنيسة حتى إشهار التوبة.

طبيبك المعالج طبيعة حالتك الصحية، لكنني أريد سماع تفاصيل القصة منك أنتِ.

لم أجِبه، فرسَمَ على وجهه ابتسامة مشجِّعة وهو يرمقني بثبات، قبل أن ينتبه لكراستي الصغيرة:

- كما توقّعت، يبدو أنك مواظبة على كتابة مذكراتك، سأحترمُ إذاً رغبتك في الصمت وأكتفي بقراءة محتوى الكراسة، مفهوم؟

قالها وهو يمدّ يده ناحية الكراسة، فلم أمنعه وقد منحتني نظرته الثابتة الواثقة سَكِينة كنت في أمسّ الحاجة إليها.

* * *

نقلتُ بصري بين الصليب الخشبي الذي يزين الحائط، والنافذة المطلّة على الحديقة، وأنا حائرة وعاجزة عن ضبط مشاعري، بين سعادتي بعودة الأب فرانسوا وخوفي من المستقبل الذي أراه قاتماً أكثر من أيّ وقت مضى، بعدما فقدتُ كل شيء.

- لم نَفقد كلّ شيء بعد...

قالها الأب وهو يطالع آخر ما كتبتُ في الكراسة، فارتعَدَت فرائصي وأنا أتخيَّل قدرته على فهم دواخلي وقراءة أفكاري، لكنني تجاوزت هذه الخواطر الغبية بسرعة وأنا أتابع كلامه بكل جوارحي:

- يجب أن نرتّب أفكارنا، لأننا...

قاطعته طرقات خفيفة على باب الغرفة، دخل بعدها دانييل وأقبل نحوي مبتسماً وعلامات الشوق تفضحها عيناه:

- معذرة يا بريجيت، لم أتمكّن من مغادرة مكتبي في الميناء باكراً، لكنني أرى ملامح الارتياح واضحة على محيّاك، يبدو أنّ الأب المبجّل قد أعادَ البسمة إلى شفاهك!

قالها وهو ينكبّ على يد الأب فرانسوا ليقبّلها، فقلت بهدوء:

- أعادَ إلى شفاهي البسمة، والكلمة أيضاً. . .

كانت فرحته باستعادتي القدرة على الكلام حقيقية، وأدركتُ من تردّده الواضح أنه تمنى في قرارة نفسه لو يأخذني بين ذراعيه، ولم يمنعه من ذلك سوى وجود الأب.

شابّ صادق النية، نقي السريرة، مع بعض السذاجة الواضحة. . .

قطع الأب صمته الطويل بالقول:

- سامحكِ الرب يا بريجيت، غاب عقلك فتصرّفت مثل فراشة طائشة تجاهَلَت جمال الزهور، مفضّلة أشعّة الضوء البرّاقة التي أحرقت أجنحتها وقتلتها في النهاية. . .

لم أكُن بحاجة إلى تفسير إضافي حتى أفهم قصده ومغزى كلامه، فاكتفيتُ بابتسامة خجولة وأنا أسترق النظرات إلى دانييل الذي برقَت عيناه في سعادة حقيقية.

استعادَ الأب جدِّيته وهو ينهض من مقعده ويذرع الغرفة جيئة وذهاباً، عاقداً ساعديه خلف ظهره، ومتكلّماً بصوتٍ عالٍ:

- بين توديعي لبريجيت في وهران ومَقْدَمي إلى مارسيليا قبل يومين، مياه كثيرة جرت تحت الجسر كما يقولون، يجب أن أرتّب أفكاري قبل الانتقال إلى الخطوة القادمة التي. . .

قاطعته متسائلة:

- الخطوة القادمة؟ ماذا تقصد؟

لم يُجِبني، مكتفياً بتبادل نظرة طويلة مع دانييل، أكمَلَ بعدها استعراضه لما جرى:

- أحمد مهاجر مغربي جاء إلى مارسيليا باحثاً عن مستقبلٍ أفضل له ولعائلته، بمجرّد وصوله إلى الميناء تابعكِ بعينه الخبيرة،

استغلَّ ضعفك وقلَّة خبرتك، فتلاعَبَ بمشاعرك وأحاسيسك لتحقيق مآربه، حصلَ على وظيفة ممتازة لم يكن ليحلم بها أقرانه، وسوى وضعيته القانونية والإدارية في فرنسا بسهولة تامّة، فحاول التخلّص منكِ بعد ذلك ليبدأ حياته الجديدة بعيداً عنكِ، لكن حملكِ المفاجئ ضربَ كلّ مخططاته في مقتل، فتخلّى عن مراوغاته وكشفَ عن وجهه الحقيقي، طردكِ من الميناء ولم يكلِّف نفسه عناء اللحاق بك والاطمئنان على حالتك الصحية، وحده هذا الشاب الطاهر، الذي يعمل معه في الميناء، مَن تابعك وأحبَّك في صمت منذ البداية رغم أنك لم تشعري بوجوده، فهم دانييل طبيعة علاقتك بهذا المغربي ولم يرتَح لانزلاقك باسمِ الحب في علاقة غير واضحة المعالم، حاولَ التدخّل عدّة مرات لكنه خشي ردّة فعلك، قبل أن يتجاوز تردّده وخوفه ويلحق بك إلى المستشفى بعد مغادرتك للميناء.

حدجت دانييل بنظرة ممتنّة، فيما حافظ الأب على نبرته الهادئة:

- قراركِ الأخرق بالتخلّص من الجنين لم يكُن موفّقاً، وكشَفَ عن طيش لم أعهده منكِ يا بريجيت، وشاءَت إرادة القدر أن تتعقّد الأمور أكثر فأكثر إثر وقوعك فريسة لطبيب نصّاب خان مهنته وتعاليم دينه، فحصَل منكِ على أموال طائلة مقابل إجراء عملية إجهاض سرية وغير قانونية[1]، تسبَّبت مضاعفاتها الخطيرة في إصابتك بالعقم فيما بعد، وبالكاد تمكَّن دانييل وبعض الأطباء الشرفاء من إقناع

---

(1) لم تقنّن عمليات الإجهاض في فرنسا إلّا في سبعينيات القرن الماضي، كما إن بحثاً سريعاً أكّد لي أنّ المستشفى المذكور كان تابعاً للكنيسة في ذلك الوقت، ما يعني تحريمه وتجريمه للإجهاض في كلّ الأحوال.

والديكِ بأنّ الأمر يتعلّق بتسمُّم غذائي حادّ يتطلب فترة نقاهة طويلة، لكن ما أحنقني أكثر هو هروب الطبيب الخائن وإلتحاقه ببعثة تبشيرية متوجِّهة إلى مجاهل أفريقيا، ما خلَّصه من قبضتي وعقابي العسير...

أغضبَني إصراره الغريب على تذكيري بما ارتكبته من أخطاء، لكنني تمالكتُ أعصابي وتابعتُ ببصري حركات يديه وإيماءات رأسه وهو يواصل كلامه:

- ينحدر أحمد من قرية عين اللوح الواقعة في جبال الأطلس المغربية، القرية التي ترك فيها عائلته وزوجته الحامل، وأنا أعرف هذه المنطقة جيداً، وقد يساعدني هذا في مهمّتي القادمة...

سألته باستغراب حقيقي:

- بحسب علمي فعين اللوح مجرّد قرية صغيرة منسيّة في عمق جبال الأطلس المغربية، هذا ما قاله أحمد في معرض كلامه، كيف تَعرفها يا أبتِ ووجودك بالمغرب لم يتجاوز بضعة أشهر؟ وعن أية مهمة تتحدث؟

رسمَ الأب على محيّاه ابتسامة غامضة لم أفلح في فَهم مغزاها، ثم أجابني:

- أنا أعتبركِ ابنتي يا بريجيت، لم أكُن لأسمَح لهذا الكافر الحقير بلمس شعرة واحدة منك، أمّا وقد وصَلَت الأمور لما هي عليه الآن، فأنا لن أرضى بأقلّ من انتقام مزلزل، سيدفع أحمد ثمن تخلّيه عنك، وستبنين مستقبلك من جديد، ثقي بي، مفهوم؟

لم أكُن في موقعٍ يسمح لي بالتفكير، فاكتفيتُ بابتسامة باهتة لم تنجحْ في تبديد مخاوفي...

* * *

10- مثالب الولادة[1]

الأحد 27 ديسمبر 1992

مستشفى كوشيفو - سراييفو:

هل يمكنني القول بأنّ ليلة السابع والعشرين من ديسمبر 1992 كانت أطول ليلة في حياتي؟

أعتقد ذلك...

صحيح أنّ القصف الصربي السابق لم يدمّر قسم النساء والتوليد بشكلٍ كامل، لكن دماره الجزئي صعّب من مهمتنا، فاضطررنا لإعداده بما تبقّى من وسائل ومعدات قليلة أصلاً، كما تدبرنا أمر مولّد احتياطي لم نجد أفضل منه لإمدادنا بما نحتاجه من كهرباء.

مخزون المعقّمات والمواد المطهّرة يوشك على النفاد، وغياب جَرّاح توليد متخصّص يعني أنّ المسؤولية كلّها ملقاة على عاتقي.

---

(1) تتناول معظم أحداث هذا الفصل وصفاً دقيقاً ومفصّلاً لعملية توليد الشابة أميرة خافيروتش، وقد استخدم الراوي الكثير من المصطلحات الطبية التي لا يفهمها إلّا أصحاب الوزرة البيضاء، والتي لا تكفي الاستعانة بمراجع متخصّصة لشرحها بطريقة مبسَّطة للقارئ العادي، فاكتفيتُ بنقل المحتوى كما هو.

ساعات طويلة مرَّت، وحدث ما كنت أخشاه. . .

تجاوَزَت المرحلة الأولى لمخاض أميرة سبع ساعات، ولم تظهر أية بوادر على تمدّد أو اتّساع عنق الرحم بعد تمزّق الغشاء السلوي والزيادة الواضحة في معدّل ضربات القلب لدى الأم والجنين على السواء.

خطَر تعرّض الجنين لتعفّن ميكروبي أو اختناق مميت قادم لا محالة. . .

كلّ هذا والشابة عاجزة عن بذل أيّ مجهود إضافي، ما يثبت عدم فعالية الطلق في الساعات القليلة الماضية.

لا تفسير لذلك في نظري سوى أنّ أميرة ترفض في قرارة نفسها هذا الجنين، فقد توقفت عن الاشتراك الفعال في عملية الولادة.

لكنها تعرِّض حياتها للخطر بهذا التصرف الغريب!

لا خيار أمامي، ولا بديل عن إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الأم والطفل، وليكن بعدها ما يكون. . .

تصبَّب العرق غزيراً من جبين أميرة، وبَدَت ملامح الضعف والتعب واضحة على محيّاها، وهي تردِّد كلاماً لم أفهم منه سوى كلمتَي نور ورامز.

- نور ابنتك، وأعتقد أنّ رامز هو اسم زوجك، تحمَّلي وقاومي من أجلهما، كوني قوية يا أميرة!

قلتها وأنا أعلم أنّ المسكينة لن تجيبني، هي التي تتأرجح بين الغيبوبة والوعي، ولا دليل على ذلك سوى هذيانها هذا. . .

همسَت مديحة في أذني بصوت مبحوح:

- ماذا سنفعل؟ إجراء عملية قيصرية في مثل هذه الظروف المعقَّدة أمر غير مأمون العواقب!

لم أكُن بحاجة إلى مَن يذكِّرني بذلك، فأجبتُها بعصبيّة:

- وماذا تريدين مني أن أفعل؟ الولادة الطبيعية غير ممكنة بأيّ حال من الأحوال...

تدخّل طبيب التخدير في النقاش قائلاً:

- معك حق، لا مفرّ من إجراء عملية قيصرية، سأتولى أمر التخدير الموضعي الذي...

قاطعته بانفعال شديد:

- ظروفنا لا تسمح بإجراء تخدير موضعي يا إيفان، نحن أمام حالة مستعجلة لضائقة جنينية شديدة، كما أنني أشكّ في إمكانية تعرض أميرة لنزيف دموي مطلق.

اعترض على كلامي بالقول:

- ولكنك تعلم كما أعلم بأنّ التخدير الموضعي، سواء كان تخديراً شوكياً أو فوق الجافية، هو الأفضل، فهو يسمح للأم بالبقاء مستيقظة ومتفاعلة مع طفلها، كما أن التخدير العام قد يتسبب في رشف رئوي لمحتويات المعدة!

تسلّل التوتر إلى نبرة صوتي وأنا أجيبه:

- عن أيّ تفاعل تتحدث؟ ألا ترى بأنها ستفقد وعيها من شدّة التعب؟ أضِفْ إلى ذلك بأننا أمام شابة في مقتبل العمر، ما يقلِّل إلى حدٍّ كبير من إمكانية تعرّضها لرشف رئوي لا يرتفع معدّل حدوثه نسبياً إلّا عندما يتعلق الأمر بحمل متأخر.

انعقد حاجباه في غضب قبل أن يقول:

- لا تكن عنيداً، أنت لا تملك أية خبرة في العمليات القيصرية!

أصدرت أميرة أنيناً خافتاً قطعت به نقاشنا المحموم، كما لو كانت تطالبنا بالتوقف عن هذا التهريج، فقلت بلهجة حازمة:

- لا وقت لدينا لنضيعه في نقاشات سخيفة، لا مفرّ من إجراء تخدير عام، وسأتحمّل أنا المسؤولية، مفهوم؟

لم أغفَل ملامح السخط التي ارتسمت على وجهه، وهو ينفّذ تعليماتي، فيما وجَّهت كلّ تركيزي نحو الخطوة المقبلة.

- لا أعتقد بأنّ المخزون المتوفّر من المطهرات والمعقمات الضرورية لوقاية وتعقيم جسد الشابة سيكون كافياً، ماذا سنفعل؟

لولا دقة الموقف لصرختُ في وجه مديحة من شدة الغضب، لكنني تمالكت أعصابي وأجبتها بسرعة:

- المخزون كافٍ، سنبدأ بمركز العملية أسفل البطن، لنمرّ بعدها لتعقيم جسد الشابة بالكامل.

وكذلك كان...

لم يعُد أمامي سوى التقاط نَفَسٍ عميق ومباشرة أصعب وأعقد عملية جراحية أجريها في حياتي.

نعم، العملية القيصرية سهلة نسبياً، ولا تستغرق سوى ساعة واحدة على أقصى تقدير، لكنني أجري هذه العملية في ظروف أقلّ ما يُقال عنها إنها كارثية، فنظام التكييف المركزي معطّل، والإضاءة ضعيفة، كما أنّ أغلب المعدات الطبية خارج الخدمة، والنقص حادّ في بعض الأدوية والمطهرات، كلّ هذا وأنا لست جراحاً متخصّصاً في أمراض النساء والتوليد، وأيّ خطأ أرتكبه، مهما بلغت تفاهته، قد يكلّفني الكثير، حياة الأم، وحياة طفلها، ومَن يدري، قد تأتي قذيفة صربية مفاجئة لتدمّر كلّ شيء!

مهلاً، هل أفتتح عملي بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» أم «بسم الأب والابن والروح القدس»؟

طردت هذه الخاطرة السخيفة من ذهني بسرعة، فهذا ليس مهماً الآن، فليوفّقني الله في ما أنا مقبل عليه ولنناقش مسألة حيرتي الروحية فيما بعد...

بدأت بشق عرضي فوق حافة المثانة، في القسم السفلي من الرحم، الطبقة الجلدية أولاً، ثم الطبقة العضلية، فيما ساعدتني مديحة بالضغط الرأسي الخفيف على المحور الذنبي منعاً لأي نزيف دموي مفاجئ.

- عظيم، من حسن حظنا أنك لم تعتمد على شقّ طولي وسطي، استمر...

قالها إيفان بصوت لم أخطئ نبرة السخرية فيه، فأجبته بهدوء ظاهري أخفى رغبتي الدفينة في تحطيم أسنانه:

- تعتمد العملية القيصرية الكلاسيكية على شق طولي وسطي، ما يسمح بمساحة أكبر لخروج الطفل، لكنها نادرة الاستخدام اليوم، لأنها أكثر عرضة للمضاعفات يا عزيزي.

تدخلت مديحة في الحوار قائلة:

- إيفان، أرجوك! لسنا في مناظرة طبية حتى يستعرض كل واحد منكما غزارة معلوماته، اصمت!

كنت أعلم بأنه لن يتقبل لهجة مديحة الممتعضة، لكنني لم أشغل نفسي بهذا الهراء وتابعت عملي، فقد بقيت خطوة أخيرة...

قمتُ بإخراج الطفل، فتسلَّمته مديحة بحرص شديد، لأنهي مهمتي بإزالة المشيمة وإتمام الجراحة القيصرية بخياطة مفردة لطبقة الشق الرحمي، بعدما تأكّدت من أن النسيج تحت الجلد لا يتجاوز

سمكه ثلاثة سنتيمترات، قبل أن أطلق زفرة ارتياح وأحدج إيفان بنظرة واثقة متحدّية.

لقد نجحت العملية.

أو هكذا خيّل إليّ...

* * *

أتعبتني صعوبة العملية وضغطها الرهيب، لكن أسئلة كثيرة كانت بحاجة إلى إجابات مُقنِعَة...

دفعني الفضول لمقابلة الشيخ وزوجته ومعهما الطفلة نور، بعد اطمئناني طبعاً على حالة أميرة التي أدخلناها قاعة المراقبة، فيما فضّل إيفان العودة إلى غرفة الأطباء، باحثاً عن قسط مستحقّ من الراحة.

تأخّر الوقت كثيراً، لكنني فوجئتُ بالطفلة محافظة على نشاطها وترقّبها لأيّ جديد يخصّ أمها.

رأتني قادماً من بعيد، فركضَت نحوي وهي تردِّد بإصرار:

- **ماما... ماما!**

منحتها ابتسامة مشجِّعة، ثم عانقتها بحنان بالغٍ وأنا أقول:

- **أمك بخير يا حلوتي، وشقيقك كذلك، اطمئني!**

الواقع أنني قلتها لأُطَمْئِنَ نفسي، فمن أين لطفلة في الخامسة من عمرها أن تفهم كلامي بالإنجليزية؟

أقبَل الشيخ وزوجته نحوي، وعلامات اللهفة بادية عليهما، لكن ابتسامتي هدأت قليلاً من روعهما، فرفعا يديهما بالدعاء شاكرين مطمئنين.

انتبهتُ للسُّبحة السوداء والمصحف الصغير الذي يحمله الشيخ بحرص شديد، فلم أتمالك نفسي وأنا أسأله:

- تتقن العربية، أليس كذلك؟

أشرقَ وجهه في ارتياح وقد وجدنا أخيراً وسيلة مناسبة للتواصل، فأجابني:

- لا أجيدها، لكنني أفهمها وأستطيع التحدّث بها قليلاً...

ثم أضاف:

- كيف حال أميرة؟ هل هي بخير؟

قلت في ثقة:

- إنها بخير، اطمئن!

صمتُّ للحظات، ثم حسمتُ أمري وسألته:

- أريد إجابات واضحة عن بعض الأسئلة، ما قصة هذه الشابة المسكينة؟ لقد اضطررنا لإجراء عملية قيصرية بعد تعذّر الولادة الطبيعية، وقد ساهم عدم تجاوب أميرة معنا في تعقيد الأمور أكثر، كما لو كانت رافضة لهذا الجنين، أعلم أنّ في سؤالي هذا بعض الفضول والتطفّل، لكن أين زوجها؟ وكيف...

قاطعتني الطفلة التي تشبَّثت بساقي اليمنى وهي تدفعني بكلّ ما تملك من قوة، متفوّهة بكلام غير مفهوم، فقال الشيخ:

- تقول لك إنها تريد رؤية والدتها...

انحنيتُ لأداعب شعرها الأشقر وأربت على خدّها، فأمسكت بيدي وهي ترمقني بعينيها الجميلتين البريئتين.

- سترينها يا نور، لكن ليس الآن، ماما بحاجة إلى أخذ قسط من الراحة.

قلتها ثم أمسكتُ بيدها، ورافقت الشيخ وزوجته إلى مقاعد الممرّ، فأجلستها على فخذي وأنا منتبه للبوسني الذي أطلق زفرة حارّة قبل أن يقول:

- أستغفر الله، لكن أميرة لا تستحق كلّ ما جرى لها...
داعب حبات سبحته ثم أكمَلَ:
- سأشرح لكَ تفاصيل ما جرى منذ البداية، أميرة يا سيدي شابة بوسنية من سراييفو، لم تعرف لها أهلاً فهي ابنة ملجأ للأيتام، فيما ينحدر زوجها من مدينة موستار، قابلها بالصدفة هنا في العاصمة، أحبّا بعضهما وتزوّجا، واستقرّ رامز في سراييفو، وأنجبا ابنتهما نور قبل خمس سنوات تقريباً.

اعتاد الزوجان على زيارة موستار من حين إلى آخر، لكن حادثاً معيّناً قلَبَ كلّ الأمور رأساً على عقب، فقد سافر رامز شهر مارس الماضي إلى مسقط رأسه لحلّ بعض المشاكل الإدارية، لكنه اختفى وانقطعت أخباره بطريقة مريبة، وتزامن ذلك مع إحكام الميليشيات الصربية قبضتها على سراييفو وفرضها حصاراً شبه كامل على المدينة.

اتّصلت أميرة بأهل رامز في موستار عدّة مرات لكن دون جدوى، ما من مجيب على مكالماتها، وعندما قرّرت السفر بنفسها إلى هناك، فوجئت بالحصار الصربي المُحْكَم.

حلَّ شهر أبريل وما من جديد، لا اتصال من رامز، ولا علامات على فكٍّ قريب للحصار، بل ازدادت الأوضاع سوءاً مع اندلاع اشتباكات داخل المدينة بين قوات الدفاع المحلية والمسلحين الصرب الذين اختطفوا الأبرياء وحوَّلوا بعض المخازن والمباني المهجورة إلى معسكرات اعتقال ارتكبوا فيها جرائم وفظائع قد لا تخطر وحشيتها على بال أحد.

نامت نور بين أحضاني، فابتسمتُ في تعاطف حقيقي وأنا أتطلّع لوجهها الملائكي، فيما واصل الشيخ سردَه البطيء للأحداث:

- لم يكن من المناسب ترك أميرة وابنتها لوحدهما في مثل هذه الظروف الصعبة، فعرضَت عليها زوجتي الانتقال للعيش معنا ريثما تهدأ الأمور أو يظهر أيّ أثر للزوج الغائب، فنحن جيرانها ونعيش أيضاً لوحدنا.

تهدّج صوته وهو يقول:

- كانت ليلة هادئة، على غير المعتاد، منتصف أبريل الماضي، عندما أصرَّت أميرة على الخروج لإحضار بعض الأغراض من منزلها، فشلتُ في إقناعها بالبقاء، أو مرافقتها على الأقل، فقد تعلَّلت بأن منزلها قريب جداً وأن الهدوء مطمئنٌ ولا يستحق كلّ هذا الحرص.

كانت مخطئة، وأنا كذلك، لأنني سمحتُ لها بالخروج، فقد اختفت هي الأخرى ولم تعُد بعد ساعات من خروجها.

لحقتُ بها إلى منزلها، وكما كان متوقعاً، لم أعثر لها على أثر...

أُسْقِطَ في يدي، فقد حدث ما كنت أخشاه، وكما تعلم فإن الفوضى التي نعيشها ستمنعك من اتخاذ أية خطوة طبيعية ومعتادة في مثل هذه الحوادث، أين هي الشرطة لأبلغها عن ملابسات الاختفاء؟ أين هم الشهود والحي شبه خالٍ بعدما انتقل معظم قاطنيه إلى مناطق أخرى أكثر أمناً؟

وحدها عجوز عمياء، تعيش بمفردها ويتناوب مَن تبقّى في الحي على الاعتناء بها، مَن قالت بأنها سمعت صوت صرخات مكتومة وصرير عجلات سيارة تنطلق مبتعدة، ورغم أنّ هذا أكّد شكوكي، إلا أنه لم يكن دليلاً كافياً.

سألته وقد بدأت معالم القصّة تتضح لي:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

أوشك على البكاء وهو يقول:

- كما كان متوقعاً، عادت بعد ثلاثة أيام، محطَّمة ومدمّرة بالكامل، اختطفها ثلاثة مسلحين من عصابات التشتنيك، تربّصوا لها غير بعيد عن الحي، مستغلين الهدوء النسبي، ثم اقتادوها لمنزل مهجور وتناوبوا على اغتصابها، وهدَّدوها بالقتل إن هي تفوّهت بكلمة...

كانت صدمة قاسية، أدخلتها في حالة اكتئاب حادّة استفحلت أعراضها بعد ظهور أولى علامات الحمل، فحاولت الانتحار انتقاماً لكرامتها المهدورة، لكننا أنقذناها في آخر لحظة وبذلنا كل ما في وسعنا لإقناعها بالاحتفاظ بجنين لا ذنبَ ولا حولَ له ولا قوة، كلّ هذا ولا جديد عن رامز، الذي تزايدت احتمالات مقتله، فما يصلنا من أخبار عن موستار يؤكد بأنّ أوضاعها لا تقل تعقيداً وصعوبة عن سراييفو.

هممتُ بطرح سؤال آخر، لكنني فوجئتُ بمديحة قادمة نحونا وعيناها تفضحان رعبها.

- أميرة، أميرة يا دكتور، إنها تنزف بشكل مخيف يتجاوز كلّ المعدلات الطبيعية!

قالتها بارتياع، فارتعَدَت فرائصي وهوى قلبي بين قدمي، لأنني علمتُ في قرارة نفسي ما الذي قد يعنيه ذلك...

* * *

ركضتُ بكلّ ما تبقى لي من قوة نحو غرفة المراقبة، وتَبِعَني إيفان الذي سمع صوت مديحة فخرج من غرفة الأطباء مسرعاً.

- إنه نزيف حادّ، لقد فقدت ما يقارب اللتر من الدماء، تسارعَت دقات قلبها وبدأ ضغط دمها في الانخفاض!

هكذا تكلَّم إيفان، فانعقد حاجباي وأنا أبحث يائساً عن هدوء يسمح لي بالتفكير، ثم قلتُ بثبات:

- غرفة الإنعاش، بسرعة!

تعاونت مديحة وممرِّض آخر على نقلها، فبدأتُ عملي بحقنها عبر الوريد بجرعة محددة من Syntocinon.

لا جديد...

جرعة أخرى من Syntocinon عبر المصل هذه المرة...

نصف ساعة ولم يتوقف النزيف...

قلت بلهجة حازمة:

- سأرى إن كانت أمبولة Prostaglandine ستفي بالغرض وتوقف هذا النزيف اللعين، أليس كذلك؟

أجابني إيفان:

- أخشى أن يكون ذلك بلا جدوى، سأجري بالموازاة مع ذلك مجموعة من التحاليل، تحاليل الدم والكلى والسكري وأخرى متعلقة بمجرى التنفس!

كنت أعلم ما الذي يقصده بكلامه، فقلت بنفاد صبر:

- طبعاً... طبعاً! المهم أن نتصرف...

أمبولة Prostaglandine أولى...

دقائق بطيئة مرّت، لاحظتُ بعدها تراجعاً نسبياً في حدة النزيف، أسعدني ذلك، لكنني كنت مطالباً بإضافة أمبولة أخرى بعد مرور ساعة على الأولى.

ارتجَفَت أصابع يدي اليمنى وأنا أرى ارتفاعاً في حدّة النزيف بعد التراجع السابق، ما أثبت صحة مخاوف إيفان.

التقطتُ نفساً عميقاً قبل أن أقول:

- هل تفكِّر في ما أفكِّر فيه يا إيفان؟ حالة أميرة وطبيعة الظروف المحيطة بنا تجعلنا أمام خيار واحد فقط: عملية عاجلة لاستئصال الرحم.

خيِّل إليّ أنه لم يسمع ما أقول، فهممتُ بتكرار عبارتي، ليصدمني هو بآخر ما كنت أتمناه:

- أتدري ما الذي حمله اختبار تعداد الدم NFS؟

جفّ حلقي وأنا أقول:

- ماذا؟

أجابني بصوت لم يستطِع إخفاء نبرته العصبية:

- نسبة الهيموجلوبين في دمها لا تتجاوز 9 غرامات في الديسيلتر، تعلم جيداً أنّ النسبة الطبيعية للحامل تكون بين 11 و12 غراماً، لا تفسير لذلك سوى أنّ أميرة مُصابة بفقر الدم!

احتفظتُ بهدوئي الظاهري، رغم أنّ براكين أعماقي كانت تغلي، لكنني حسمتُ أمري بعد برهة من التفكير:

- سأجري عملية استئصال الرحم، مهما كلّف الأمر!

اتسعت عينا إيفان في تعبير واضحٍ عن الغضب، وقال في حدّة وهو يوجّه سبابته ناحية صدغه:

- هل جننت أم ماذا؟ هذا انتحار!

صحتُ في وجهه بعدما نَفَدَ صبري:

- الانتحار هو أن نبقى مكتوفي الأيدي أمام وضعها هذا، نعم،

في الأمر مخاطرة كبيرة، ونسبة نجاح العملية أمام هذا المعطى الجديد ضعيفة للغاية وتقترب من الصفر، لكنها ليست مستحيلة، على الأقل لم تنخفض نسبة الهيموجلوبين في دمها عن 8 غرامات في الديسيلتر، وإلّا لكنا مجبرين ساعتها على إجراء نقل دم تعلم جيداً أنه مستحيل تماماً في ظروفنا الكارثية هذه.

رفع أصبعه ناحيتي هذه المرة، وهو يقول بنبرة متحدِّية:

- تهوّرك هذا سيقودنا إلى الهلاك، هيا، سنرى ما الذي يمكنك فعله!

ثم عقد ساعديه أمام صدره كأنما يستفزّني، فكدتُ أفقد ما تبقى من برودة أعصابي وأخنقه بيدي وليكن بعدها ما يكون، لكنني تذكّرت خطورة ما أنا مقبِل عليه، فتجاهلته.

- سنُدخلها إلى غرفة العمليات مرة أخرى، استئصال الرحم فرصتنا الأخيرة لإنقاذها.

قلتها ببرود، وأنا متوجّه بثبات نحو قاعة العمليات، نحو الأمل الوحيد والأخير لإنقاذ أميرة خافيروتش...

وبدأت العملية الثانية...

فتحة أسفل البطن عرضها عشرون سنتيمتراً، ثم عمل دقيق على استئصال كامل للرحم مع العنق والمبيضين، كآخر وسيلة ممكنة لتجنب هذا النزيف.

تصبّب العرق من جبيني مرة أخرى، ورغم أن نظام التكييف المركزي معطّل، إلّا أنني نسيت شكواي السابقة من الانخفاض الملحوظ في درجات الحرارة لما دون الـ 13 درجة تحت الصفر، كيف لا وقد ارتفعت حرارة جسمي وارتجفت يدي من شدّة الخوف، لا من شدة البرد القارس!

كل هذا وأنا أراقب التسارع المخيف في دقات القلب، وانخفاض الضغط.

أرجوكِ يا أميرة، قاومي ولا تخذليني!

جرعات مصل أخرى. . .

كوني قوية يا أميرة!

تراجع تسارع دقات القلب، لكن الضغط واصَلَ الانخفاض. . .

ستعيشين يا أميرة! من أجلك، من أجل نور، من أجل طفلك البريء، من أجل رامز، من أجلنا جميعاً!

اضطراب في رسم تخطيط القلب. . .

وأطلقت أميرة شهقة مفاجئة مخيفة. . .

- أرأيت ما الذي جناه علينا قرارك الأخرق؟

كان هذا صوت إيفان، الذي أجبتُه بلكمة قوية وجهتها لفكّه وحمَلَتْ معها كلّ مشاعر الغضب والعجز والقهر المعتملة في صدري.

لكمة ألقت به بعيداً، وربما أفقدته الوعي، ليس هذا مهماً.

توقف تخطيط القلب، الذي أطلق أزيزه المتّصل الملعون. . .

قفزت بسرعة لأجري تدليكاً يدوياً لقلب أميرة.

مرة أولى، وثانية، وثالثة. . .

لا جدوى!

لقد توقف قلب أميرة. . .

أو بعبارة أخرى:

ماتت أميرة!

لم أتمالك أعصابي، فأطلقتُ صرخة مزلزلة مقهورة، تزامنَت

مع اقتحام مديحة الباكية لغرفة العمليات وهي تتحدّث منهارة عن فشل محاولات إنعاش الجنين ووفاته بعد عجزه عن تحمّل آثار العملية، ثم تبعتها نور هاتفة باسم أمها الراحلة، فأبعدتُها عن جثة أميرة واحتضنتُها حتى كدتُ أعتصر جسدها البضّ بين ذراعي وقد انخرطتُ في نوبة عنيفة من البكاء.



11- مرارة الندم

الصفحات الأخيرة من مذكرات الراحلة بريجيت نوسي مترجمة إلى العربية[1]:

الخميس 17 أكتوبر 1991

شارع القديس بيير - مارسيليا:

ابني العزيز...

أرى ملامح الدهشة والحيرة واضحة على محياك الجميل وأنت تقرأ هذه الكلمات التي قفزَتْ بك، على حين غرة، من ماضي الستينيات إلى حاضر التسعينيات.

نعم، سنوات طويلة جداً مرَّت قبل أن أمسك بالقلم مرة أخرى

---

(1) يتعلق الأمر فعلاً بالصفحات الأخيرة من كرّاسة مذكرات الراحلة بريجيت نوسي، من الواضح أنها كتبتها وهي في أسوء حالاتها، أسابيع قليلة قبل وفاتها، وبعد ثلاثين سنة تقريباً من الانقطاع، فقد تغيَّر خطّها إلى حدٍّ كبير، وافتقدت لتلك الدقة التي ميَّزت مذكراتها السابقة، وظهر نوع من الاضطراب والتشتّت غير المألوف في أسلوبها، كما تخلّت تماماً عن لهجتها العدائية والعنصرية تجاه العرب والمسلمين، وقد اقترح عليّ الدكتور خاليلوزيتش إعادة صياغة هذه الصفحات بعد ترجمتها لتكون أكثر وضوحاً، لكنني فضَّلتُ الإبقاء عليها كما هي.

لأكتب، ولو أنني متأكدة من أنها ستكون المرة الأخيرة، فقد استشرى المرض في جسدي وفقدتُ أيّ أمل في العلاج، ولم تعُد تفصلني عن القبر سوى خطوات قليلة.

لعلّك تتساءل عن السرّ الذي جعلني أتوقف عن الكتابة، منذ اجتماعي بالأب فرانسوا ودانييل في مستشفى القديس جوزيف قبل ثلاثين عاماً تقريباً.

هل سمعت يوماً ما بقفلة الكتابة؟ عندما تجلس بالساعات أمام ورقة بيضاء ويعجز قلمك عن مطاوعة أناملك لكتابة حرف واحد؟

أنت مغرم بكلّ ما له علاقة بعوالم الأدب، ومكتبتنا الصغيرة شاهدة على ذلك، وعليه فأنت تفهم قصدي.

أليس كذلك؟

مرّت الأيام، واستعدتُ عافيتي شيئاً فشيئاً، وبنيتُ على أنقاض الماضي الأليم حياة جديدة ومستقبلاً أفضل مع دانييل، الذي لم أكُن لأجد زوجاً محبّاً وحنوناً مثله، تحمّل تقلبات مزاجي وشراسة طباعي و...

وحافظَ معي على السرّ الرهيب الذي غيَّر مسار حياتي إلى الأبد.

لم أكن أتصوّر، حتى في أسوء كوابيسي، أن ينفّذ الأب فرانسوا انتقاماً بهذه البشاعة، دمَّر به حياة أحمد.

وليته اكتفى بهذا، فقد مسَّت نيران انتقامه الجميع، مذنبين وأبرياء...

بشاعة الانتقام انعكست عليّ بالسلب، فتوقّفت عن الكتابة بعدما كبّلت عقدة الذنب يدي، فأغلقتُ كراسة مذكراتي لثلاثين سنة، وقد خيّل إليّ بأنني سأنسى كلّ ما جرى من أحداث بسهولة تامة.

كم كنتُ واهمة...

لا تحتاج المسألة إلى تفكير عميق أو عقل جبار، فقد قرأت مذكراتي السابقة وفهمتَ أنني لست والدتك الحقيقية.

أعمَتْني الرغبة العارمة في مداواة جراح كرامتي المهدورة، ولم أدرك أنّ حلاوة الانتقام مؤقتة، ومرارة الندم أبدية، إلّا بعد فوات الأوان...

ما ذنبك أنت؟ حتى نقتلعك من جذورك، ونأتي بك إلى هنا، لتدفع ثمن أخطاء لا علاقة لك بها؟

لماذا طاوعتُ الأب فرانسوا على تنفيذ مخطّطاته الشريرة؟ هو الذي لم يكن يحبّني بقدر ما كان يكرَه العرب واستخدمني أنا كوسيلة لتحقيق مراده الدنيء.

وما خَفِيَ كان أعظم، فأنا لا أعلم طبيعة عمله الغامض، هناك في المغرب...

على أية حال، حدث ما حدث، وجئنا بك إلى مارسيليا، وأنت رضيع لم يكمِل عامه الأول بعد.

ربما لم تكن بعض الإجراءات الإدارية بتلك الصرامة الحالية، لذلك لم نجد أدنى صعوبة في إقناع الجميع بأنك ابني الشرعي، وأن دانييل هو والدك الحقيقي، بعد استغلالنا لفترة غيابي الطويلة، وأيضاً لما يمكن اعتباره شبهاً طفيفاً بيني وبينك، فكلانا أسود الشعر، أبيض البشرة.

تفصيل بسيط أغفلته في البداية، فطاردني لثلاثة عقود، كما لو كان يعاقبني على ما اقترفته يدي من آثام.

عيناك يا ولدي، عيناك نسختان طبق الأصل من عينَي والدك، أحمد...

أيّ عذاب أقسى من أن أطالع هاتين العينين كلّ يوم، لأتذكّر معهما ما جرى بيني وبين والدك الراحل؟

يقولون بأنّ الرجل لا ينسى أول امرأة رفضَته، كما لا تنسى المرأة أول رجل لمَسها.

لا أدري ما مدى صحّة المقولة، لكنني متأكدة من أن نظرة أحمد، لمسته، رائحته، ابتسامته، قد احتلَّت موقعها في قلبي وامتزجت بروحي إلى الأبد.

صحيح أنني كنت مخلِصة لدانييل، وأدّيتُ كل واجباتي الزوجية نحوه على أكمل وجه، لكنني لم أصارحه أبداً بهذه الحقيقة.

عزمتُ في البداية على خلق نموذج لما أراها أسرة سعيدة، الأب موظف في الميناء، والأم معلمة في مدرسة ابتدائية، و«الابن» لطيف جميل وملتزم منذ صغره بتعاليم الكنيسة وتوجيهاتها.

لا تسألني لماذا فعلتُ ذلك، فأنا أيضاً أجهل السبب الحقيقي، هل هو ذلك الكره الظاهري الزائف لأحمد والرغبة العارمة في الانتقام منه؟ أم أنها مجرد مطاوعة للأب فرانسوا، الذي أشرف على كلّ شيء بنفسه؟ لا أدري...

للعمر أحكامه الصارمة يا ولدي، ومن الطبيعي أن تخونني الذاكرة عندما يتعلق الأمر ببعض التفاصيل الصغيرة، لكنني لم أنسَ أبداً ردّة فعلك الغريبة عندما قرّرنا إخضاعك لسر المعمودية في الكنيسة[1]، وأنت بعد رضيع لم يمضِ على مَقدَمك إلى مارسيليا سوى بضعة أشهر.

---

(1) المقصود بالمعمودية هنا هو رشّ الكاهن لماء مقدَّس على وجه الطفل أو الشخص المعتنق للديانة المسيحية، في إشارة إلى غسل الروح القدس، يُعتبر سرّ المعمودية أحد الأسرار السبعة المقدّسة في الكنيسة الكاثوليكية، وختماً أبدياً يبقى المعمَّد بموجبه مسيحياً حتى الممات بحسب المعتقدات المسيحية.

أذكر جيداً كيف علا صوت صراخك وبكائك، أنت الذي كنت دوماً أشبه بالملاك الوديع، وحرّكت رأسك عدة مرات، كعلامة على الرفض الشديد لتعميدك بالماء المقدّس.

لم أكن أملك أية خبرة سابقة في تربية الأطفال، وكذلك الشأن بالنسبة إلى دانييل، فاعتبرنا أنها مجرّد ردّة فعل عادية جداً وطبيعية، وربما ضحكنا من فرط سعادتنا بك، ولم نفهم يومها أنها أول علامة تحذيرية على فداحة الجرم الذي ارتكبناه.

كبرتَ أمام عيني، ورغم أنني أحببتك بجنون، إلّا أنني عاملتك بقسوة شديدة وأنا أجبرك على الالتزام بالتعاليم الدينية، التي رفضتها أو ربما مارستَها على مضض، احتراماً لي ولدانييل الذي لم يكن متشدّداً مثلي، وأيضاً لأنك كنت طفلاً هادئ الطبع خجولاً، رافضاً لكلّ أشكال الصدام أو العصيان.

كنت أعلم أنّ الصليب الذي يزيّن عنقك لم يكن ذا قيمة تُذكر عندك، كما هو الشأن بالنسبة إلى قداس الأحد وقراءة مقاطع من الكتاب المقدس، فهي لم تكن أكثر من تأدية واجب دون اقتناع حقيقي.

اهتمامك الوحيد كان بمكتبة المنزل، فقد أبهرتني أنا ودانييل بإقبالكَ الملحوظ على المطالعة، وأقصد هنا قراءتك لبعض روائع الأدب الفرنسي والعالمي وأنت لم تتجاوز العاشرة من عمرك، اهتمام قابَلَهُ تجاهل واضح بطبيعة الحال لتلك الثروة التي سلّمني إياها الأب فرانسوا في وهران.

ربما تصفّحت مرة أو اثنتين سفر أعمال الرسل وسفر الرؤيا ورسائل بولس الرسول، وقرأت إصحاحات من الأناجيل الأربعة بلا أيّ اكتراث، أو هكذا خيّل إلي. . .

تساؤلك الوحيد كان عن سرّ احتفاظي بترجمات عربية لهذه الكتب المقدّسة، فحاولتُ أن أشرح لك حقيقة نشأتي في وهران والظروف التي أجبرتني على تركها، بما يناسب سنك وفهمك القاصر طبعاً، لكنك فاجأتني بأسئلة عميقة أدهشتني وأجبرتني على مراجعة حساباتي في طريقة تعاملي معك.

ثم صدَمني طلبك الغريب. . .

- أماه، أعجبتني الرموز والخطوط التي كتبتِ بها تلك الترجمات العربية للكتاب المقدس، أريد تعلّم هذه اللغة!

استنجدتُ يومها بدانييل، فأجابني ببساطة:

- وماذا في ذلك؟ فليتعلم اللغة العربية تحت إشرافك، أنت تتقنينها قراءة وكتابة، مَن يدري، قد يساهم هذا الأمر في تحبيب الكتب المقدّسة إليه!

قبل أن يضيف بجدية:

- بريجيت، أنا مؤمن بأننا ملزَمون بإخباره بالحقيقة، من حقّه أن يعرف أصله وجذوره يوماً ما، لا أتحدث عن هذه السن المبكرة بطبيعة الحال، لكن فيما بعد، عندما يحين الوقت المناسب.

ارتعدت فرائصي وأنا أسمع كلامه، رغم أنه لم يجانب الصواب أو المنطق، ولو أنني تمنيتُ في سرّي ألّا يأتي هذا الوقت المناسب أبداً.

لن أفارقك ما حييت، مهما كلف الأمر. . .

نعم، في هذا التصرف أنانية وظلم كبيرين بحقك، أنت الضحية الكبرى في كلّ ما حصل، لكنني أحببتكَ بكل جوارحي، كما لو كنت. . .

كما لو كنتَ ابني الحقيقي!

يرتجف القلم بين يدي وأنا أكتب هذه الكلمات، وأبذُل كلّ ما في وسعي حتى أبثّ الأوراق آخر ما أتمنى قوله قبل توديعي لهذه الدنيا، أرجو أن تسامحني إن بدا أسلوبي في الكتابة ركيكاً ومشتّتاً، أو أن أفكاري متناقضة وغير واضحة، فأنا فعلاً في أسوء حالاتي، وأنت تعلم ذلك جيداً.

سامحني يا ولدي...

المهم أنني رضختُ في النهاية لطلبك، وأشرفت بنفسي على تعليمك اللغة العربية، التي أقبلتَ عليها بحماس ملحوظ ساعدك على إتقانها بسرعة كبيرة.

لكنها لم تكن نهاية المطاف...

حاولتُ منعك من الاختلاط بأبناء المهاجرين القادمين من شمال أفريقيا، رغم أنّ هذا أقرب إلى المستحيل، فأعدادهم الكبيرة وتأثيرهم الواضح على التركيبة السكانية لمارسيليا يجعل هذا المنع مجرّد فكرة حمقاء لا قيمة لها.

العجيب والغريب مرة أخرى أنك نسَجت معهم علاقات طيبة، وربما كان معظم أصدقاء طفولتك من أبناء المهاجرين الجزائريين والتونسيين والمغاربة!

أذكر جيداً ذلك اليوم الذي بكيتَ فيه بحرقة شديدة عندما جاء بعضهم لزيارتك في المنزل، فطردتُهُم أنا بقسوة، وألقيتُ على مسامعهم كمّاً هائلاً من الشتائم البذيئة التي تقطر حقداً وعنصرية.

كانت هذه أول مرّة تعلن فيها عن عصيانك، وتقاطعني لعدة أيام اضطررتُ بعدها لمراضاتك والاعتراف بخطئي السخيف.

واستمرّ مسلسل الشدّ والجذب بيني وبينك، بين رغبتي العارمة في تدارك الماضي وتفصيل حاضرك ومستقبلك على مقاساتي أنا، وتمرّدك الهادئ الصامت على القيود التي حاولتُ تكبيلك بها.

أتذكّر ما جرى في بداية السبعينيات، اعذرني فقد نسيتُ السنة بالضبط، المهم أنك كنت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرك، عندما اندلعت أحداث مارسيليا الشهيرة، واتّسعت دائرة الاشتباكات بين الفرنسيين والمهاجرين القادمين من شمال أفريقيا.

لم يكن ما حصل مفاجئاً، بل أتى في سياق متّصل من الأحداث الملتهبة التي واكبت أزمة اقتصادية عرَفَتْها فرنسا في تلك الفترة، والتي كان لها التأثير الأكبر على مجريات الأمور.

المعادلة واضحة: كلما اندلعت اضطرابات ذات طابع سياسي أو عرقي أو حتى ديني، فتّش عن حقيقة الوضع الاقتصادي وستجد الإجابة عن كل تساؤلاتك...

تزامنت الشرارة الأولى لما وقع في مارسيليا مع إقدام مختلّ جزائري نسيت اسمه على ذبح سائق حافلة فرنسي لا أذكر اسمه أيضاً، لتنطلق موجة من الأعمال العدائية تجاه الجزائريين والعرب بشكلٍ عام، وتشكّلت لجنة أطلقت على نفسها اسم لجنة الدفاع عن أبناء مارسيليا، بهدف حماية الفرنسيين من تجاوزات المهاجرين على حدّ قولها، والدعوة الصريحة لطردهم من فرنسا.

المهم أنّ هذه الاضطرابات قد تسبَّبت في مقتل عدد من الجزائريين، وإطلاق النار على أحياء سوناكوترا والأحياء الهامشية الأخرى التي تعجّ بالمهاجرين، وإلقاء زجاجات حارقة على مصانع يعمل فيها هؤلاء، ونشر حالة من الفوضى العارمة في المدينة، ما

أجبر الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان على التدخل، فقد صرَّح بأن فرنسا ليست دولة عنصرية ولن تكون كذلك أبداً[1].

ما علاقتنا نحن بهذه الأحداث؟

طيب، هل تذكُر ما وقع عندما اختفيتَ عن المنزل ذلك اليوم؟

كنت قد منعتك من الخروج، خوفاً عليك من التعرّض لأيّ مكروه قد تتسبب فيه الأوضاع الأمنية المضطربة، لكنك عصيتَ أوامري وغادرتَ المنزل في غفلة مني.

كدتُ أجن، فاتصلت بدانييل الذي ترك عمله في الميناء وجاء مسرعاً لنبحث عنك في محيط المنزل، وبعض الأحياء المجاورة، وأنا أدعو الرب ألّا تقودك قدماك إلى منطقة بيلزانسي ونوايل القريبة من الميناء القديم، أولاً لأنها تحوّلت بالفعل إلى بؤرة استيطانية عربية في قلب مارسيليا، تعجّ بالمجرمين وقطّاع الطرق والخارجين

---

(1) يتعلق الأمر باضطرابات عنيفة شهِدَتها مارسيليا مطلع السبعينيات، لم تجانب الراحلة بريجيت نوسي الصواب في ما قالته، لكن عاملَي السنّ والمرض ساهما ربما في نسيانها لبعض التفاصيل وخلطها لبعض الأمور، فقد جرَت هذه الأحداث بالضبط بين أواخر أغسطس وبدايات سبتمبر ثم ديسمبر 1973، المختلّ الجزائري يُدعى صلاح بوكرين، أمّا سائق الحافلة فاسمه إميل كيرلاش، الرئيس الفرنسي آنذاك كان جورج بومبيدو وليس فاليري جيسكار ديستان!

معلومة إضافية: بلغت هذه الأحداث ذروتها عندما هُوجمت القنصلية الجزائرية في مارسيليا يوم 14 ديسمبر 1973 وقُتِل وجُرِح عدد كبير من موظفيها، وتبنّت جماعة تطلق على نفسها اسم جماعة شارل مارتل هذه العملية، وهي تضمّ بين صفوفها عدداً من منتسبي منظمة الجيش السري الإرهابية المنحلة، والتي تحدّثنا عنها سابقاً، أعلم أن الظروف والحيثيات مختلفة، لكن لا أدري لماذا تذكّرني هذه الحادثة بالذات بما يجري ويدور من أحداث واضطرابات دموية في منطقة الشرق الأوسط الآن!

عن القانون، وثانياً لأنني حرَّمت على نفسي زيارتها منذ زمن بعيد أعتقد بأنك اطَّلعت على حيثياته في مذكّراتي السابقة.

لم نعثُر لك على أثر...

عُدنا مسرعين إلى المنزل وقد عقدنا العزم على الاتصال بالشرطة، وما إن وضع دانييل السماعة على أذنه وضغط على الزر الأول، حتى فوجئنا بك تدخل من الباب، بهدوئك المعتاد، كما لو أن شيئاً لم يكن!

لم يخلِّصك من قبضتي سوى دانييل، الذي تعامل مع المسألة بحكمة، فقد سألكَ بهدوء:

- أين كنت يا بني؟ ألا تعلم بأن الأوضاع الأمنية للمدينة سيئة للغاية؟ لم تمنعك أمك من الخروج إلّا لأنها خائفة عليك!

أجبتَهُ ببساطة:

- لقد شاركتُ في مظاهرة حاشدة، نظَّمها مهاجرون عرب وفرنسيون مناهضون للعنصرية والإجرام الذي يمارسه بعض المتطرفين، هذا كلّ ما في الأمر!

قلتُ في ثورة:

- هل جننت؟ ما شأنكَ أنت بهذه الأمور؟

رفعتَ رأسك نحوي، لتحدجني بواحدة من تلك النظرات الطويلة التي تذكِّرني بوالدك الحقيقي، قبل أن تقول:

- فعلتُ ما يمليه عليّ ضميري يا أماه...

ثم أضَفْتَ:

- ما جرى ظلم لا يمكن السكوت عليه، تصوّري أنّ صديقي حسن فقَدَ والده بعدما اغتاله مجهولون برصاصة غادرة، مع أنه طيب جداً ومسالم، لماذا هذه الوحشية والكراهية؟

حاول دانييل تلطيف الأجواء بالقول:

- بني، أنت مجرد طفل صغير، ولا علاقة لك بكل هذه التعقيدات التي...

لكنك قاطَعْتَه بلهجة مزجَت بين الهدوء والاحتجاج:

- أعتقد بأنّ الذكاء هو سرعة رؤية الأحداث والوقائع والقدرة على تحليلها كما هي، ولا أظنّ بأن هذه المسألة مرتبطة بالسنّ يا أبي!

لم تتبادر إلى ذهني ساعتها سوى مقولة شهيرة لألكسندر دوما الابن:

«كيف يكون الأطفال في غاية الذكاء والرجال في غاية الغباء؟ لا بدّ أن السبب هنا هو التعليم!».

لكنني قلتُ بعصبية واضحة:

- هؤلاء مجرّد حفنة من المتطفلين والمتسوّلين، ساهَموا بتخلّفهم في تشويه الصورة الجميلة لفرنسا الحرة...

وكما لو كنتَ مصرّاً على تعذيبي، وجَّهت بصرك نحوي مرة أخرى، ثم تلوتَ على مسامعي مقطعاً من سفر المزامير في الكتاب المقدس:

- «وَإِذَا نَزَلَ عِنْدَكَ غَرِيبٌ فِي أَرْضِكُمْ فَلاَ تَظْلِمُوهُ. كَالْوَطَنِيِّ مِنْكُمْ يَكُونُ لَكُمُ الْغَرِيبُ النَّازِلُ عِنْدَكُمْ، وَتُحِبُّهُ كَنَفْسِكَ»[1]، أم أنكِ تؤمنين ببعض الكتاب وتكفرين ببعضه يا أماه؟

---

(1) اختلطَ الأمر على بريجيت، فقد وردَ هذا المقطع في سفر اللاويين من أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس (الإصحاح التاسع عشر) وليس سفر المزامير!

ألجَمَني كلامكَ يومها، فاتخذتُ في سري قراراً نهائياً بعدم إجبارك على تبنّي قناعاتي أو أفكاري، وفهمتُ متأخرة بأنك أذكى بكثير ممّا كنت أتصور، ويبدو أنك قد التزمتَ معي باتفاق غير مكتوب، باحتفاظك بذلك الصليب الفضي الذي زيّنت به صدرك منذ عيد ميلادك الثالث، وحضورك لقداس الأحد من وقت إلى آخر، دون اقتناع حقيقي طبعاً، بل لأنك كنت باراً بي وبدانييل.

«أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ، وَلِكَيْ يَكُونَ لَكَ خَيْرٌ علَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ»[1].

لقد نفّذت هذه الوصية كما يجب، وهي خصلة محمودة أشكر الرب عليها.

ومضت الأيام سريعة، بل أسرَع من المتوقع...

كبرت، وسمحَ لك تفوّقك الملحوظ بولوج كلية الطب، ثم التخصّص في جراحة الحوادث والعمل فيما بعد في مستشفى دو لاتيمون، غير بعيد عن المنزل.

طبيعي أن أكون سعيدة بنجاحاتك الدراسية والمهنية، التي لا أعتقد بأنّ ابن بطني كان سيحقّق ربعها، لكن يد القدر تصرّ دوماً على التدخل، لتحرمنا من السعادة المطلقة، كما تساهم أيضاً في إنقاذنا من جحيم الحزن المطلق.

لا مطلق في هذه الحياة، فكلّ شيء فيها نسبي...

رحل دانييل عن الدنيا بهدوء، وما إن جفّت دموعي الحزينة على فراقه، حتى أدركتُ بأنني سألحق به قريباً...

وعكة صحية عابرة، ثم كشف طبي روتيني، أكتشف معه

---

(1) سفر التثنية (الإصحاح الخامس).

بالصدفة أنني أعاني من سرطان في مراحله المتقدّمة، وأن فرص شفائي شبه مستحيلة.

حاولتُ أن أخفي عنك الأمر، لكنكَ علمت بتفاصيله عن طريق زملائك في المستشفى. . .

انفطر قلبي حزناً عليك، وأنا أرى دموع القهر في مقلتيك، وحزّ في نفسي أنّ ساعة الرحيل قد دقّت.

أنت لا تفارقني مؤخراً، وكم من مرّة كنت على وشك مصارحتك بالحقيقة، لكنني جبانة، جبانة للغاية، أعترف بذلك. . .

مجرمة مثلي، أو على الأقل مشارِكَة في تلك الجريمة النكراء، لم تكن لتمتلك شجاعة كافية لإطلاعك على ماضيك، فلم أجد بداً من العودة إلى كراسة مذكراتي القديمة والكتابة، متجاوزة كلّ آلامي الجسدية والنفسية، ولو أنّ أناملي لا تطاوع قلمي على سرد الحقيقة كاملة.

رغم مشاعري المتناقضة تجاهه، لم ينقطع اتصالي بالأب فرانسوا، الذي زارني عدّة مرات هنا في مارسيليا للاطمئنان عليّ، دون أن أُشعِر أحداً بذلك، حتى دانييل، الذي أصرّ على قطع كلّ علاقاتنا بالماضي على حدّ تعبيره.

كنتُ أخبر الأب في كلّ مرة يزورني فيها بأنني أضعف من أن أصارحك بالحقيقة، فكان يكرّر على مسامعي دائماً مقولته الهادئة والعميقة:

- لا تستبقي الأحداث يا بريجيت، اطمئني، فلكل شيء وقته!

شاخ الأب، وأطالَ الرب في عمره، لكنه لم يفقد من حيويته الكثير، وشاءَت إرادة القدر أن أرحل أنا ودانييل ويبقى هو، كشاهد

أخير على ما جرى بين قرية عين اللوح والرباط ومارسيليا قبل ثلاثين عاماً.

نعم يا ولدي، حقيقتك الضائعة مدفونة في عمق جبال الأطلس المغربية، اذهَبْ وابحثْ عن جذورك هناك، ما جرى لأحمد، ولوالدتك الحقيقية، وأيضاً ظروف اختطافك وتهريبك إلى فرنسا...

وكما أشرتُ إلى ذلك في مذكراتي السابقة، فقد استقرّ الأب في المغرب منذ سنوات طويلة، وهو يشرف حالياً على إدارة شؤون كاتدرائية كاثوليكية معروفة في العاصمة المغربية الرباط.

ولتعلم أنّ كلّ خيوط هذه القصة بين يديه، هو مَن حاك بدهائه بدايتها، وقد يكون صانع نهايتها كذلك، مَن يدري؟

أكتب كلماتي الأخيرة وأنا أرى من غرفتي هذه مقبرة القديس بيير، أكبر مقبرة في مارسيليا، والقريبة جداً من حيِّنا، كما لو كنتُ أبحث بعيني عن الموقع الذي سيحتله جسدي الصغير تحت ترابها، هي التي تذكِّرني دوماً بأنّ الحياة ليست سوى مناورة يائسة مهزومة أمام منتصر دائم: الموت...

رغم كلّ شيء، لم أشأ أن أرحل عن هذه الدنيا دون أن أختبر ذكاءك للمرة الأخيرة، ويبدو أنّ عثورك على هذه الكراسة التي أخفيتها بطريقة مبتكرة دليل على أنني لم أجانب الصواب في توقعاتي.

سامحني يا ولدي، كنت مجرّد شابة طائشة لم تعلم أنّ أخطاءها الفظيعة وربما عنصريتها البلهاء وكراهيتها الحمقاء ستجرّ عليها الويلات وتتسبّب في تدمير حياة الأبرياء...

لكنني متأكّدة من قدرتك على تدارك ما فات والدعاء لي بالرحمة والمغفرة، أليسَ كذلك؟

وتذكّر دائماً:

«اَلابْنُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْم الأَبِ، وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الابْنِ. بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ، وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ»[1].

فلتحفظك عناية الرب وبركة القديسين والشهداء.

أمك التي لم تنل شرف حملك في أحشائها

بريجيت نوسي

* * *

(1) **سفر حزقيال** (الإصحاح الثامن عشر).

الجزء الثاني

تيه

ما أنت الآن، كنا نحن، وما نحن الآن، ستكونه أنت...

عبارة مكتوبة على أحد جدران دير كابوتشين في إيطاليا

عندما ينشغل القلب، تعجز العين عن النظر، وإن كانت مفتوحة...

الراوي المجهول

لم تكن المشكلة أبداً في أيام الفقد الأولى، بل في اللحظات السعيدة التي تكتشف متأخراً أنّ الوحيد القادر على مشاركتك إياها قد رحل...

جيهان الحسني

1- صمت الليل

الأربعاء 18 ديسمبر 1991

بين قصبة الأوداية التاريخية وقنطرة مولاي الحسن - الرباط:

يقولون بأنّ المطر القليل يمنع العاصفة القوية. . .

أتمنى ذلك فعلاً، فقد استقبلتني الرباط بأمطارٍ خفيفة بثّت في جسدي بعض الحماس الذي كنتُ في أمسّ الحاجة إلى القليل منه.

جئتكِ يا رباط الفتح باحثاً عن جذوري، فلا تردّيني خائباً!

طهّريني بما جادَت به سماؤك ممّا علق بي من آثار الماضي، وامنحيني القوة لأواجه عواصف الحاضر والمستقبل.

أنا حاملٌ رسالة التيه، فلا تخذليني!

كوني بوصلة توجّهني إبرتها نحو حقيقة ضائعة أجيب بها عن سؤال قَلَبَ مسار حياتي الهادئة رأساً على عقب: مَن أنا؟

التقطتُ نفساً عميقاً وأنا واقف أمام باب المنزل الصغير، بعدما انطلقت سيارة الأجرة التي أوصلتني إلى العنوان المطلوب، وداعبت سلسلة المفاتيح بين أصابع يدي اليسرى، مستمتعاً بقطرات المطر التي تسلّلت ببطء إلى عنقي وصدري، فمنحتني شعوراً لذيذاً بالنشوة التي خفّفت بعضاً من خوفي.

كلّ هذا وأنا أتذكّر كلام صديقي الدكتور دوشاريت الذي لم أُطلِعْه طبعاً على حقيقة سفري.

- أظنّ أن السفر بعيداً عن مارسيليا وأجواء المستشفى الكئيبة سيناسبك، منزلي في قصبة الوداية تحت تصرّفك، أجواء القصبة هادئة ومريحة للأعصاب، وقد تساعدك على تجاوز أحزان وفاة والدتك، أنتَ بحاجة فعلاً إلى هذه العطلة، فقد عشتَ ضغوطاً رهيبة في الفترة الماضية.

لِيُضيف بعدها:

- المغاربة طيبون للغاية ومنفتحون بشكلٍ كبير على الآخرين، طباعهم معروفة بحُكم مجاورتنا لبعضهم هنا في مارسيليا، لكنني أحذّرك من بعض المحتالين الموجودين هنا وهناك، ممّن يعتقدون أن السائح الأوروبي بنك متنقّل لا أسهل من النَّصب عليه.

فتحتُ الباب فوجدتني أمام منزل مطابقٍ تماماً لما وصفه دوشاريت في كلامه:

- لقد تعوَّدت على قضاء عطلتي الصيفية في هذا المنزل الذي ابتعته بمبلغ معقول قبل بضعة أعوام، صحيح أنه صغير المساحة، لكن موقعه متميّز وبعيد عن ضوضاء العاصمة وصخبها، أما بخصوص احتياجاتك الضرورية فقد اتّصلت بصديق مغربي أثقُ به، تولّى بمعرفته أمر تنظيف المنزل وتهويته وتزويد مطبخه بكلّ ما يلزم، الهاتف تحت تصرفك طبعاً، لا تقلق بشأن الحمام، فهو نظيف وساخن، عطلة سعيدة أتمناها لك يا صديقي!

وكذلك كان...

حمام ساخن تخلّصت به من تعب السفر، قبل أن أغيِّر ملابسي وأستلقي على الفراش وإلى جانبي كراسة مذكرات بريجيت نوسي.

والدتي...

أو مَن اعتقدتُ لسنوات طويلة أنها كذلك...

سامحكِ الرب يا أمي، رحلتِ وتركتني وحيداً، أواجه إرثاً ثقيلاً لا حول ولا قوة لي أمامه!

المضحك المُبكي في كلّ هذا أنّ المذكرات لم تكشف الحقيقة، ولم تحلّ المشكلة، بل عقّدتها وضاعفت من غموضها أكثر!

نعم، لم أكُن على وفاق دائم مع والدتي، وحدَثت بيننا صدامات كثيرة بسبب طبيعتها النارية العصبية، وربما راودتني أحياناً أفكار عابرة بأنني قد لا أكون ابنها الحقيقي، أفكار صنّفتها فقط ضمن دائرة الخواطر الطبيعية التي تنتاب بعض الأطفال والمراهقين في مراحل سنِّية معينة.

لكنني اعتبرتُ نفسي دوماً محظوظاً بأبوين ملتزمين بَذَلا كلّ جهدهما لبناء أسرة متماسكة تسود بين أفرادها أسمى معاني الحب والوئام والاحترام، لا مجرمين، أو على الأقل مشاركين في جريمة نكراء أدفع أنا ثمن تبعاتها الآن!

وأقسى ضربة قد يتلقاها الإنسان هي أن يُصدَم في مَثَله الأعلى...

عندما تهشّم الحقيقة زجاج صورة حسبتها بريئة عفوية، وعندما يلطّخ حبر الخطيئة صفحة آمنتَ دوماً بأنها ناصعة البياض.

«استقرّ الأب في المغرب منذ سنوات طويلة، وهو يشرف حالياً على إدارة شؤون كاتدرائية كاثوليكية معروفة في العاصمة المغربية الرباط، ولتعلم أنّ كلّ خيوط هذه القصة بين يديه، هو مَن حاك بدهائه بدايتها، وقد يكون صانع نهايتها كذلك، مَن يدري؟».

نعم يا أمي، مَن يدري؟

هكذا هي مذكّراتك، أسئلة كثيرة بلا إجابة، وبداية غامضة تقابلها نهاية مجهولة. . .

فتحت نافذة غرفة النوم ليطالعني مشهد ولا أروع، لأسوار القصبة الحصينة المطلّة على صفحة المحيط الأطلسي، متلاطمة الأمواج كما لو كانت تعبِّر بدقّة عمّا يعتمل في أعماقي من مشاعر، وشمس لم يفلح الطقس المتقلب في حرماني من الاستمتاع بمنظرها البديع وهي تسير بتؤدة لتعانق زرقة المحيط، مُعلنة عن قربِ نهاية يوم آخر.

نمتُ لبعض الوقت، وعندما استيقظتُ ارتديتُ معطفي وخرجتُ من المنزل بلا أيّ مقصد محدّد، مجرد جولة سريعة أكتشف فيها المدينة، ولو أنني لم أكُن أخطِّط للبحث عن الأب فرانسوا قبل مطلع شمس اليوم التالي على الأقل.

تزامن خروجي مع ارتفاع صوت الأذان من مسجد قريب، غالباً للإعلان عن الصلاة الأخيرة في جدول صلوات المسلمين اليومي، واسمها صلاة العشاء.

نعم، أعرف أنّ الأذان نداء أساسي للصلاة عند المسلمين، لكنني لم أسمَعه بمثل هذا الوضوح من قبل!

نداء لم أتمالك نفسي أمام عبارتين متصلتين فيه:

أشهد ألّا إله إلا الله لأنها ذكَّرتني بما جاء في إنجيل مرقس: **الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ**[1].

---

(1) يؤمن المسيحيون بأنّ الله واحد، لكنه بحسب عقيدتهم مكوّن من ثلاثة أقانيم هي الأب والابن والروح القدس متّحدة في الجوهر نفسه الذي يتساوى به =

أشهد أن محمداً رسول الله لأنني ربطتها مباشرة بما ورَدَ في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا: **وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ**[1].

وقفت مشدوهاً بضع لحظات، غير عالِم بطبيعة وحقيقة ما أفكِّر فيه، قبل أن أبتعد ببضع خطوات عن المسجد الذي تبيَّن لي أنه عتيق بعض الشيء، وربما تعود فترة بنائه إلى قرونٍ مَضَت، ليفاجئني صوت هادئ خالَطه بعض الاستغراب:

- هيا بنا، ماذا تنتظر؟ سنقيم الصلاة بعد لحظات!

التَفتّ لأجد أمامي كهلاً في الخمسين من عمره تقريباً، يرتدي جلباباً ثقيلاً مناسباً لبرودة الجوّ، ويتطلّع إليّ بعينين متسائلتين، فيما غطّت وجهه لحية كثيفة خالَطَ سوادها بعض الشيب، وإنْ بدا لي أنها مشذّبة بعناية.

- أنا... أعني أنني... لست...

قلتها متلعثماً، ما ضاعفَ من استغراب الكهل الذي أضاف:

- ما بكَ يا بني؟ وما هذه العربية العجيبة التي تتكلّم بها؟ هل أنت شمالي؟ لا! أظن أنك من وجدة، أليس كذلك؟

= منذ الأزل وإلى الأبد، لا يتّسع المجال هنا لمناقشة هذه المفاهيم، لكنني أشرتُ لهذه المعلومة حتى أصحّح الخلط الذي يقع فيه البعض في محاولتهم لفهم عقيدة التثليث في الديانة المسيحية.

(1) يَعتقد البعض بأنّ هذه نبوءة للمسيح عليه السلام يبشّر فيها بقدوم نبي آخر الزمان.
ملحوظة أخرى: يبدو أنّ الراحلة بريجيت نوسي قد أخطأت في اعتقادها بأن «ابنها» قد تجاهَل الاطّلاع على الكتب المقدسة التي احتفظت بها في مكتبتها، فضَبْطه لما ورد في الأناجيل والإصحاحات واضح، المشكلة ربما كانت في إيمانه والتزامه بما جاء فيها!

لم تنفكّ عقدة لساني، فبرقَت عيناه وهو يقول راسماً على وجهه ملامح الفهم:

- آه فهمت، لا تقلق يا بني! أنا إمام هذا المسجد وسأتولى أمر تعليمك كيفية الوضوء والصلاة، لا تخَف! فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1]. انتَظِرْني في باحة الجامع وسأعود إليك بعد الصلاة، مفهوم؟

كان يتكلّم بسرعة كبيرة وبلهجة مختلفة تماماً عمّا عهدته، ما مَنَعَني من مجاراته، فلمْ أملك إلّا أنْ أحرِّك رأسي غير عالمٍ إنْ كانت حركتي تلك علامة على الموافقة أم الرفض!

المسكين، اعتقد بأنني مغربيّ تائهٌ يبحث عن الهداية والصفاء الروحي الذي...

مهلاً! أليست هذه هي الحقيقة؟

طردتُ هذه الخاطرة المُبهَمَة من رأسي وأكملتُ طريقي بخطوات متسارعة لأخرج من باب القصبة الكبير.

ما هذا؟ لقد خلَت معظم الشوارع والأحياء من المارة، وأغلَقَت معظم المحلات التجارية أبوابها بسرعة كبيرة!

أين هي تلك الجلبة التي أثارت انتباهي عندما كنت جالساً إلى جانب سائق سيارة الأجرة التي أقلّتني إلى القصبة؟

هل تعيش المدينة حظراً للتجوال أم ماذا؟

لا، يبدو أنّ الأمطار الغزيرة التي هطلت طوال اليوم قد أجبَرت

---

(1) سورة القصص (الآية 56).

معظم أبناء العاصمة على العودة إلى منازلهم مبكراً، وقد تكون لصلاة العشاء هذه علاقة بالأمر، ممكن!

خشيتُ أن أتوه، فاعتمدتُ ببصري على سور القصبة وبابها الكبير كمعلم رئيس أعود إليه وقت الحاجة.

واصلتُ المشي والتجوّل بين الأحياء لبعض الوقت، لتقودني خطواتي إلى ساحة صغيرة لا تبعد كثيراً عن تلك الصومعة التي علمتُ أنّ اسمها صومعة حسان، وكما أثار استغرابي السكون المريب الذي عمَّ أرجاء المدينة، فاجأتني أصوات تتعالى غير بعيد عني.

اتَّسعَت عيناي في دهشة، فقد وجدتُ أمامي بعض المراهقين الذين لم يمنعهم البرد القارس من تحويل الساحة إلى ملعب كرة قدم، مستعينين بأضواء الإنارة العمومية، وآلة تسجيل عتيقة تصدح بموسيقى صاخبة غريبة الألحان والكلمات، ما أضفى على المكان جواً سريالياً عجيباً.

لوّح لي أحدهم بيده، صائحاً بكلامٍ غير مفهوم، فضاقت عيناي في تساؤل وأنا أتطلّع إليه، قبل أن أفهمَ قصده برمي الكرة الطائشة التي استقرَّت بجانبي.

نعم، أنا أتقن العربية، وصادقت عدداً كبيراً من المغاربة والجزائريين في مارسيليا، لكنني مُطالَب بتجاوز بعض الصعوبات التي أواجهها في فهم لهجة المغاربة، فالعربية الفصحى التي علّمتني إياها «أمي» مختلفة قليلاً عن السائد هنا!

قدم أحد المراهقين نحوي، وهو يرتدي ملابسَ رياضية مبلّلة بالعرق، ليقول لاهثاً:

- فريقنا ينقصه حارس مرمى، ما رأيك أن تلتحق بنا؟

لم تكن هذه عبارته بالحرف، بل ما فهمته أنا بصعوبة، فأجبته:

- لم ألعب كرة القدم إلّا نادراً، أخشى ألّا أكون مفيداً...

ثم تحرّكت غريزة الطبيب في أعماقي لأضيف:

- اللعب في مثل هذا الطقس المتقلّب خطر جداً، قد تمرضون!

لم أكَد أكمِلُ عبارتي حتى أطلقَ المُراهق صرخة نادى بها على أقرانه:

- عبد القادر، حسين، أمين، رشيد...(هذا ما تذكّرته من أسماء)... **تعالوا إلى هنا، بسرعة!**

تحلّقوا جميعاً حولي، يرمقونني بنظرات غريبة، فقلت متسائلاً:

- ماذا هناك؟

تذكّرت فجأة نطقي المختلف للعربية، فابتسمتُ قائلاً:

- أنا...

قاطعني أحدهم:

- أنت مهاجر مغربي، أليس كذلك؟ يا لحظّك!

وأضافَ آخر أشعث الشعر:

- هل تعرف عبد الرحيم عبادي؟ إنه ابن عمي، يسكن في مدينة صغيرة قريبة من باريس لا أذكر اسمها...

وتدخَّل ثالث يرتدي نظارات سميكة:

- إنْ كان يتكلّم بعربية مكسّرة فهذا دليل على أنه وُلد ونشأ هناك، إنه من الجيل الثاني للمهاجرين المغاربة في فرنسا.

وقال رابع بلهجة متوسّلة:

- هل من طريقة مناسِبَة للهجرة؟ الآفاق مسدودة ولا خَيار أمامنا سوى الفرار من هنا إلى الأبد!

أثارتني العبارة الأخيرة، فانعقَدَ حاجباي وأنا أجيب صاحبها بنبرة عصبية:

- قيمة الإنسان في تمسّكه بوطنه وجذوره، لا يغرّنك بريق أوروبا فهو زائف، مجرّد قفص ذهبي لكن لا قيمة له، ومصير الطائر أن يعود إلى عشه في النهاية!

أطلقَ هو ضحكة قصيرة قال بعدها بتهكّم:

- دروس التضحية وحبّ الوطن لم تعُد تُجدي نفعاً يا سيدي، أن يُقيِّدني قفص ذهبي هناك خيرٌ لي من حرية وهمية يَكفَلها عشّ بائس هنا...

ألجَمَني كلامه، خاصة بعدما ارتفعت أصوات أصدقائه لتؤيّد وجهة نظره، وأحزنتني الروح الانهزامية المتشائمة التي يحملها هؤلاء الصبية، وإنْ لامَسَت في جوهرها بعض الواقع، فأطلقتُ زفرة حارّة قبل أن أقول:

- قلتم بأنكم بحاجة إلى حارس مرمى، أليس كذلك؟

أجابني أحدهم في حماس:

- أجل، وأن تحمي مرمانا بكلّ ما تملك من عزيمة وقوة، مثل الزاكي، اتفقنا؟

واضح جداً أنّ ملامح التساؤل قد ارتسمت على وجهي، فقد أضاف مندهشاً:

- لا، لا تقُل لي بأنّك تجهل مَن هو بادو الزاكي، أفضل حارس مرمى في أفريقيا، عميد المنتخب الوطني ونجم فريق مايوركا الإسباني الذي تصدى لضربات جزاء نفَّذها نجوم من طينة سانشيز وكومان! ما هذا؟ أين روحك الوطنية يا رجل!

ابتسمتُ في سخرية، ثم تحوَّلت ابتسامتي إلى ضحكة مجلجلة. . .

مَن قال إنّ كرة القدم أفيون الشعوب لم يُجانب الصواب على الإطلاق!

يسخرون قبل قليل من الوطنية، لكنهم يتذكّرونها ويبجّلونها بمجرّد الحديث عن الرياضة وأبطالها، أيّ تناقضٍ هذا؟

تناسيت هذه الأفكار مع أوّل كرة تصدّيت لها، وربما نسيت أيضاً كلّ تلك المصائب التي أتَت بي إلى الرباط، فانخرطتُ في اللعب معهم بمرح طفولي افتقدته كثيراً، ولم أنتبه إلّا وحبّات العرق الغزيرة تبلِّل صدري، فيما اقتربت عقارب ساعتي من الإعلان عن منتصف الليل.

- يا شباب، لقد تأخر الوقت كثيراً، ألا تنوون العودة إلى منازلكم؟ لربما أقلق هذا أولياء أموركم!

انفجر معظمهم ضاحكين، ليقول بعدها أحدهم:

- نعود لنغسل أيدينا بالماء والصابون ثم نشرب الحليب وننام، حاضر يا «عمو». . .

كنتُ أعلم أنّ الحوار معهم لن يقودني إلى أيّ نتيجة، فقلتُ مستسلماً:

- حسناً، أرى من موقعي هذا تلك القنطرة الرابطة بين ضفتي النهر، آ. . . معذرة. . . اسمه على طرف لساني![1]

أجابني أضخمهم:

---

(1) أعتقد بأنّ الراوي كان ضعيفاً في مادتي التاريخ والجغرافيا، فهو ينسى أحياناً أسماء الشوارع والمدن والجبال والأنهار وبعض التواريخ المهمة أيضاً!

- غريبٌ أمرك، هل هي زيارتك الأولى للمغرب أم ماذا؟ إنه نهر أبي رقراق، وتلك قنطرة مولاي الحسن، لولا حالة الطقس المتقلّبة لسبحنا فيه واستمتعنا بالقفز من قمة القنطرة إلى أعماق المياه الباردة.

ارتديتُ معطفي المتّسخ الذي حوّلته لقائم مرمى، وودّعتهم قائلاً:

- مع السلامة يا رفاق، سُررتُ كثيراً بمشاركتكم اللعب...

ثم أضفتُ بصوتٍ هامس:

- ولو أنّ كلامكم ونبرتكم المتشائمة كشَفَت لي واقعاً لم أكُن أعلم عنه الكثير.

لأغادر بعدها الساحة بخطى متثاقلة...

لم يكن هنالك أيّ معنى لمتابعة المشي وصولاً إلى القنطرة، فهي عادية جداً وساهم تأخُّر الوقت في تراجعِ أعداد السيارات المارّة فوقها، كما أنّ ضعف الإضاءة العمومية لم يَمنح صفحة النهر أيّ جمالية تُذكر، رغم أنه يستحقّ في رأيي ما هو أفضل، فلم تثر الانتباه أمام ناظري سوى بعض قوارب الصيد التقليدية المتناثرة هنا وهناك، وما خمَّنت أنه ملعب كرة قدم في الضفة الأخرى، فقط لا غير!

خاطبتُ نفسي قائلاً:

- سأتفرّغ لكِ فيما بعد يا عاصمة المغرب، فأنتِ تستحقين جولة متأنّية أكتشف فيها كلّ خباياك، أما الآن فقد حان موعد العودة إلى البيت وأخذ قسطٍ وافر من الراحة، تنتظرني ابتداءً من الغد رحلة بحثٍ مضنية عن...

ثم أضفتُ متهكّماً:

- عن حضرة الأب المبجل!

لم أكَد أُكمِل كلامي حتى تناهى إلى مسامعي صرير إطارات سيارة قادمة من بعيد. . .

كانت سيارة مرسيدس، تسير بسرعة جنونية لا تتناسب إطلاقاً مع مسار القنطرة، حتى خيِّل إليّ أنها تستهدفني أنا، بخاصة بعدما أجبرني نور مصابيحها الأمامية على الابتعاد، لكنها سرعان ما تجاوزتني بأمتار قليلة ثم انحرفت عن مسارها، كما لو أنّ سائقها قد فَقَدَ تحكُّمه في عجلة قيادتها، لتنقلب بشكلٍ مرعب وتخترق سور القنطرة منطلقة نحو مياه النهر.

شُلَّت أطرافي، وعجزتُ عن الإتيان بحركة أمام هذه المفاجأة، لكنني تجاوزتُ آثار الصدمة بعد لحظات، فلم أشعر بنفسي إلّا وأنا أنزع معطفي وأقفز من حافة القنطرة نحو مياه نهر أبي رقراق الباردة. . .

* * *

2- احتفال شاحب

الخميس 7 يناير 1993
بين شارع دراغيتسي برافيتسي في ضاحية بيستريك والكنيسة الأرثوذكسية القديمة في منطقة الباشتشارشيا - سراييفو:

أول مرة أغادر فيها مستشفى كوشيفو بعد كارثة السابع والعشرين من ديسمبر الماضي...

واصَلَت الثلوج انهمارها، محوِّلة سراييفو إلى بساط أبيض لا يمكن إلّا أن يخلب لبّ أيّ عاشق لجمال الطبيعة، وإنْ كان يخفي بين ثناياه أقسى معاناة تشهَدُها أوروبا في عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية، بين حصار وجوع وموت متجوِّل يتربّص بالجميع.

كنت مُجبَراً على انتظار مديحة، التي تأخّرت لبضع دقائق قبل اللحاق بي، وما إن رأيتها حتى بذلتُ كلّ ما في وسعي لأتجنّب رسم علامات السخرية على وجهي.

ترتدي معطفها الأحمر، وتغطّي رأسها بقبعة من اللون نفسه، حتى بدَت شبيهة ببطلة قصة ذات الرداء الأحمر الشهيرة، وإن سمَحت لخصلات شعرها الأسود الجميل بالاسترسال، لكنها بالغت قليلاً في استعمال وسائل الزينة والمكياج، كما لو كانت مدعوّة

لسهرة صاخبة لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تجد مثلها هنا في سرايیفو.

ركضَت بأقصى ما تسمح بها سرعتها، وقد منحها امتلاؤها الطفيف جاذبية لا تخطئها العين، وقَدِمَت نحوي مبتسمة، لكن يبدو أنّ ملامحي لم تكن باردة بالشكل الكافي، فقد قالت بغضب مصطنع:

- لا تسخَر مني، إنه يوم عيد، ومن حقي، لا بل من حقنا جميعاً أن نفرح!

ثم أضافت بحماس:

- لقد اتّفق بعض أهالي سرايیفو بكلّ طوائفهم على الاحتفال بعيد الميلاد في الكنيسة الأرثوذكسية القديمة في الباشتشارشيا[1]، نريد أن نتحدّى آلة القتل الصربية ونثبت للعالم أجمع بأننا أهلُ سلام وتسامح، وبأنّ جرائم التشتنيك لن تفرّق بين أبناء سرايیفو المسلمين والكاثوليك والأرثوذكس.

لم أكُن مقتنعاً في قرارة نفسي بهذا الكلام، فأنا أدركُ تمام الإدراك بأنه لن يُجدي نفعاً أمام عالم منافق أدار ظهره للبوسنة، لكنني لم أملك إلّا أن أحترم رأيها وأجاريها في موقفها بالقول:

- صحيح، معك حق، من حقّ القلوب أن تفرح، وإن كانت الأرواح حزينة. . .

لكنها واصلَتْ كلامها متجاهِلَة تعليقي:

---

(1) تحتفل الطوائف المسيحية الشرقية بما فيها الكنيسة الأرثوذكسية بعيد ميلاد المسيح عليه السلام في السابع من يناير نظراً إلى اعتمادها التقويم اليولياني، بخلاف الكنائس الغربية المعتمدة على التقويم الغريغوري.

- لهذا فكَّرت في زيارة نور وأخذها معنا في جولة قصيرة، لعلَّنا نساهم بذلك في الترفيه عنها والتخفيف من صدمة وفاة والدتها.

صمتُّ للحظات، محاولاً استيعاب ما قالَتْه، قبل أن أجيبها محتدّاً:

- ماذا تقولين؟ تريدين مني زيارة نور لمساعدتها على تجاوز آثار صدمتها، رغم أنني المسؤول المباشر عمّا حصل لها؟ ألا تعلمين بأنني لم أذُق طعم النوم إلّا قليلاً، منذ ليلة السابع والعشرين من ديسمبر الماضي، حسرة وندماً على ما اقترَفَتْه يدي؟

تعوّدتُ من مديحة دائماً على الذعر والخوف والتردّد، لذلك فقد فوجئت بالصرامة التي ارتسمَت على ملامحها وهي تردّ على هتافي بالقول:

- أعلمُ ذلك، وأعلمُ أيضاً بأنك تبالغ في لوم نفسك، واضح جداً أنّ مهنة الطب قد سَقَتْ بذرة النرجسية في أعماقك وضاعَفَت من غرورك يا عزيزي، فتصوَّرتَ بأنك تُمسك أقدار البشر بين يديك، تمنح الحياة لمَن تشاء وتسلبها لمن تريد، وقتما تُريد.

- كلام فارغ، أنا...

قلتها مدافعاً عن نفسي، لكنها قاطعتني بحركة من يدها:

- أجبني بصراحة، هل أنتَ حزين لوفاة المرحومة أميرة خافيروتش؟ أم لأنك لم توفَّق في إنقاذها، أنت الجراح الناجح الذي لم يتعوّد أبداً على الفشل؟

ضحكتُ بعصبية وأنا أجيبها:

- لا فرق بين الاثنين يا مديحة!

لكن هجومها لم يتوقّف عند هذا الحدّ:

- بل يوجد فرق كبير يا عزيزي، أنت أناني لا تفكِّر إلّا في

نفسك، ولا تفسير لعصبيتك في أثناء إجراء العملية سوى رغبتك في إثبات علوّ كعبك ردّاً على استفزازات إيفان، بغضّ النظر عن إنقاذ أميرة، أليس كذلك؟

صحتُ في ثورة:

- أنتِ تقولين كلاماً لا معنى له يا مديحة، أنا لستُ أنانياً، لو كنت كذلك لما أتيتُ إلى البوسنة متخلّياً عن كلّ طموحاتي ونجاحاتي، ولما عرَّضتُ حياتي ومستقبلي للخطر بعد اعتذاري عن تلك الوظيفة السخيفة تحت إمرة قوات الأمم المتحدة!

ضغَطَتْ على أعصابي أكثر بابتسامتها المستفزّة وهي تقول:

- هذا ما توحي به ظواهر الأمور، أمّا بواطنها فقد تكون مغايرة تماماً، مَن يدري؟ إصرارك على كتابة مذكّراتك باللغة العربية حتى لا يطَّلع عليها أحد غيرك دليل على صحة كلامي، وأتحدّاك أن تُثبت العكس.

فهمتُ ما ترمي إليه، فأجبتُها:

- هكذا إذاً، قولي بأنّ فضولك الأنثوي ورغبتك الجنونية في الاطّلاع على محتوى مذكراتي هي التي دفعتك لقول هذا الكلام، حسناً، أنا أكتبها باللغة العربية رغبة مني في الاحتفاظ بأسرارها لنفسي، ارتحت؟

لانَ صوتها قليلاً وهي تبحث عن كلمات مناسبة:

- آسفة، لم أكُن أقصد التدخّل في شؤونك الخاصة، كلّ ما في الأمر أنّ غموضك مثير للشكوك و. . .

حان دوري لأقاطعها، وقد تراجَعَت حدّة صوتي أيضاً:

- سأشاطركِ ذكرياتي في الوقت المناسب، ولو أنها سيئة في معظمها ولا تستحق كلّ هذا الاهتمام.

استعادَت ابتسامتها المُشرقة ثم تأبَّطت ذراعي بحركة مفاجئة:

- هيا بنا إذاً، يجب أن نصل إلى ضاحية بيستريك في أسرع وقت، قد يتجدَّد القصف الصربي في أيّ لحظة!

هممتُ بقول شيء ما، وأنا أرى أصابعها المطبقة على ذراعي، لكنني تجاهلتُ الأمر راسماً على شفتي ابتسامة لم أكن بحاجة إلى مرآة حتى أدرك أنها باهتة.

* * *

- هيه... ماذا تفعل؟

- ماذا هناك؟ لم أفهم!

- يدك! يدك الممسكة بيدي...

- لا... أمسكت بها لأساعدك على عبور الشارع، السيارات... الدراجات النارية... و...

- لقد عَبَرنا الطريق منذ دقائق طويلة!

- آه... نسيت! يبدو أنّ ذاكرة أصابعي ضعيفة!

- وهل للأصابع ذاكرة؟

- ممكن، إذا ما لامست أصابع أخرى بمثل رقّة أناملك...

- خبيثٌ أنت كالثعالب!

- وفاتنة أنتِ كالغزلان!

* * *

وصلنا إلى بيستريك، فقالت مديحة:

- يُدهشني فعلاً إصرار الشيخ وزوجته على البقاء هنا، ضاحية بيستريك قريبة بعض الشيء من خطوط التماس بين قوات الدفاع المحلية والميليشيات الصربية جنوب شرق سراييفو، لم أكن لأفكر

في زيارة المكان لولا الهدوء النسبي الذي تَشهده جبهات القتال منذ بضعة أيام.

أجبتها ساخراً:

- أتوسَّل إليكِ، لا تكرِّري على مسامعي كلمة «هدوء نسبي» هذه، فأنا أتشاءم منها!

ثم أضفتُ بسرعة:

- هل تذكرين اسم الشارع؟

رفَعَت حاجبها الأيسر مستنكرة، قبل أن تقول:

- طبعاً، أنا ابنة سرايفو يا عزيزي، كما أنّ ذاكرتي قوية، عكسكَ أنت!

فتحتُ فمي لأجيبها، لكنها أغلَقَته بسبابة يدها اليمنى قائلة:

- ولا كلمة، جولة مناوشاتنا لهذا اليوم انتهت، ولا داعي لخوض جولة أخرى.

أدرتُ بصري في المكان وأنا أفرك يديّ ببعضهما لأبثّهما بعض الدفء، لأقول بعد صمت دام للحظات:

- أشاطرك الاستغراب يا مديحة، ولو أنني قد أتفهّم الأسباب الحقيقية التي دفعتهما للبقاء هنا، إما أنهما وحيدان ولا أحد يلجآن إليه في مناطق أخرى من العاصمة المحاصرة، أو أنهما ينتظران عودة مفاجئة لرامز والد نور.

أشارَت بسبابتها نحو مدخل الشارع وهي تهتف:

- هنا، شارع دراغيتسي برافيتسي[1]، المنزل الثالث على اليمين!

---

(1) تمّ تغيير اسم شارع دراغيتسي برافيتسي فيما بعد، ليحمل الآن اسم شارع باكاريفيتشا رقم 5.

تسارَعَت دقات قلبي عندما فتحَ الشيخ باب منزله، فهذه أول مرّة أقابله فيها بعد تلك الليلة، لكن ملامِحَه الهادئة أراحتني بعض الشيء.

- أهلاً وسهلاً بكما، تفضّلا!

تثاقَلَت خطواتي وأنا أدلف إلى الردهة مطأطِئ الرأس، فما كان من الشيخ إلّا أن توجّه إليَّ بالكلام:

- ما الخطب يا بنيّ؟ لا تقُل لي بأنك ما زلت تحت تأثير صدمة فشل عملية إنقاذ أميرة رحمها الله؟

قالت مديحة كلاماً ما باللغة البوسنية، أيّده الشيخ بابتسامة رَبَتَ بعدها على كتفي وهو يقول:

- سأنادي على نور حالاً...

همستُ في أذن مديحة:

- ما هذه العادة السخيفة؟ أن تستغلّ جهل طرفٍ ما بلغتك لتتحدَّث بها كما تشاء مع شخص ثالث...

لكزتني برفقٍ وهي تجيبني بسرعة:

- يا لك من أحمق! وماذا عن حوارك معه بالعربية؟

احمرَّت أذناي خجلاً، فضغَطَت على أصابعي وهي تنبّهني لقدوم الطفلة، التي رأتني فأقبَلَت نحوي بخطوات متسارعة، فعانقتها وأنا أقول:

- نور، يا حلوتي الصغيرة، كيف حالك؟

قالت كلاماً كثيراً لم أميِّز منه سوى «ماما» و«بابا»، فتطلَّعت إلى عينيها الخضراوين وأنا عاجز عن التفوّه بكلمة من شدّة التأثر، فتدخّل الشيخ قائلاً:

- تقول لك بأنها اشتاقت لأمها وأبيها الغائب، وتسألك عن موعد عودته من سفره الذي طال أكثر من اللازم. . .

قلت وأنا أغالب دمعة بَذَلَت كلّ ما في وسعها لتغادر مقلتي:

- ماما أميرة سافرت يا عزيزتي، وكذلك بابا رامز، وسيعودان إن شاء الله.

لكنها فاجأتني بتملّصها من حضني وابتعادها عنّي معبِّرة عن غضبها بكلمات قوية دفعت مديحة للتدخل:

- ما شاء الله، يا لها من ذكية! لقد ميَّزت من كلامك اسم أمها فقالت بأنها ليست صغيرة، وتعلم أنّ والدتها قد توفيت رحمها الله.

ابتسم الشيخ في إشفاق وقال مؤيداً كلام مديحة:

- مخطِئ مَن يستهين أو يستخفّ بذكاء الأطفال، كلمات مثل «أمك مسافرة» أو «والدك سيعود قريباً» التي يستخدمها البعض للتخفيف من صدمة وفاة الأم أو الأب لا معنى لها، وقد تأتي بنتائج عكسية!

ظهرت العجوز وهي تحمل بين يديها ألبوم صور سلمته لزوجها، الذي سلّمني إياه بدوره، فتصفّحته وإلى جانبي مديحة التي مدّت عنقها لتشاركني التمعّن في الصور.

قال الشيخ:

- إنه ألبوم صور رامز كوستوفيتش وزوجته أميرة خافيروتش وابنتهما نور كوستوفيتش، أحضرته الراحلة رحمها الله عندما انتقلت للعيش معنا هنا.

مزيج من صورٍ بالأبيض والأسود، وأخرى بالألوان، تظهر أسرة سعيدة شاءَ القدر أن تقطع هذه الحرب أوصالها، بين غائب ويتيمة و. . .

وراحلة عن الدنيا. . .

طبيعي أن تكون نور بهذا الجمال الأخاذ، بعدما كشفت الصور عن أب شابّ لم أخطئ نظرته الواثقة وملامحه الوسيمة، وأم يبدو أنّ مأساة اغتصابها ومعاناة حملها قد أفقدتها الكثير من نضارة وجهها وحَرَمَتها من ابتسامة مُشرقة لم تفارق صورها.

- أين التقطت هذه الصورة؟ لم أرَ مثل هذا الجسر من قبل!

قلتها وقد استوقفتني صورة تجمع رامز وأميرة ونور فوق جسر غريب الشكل، فأجابني الشيخ:

- إنه جسر ستاري موست، وتعني الجسر القديم، أشهر مَعلَمَة سياحية وتاريخية في مدينة موستار مسقط رأس رامز، وقد بناه العثمانيون في القرن السادس عشر.

ألقت مديحة نظرة سريعة على ساعتها اليدوية، فخاطبت الشيخ وزوجته باللغة البوسنية، غالباً لتستأذنهما في اصطحاب نور معنا.

وكذلك كان. . .

عانقت الشيخ وأنا أقول متأثراً:

- هل سامحتني يا عمي؟ لقد بذلت كلّ ما في وسعي لإنقاذ أميرة، ولكن. . .

أجابني مبتسماً:

- أرجوك يا بنيّ، لا تكرّر على مسامعي هذا الكلام، وتذكر دائماً قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1] وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره

---

(1) سورة الحديد (الآية 22).

وشره، حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»[1].

صمتُّ للحظات وأنا أحاول استيعاب كلامه، فيما انشغلت مديحة بمداعبة نور، فوجدتني على حين غرّة أخاطب الشيخ قائلاً:

- هل تسمح لي بطلب أخير؟

***

- يبدو لي أن هذه الباشتشارشيا لا تبعد كثيراً عن ضاحية بيستريك...

أجابتني مديحة وهي تُحكم إغلاق أزرار معطف نور:

- أجل، إذ لا يفصل بينهما سوى نهر ميلجاكا، كنا لنصل إلى الباشتشارشيا في مدّة لا تتجاوز ربع ساعة، لكن الثلوج المتساقطة وبعض الطرق المقطوعة هي التي أخّرتنا قليلاً.

تطلّعت إلى مبنى الكنيسة الأرثوذكسية، وقد أدهشني صغرها الذي لا يناسب بأيّ حال من الأحوال مكان عبادة لقومية لا يُستهان بها في العاصمة البوسنية.

يبدو أنّ مديحة قد فهمت ما يدور في ذهني، إذ قالت بسرعة:

- تمّ إغلاق الكنيسة الأرثوذكسية الجديدة بعد اندلاع الاشتباكات في سراييفو، كما أن عدداً كبيراً من الصرب غادَروا العاصمة المحاصرة منذ وقت طويل، وحدها أقلية صغيرة فضَّلت البقاء هنا، معتبرة أنّ سراييفو مدينتها، وأنّ الصراعات العرقية والدينية لن تؤثر عليها.

تذكَّرت عندئذٍ الشاب الصربي الذي رافقني إلى مقبرة لاف،

---

(1) رواه الترمذي.

والحوارات الطويلة التي جمعتنا، فتمنيتُ في أعماقي لو أقابله مرة أخرى، لنُكمل حديثاً لم ينتهِ بعد، كيف لا وأنا لم أعرف اسمه حتى...

لكنني لم أتوقع أن يحقّق بابا نويل أمنيتي بهذه السرعة!

تزامَنَ وصولنا مع نهاية القداس، فلم أتمكّن من المقارنة بين الطقوس الكاثوليكية ونظيرتها الأرثوذكسية الشرقية، ولو أنني لا أعتقد بأنّ الاختلافات كثيرة وجوهرية.

اصطفّ مزيج من المسنّين والشباب، حاملين بعض الشموع، جمَعَت بينهم آثار الحصار من ضعف وهزال ومرض، علامات لم أكُن لأغفلها بعيني الخبيرة، فيما تشاغل صحفي ومصوّر، دلّت ملامحهما على أنهما أميركيان، بالتقاط الصور وإجراء حوارات مع المحتفلين المبتسمين بصعوبة وتهالك.

مسلمون وكروات كاثوليك وصرب أرثوذكس اتفقوا جميعاً على نبذ العنف والتشنجات العرقية التي يعمل رادوفان كاراديتش ومن خلفه راتكو ميلاديتش[1] ومسلّحوه على نشرها في عموم البوسنة.

بحثتُ بعيني عن نور، فابتسمتُ في تعاطف عندما وجدتها مندمجة مع الجموع، ممسكة بيد مديحة ومصرَّة على التقاط الصور.

- كلام فارغ، كما لو أنّ الولايات المتحدة ستشفق عليهم وتهبّ لنجدتهم...

أشهر طويلة مرَّت، لكن النبرة لم تتغيّر، فالتفتُّ بسرعة لأقول باستغراب:

---

(1) رادوفان كارادیتش هو الزعيم السياسي لصرب البوسنة، أمّا السفاح راتكو ميلاديتش فكان قائداً للميليشيات الصربية أو ما يُعرف بجيش صربيا البوسني.

- أنت!

مرَّر أصابعه على شعره الطويل، قبل أن يُجيبني:

- اعتقدتُ بأنك غادرت البوسنة في أول طائرة بعد معايشتك لحادثة المقبرة، لم أتصوّرك بمثل هذه الشجاعة!

قلت مبتسماً:

- أمور كثيرة تغيّرت بعد تلك الحادثة، يمكنكِ القول بأنها هي التي دفَعتني للبقاء.

ثم سألته:

- لماذا لم تقُل لي بأنّك صربي الأصل؟

قال ببساطة:

- أعتقد بأنّ في ما تراه أمام عينيك الآن إجابة عن سؤالك، اسمي برانكو، أنا صربي أرثوذكسي، لكنني قبل ذلك بوسني، أليس كذلك؟

فسألته مستغرباً:

- ولماذا تسخر إذاً ممّا يقوم به هؤلاء؟

أجابني:

- لا أسخر منهم طبعاً، لكنني أسخَر من مغزى ما يقومون به، ربما يحاولون استجداء الولايات المتحدة والدول الأوروبية للتدخّل وحمايتنا من بطش القوات الصربية، ألم يلقوا نظرة على الماضي ليعلموا أنّ هؤلاء الساسة هم أكبر المتلاعبين بمصالحنا؟ القصة ذاتها تجري أطوارها اليوم أمام أعيننا، وقد تتكرّر بتفاصيلها نفسها في منطقة أخرى سيئة الحظ غداً...

التقطَ نفساً عميقاً ثم أكمل:

- انظر فقط إلى أولئك المهرّجين الذين يطلقون على أنفسهم

اسم قوات الحماية الدولية، ماذا فعلوا؟ لا شيء! مجرّد إحصاء لأعداد القتلى وإصدار تقارير تافهة لم تُحدث أيّ تغيير في مسار الأحداث، يجب أن يُدرك الجميع بأننا لن نتجاوز محنتنا إلّا باعتمادنا على أنفسنا. . .

قلت بأسف:

- الحصار قاسٍ للغاية يا برانكو، ما باليد حيلة ومدافع الصرب وصواريخهم تحيط بنا من كلّ جانب وتنهمر على رؤوسنا بشكلٍ عشوائي.

ظهرَ شبح ابتسامة صغيرة على شفتيه وهو يقول بنبرة اختلطَ فيها الحماس بالغموض:

- اصبر، كلّ شيء بوقته، المهم ألّا نقف مكتوفي الأيدي. . .

أثارت كلماته فضولي، وأنا أتساءَل عن حقيقة ما يخفيه من أسرار، وإنْ كنت أعلم بأنه لن يفصح عن تفاصيل أكثر ممّا قاله، فأدرتُ بصري عدّة مرات محاذِراً من أن تنتبه مديحة أو نور لحركاتي، وأخرجت من جيب معطفي تلك الصورة الفوتوغرافية التي استعرتها من ألبوم الصور، ثم أطلعت الشاب عليها.

قمتُ باستغلال الجلبة داخل الكنيسة، فانتحيتُ به مكاناً قصيّاً ورويتُ له تفاصيل قصة أميرة وزوجها باختصار، فقال بعد تفكير عميق:

- أنت تطلب المستحيل، لا يمكنني بأيّ حال من الأحوال معرفة مرتكبي جريمة اغتصاب أميرة، آلاف البوسنيات وقعن ضحايا للانتهاكات الصربية، داخل سراييفو وخارجها، ولو أنه من الخطأ اعتبارها جرائم عشوائية، بالعكس، لقد تلقوا الضوء الأخضر من الكنيسة الصربية الأرثوذكسية التي يحرّكها ميلوسوفيتش كما يشاء

خدمة لأهدافه، أنت تفهم قصدي، عندما يُصدر كهنة غامضو النوايا فتاوى دينية لتبرير أفعال شيطانية فإنّ الفظائع التي يرتكبها المجرمون تكون أبشع من أن تصفها عين شاهد أو قلم كاتب، ذبح، اغتصاب، حرق، نهب، قصف أماكن عبادة، أيّ عاقل سيصدق أنّ الرب أمَرَ بذلك؟

قلت بنفاد صبر متجاهلاً أصوات انفجارات بعيدة:

- كلّ هذا مفهوم، لكنني أتحدّث عن حالة أميرة بالذات، أنت صربي، وربما تعرف بعض المنضمين إلى الميليشيات الصربية، أريد أسماء مرتكبي جريمة اغتصاب أميرة خافيروتش وأماكن وجودهم. . .

قاطعني:

- إمّا أنك مجنون، أو أنك لم تستوعب مغزى كلامي بعد، لنفترض أنني تمكَّنت بوسائلي الخاصة من معرفتهم، وهذا صعب جداً، كيف ستصل إليهم؟ أضِفْ إلى ذلك أنّ دوريات المسلحين تتغيّر باستمرار، مَن تبحث عنهم ربما يقاتلون الآن في جبهة أخرى بعيدة عن ضاحية بيستريك أو حتى عن سراييفو بأكملها، قد يكونون الآن في ترافنيك أو بيهاتش أو موستار، فكلّ الاحتمالات واردة.

هتفت:

- على ذكر موستار، كيف هي الأوضاع الميدانية هناك؟ ما الذي. . .

قطع كلامي صوتُ راهبٍ عجوز تكلَّم بالإنجليزية حتى يفهم الصحافيون الأميركيون كلامه:

- إلزموا أماكنكم ولا تغادروا الكنيسة يا أبنائي، لقد تجدَّد القصف الآثم مرة أخرى بعد هدوءٍ مؤقّت، سنبقى جميعاً هنا حتى نستطلع حقيقة ما يجري، لا تخشوا شيئاً، أنتم بأمان.

سأله أحد الصحافيين بتلك النبرة الفضولية:

- هل من معلومات عن المواقع التي استهدفها القصف؟

أجابه:

- يُقال بأنه استهدف بيستريك، لكن لا معلومات مؤكَّدة حتى الآن...

انتفض جسدي وأنا أسمع اسم بيستريك، فيما أطلقت مديحة شهقة قوية وهي تحتضن نور بين ذراعيها، فلم أشعر بنفسي إلّا وأنا أتجاوز الجميع وأبحث عن باب الخروج، متجاهلاً تحذيرات الراهب وصرخات مديحة الملتاعة.

رباه! فلتكن رحيماً بي، فأنا لن أحتمل صدمة جديدة!



3- المياه كلها بلون الغرق

الأربعاء 18 ديسمبر 1991
قنطرة مولاي الحسن - نهر أبي رقراق - الرباط:

غصتُ في المياه الباردة دفعة واحدة، ورغم أنّ المفاجأة لم تكُن لتسمح لي بمثل هذا الترف، إلّا أنّ شعوراً عارماً بالانتعاش غَمَرَ أطرافي، فدفعتُ جسدي بذراعي للغوص أكثر وأنا أبحث بعيني عن السيارة الغارقة، مستفيداً من انكسار الضوء على سطح الماء، بفضل الإنارة العمومية التي سخرتُ قبل قليل من ضعفها!

خشيتُ على سائق السيارة من ضغط المياه الشديد في الأعماق، فتجاهلتُ ألماً رهيباً في أذني وأنا أواصل الغوص بإصرارٍ لم أكُن أتخيّل أنني أملك مثله.

رغم انقلاب السيارة عدَّة مرات قبل اندفاعها إلى النهر، إلا أنّها لم تتعرض لأضرار كبيرة، وهذا مفهوم ما دمنا نتكلّم عن مرسيدس متينة ألمانية الصنع، لم يتأثّر سوى زجاجها الذي كُسر، لكنه سَمَح للمياه بالتسرب ومحاصرة مَن بالداخل.

اقتربتُ أكثر من السيارة، وأنا أبذل كلّ ما في وسعي لتجنّب الانهيار، إذ قدَّرتُ بأنّ وجودي في الأعماق تجاوَزَ دقيقة كاملة ببضع ثوانٍ.

فوجئتُ بالسائق، عندما تبيَّن لي أنّ الأمر يتعلّق بامرأة فاقدة الوعي لم أستطع تمييز ملامحها وهيئتها، فوجَّهتُ كلّ ما تبقى لي من جهد نحو محاولة إخراجها من السيارة.

ازداد الضغط على أذني بشدّة، وشعرتُ بأن رئتي تكاد تنفجر، وأنا أصارع لإخراج جسد الشابة من السيارة، بعدما استعصى عليّ فك زرّ حزام الأمان محكم الإغلاق.

خشيتُ أن تبتلعنا الأعماق المظلمة، وساهَمَ شعوري بالخطر في تضاعف عصبيتي وربما إفراز غدتي فوق الكلوية للأدرينالين، الذي منحني قوة إضافية مكَّنتني أخيراً من تخليص الشابة من مقبرتها الحديدية بصعوبة بالغة.

لكن مَن قال إننا نَجَوْنا؟

طوَّقت خصرَ الشابة بذراعي محاولاً الوصول إلى سطح الماء بآخر ما تبقى لديّ من قوة، لكنني تخاذلتُ مستسلماً لعدم قدرتي على الاحتمال أكثر من ذلك...

أنا بشر، وللجسد حدوده...

تراخَت أطرافي بفعل نقص الأوكسجين، وبدا الخلاص من هذه الورطة أقرب إلى المستحيل، فاستعرضَ عقلي في لمح البصر ذكرياتي السابقة في مارسيليا، ولا أدري كيف راودتني سخرية عجيبة وقد صرتُ قابَ قوسين أو أدنى من الموت، أنا الذي لم أحلّ لغز حياتي بعد!

كل هذا وأنا متمسّك بجسد الشابة، التي حاولتُ التدخّل لإنقاذها، فوجدتني على وشك الموت معها.

غيبوبة عنيفة بدأت تتسلَّل لتشكِّل غشاوة سوداء أمام عيني، فأيقنتُ بأنها النهاية...

* * *

ثم تحرَّكت يدُ القدر، على حين غرة، لتدفعني بقوّة حتى أصل إلى سطح نهر أبي رقراق رفقة الشابة فاقدة الوعي.

يبدو أنّ في العمر بقية...

ملأتُ رئتيّ بالهواء البارد، فاستعدتُ توازني وانتباهي دفعة واحدة، وأدرتُ بصري في المكان، محاولاً استيعاب ما حَصَل، لأكتشفَ وجود قارب خشبي صغير على بُعد أمتار قليلة مني، وصوت خلفي يقول:

- هل أساعدك على الوصول إلى القارب؟ أم أنك قادر على ذلك؟

استدرتُ لأجد أمامي عجوزاً نحيف البنية، فهمت بسرعة أنه غاصَ في المياه الباردة وساعدنا على الوصول إلى السطح.

أجبته لاهثا:

- لا، سأصل بنفسي...

وكذلك كان...

لم نكُن نبعد كثيراً عن اليابسة، التي أوصلنا إليها العجوز بسرعة، معتمداً على تجديفه الرزين وتحكّمه المحترف بقاربه الخشبي رغم قوة الرياح العاتية.

لا بد لي من إنقاذ الشابة فاقدة الوعي في أسرع وقت، وإلّا ضاع كلّ هذا المجهود بلا طائل!

ما إنْ وَصَلْنا إلى ضفّة النهر حتى حملتها وأرحتها على الأرض، فلاحظتُ بأنّ إصاباتها لا تتعدى جرحاً صغيراً في جبهتها، وبعض الرضوض في أطرافها. إذ تحمَّل بَدَنَ السيارة قوة الانقلاب والاصطدام.

لكن الغرق كان لها بالمرصاد...

التقطتُ نفساً عميقاً قوياً، قبل أن أبدأ في الضغط على الجانب الأيسر من صدرها جهة القلب لاستعادة نبضه الطبيعي، مرافقاً ذلك بنفخ الهواء يدوياً في رئتيها عبر إنعاش الفم إلى الفم، ثم استعنتُ بمصباحٍ يدويّ سلَّمني إياه العجوز لأسلِّط ضوءه على بؤبؤ عينها، في محاولة لمعرفة مدى استجابتها.

لا جديد، جسد الشابة منهارٌ تماماً ولا يُصدِرُ أيّ ردّ فعل، ولا تفسير لذلك سوى أنّ الشابة في غيبوبة تامة، فنحن نتحدث هنا عن غرقٍ من الدرجة الرابعة، وهذا ما أكَّده الضعف الشديد في نبضات قلبها الذي أوشك على التوقف تماماً.

- ماتت؟

قالها العجوز بصوتٍ مبحوح، فصمتُّ للحظات باحثاً عن جواب مُقنِع وأنا أواصل الضغط على صدر الشابة:

- ليس بعد، لكنها بحاجة إلى تدخل طبي عاجل قبل فوات الأوان، فمؤشرات معدّلاتها الحيوية مخيفة للغاية.

لم أكن مقتنعاً بما قلته، وأنا منشغل بالتفكير في حلٍّ ينقذنا من هذه الورطة، فلم أجد بداً من لفّ جسد الشابة بملاءة قديمة وجدتها في القارب الخشبي، ثم حملها بين ذراعي والصعود نحو القنطرة متبوعاً بالصياد العجوز، رغم صعوبة الأمر بفعل بُعد المسافة، ووعورة الحواجز الفاصلة بين ضفة النهر والقنطرة، وبطبيعة الحال تعبي الشديد الذي بذلت كلّ ما في وسعي لتجاهله.

- ما الذي تنوي فعله؟

قلتُ بنفاد صبر وأنفاسي تكادُ تنقطع:

- انتظار أول سيارة مارة من هنا طبعاً، والذهاب إلى أقرب مستشفى حتى. . .

قطعتُ كلامي بعدما تراءت لي سيارة نقل بيضاء اللون قادمة من بعيد، فرفع الصياد ذراعيه لإجبارها على الوقوف.

- م... م... ماذا هناك؟

قالها السائق الأسمر بصوت مرتجف مذعور وقد تحرّكت شفتاه بكلامٍ هامسٍ غير مفهوم، فصحتُ في هياج لا يتناسب بأيّ حال من الأحوال مع العياء الذي انتاب كلّ ذرّة في جسدي المكدود:

- هل أنت أعمى؟ قد تموت الشابة في أية لحظة، اذهبْ بنا إلى أقرب مستشفى، هيا!

أطاعني في آلية، فقفزتُ إلى المقاعد الخلفية ثم تعاونتُ مع العجوز على إراحة جسد الشابة، لأواصل محاولاتي المستميتة لإسعافها، غير آبهٍ بالصياد الذي رمى نحوي بالمعطف الذي نسيته، ملوّحاً بيده مودّعاً.

أدار السائق محرك السيارة وانطلق بها، ثم قال بنبرة حازمة تخلّى بها عن ذعره السابق:

- سنذهب بها مباشرة إلى مستشفى ابن سينا في السويسي، من حسن حظّنا أن الوقت متأخر والشوارع خالية، لأننا...

قاطعته:

- ليس هذا وقت الكلام... بسرعة أرجوك!

يا إلهي، هل أحلم أم ماذا؟ مَن سيصدِّق أنّ ليلتي الأولى في الرباط ستكون هكذا!

* * *

اقتحمتُ قسم المستعجلات حاملاً الشابة الغريقة بين ذراعي، غير آبهٍ بما يدور حولي، ولو أنّ نظرة سريعة أثبتت لي فراغ المكان من المرضى لحسن الحظ.

ما إنْ اصطَدَمَت عيني بحروف كبيرة تشكِّل عبارة: «**قاعة الإنعاش**» حتى توجَّهت نحوها مباشرة.

- هيه، أنت، تعال إلى هنا!

قد تكون ممرّضة، أو رئيسة الممرضات، أو موظفة استقبال لا أدري، المهم أنها بدينة إلى حدٍّ لا يوصف، وترتدي وزرة بيضاء تكاد أزرارها تنخلع، وترمقني بعينين يقدح منهما الشرر.

صرختُ في وجهها:

- قد تموت الشابة في أية لحظة، ابتعدي عن طريقي وإلّا...

أجابتني متحدّية:

- ما هذه النبرة الغريبة التي تتكلم بها؟ لم أسمع عربية كهذه من قبل! لهذا المستشفى قوانينه التنظيمية، مَن أنتَ حتى تقتحم المكان بهذه الطريقة؟

أجبتُها:

- ومنذ متى كانت للقوانين قيمة أمام حياة إنسان؟ اغرُبي عن وجهي!

يبدو أنّ صراخي قد أحدَثَ مفعوله، إذ فتح باب قسم الإنعاش، ليظهر وجهُ طبيبٍ شاب، ربما يماثلني في السن، لم أخطئ علامات الحماس الظاهرة خلف زجاج نظارته، ما شجَّعني على القول بالفرنسية:

- Noyade en eau douce, importante surcharge cardiaque, difficultés de respiration, 32°C, Solution: intubation + ventilation en pression positive de fin d'expiration.

فغر فاه في دهشة، فأضفت:

- نعم، نعم، أنا طبيب، بسرعة أرجوك، لكلّ ثانية قيمتها!

انتزعَتْه نبرتي الصارمة من دهشته، فأجابني في حزم:

- **بالطبع، اطمئنّ...**

كان نشيطاً للغاية، فقد أحضَرَ بنفسه محفّة ساعدته على نقل الشابة إليها، ثم انطلق بها منادياً على زملائه في الطاقم الطبي.

هنا فقط تنفّستُ الصعداء، قبل أن أنهار متعباً فوق مقعد من حديد وجدته أمامي.

لكنني لم أحوِّل بصري عن البدينة المتعجرفة التي عادت إلى مكانها في مكتب الاستقبال.

مَن تحسب نفسها؟

هل هكذا تمشي الأمور هنا؟ أم أنني ارتكبتُ بحقّها خطأ معيّناً لم أنتبه له بفعل انشغالي بحالة الغريقة؟

سارت عقارب الساعة الحائطية برتابة، محدِثَة صوتاً مزعجاً نسَفَ قلاع الصمت الذي لم أتوقع أن أجدَ مثله في قسم مستعجلات يُفترض أنه أشبه بخلية نحل.

فلأشكُر حظي، على الأقل أوصلت الشابة الغريقة في الوقت المناسب.

- **تفضل...**

أعتقد بأنّ النوم قد اختطفني من شدّة التعب، فقد قمتُ من مكاني بسرعة بعد سماعي لهذا الصوت، لأجد أمامي ذلك المتطوّع الذي أقلّني إلى المستشفى، حاملاً بين يديه قارورة ماء تسلّمتها منه، مانحاً إياه ابتسامة ممتنة شاكرة.

- **يبدو لي أنك غريب عن المدينة، أو حتى عن البلد بأكمله!**

قالها بثقة، لكنني لم أكن في موقف يسمح لي بشرح قصتي، فأجبته:

- ربما . . .

لكنه واصل كلامه متجاهلاً جوابي:

- أنت لم تفهم قصدها عندما تحدثت عن القوانين التنظيمية. . .

قالها ثم حرك إبهام وسبابة يده اليمنى بطريقة معينة، فاتّسعت عيناي في ارتياع وأنا أقول:

- رشوة!

ضغط على يدي بسرعة قائلاً:

- اخفض صوتك، لا تفضحنا أرجوك!

كانت عبارته مثيرة للغيظ، لكنني تمالكتُ أعصابي رغماً عني، فاستطرد:

- أعتقد بأنك لا تدري كيف تسير الأمور هنا، واضح جداً أنّك عصبي بعض الشيء، أو أنك تقدِّس حياة الإنسان بطريقة غريبة لم أعهد مثلها في حياتي، ظننتُ في البداية أنك قريب أو صديق للشابة، لكنك لا تعرفها أصلاً!

صحيح أنّ شهامته قد لعبت دوراً كبيراً في إنقاذ الغريقة، لكن ثرثرته لم تكُن لتحتملها أعصابي المنهَكَة، فصمتُّ كعلامة واضحة على رغبتي في التمتّع ببعض الهدوء، لكنه أصرّ على إزعاجي:

- أتدري لماذا خفتُ في البداية عندما أجبرتموني على التوقف؟

قلت في ضجر:

- لماذا؟

قال بتلذّذ غريب:

- كان منظركم مرعباً، الظلام دامس، أنتَ مبلَّل من قمة رأسك إلى أخمص قدميك، وتحمل بين ذراعيك شابة ملفوفة بملاءة وترتدي

ثوباً أبيض اللون، والعجوز يرفع ذراعيه في إصرار، آسف، لكنني اعتقدت أن الأمر يتعلق بكمين ل. . .

قطع كلامه متفوهاً بكلمات غريبة قبل أن يكمل:

- صاحبة حوافر الماعز، عيشة قنديشة![1]

قلت مستنكراً:

- عيشة ماذا؟

خرج الطبيب من قاعة الإنعاش، فتجاهلتُ الرجل وسخافاته، متوجّها بكلّ جوارحي نحو زميلي في المهنة الذي أراحتني ملامحه الهادئة الواثقة:

- اطمئن، لقد قُمنا بواجبنا وأنقذناها في الوقت المناسب، ستكون على ما يرام بإذن الله.

أطلقت زفرة ارتياح أزاحت عني هماً ثقيلاً، وعانقني الرجل بفرحة حقيقية دلّت على طيبة قلبه ونقاء سريرته، فبادَلته العناق وبالي مشغول بأمرٍ آخر. . .

---

(1) أجريتُ بحثاً سريعاً حول الموضوع، فتبيَّن لي أنّ الأمر يتعلّق بعيشة قنديشة إحدى شخصيات الجن المشهورة في التراث الشعبي المغربي، وهي معروفة بجمالها الأخاذ وملابسها الطويلة البيضاء وقدميها اللتين تشبهان حوافر الماعز أو الجمال أو البغال (يختلف الوصف بحسب اختلاف المناطق المغربية)، تعدَّدت الدراسات التي تحاول فهم أصلها، لكن أكثرها انتشاراً دراسة تقول بأنّ عيشة الأميرة أو الكونتيسة (التي حُرِّفت لقنديشة في اللفظ المغربي) شخصية حقيقية موريسكية الأصل، قاومت الاحتلال البرتغالي لبعض الثغور المغربية عبر الاستفراد بجنود الحاميات البرتغالية واستدراجهم لحتفهم، لتتحوّل مع مرور الوقت إلى أسطورة تكرَّرت القصص التي تتحدث عن استفرادها غالباً بسائقي الشاحنات وسيارات النقل في بعض الطرق المقفرة، ويبدو أنّ هذا ما دَفَعَ الرجل للاعتقاد بأنّ الراوي والغريقة والصياد العجوز مجرد كمين مُحكم من توقيع عيشة قنديشة!

انتظرتُ ابتعادهما لأستخرج من جيبي محفظة جلدية صغيرة الحجم، أنيقة وغالية الثمن، نجَت هي الأخرى من الغرق، فمن حسن الحظّ أنّ جيب فستان الشابّة مزود بزمام منزلق صغير.

أوراقٌ مالية لم تسلَم رغمَ ذلك من البلل، صورة فوتوغرافية صغيرة كشفَت عن وجهٍ جميل منعتني ظروف الحادثة من التطلّع إلى تقاسيمه بتمعّن، صورة أخرى لشابّ شديد الوسامة، قد يكون في السابعة أو الثامنة والعشرين من عمره، وبطاقة تعريف بذلتُ جهداً كبيراً لقراءة ما كُتب فيها بعدما لوّثتها قطرات الماء.

الاسم الكامل: جيهان الحسني.

تاريخ ومكان الازدياد: 24 أكتوبر 1970، بالرباط.

المهنة: طالبة جامعية.

ما قصّتك يا جيهان؟ ولماذا فكرت في الانتحار بهذه الطريقة الغريبة؟



4- تحت أنقاض الموت

الخميس 7 يناير 1993

شارع دراغيتسي برافيتسي في ضاحية بيستريك - سراييفو:

لا أبشع من الموت سوى انتظاره...

مَن أنا حتى تتجنَّبني ضرباته وتُصيب الآخرين؟ فلتأتِ قنبلة أو قذيفة أو صاروخ أو رصاصة أو أيّ اسم من هاته الأسماء التي أدرجَتْها آلة القتل الصربية في قاموسها لتخلّصني من هذا العذاب، فأنا لم أعُد قادراً على التحمّل أكثر من ذلك...

لن أقولَ بأنّ المشهد كان مُرعِباً، أو أنّ رائحة الموت قد أزكَمَت الأنوف، أو أنّ أشلاء الضحايا تناثرت كاللحم المفروم فوق الثلج الأبيض.

كلّ هذا ليس مهماً، أو ربما لم يعُد يستفزّ مشاعرَ أحد...

أضِفْ إلى ذلك أنني لست كاتباً متمرّساً حتى أبحث عن الكلمات المناسبة لوصف ما رأيته، كما أنني أفضِّل المباشرة والوضوح على الغموض الذي لا طائل منه.

ثم مَن قال إنّ الاعتماد على الكلمات الشاعرية المنمَّقة يصلح دائماً لنقل الصورة الكاملة لمشهد معيّن، مهما بلغت درجة روعته أو بشاعته؟

تحوّلت قدماي إلى آلة للركض، آلة لم تأبَه لبرودة الطقس أو صعوبة المشي فوق طبقات الثلوج السميكة، من الباشتشارشيا إلى دراغيتسي برافيتسي، مروراً بجسر الإمبراطور[1].

وعندما وصَلتُ إلى الشارع المذكور علمتُ أنّ الكارثة قد حصلت...

الكارثة التي حوَّلت شارع دراغيتسي برافيتسي في ضاحية بيستريك إلى خراب.

هكذا ببساطة شديدة!

توجّهت نحو ما تبقّى من منزل الشيخ حارث، وبدأتُ في إزاحة الأنقاض كالمجنون، باحثاً عن أملٍ كنتُ أعلم في قرارة نفسي ألّا وجود له.

ثم اصطدمَت عيني بمشهدٍ آخر، انضاف إلى سلسلة مَشاهد انطبعت صُورها في ألبوم ذاكرتي إلى الأبد.

جثّة الخالة فاطمة المسحوقة، وأصابع العمّ حارث المُطبِقَة على المصحف الصغير، آخر مُرافِق له قبل وقوع الانفجار الذي دمرّ معظم أبنية الحي ومنازله الصغيرة الهادئة.

أيّ معنى للبكاء أمام هول ما رأيت؟

طبيعي جداً أن تتجمّد الدموع في مقلتي، ليحلّ محلّ التأثر شعورٌ كاسح بالعجز والغضب الهادر...

كلّ ما فعلته هو أنني التقطت المصحف والسبحة البيضاء

---

(1) جسر الإمبراطور أو Careva ćuprija باللغة البوسنية، جسر أثري يربط بين ضفَّتي نهر ميلجاكا في العاصمة البوسنية سراييفو، أنشئ عام 1897 على أنقاض جسر قديم يعود بناؤه إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وهو مُدرَج ضمن قائمة المآثر التاريخية الوطنية للبوسنة والهرسك.

الملطّخة بالدماء، أزحت عنهما الأتربة، ثم دسَستهما في جيب معطفي.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

هل شعر الشيخ بدنوّ أجله فتلا على مسامعي هذه الآية القرآنية؟

«**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**».

أكانت هذه الكلمات مفتاح عبوره إلى عالم ما بعد الموت؟

ونور...

لماذا قدِّر لهذه الصبية الوديعة البريئة أن تُقاسي كل صنوف العذاب من فَقْدٍ ويُتْم وتشرّد؟

اختلطت الأفكار والأسئلة في رأسي، وتجمَّدت ركبتاي وأنا عاجز عن الإتيان بشيء أمام تجمهُر أبناء العاصمة القادمين من أحياء أخرى، والذين أتوا مسرعين في محاولة يائسة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولو أنّ القصف كان رحيماً بأهالي دراغيتسي برافيتسي، فقد أراحَهم جميعاً من عذاب هذه الدنيا ولم يترك بينهم جريحاً أو ناجياً.

أيُعقل أنّ هذا القصف تمّ في يومٍ يُفترض أنه مقدّس عند الصرب الأرثوذكس؟

طرحتُ على نفسي هذا السؤال الغريب، فارتفعَ صوت آخر في أعماقي ليقول بتهكّم مرير:

- **ما هذه السذاجة؟ ألم تستوعب الدرس بعد؟ الغزاة المعتدون والمجرمون القتلة لا ملّة لهم أو دين، حتى لو لهَجَت ألسنتهم بذكر الله صباح مساء، بالأمس اجتاح الصليبيون بلاد الشرق فعاثوا فيها**

فساداً وقتلاً ونهباً، متذرّعين بحماية طرق الحجّاج المتوجّهين إلى الأراضي المقدَّسة، واليوم ترى بأمّ عينك ما يرتكبه الصرب من فظائع قائلين بأنهم يحمون أوروبا من خطرٍ إسلاميّ قادم، وقد يتذكّر آخرون خلافات وصراعات تنتمي إلى ماضٍ سحيق لا علاقة لهم به فيقتلون ويفجّرون بعضهم بعضاً بسببها غداً! فهمت؟ أم أنك بحاجة إلى شرح أكثر تفصيلاً؟

أمسكتُ بجانبي رأسي في ألم، فلم أنتبه إلّا على صوت إطارات مدرّعة بيضاء توقّفت غير بعيد عنا، لينزل منها خمسة جنود من قوات الأمم المتحدة.

كانت ملامحهم جامدة بطريقة مثيرة للغيظ، وهم يصوِّرون آثار القصف الصربي، ويدوِّنون ملاحظاتهم في كراسات صغيرة، في ما بدا أنها مجرد نزهة لطيفة يعودون بعدها إلى مقرّاتهم الهانئة الآمنة.

قال أحدهم:

- لقد تمّ القصف باستخدام صواريخ كاتيوشا عوض قذائف الهاون المعتادة، وهذا تطوّر خطير للغاية!

يا إلهي، ما هذا السخف؟ هل يعني بكلامه هذا أنّ الاستنكار مرتبطٌ فقط باستخدام صواريخ الكاتيوشا؟

الموت واحد، لكن يبدو أن درجاته متفاوتة عند هؤلاء ال...

ثم ظَهَرَ خلفهم مَن توقعتُ قدومه...

- كالعادة، ملاحظات وصور وتوثيق، ولا شيء بعد ذلك...

قلتها في سخرية لاذعة، فأجابني العقيد رايلي بنبرة مماثلة:

- أنت هنا؟ يبدو لي أنّ ثلوج سراييفو قد جمَدت أعصابك ومنحتك بعض الشجاعة، أتذكُر يومك الأول في العاصمة؟ كنتَ ترتجف كريشة في مهب الريح!

منعني غضبي من مجاراة سخريته أكثر من ذلك، فقلتُ بعصبية واضحة:

- جريمة أخرى تنضاف إلى سجلّ فظائع الميليشيات الصربية في سراييفو، وأنتم لا تحرّكون ساكناً...

قلتها وأنا أراقب سيارة الإسعاف التي لم تجد مَن تنقذه، فاكتفى طاقمها بنقل الجثث القليلة إلى مستودع الأموات.

هذا إنْ كانت ثلاجات المستودع شغالة أصلاً...

- وماذا تريد مني أن أفعل؟

قالها بلا مبالاة، قبل أن يربت على خدّي بطريقة مستفزّة، فنزعت يده عن وجهي بخشونة، ليُضيف ببرود مَقيت:

- اللعبة أكبر مني، ومنك، ومن هيئة الأمم المتحدة نفسها، أعتقد بأننا ناقَشْنا هذه المسألة من قبل، ونصحتك يومها بتجنّب الخوض في تعقيدات السياسة، والاكتفاء بالمهام التي أتيتَ من أجلها إلى سراييفو، أليس كذلك؟

قلت محتجّاً:

- ولكن...

فقاطعني بصرامة هذه المرة:

- قد تملكُ شجاعة مثيرة للإعجاب، أو حماقة مثيرة للشفقة، كلّ هذا لا يهمّ، فأنت...

بَتَرَ عبارته دفعة واحدة، منتبهاً لنقطة ما خلفي، فاستدرتُ لأجد أمامي مديحة وهي تبذُل كلّ ما في وسعها لتهدئة نور الباكية.

بكاء كان كافياً ليُنسيني كلّ شيء...

هرعت إليهما لأحتضن الطفلة بين ذراعي مواسياً، بعدما مزّقت

دموعها نياط قلبي، فيما تفوّهت وسط نحيبها بكلمات حزينة ومؤثرة، لكنها مفهومة...

نعم مفهومة رغم اختلاف اللغات، فعندما تنفُذ الكلمات الصادقة من القلب المفجوع إلى الروح الممزّقة، لا حاجة بنا عندئذٍ إلى مترجم...

- اهدئي يا حبيبتي، أنا هنا، لن أتخلى عنكِ، حتى لو كلفني ذلك حياتي، ثِقي بي، فأنا مثلك، فقدتُ كلّ شيء تقريباً، ولم يعُد لديّ ما أخسره!

قلتها وأنا أمسح دموعها بيدي، وأداعب خصلات شعرها بحبّ، فعانَقتني هي الأخرى بذراعيها الصغيرتين، فيما سالت دموع مديحة بصمت.

- مَن تكون هذه الطفلة؟ لم أرَ أجمل منها في حياتي!

قالَها العقيد رايلي متطفّلاً، فأجبته بنبرة متحدِّية:

- ليس هذا من شأنك، ألم تنصحني قبل قليل بتجنّب التدخل في ما لا يعنيني؟ أم أنك تناقض نفسك يا سيادة العقيد؟

أجبَرَه كلامي على التخلّي عن لهجته الساخرة، فقال محنقاً:

- هيه، اِلزَمْ حدودك يا دكتور، واحترم صداقتنا السابقة على الأقل، من حقّي أن أسأل عنها، هي التي كانت تبكي بطريقة مؤثّرة تجعلني أشكّ في علاقة ما تربطها بهذه الحادثة، وهذا يقع ضمن دائرة اختصاصاتي هنا!

أجبته بلهجة آليّة باردة:

- نور كوستوفيتش، ابنة رامز كوستوفيتش وأميرة خافيروتش، اختفى والدها في ظروف غامضة بعد سفره إلى موستار في الأيام الأولى للحرب، فيما توفيت أمها قبل أيام قليلة أثناء خضوعها

لجراحة قيصرية، تكفَّل بها العم حارث والخالة فاطمة في انتظار عودة والدها، لكنهما راحا ضحيّة هذا القصف الذي تتعامل معه أنت ومهرّجوك بلا مبالاة، لتصبح نور رسمياً بلا مأوى، فهمت؟

ضاقت عيناه كعلامة على التفكير العميق، واستمرّ صمته لما يفوق الدقيقة، قبل أن يقول:

- هذا مُحزِن للغاية، لا حلّ أمامنا إذاً سوى إرسال الطفلة إلى الملجأ، ستكون بأمان هناك. . .

قالها وهو يتقدّم نحوها بخطوات بطيئة وقد برَقَت عيناه بطريقة مريبة، فلم أشعُر بنفسي إلّا وأنا أدفعه لأمنعه من الاقتراب منها، صارخاً بكلّ ما أوتيت من قوة:

- ستبقى معي إلى حين عودة والدها، لقد أوصتني والدتها بالاعتناء بها، وسأنفِّذ الوصية حتى لو كلَّفني ذلك حياتي!

ارتفع حاجباه في دهشة، وهَمَّ بقول شيء ما، عندما تدخّلت مديحة في النقاش بعد صمت طويل:

- كلام الضابط منطقي، كيف ستتكفّل بنور وأنت أصلاً بلا مأوى؟ لو كان بإمكاني استضافتها في منزلي لفعلت، لكنك تدرك جيداً صعوبة الظروف الحالية التي تُجبرني على البقاء في المستشفى لفترات طويلة، نقلها إلى ملجأ الأطفال المُتَخلّى عنهم سيكون في صالحها، على الأقل ستضمن سقفاً يحميها من ثلوج الشتاء في انتظار عودة والدها من موستار، وسنزورها نحن باستمرار للإطمئنان عليها!

قال رايلي مبتسماً:

- لا تقلق، سيُوليها مدير الملجأ عناية خاصة، فهو صديق عزيز. . .

كانت لهجته ودِّية وباعثة على الاطمئنان، لكنني عجزتُ عن منحه ثقتي كاملة، فقلت:

- لم أعهدكَ بمثل هذه الطيبة يا جوناثان، أنت الذي جرَّدتك مهامك وخلفيتك العسكرية من عواطفك ومشاعرك الإنسانية!

أجابني بهدوء:

- شكّك لا معنى له، ليست هذه أول مرّة أقوم فيها بذلك، فهذا من صميم مهامي الإدارية في سرايبفو، الإشراف على نقل الأطفال ضحايا المعارك إلى أماكن آمنة تضمن لهم حياة كريمة، لا علاقة للمشاعر والأحاسيس بالموضوع.

ثم أضاف بنبرة غامضة:

- كما أنّ هذه الصبية الجميلة بالذات تستحقّ معامَلَة خاصة جداً!

قالها هامساً، لكنه أردَفَ متلعثماً وقد انتبه إلى مراقبتي لكلّ حركاته وسكناته:

- أقصد أنها تذكِّرني بابنتي باولا عندما كانت في مثل عمرها، هذا كلّ ما في الأمر!

ثم شدَّ قامته في اعتداد ليقول:

- على أية حال، تدبرا أمر مَبيتها اليوم، وسأتكفّل أنا بالباقي ابتداء من يوم غد، يمكنك عندئذٍ زيارتها متى شئت، قلتَ إن والدها سافر إلى موستار، ويُدعى رامز كوستوفاتش، كوسيفيتش، كوسافيتش؟ لا يهم! يا لها من أسماء معقّدة! المهم أنني سأجري اتصالاتي، لعلّني أصل إلى جديد ما في هذا الشأن...

انصرفَ بعدها بدقائق، بعدما أنهى الجنود «عملهم»، فبقيتُ وسط أنقاض الموت صامتاً، وقد تأبّطت مديحة ذراعي اليمنى، فيما

أمسَكَت نور بيدي اليسرى، في مشهد لم أكُن بحاجة إلى كاميرا احترافية أو ريشة فنان موهوب لأدرك بأنه يجسِّد أبلغَ معاني البؤس وقلة الحيلة.

لا بد لي من إقامة جنازة تليق بالشهيدين، العمّ حارث والخالة فاطمة رحمهما الله، هذا ممّا لا شك فيه.

لكنني انشغلتُ بأمرٍ آخر...

نعم، إنها بذرة الشكّ التي تنمو في أعماقي أكثر فأكثر...

كيف تخلّى العقيد الكندي عن بروده المعتاد وتطوّع لمساعدتنا بهذه السرعة؟

أطبقتُ أصابعي على يد نور، كما لو كنتُ أحميها من خطرٍ لا أدري كنهه بالضبط، قبل أن يرتفع مرة أخرى ذلك الصوت الغامض في أعماقي ليقول:

- عندما تسير الأمور بسرعة غير طبيعية، فاعلَم أنك مُقبِل على واحدة من اثنتين: إمّا مفاجأة سارة، أو كارثة جديدة!



5- جيهان...

الخميس 19 ديسمبر 1991
بين المستشفى الجامعي ابن سينا وقصبة الوداية التاريخية - الرباط:

وارتفع صوت الأذان قادماً من مسجدٍ قريب، مُعلناً عن بزوغ فجرِ يوم جديد...

نَفَذَ الصوت الشجيّ إلى مسامعي، فأيقظني من نومي بالتزامن مع عبارة «الصلاة خير من النوم».

ولو أنه لم يكن نوماً عميقاً أصلاً، هي ساعة واحدة فقط، منحْتُ بها جسدي المكدود بعض الراحة، بعد ليلة مُتعبة كدتُ أفقد فيها حياتي غرقاً في مياه نهر أبي رقراق.

فركتُ عيني محاولاً تجاوز آثار النوم، فانتبهتُ إلى أنّ الأمر لا يتعلّق بصوت مؤذن في مسجد قريب، بل بأصوات متقطعة منبعثة من مذياع في مكان ما.

«اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد، مستمعينا الكرام،

كنتم مع أذان صلاة الصبح بحسب توقيت الرباط وسلا وما جاورهما. . . ».

مضَت ساعات الليل رتيبة وبطيئة، فبَعد الاطمئنان على نجاة الشابّة، وصلَ مفتش شرطة أخذَ أقوالي بسرعة، واستمع إلى إفادة الطبيب، فأغلق التحقيق معتبراً أنّ الأمر لا يعدو كونه مجرّد حادثة سير عادية نجمت عن فقدان الشابة لتحكّمها في سيارتها بفعل المنزلقات التي خلَّفتها الأمطار، وهو الأمر المعتاد والمألوف في هذه الفترة من السنة، ليرحل في النهاية مع وعد بالعودة في وقت لاحق.

نهضتُ من المقعد وارتديتُ معطفي، وتركتُ لساقي حرّية التجوّل في المكان لأبثّ في أوصالي بعض الدفء والنشاط.

سيمفونية مزعجة حَرمت الردهة من الهدوء المطلوب، أبطالها طنين مصباح معطَّل تراقصت أضواءه، وشخير منتظم لم تكن صاحبته سوى تلك الممرّضة المتعجرفة التي فغرت فاها، وقد بدا منظرها الغريب وهي نائمة بعمق مثيراً للضحك، فابتسمتُ وأنا أرى المذياع الصغير إلى جانبها.

يمَّمتُ وجهي شطر قاعة الإنعاش، للاطمئنان على جيهان، لكن صوت الطبيب الشاب أجبرني على الالتفات:

- قاعة الصلاة في آخر الممر، سأنتظرك لنؤدي صلاة الصبح جماعة!

أحرَجَني كلامه، فقلت متلعثماً:

- الصلاة؟ نعم، نعم. . . سألحق بك. . .

أجابني مبتسماً:

- أذان الصبح، والصلاة، ثم الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم

بصوت المقرئ عبد الرحمن بنموسى، وتفسير آيات كتاب الله للعلّامة المكي الناصري، عبر أمواج الإذاعة الوطنية، والاستعداد بعدها لتناول وجبة الفطور، إنها الطقوس المغربية، الثابتة والمقدّسة!

بادلته الابتسامة بأخرى مجامِلة، متسائلاً في سري عن هذا المكي الناصري مَن يكون، ثم انتظرتُ انصرافه لأدخل مباشرة إلى قاعة الإنعاش.

كلّ المعدلات الحيوية طبيعية للغاية، ستستعيد جيهان وعيها في أية لحظة...

كانت هذه فرصتي لأتفرّس في ملامحها عن قرب، فقد كشفت لي الصورة الفوتوغرافية عن وجه بهيّ الطلعة لشابة لم أكن أتوقع أنها بمثل هذا الجمال...

هي في الواحدة والعشرين من عمرها، لكنها تبدو أكبر بكثير من عمرها الحقيقي، لا أقصد بذلك ملامحها، بل بنيتها الجسدية التي تتفجّر كل ذرة فيها أنوثة وفتنة.

أنا طويل القامة، لكنني لا أفوقها إلّا بسنتيمترات قليلة، كما أنّ تأرجح بنيتها بين النحافة والامتلاء الخفيف منحها قواماً فاتناً مثيراً للانتباه.

صدرها الناهد يعلو ويهبط بانتظام، كعلامة على استعادة تنفّسها لمستواه الطبيعي، و...

احمرّت أذناي خجلاً، بعدما سمحتُ لنفسي بالمبالغة في اختراق تفاصيل جسدها بعيني، فاكتفيت بالتطلّع إلى وجهها الغارق في سباته...

وجهها مستدير كبدر يبدّد بنوره ظلمة قرية منسيّة، خدّاها متورّدان ومكتنزان رغم الشحوب الذي خلّفته آثار الحادثة، أنفها

أقنى كالمرجان الثمين النادر، فيما زيّنت عينيها المغلقتين رموش حادّة كأنصال السيوف العربية، وانسدلَ شعرها الطويل على كتفيها، أسود حالكاً كليلتي الأولى في الرباط، كاشفاً عن عنقٍ يشقّ طريقه بخيلاء وتؤدة نحو نحرٍ شديد البياض كقمم جبال الألب الساحرة، لتكتمل واحدة من أروع لوحات إبداع الخالق بمسحة حزن غامضة، زادَت الشابة النائمة فتنة وجمالاً أخّاذاً لم أصادف مثله في حياتي.

دقائق طويلة مرّت، وأنا أملأ عيني بهذا الجمال، قبل أن أنتبه فجأة إلى أنّ أناملها تُمسك بأصابع يدي اليمنى، التي استندتُ بها إلى حافة فراشها.

- **علي... علي...**

قالتها بصوت ضعيف، فانعقدَ حاجباي في تساؤل، وإنْ فهمتُ أنها تستعيد وعيها ببطء، ثم سَعَلَت بقوة وفتحت عينيها مرة واحدة، منتزعة أناملها الرقيقة من يدي بسرعة وهي تحدجني بنظرة طويلة خاوية.

أصابَتني عيناها بالخرس المؤقت، فعجزتُ عن التفوّه بكلمة واحدة، لكنني استجمعتُ قواي وقلتُ بصوتٍ مرتعش مبحوح:

- **حمداً لله على سلامتك!**

لم تُجِبْني، مفضِّلة التجوّل ببصرها في تفاصيل الغرفة، وقد دلَّت حركاتها المتردِّدة على التساؤل والاستغراب، لتتخلى عن صمتها بعد لحظات، قائلة بصوت متهالك:

- **أين أنا؟ مَن أنت؟**

أعرف أنّ هذا الهدوء سينتهي بعد دقائق وربما لحظات، عندما يعلم الطبيب الشاب بخبر استعادة جيهان لوعيها، وقد يلحق بها

والداها إلى هنا، فمن الطبيعي أن يتّصل بهما مفتّش الشرطة لإخبارهما بما وقع لابنتهما، مَن يدري؟

غموضٌ كبير يُحيط بهذه الحادثة، ولا وقت لديّ...

ألقيتُ نظرة خاطفة على ساعتي اليدوية، ففوجئتُ بتعطّلها إثر تسرّب المياه إليها، والمفارقة هنا أنّ عقاربها المعطّلة خلّدت توقيت الحادثة بالضبط.

ساعة الصفر (00:00)، منتصف الليل...

حسمتُ أمري، ثم عقدت ساعدي أمام صدري قائلاً بهدوء مصطنع:

- أنتِ في المستشفى الجامعي ابن سينا بالسويسي، تعرَّضتِ لحادثة سير خطيرة، كادت تُودي بحياتك بعد غرق سيارتك في نهر أبي رقراق، لكن يبدو أنّ القدر كان رحيماً بك، فقد تصادَفَ وقوع الحادثة مع مروري من المكان و...

قاطعتني بسرعة وقد استعادت وعيها بالكامل:

- ما هذه اللهجة الغريبة التي تتكلم بها؟ لم أسمع مثل هذه العربية من قبل! مَن أنت؟

ابتسمتُ في ثقة وأنا أقول:

- سنناقش أمرَ نطقي الغريب للعربية فيما بعد، المهم الآن هو أنتِ يا جيهان...

التقطتُ نفساً عميقاً قبل أن أضيف:

- كيف تفكّر شابة بمثل هذا الجمال الساحر في الانتحار بطريقة غريبة ومعقَّدة، محاوِلَةً إيهام الجميع بأنها حادثة عادية؟ ومَن هو عليّ الذي نَطَقْتِ باسمه قبل قليل؟

كنتُ أعلمُ أنّ أسئلتي لا معنى لها، ففيها تدخُّلٌ سافر في ما لا

يعنيني، وعدم احترامٍ لأبسط الأساسيات الطبية التي تدعو إلى توفير كلّ شروط الراحة والهدوء للمريض.

لكنّ فضولي أشدّ. . .

وكما توقَّعت، أحدَثَت أسئلتي مفعولها المطلوب، فقد انتفضت جيهان وهي تقول بصوتٍ أعتقد بأنها حاولت أن تجعله صارماً، لكنه بدا خائفاً مرتجفاً:

- كيف عَرفت؟ للمرة الثالثة أسألك، مَن أنت؟

أظهرتُ بعض الثقة واللامبالاة، إلّا أنّ شعوراً عارماً بالارتباك اعتراني، فنظراتها التي تجمَع بين الضعف الأنثوي الإنساني والفتنة الملائكية كانت أكبر من قدرتي على التحمّل، فأشحتُ بوجهي مُجيباً:

- رغم فقدانك للوعي، إلّا أنّ ارتخاء أطرافك أثار انتباهي بما يتعارَض مع العلامات الطبيعية للغَرق، ما يوحي بتعاطيك لدواءٍ معيَّن يلجأ إليه البعض لوضع حدٍّ لحياتهم، ففهمتُ أنّ اصطدام سيارتك بحاجز القنطرة كان بسببِ فقدانك للسيطرة على عجلة القيادة، ولكن لأنك فقدتِ وعيك، لا لأنّ الأرضية الزلقة تسبَّبت في ذلك.

أشاحَت بوجهها هي الأخرى، لكنها التفَتَت إليّ بحركة مفاجئة، وقالت بهدوء عجيب خالَطَهُ بعض التأثر:

- لم تكُن المشكلة أبداً في أيام الفقد الأولى، بل في اللحظات السعيدة التي تكتشف متأخراً أنّ الوحيد القادر على مشاركتك إياها قد رحل. . .

لم أفهم قصدها، لكنها واصلَت كلامها كما لو كانت تخاطب نفسها:

- أحببته منذ سنوات طفولتي الأولى، ولم أعرف غيره رمزاً للحنان والقوّة والرجولة الطاغية، كان يكبرني بستة أعوام، وعندما صارحني ذات ليلة صيفية مقمرة بأنه يحبني، أو بالأحرى يبادلني المشاعر نفسها التي تفضحها كلّ حركاتي وسكَناتي، كادَ يغمى عليّ من شدّة الفرح، وكلماته الهادئة الحنونة تنفُذُ إلى أعماق قلبي، فقد قال «حاولتُ المكابرة يا حبيبتي، لكنني هُزِمتُ واستسلمت في النهاية أمام سطوة عينيك، الحبّ كما الحرب يا فاتنتي، لا منتصرَ فيه، فالكلّ مهزوم، لكنها، ويا للغرابة، أجمل هزيمة نريدها، وقد نمضي سنوات عمرنا باحثين عنها!».

قلتُ بصوت هامس:

- لا أعتقد بأنه المستسلم الوحيد أمام سطوة هاتين العينين الفاتنتين...

قالت في حدّة:

- هيه... ماذا قلت؟

أجبتُها بسرعة فائقة:

- لا... لا شيء... أكملي!

صمتَت للحظات طويلة، أظنّ أنها كانت تستعيد فيها ذكريات بعيدة، إذ أردَفَت بعد ذلك بنبرة حالمة:

- كانت له طريقة غريبة في التعبير عن مشاعره نحوي، ربما فرضَتْها طبيعة تكوينه العسكري الصارم، فهو ضابط طيار في القوات المسلحة المَلَكيّة، كان يمزج في كلامه بين الحب والحرب، بين الحياة والموت، بين الواقع والخيال، بأسلوبٍ متفرِّد لا مثيل له...

قاطعتها:

- ماذا تقصدين بكلمة «كان»؟

ألجَمَها سؤالي، وعادَت معالم ذلك الحزن الدفين لترتَسِم على محيّاها الجميل، لكنها أكمَلَت كلامها:

- كنا شبه مخطوبين، فقد بارَكَ الجميع علاقتنا وكنا ننتظر تخرّجي من الجامعة، وعودته هو من الصحراء ل. . .

هتفتُ مستغرباً:

- الصحراء؟ لم أفهم!

أرخَتْ أهدابها وهي تحدجني بنظرة معاتِبَة، لا أدري إنْ كانت تعبِّر عن الامتعاض لمقاطعاتي المتكرِّرة، أو الاستنكار المرتبط بتساؤلي السخيف عن الصحراء، لكنها تجاوزت كل ذلك بالقول:

- كان يستعدّ يومها للالتحاق برفاقه المرابطين في الأقاليم الجنوبية للمملكة، ورغم خوفي الشديد عليه، إلّا أنني حاولتُ تلطيف الأجواء عندما قلتُ له بدلال: «علي، أنت لن تفارقني ما حييت؟ عِدْني بذلك أرجوك!» أتدري بماذا أجابني؟ «الحب كالحرب يا جيهان، لا ينتهيان إلّا بالموت، في الحب بين ذراعي الحبيب، وفي الحرب أمام العدو، وأنا لن أموت إلّا بين ذراعيك يا حبيبتي، أعدك بذلك. . .».

سالَتْ دمعةٌ صامتة على خدها، فخيِّل إليّ أنني أحتضنها بين ذراعي مواسياً، وراودتني رغبة قوية في مدّ أصابع يدي اليسرى لمَسْح دمعتها، لكنها سبقتني إلى ذلك، قبل أن تقول بصوت مخنوق:

- لكنه لم يفِ بوعده، خَرَجَ ولَمْ يَعُدْ، ليصلنا بعد أسابيع قليلة خبر استشهاده، بعدما أسقط المسلحون طائرته الحربية، أياماً معدودة قبل الإعلان عن وقف إطلاق النار بين المغرب والجبهة الانفصالية.

هتفتُ في ارتياع:

- **مات!**

بدا واضحاً أنها لا تُعير أيّ اهتمام لما أقول، أو أنها شبه مخدَّرة، فقد واصلت كلامها قائلة:

- **تخيَّل معي أن تودِّع روحاً ينبض قلبك بحبها، منتظراً عودتها بفارغ الصبر ليكتمل الوصال الأبدي، فتُصدَم بعودة الأشلاء الممزّقة وما تبقّى من المتعلقات الخاصة بالراحل، قطع من لباسه العسكري واسمه ورقمه التسلسلي، نعم، علي، حبّي الأبدي والأوحد، تحوَّل إلى رقم تسلسلي تافه في سجلات ضحايا حرب الصحراء...**

ثم أكمَلَت:

- **في الفَقْد الموقّت لذّة واضحة رغم الإنكار الظاهري، لا أجمَل من العيش على أمل عودة الحبيب الغائب يوماً ما، أمّا العذاب، كلّ العذاب، ففي الفراق الأبدي الذي لا وصال بعده، مَن أنا حتى أصبر على موت مَن أحبّ؟ قد أكون قوية، وهذا بشهادة الجميع، لكن الإنسان أضعف من أن يحتمل لوعة الفراق والوحدة، مهما بلغَت قوته.**

أجبتُها وقد تجمَّعت كل أجزاء الصورة أمام عيني:

- **وفي لحظة معينة، انهارت مقاومتك وقرَّرتِ الانتحار، أليس كذلك؟**

لم تُجِبْني، فقد انفتحَ الباب على مصراعيه، ليدخل الطبيب الشاب، وإلى جانبه كهلٌ في الخمسين، وسيدة في منتصف الأربعينيات.

والدا جيهان طبعاً...

- **لقد أنقذَها هذا الشاب من الغرق، وهي...**

بَتَرَ الطبيب كلامه بعدما انتبه إلى استعادة جيهان لوعيها، فاندفع نحوها للاطمئنان عليها، متبوعاً بالأبوين المُلتاعَين الحائرَين، بين تفقّد حالة ابنتهما، وشكري على صنيعي، فاكتفيتُ بابتسامة إشفاق حقيقية، غادرتُ بعدها المكان، عازماً على العودة في وقت لاحق.

فَرَكَت الممرضة البدينة عينيها، ثم تثاءَبَت كأفراس النهر، قبل أن تحدجني بنظرة نارية، لكنني لم أعِرْها أيّ اهتمام.

أنا لا أفكر سوى في جيهان...

للمرة المليون أتساءل: كيف تُقدِم شابة مثلها على الانتحار؟ أيُمكن للحب أن يدفعنا نحو الهلاك؟

ممكن...

لم يُخلَق الحب للعقلاء، وحدهم المجانين مَن يحتملون آلامه ويرتكبون الحماقات في سبيله.

أم أنّ ما جرى مجرّد ابتلاء واختبار لمدى صبرها وقدرتها على تحمّل الشدائد والمصائب، مثلي تماماً؟

لا أدري...

وغادرت المستشفى، يرافقني صوت رخيم منبعث من المذياع الصغير، لذلك المفسر العلامة الذي قال الطبيب الشاب إنّ اسمه المكي الناصري:

«قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1] **وقوله تعالى هنا (على حرف) إشارة إلى أنّ هذا النوع من الناس يكون على وشك السقوط لأول دفعة، فحرف كلّ**

---

(1) سورة الحج (الآية 11).

شيء طرفه وحده، والمراد بـ(الفتنة) هنا الابتلاء والامتحان، و. . .».

* * *

أوصلتني سيارة الأجرة إلى قصبة الأوداية، فعبرتُ الأزقة الضيقة الباردة والغارقة في اللونين الأزرق والأبيض بخطى متسارعة، وقد تثاقل جفناي وتورّمت قدماي ولم أعُد أرى بين عيني سوى الفراش الوثير.

سأشبَع نوماً، حتى لو كلَّفني ذلك الاستيقاظ بعد قرون. . .

دخلتُ إلى المنزل، ثم صعدت إلى غرفة النوم بسرعة، وأنا أنزع معطفي وألقي به بعيداً، عازماً على الارتماء في أحضان الفراش بملابسي تلك.

وما إنْ ضغطتُ على زر الإضاءة في الغرفة حتى انتفض جسدي من شدّة الخوف.

شيخٌ طاعنٌ في السنّ، يجلس بهدوء على أريكة صغيرة مقابِلَة للسرير، يرمقني بنظرات ثاقبة صامتة، وقد ارتسمَت على شفتيه ابتسامة خيِّل إليّ أنها تحمل بين طيّاتها سخرية خفيّة.

- **صباح الخير يا ولدي، أهلاً بك في المغرب!**

لحظات قصيرة كانت كافية بالنسبة لي حتى أستعيد توازني وأستوعب المفاجأة.

لم أرَه من قبل، لكن الوصف الذي قدَّمته أمي في مذكّراتها، كان كافياً لأعرف مَن هو.

حامل مفاتيح اللغز، والمُتلاعب بخيوط الحقيقة الضائعة. . .

الأب فرانسوا. . .

* * *

6- ملائكة وشياطين

الأحد 25 يوليو 1993[1]

بين مركز ليوبيتسا إيفازيتش لرعاية الأطفال وضاحية دوبرينيا - سراييفو:

عام ونصف تقريباً على بدء حصار سراييفو، ولا جديد يلُوح في الأفق...

صحيح أننا نعيش على الأمل، الذي تغذّيه بعض الإشاعات هنا وهناك، حول نهاية وشيكة للحرب، لكنها مجرّد مسكّنات نتناسى بها حقيقة الأوضاع الكارثية، عسكرياً وسياسياً وإنسانياً، في سراييفو، وفي البوسنة بأكملها.

متى خلاصك يا سراييفو؟ متى؟

---

(1) يلاحظ هنا أن الفارق بين 7 يناير 1993 و25 يوليو 1993 كبير جداً، ما يدفعني للاعتقاد بأنّ ظروف الحصار الخانق قد أجبرت الراوي على التوقّف عن الكتابة لفترة معينة، أو أنّ بعض الأوراق قد فُقِدَت، والاحتمال الثاني غير مستَبعَد، إذ أشرتُ مراراً وتكراراً إلى أنّ الراوي لم يكن منظّماً، ولم يكن يضبط التواريخ وأحياناً الأماكن التي جرت فيها الأحداث بالدقة المطلوبة!

إلى متى سيستمرّ هذا العذاب، سنة أخرى، خمس سنوات، عشر سنوات، مئة سنة؟

الواضح والأكيد أنه سينتهي يوماً ما، ليأتي بعدها مؤرّخ يلخّص مُجمل هذه الأحداث بجرّة قلم، غير عالِم بأنّ الكتابة عن الحصار أسهل بكثير من أن تعيشه، ضعيفاً ذليلاً مهزوماً، هناك في قلب الجحيم، كلّ يوم، لا، بل كلّ ساعة...

كنّا نعتقد أنّ حصار الشتاء هو الأقسى، عندما كان العثور على حطبٍ أو غاز للتدفئة أقرب إلى المستحيل، لكننا لم نتوقّع أن تكون معاناة الصيف أشدّ، كيف لا وقد أصبَحَت الحصة اليومية للفرد من المياه لا تتعدّى اللترين ونصف اللتر فقط!

نعم، إنه حصار الشتاء والصيف...

الشوارع والأزقة نفسها تتلاحق تباعاً أمام ناظري، خلف زجاج السيارة التي يقودها برانكو.

- أعتقد بأنها مبادَرَة رائعة، أن يأتي هؤلاء المتطوّعون الأوروبيون إلى سراييفو، في تحدٍّ واضح وصريح للحصار الصربي، فقط ليرسموا البسمة على وجوه الأطفال بعروضٍ مسرحيّة وورشات للرسم والقراءة، معظم الهيئات الإغاثية لا تفكّر سوى في إيصال أكياس الدقيق والأدوية للمحاصرين، لماذا لم يفكّر أحدهم في هؤلاء الصغار، وفي حاجتهم الماسة إلى الفرح؟

التقطت أذني ما قالته مديحة بالحرف، لكنني كنت مشغولاً (كالعادة) بأمرٍ آخر...

- غريبٌ فعلاً...

قلتها ساهماً، فتساءلت مديحة:

- ما الغريب في الأمر؟

لم أجِبْها، بل وجَّهت كلامي إلى برانكو قائلاً:

- **واجهات المباني المشوّهة، لا أتحدث عن آثار القصف المتكرّر، بل أقصد النوافذ المنزوعة من إطاراتها، والأبواب الخشبية المقتلعة، وبعض الخزانات المُلقاة بإهمال هنا وهناك بعدما انتزعت أبوابها أيضاً، ما الذي يحصل؟**

أجابني بسرعة:

- **ربما يستخدمون أخشابها كحطب للتدفئة...**

قلت معترضاً:

- **ولكنه فصل الصيف يا برانكو، عن أيّ تدفئة تتحدث؟**

انتظرتُ ردّه، لكنه غيَّر دفة الحديث بالقول:

- **فليرحم الرب العم حارث وزوجته، كلّما قدت سيارتهما إلّا واستعاد ذهني مشهد موتهما.**

وأضاف ممتعضاً:

- **لا جديد يلوح في الأفق، بل إنّ الأوضاع تزدادُ سوءاً، القصف يشتدّ، والقذائف تنهال علينا بالآلاف، الصرب على وشك اختراق آخر خطوطنا الدفاعية في جبل إيجمان الاستراتيجي، وموقف فريقنا المفاوِض في جنيف صعبٌ للغاية رغم إصراره على مبدأ وحدة أراضي البوسنة، الطرف الآخر يحاول إجبارنا على قبول خطّة فانس أوين لحلّ الأزمة، وهي تسوية ظالمة بحقنا، نحن بحاجة إلى معجزة تقلب الأوضاع لصالحنا!**

أطلقتُ زفرة حارّة قبل أن أقول:

- **لا أحب التشاؤم، لكن عندما يردّد الجميع أنهم مصمّمون على الحفاظ على وحدة البلاد، فاعلَم أنها أقرب إلى التقسيم من أيّ وقت مضى.**

تدخّلت مديحة في النقاش قائلة:

- ولم يكن ينقصنا سوى هذا المدعو فِكْرَت عبديتش ليعلن انشقاقه واستقلاله بفيليكا كلادوسا وبيهاتش[1].

أجابها:

- كالعادة، لا يدفع ثمن جريمة كالخيانة إلّا أولئك الذين لم يقترفوها...

قلت:

- المضحك المُبكي هنا أنه أعلن نفسه مفاوضاً عن الشعب البوسني في مؤتمر جنيف، أخشى يوماً تصبح فيه الخيانة مجرّد وجهة نظر!

ترافقَت عبارتي الأخيرة مع توقّف السيارة بعد وصولنا إلى مركز ليوبيتسا إيفازيتش لرعاية الأطفال المتخلّى عنهم، الملجأ الذي تعيش فيه نور منذ أشهر طويلة، تنتظر عودة شبه مستحيلة لوالدها.

---

(1) فكرت عبديتش رجل أعمال ومعارض سياسي بوسني بارز، استقرّ في سراييفو بعد اندلاع الحرب، أملاً في تسلّم مقاليد الحُكم بعد اعتقال الصرب للرئيس علي عزت بيجوفيتش، لكنه عاد إلى بيهاتش لقيادة سكانها المحليين، معلِناً عن قيام ما أسماها مقاطعة غرب البوسنة المستقلة، وكان يتمتّع بدعم صربي كرواتي واضح، أنشأ معسكرات اعتقال للمواطنين الموالين للحكومة البوسنية والرئيس بيجوفيتش، ارتكبت فيها جرائم قتل واغتصاب لا تقلّ فظاعة عن الجرائم الصربية، وعندما أرسل الجيش البوسني قوات فيلقه الخامس لإنهاء تمرّد عبديتش واجَهَها هذا الأخير بميليشيا سلَّحتها القوات الصربية ودعمتها بعناصر من وحدة العقارب الشهيرة، وتمكّن الجيش البوسني أخيراً من القضاء على هذا التمرد في أغسطس 1995، ليهرب عبديتش إلى كرواتيا، حُكِمَ عليه فيما بعد بالسجن 20 عاماً قضى منها 10 سنوات، ليطلق سراحه عام 2012.

- كم الساعة الآن؟

همَستْ بها مديحة في أذني، فألقيتُ نظرة غريزية لا شعورية على ساعتي اليدوية، لتقول في جذل طفولي:

- ها قد وقعتَ في الفخ يا عزيزي، أشهر طويلة وساعتك متوقفة في الثانية عشرة، منتصف النهار أو منتصف الليل لا أدري بالضبط، ألم تنتبه لذلك أبداً؟

واضح جداً أنها تتعمّد إثارة أعصابي، باحثة في يأسٍ عن خيط يقودها إلى إخماد لهيب فضولها بشأن حقيقتي، لكنني أجبتها بلهجة ذات مغزى:

- لقد تعمّدت إبقاءها معطلة، العقارب المتوقفة في ذلك التوقيت ترتبط في مخيلتي بذكريات خاصة جداً.

قالت بلا مبالاة مصطَنَعة لم تكن لتُخفي غيظها:

- ذكريات خاصة جداً؟ هكذا إذاً!

* * *

بالونات ملونة، أقنعة شخصيات رسوم متحركة، مهرّجون ظرفاء تحلّق حولهم الأطفال الصغار، وكلهم يغنّون بالبوسنية والإنجليزية.

ضربة معلم فعلاً، فوسط كلّ هذا الحزن والدمار، وانشغال الجميع بتأمين الضروريات من مأكلٍ ومشرب ودواء، لم يفكّر أحد في هؤلاء الصغار، في حاجتهم إلى الفرحة، إلى البهجة، إلى الضحك، إلى النسيان...

مزيجٌ من المتخلّى عنهم، واليتامى، والجرحى، وحتى الأصحاء ممّن دمَّرت الحرب نفسياتهم، تولّت هيئة إيطالية تجميعهم بالتنسيق مع السلطات البوسنية، ثم أتَت بهم إلى المركز حاملة معها رسالة الفرح والسرور.

كلّ هذا بدعم من مؤسسات إقليمية ودولية، لعلّ أشهرها مؤسسة سفارة الأطفال، التي أسَّستها مجموعة من الفنانين والمثقّفين والأطباء بهدف حماية الأطفال في دول يوغوسلافيا التي مزَّقتها الحروب.

كم كانت سعادتي كبيرة، وأنا أرى البسمة على شفاه نور، وهي مندمجة في الأنشطة الترفيهية مع أقرانها، تضحك، تغني، وترقص.

أعترف بأنّ شكّي السابق لم يكُن في محلّه.

نعم، أنا لا أتفق مع أفكار العقيد رايلي وتوجّهاته، لكنني أدين له بالفضل الكبير في الاعتناء بنور وحمايتها من جحيم اليتم والضياع.

لقد تكرَّرت زياراتي إلى الملجأ كلّما سمحت بذلك الظروف، ولم أشعُر يوماً بأنّ خطراً معيّناً يحدق بنور، بل بالعكس، كانت على خير ما يرام، وتحسَّنت حالتها النفسية والصحية بشكل ملحوظ.

انتزعني برانكو من أفكاري، عندما مالَ على أذني هامساً:

- يبدو أنّ هذه الجمعية أو المؤسسة، أياً كان اسمها، تحصل على تبرعات وتمويلات ضخمة جداً، يُباع الوقود في سراييفو بأثمنة خيالية، فيما تستأجر هي حافلات مكيّفة تقوم بتجميع الأطفال ونقلهم إلى هنا، إلى ما يفترض أنها أكثر أحياء سراييفو أماناً، هذا جميل، قد تكون فرحة محاصرة، لكنها فرحة على كلّ حال.

أومأت برأسي علامة على الموافقة، وهممتُ بالإجابة، عندما فوجئتُ بنور قادمة نحوي، لتجرّني أنا ومديحة نحو الحلقة التي شكَّلها الملائكة الصغار، لنغني ونرقص معها، خاصة بعدما انبعثت من مكبّرات الصوت المُلحَقَة بآلة التسجيل أغنية قالت مديحة وهي تضغط على كفّي بأنها مقطوعة تراثية رومانسية أعاد فنان بوسني يُدعى

هاليد بيسليتش توزيعها بشكلٍ جديد، وهي تحظى بشعبية كبيرة هنا في البوسنة.

مقطوعة جميلة اللحن، تفاعَلَ معها الأطفال، وتولّت مديحة مهمّة ترجمة كلماتها، ولو أنّ نبرتها لم تكن محايدة تماماً، إذ شعرتُ بأنها تستهدفني عن عَمد.

هلّا علمت أن قلبي سيغدو كالمجنون Moje bi srce poludjelo znaj
وعيناي ستبصران النور a moje oci dozivjele sjaj
آه لو تكرّمت، آه لو تكرمت eh kad bi ti, eh kad bi ti
وأقررت بحبك لي rekla mi volim te
هلا أدركتَ أنّ أغنيتي ستفوز Moje bi pjesme pobjedile znaj
وإلى الفردوس، ستمضي روحي السعيدة a srecna dusa otisla u raj
آه لو تكرّمت، آه لو تكرمت eh kad bi ti, eh kad bi ti
وأقررتَ بحبك لي rekla mi volim te
هلا علمت أنّ شفتاي ستقبِّلك يوماً Moje bi usne ljubile te znaj
وأن سعادتنا لن تنتهي أبداً i nasoj sreci ne bi dos'o kraj
آه لو تكرمت، آه لو تكرمت eh kad bi ti, eh kad bi ti
وأقررت بحبك لي[1] rekla mi volim te

حاولتُ المكابرة، لكن كلمات الأغنية العاطفية أوقعتني في المحظور، فتركتُ يد مديحة الممسكة بي، وأصابع نور المتشبّثة

---

(1) يتعلق الأمر بأغنية Eh kad bi ti أو «آه لو تكرمت» للفنان البوسني هاليد بيسليتش، وهي أغنية مشهورة في البوسنة، دوَّن الراوي ترجمة كلماتها إلى اللغة العربية في مذكراته، وعندما قرأتها وجدتني مدفوعاً بحنين الماضي إلى ترديد لحنها الجميل بلا وعي مني، فقمتُ بإضافة كلماتها باللغة البوسنية الأصلية هنا.

بيدي، قبل أن أغادر القاعة مُسرِعاً وعاجزاً عن تمالك أعصابي، وإن حاولتُ إخفاء حقيقة ما يمُوج في أعماقي من مشاعر.

إنها الذكريات نفسها التي تحاصرني كل مرة، بالقوة نفسها، والإصرار نفسه. . .

الذكريات التي لا تعترف بزمان أو مكان، تخترق الحدود والقارات والأزمنة لتتبعني أينما ذهبت، وكلّما خيّل إليّ أنني تمكّنت من نسيانها، أدركتُ متأخراً مدى سخافة اعتقادي.

يستحيل أن ننسى مَن احتلّت ذكراهم قلوبنا، فنحن لا نتذكر إلّا مَن ننساهم.

نظرات خاوية، تلك التي وجّهتها نحو سقف الممرّ، غارقاً في تأمّلاتي، سابحاً في بحور الماضي، موشِكاً على الغرق، لينتشلني منها صوت غريب قال بالإنجليزية:

- **ولّاعة من فضلك!**

التفتُّ لأجدَ أمامي أحد المهرجين التابعين لفريق المتطوعين الأوروبيين، بملابسه المزركشة وشعره المستعار، والأنف الأحمر الضخم المضحك، فيما تدلت سيجارة طويلة من فمه.

أجبته ساهماً:

- **لا أدخن، آسف!**

منحني ابتسامة مجاملة، ثم انصرف بهدوء وانعطف يميناً نحو الممر الذي يضمّ مكاتب الموظفين العاملين في المركز.

تابعت خطواته الغريبة المضحكة، هو الذي اندمج تماماً في دوره كمهرّج، ولم تلمع ومضة في ذهني إلّا بعدما اختفى عن ناظري.

أنا أملك ولاعة أستعملها أحياناً مع موقد الغاز أو بعض

الاستخدامات الضرورية الأخرى، وأحملها معي دوماً، ولا أدري كيف نسيتها عندما طلبها مني المهرج الظريف!

- يا أستاذ!

هكذا هتفت، لكنني لم أتلقَّ أي إجابة منه بعد اختفائه عن الأنظار، فأسرعتُ الخطى نحو الممرّ الجانبي، وما إن وصلتُ حتى انتبهت إلى باب مكتب مدير المركز، والذي أغلق لتوّه.

قابلتُ هذا المدير عدّة مرات، في إطار سؤالي عن أحوال نور وباقي نزلاء المركز، ولمستُ فيه طيبة وبساطة قلَّ نظيرها.

هممتُ بطَرْقِ باب مكتبه، عندما تناهى إلى مسامعي همس لم أقاوم تلك الرغبة القوية في تبيّن فحواه.

كان حواراً بين المدير والمهرج:

- الحافلات جاهزة والطرق سالكة، لقد نسَّقنا مع القوات الصربية وعناصر الأمم المتحدة، ستغادر القافلة الأولى سراييفو ابتداء من الأسبوع المقبل.

ردَّ المدير على هذا الكلام بالقول:

- كيف سترحّلونهم إلى أوروبا؟

أجابه المهرج بصوت مرتفع:

- قلت لك بأننا نسَّقنا مع الجميع، ستعبُر القافلة الحدود البوسنية الكرواتية، وقد نغادر بحراً، من ميناء سبليت الكرواتي إلى إيطاليا، ومن هناك إلى باقي الدول الأوروبية وربما الولايات المتحدة والمكسيك أيضاً.

قال المدير بنبرة خائفة:

- اخفِضْ صوتك أرجوك، ستفضحنا!

ثم أضاف:

- عمولتي مضمونة، ولا يهمّني مصير الأطفال، لكن الفضول يقتلني، لماذا كلّ هذا؟

صمَتَ المهرج لبعض الوقت، قبل أن يُجيبه بلهجة تحمل في طياتها الكثير من الفظاظة والاحتقار:

- ليس هذا من شأنك، ما دمتَ تتسلم عمولاتك بانتظام فلا تتدخّل في ما لا يعنيك، لكنني سأخبرك، هؤلاء الأطفال كنزٌ حقيقي لنا، وإلّا ما كنّا لنأتي إلى هذا الجحيم، قد نجني عشرات وربما مئات الآلاف من الدولارات نظير بيع طفل جميلٍ واحد لعائلة أوروبية أو أميركية محرومة من نعمة الإنجاب، كنائس إيطاليا تنتظرهم أيضاً، فخدمة المسيح أفضل بكثير من البقاء هنا.

قال المدير:

- لا مشكلة مع اليتامى، فلا أحد يسأل عنهم، لكنني أجد صعوبة في إقناع الآباء الذين أتوا بأطفالهم إلى هنا، أحاول استمالتهم بالقول إن سفرهم إلى أوروبا مؤقّت ريثما تضع الحرب أوزارها.

أجابه الآخر باستخفاف:

- تدبَّر أمرك، المهم بالنسبة لنا أن تكون القافلة جاهزة ابتداء من الأسبوع المقبل.

سمعتُ خطواته القادمة نحو الباب، فهممتُ بالابتعاد، لكنه توقف، غالباً لأنه تذكّر شيئاً ما، فقد قال بسرعة:

- آه، تذكرت، يلحّ العقيد رايلي على ضرورة إيلاء عناية خاصة بنور كوستوفيتش، يقول إن هذه الطفلة بالذات كنز لا يقدّر بثمن.

ثم أطلق ضحكة قصيرة مَقيتة أتبَعَها بالقول:

- رايلي الخبيث، معه حق، جمال هذه الصغيرة أكبر من أن

تحتضنه عائلة أوروبية عادية أو كنيسة إيطالية منسية، إنها تستحق ما هو أفضل من ذلك بكثير!

وتحوّلت قهقهته القصيرة إلى ضحكة مجلجلة لم أكن بحاجة إلى مواجهة مباشرة حتى أدرك أنها كانت ضحكة شيطان.

شيطان في صورة مهرج!

ارتجفَت شفتي السفلى من شدّة الغضب، ولولا خشيتي من عواقب الأمور لاقتحمتُ خلوتهما وقتلتهما بيدي العاريتين.

انسحبتُ بهدوء، ثم عدتُ إلى قاعة الاحتفال، التي لم يتغيَّر فيها شيء، فقد واصلَ الأطفال رقصهم ولعبهم البريء.

جذبتُ إليّ مديحة وبرانكو دون أن أثير انتباه الحضور، ثم خاطبتهما هامساً:

- مديحة، تظاهري بأنك سترافقين نور لقضاء حاجتها، ثم غادري معها المبنى من الباب الخلفي، بهدوء وسرية تامة، وأنت يا برانكو، قُدْ السيارة إلى الشارع القريب وسألحق بك أنا ومديحة ونور، إنها فرصتنا الوحيدة للهرب، سأشرح لكما كلّ شيء فيما بعد، نحن أمام جريمة شيطانية متكاملة الأركان!

اتَّسعت عينا مديحة في دهشة وهي تقول:

- لم أفهم شيئاً ممّا تقول، هل هي دعابة جديدة أم ماذا؟

أجبتها محنقاً:

- ليس هذا وقت المناقشة، نفِّذا ما أطلبه منكما، وسأشرح لكما كل شيء في حينه!

* * *

وصدحت الحناجر، عبر ثمانين مئذنة، مُعلِنَة عن أذان صلاة المغرب، بحسب توقيت أميرة البلقان.

سراييفو...

كنّا قد ابتعدنا عن مركز ليوبيتسا إيفازيتش بمسافة كافية، ليتوقف برانكو بالسيارة.

ضرب بيده على المقود، قائلاً بغضبٍ هادر:

- الأوغاد! الحقراء! يتاجرون بالأطفال الصغار الذين لا حول لهم ولا قوة! يستأجرون الحافلات ويتدبّرون أمر وقودها رغم غلاء ثمنه، لِعلمِهم أنهم سيعوضون تلك الأموال أضعافاً مضاعفة، ويصوّرون أنفسهم أمام العالم على أنهم رعاة الطفولة والسلام، هؤلاء ليسوا بشراً، الشيطان نفسه يقف حائراً أمام حقارة هذه الأفعال![1]

أجبته بغضبٍ مُماثل:

---

(1) أعتبر ما ورد في هذا الفصل شهادة حقيقية لا يمكن تجاهلها بأيّ شكل من الأشكال، شهادة تكشف عن مؤامرة قَذِرَة تورّطت فيها عدة أطراف، فقد فجَّرَت صحيفة **غلوبوس** الكرواتية في عددها الصادر يوم 22 يوليو 1994 فضيحة من العيار الثقيل، عندما تحدّثت عن وقوع عملية واسعة لبيع أطفال البوسنة في أوروبا، تقف وراءها جمعيات وهيئات إغاثية أوروبية، وقالت بأنّ الأطفال رحلوا إلى ألمانيا وإيطاليا وروسيا والولايات المتحدة الأميركية والمكسيك، ولم تنتبه جرائد ووسائل إعلام أخرى للأمر إلّا بعد انتهاء الحرب أواخر عام 1995، عندما تحدّثت جريدة **آرينا** البوسنية عن اختفاء عدد من الأطفال البوسنيين الذين تمّ ترحيلهم خارج البلاد للعلاج ولم يعودوا بعد ذلك، مشيرة إلى أنّ كنائس إيطالية قامت باحتضانهم، أمّا فيما يخصّ حديث المهرّج الحقير عن استحقاق نور لما هو أفضل من البيع التقليدي لعائلات أوروبية، فالمقصود هنا ما ذكرته صحيفة **غلوبوس** أيضاً في عددها الصادر يوم 6 سبتمبر 1996، عندما قالت إنّ بعض هؤلاء الأطفال تمّ استغلالهم في أفلام إباحية بعد وقوعهم في يد عصابات تعمل في الدعارة!

- كم أتمنى قتل رايلي، كان ينتوي المتاجرة بنور، وأنا الذي حسبتُ تدخّله وتوسّطه لإلحاقها بالمركز من باب الإنسانية والشفقة على حالها.

سمعَت نور اسمها فضحكَت ببراءة وهي ترمقني بعينيها الخضراوين، فداعبتُ خصلات شعرها الذهبي وأنا أبادلها الضحكة بابتسامة باهتة لم تكن قادرة على تبديد مخاوفي.

قالت مديحة بانفعال:

- لن يفيدنا الغضب بشيء، فالمهم الآن هو ماذا سنفعل؟ ازدادت الأمور تعقيداً، نور بلا مأوى مرة أخرى، سيشعر المجرمون بغيابها وقد يسعَون إلى اللحاق بنا وربما قتلنا!

لم أجِبْها مباشرة، مفضِّلاً الانتظار لبضع لحظات قلتُ بعدها بهدوء عجيب لا يُناسب دقّة الموقف:

- انتظَرْنا بما فيه الكفاية، لكن بلا جدوى، لقد حسمتُ أمري، سآخذ نور معي إلى موستار، لنبحث عن والدها المفقود هناك.

ردَّت مديحة على كلامي بضحكة عصبية قالت بعدها:

- موستار؟ والحصار الذي يُطبق على سراييفو ويحصي أنفاس مَن فيها؟ مَدافع الصرب ودبّاباتهم تحيط بنا من كلّ جانب، هل نسيت هذا؟ أين الجديد في كلامك؟

ثم أضافت بتهكّم:

- لنفترض أنك سوبرمان، وتمكَّنت من عبور كلّ الحواجز العسكرية الصربية، كيف ستصل إلى موستار وأنت لا تعرف عن الطرق والتضاريس البوسنية شيئاً؟ وبعد وصولك، كيف ستبحث عن والد نور هناك؟ هل ستطرق الأبواب أَم تُنادي عَبر مكبرات الصوت أم ماذا؟ أنت تهذي يا عزيزي! أليس كذلك يا برانكو؟

فاجأها الأخير بسكوته، واستغراقه العميق في التفكير، قبل أن يقطع حبال الصمت بالقول:

- سألتني عن سرّ اقتلاع إطارات النوافذ والأبواب الخشبية من واجهات المنازل والبنايات، تريد معرفة السبب الحقيقي؟ هيا بنا!

وانطلق بالسيارة دون أن ينتظر منا جواباً، مخلِّفاً وراءه الكثير من الدهشة والذهول...

ما علاقة الأبواب الخشبية المقتلعة بموضوعنا؟

***

حلَّ الظلام، ووصلَت السيارة العتيقة إلى المكان المقصود أخيراً.

- اتبَعوني...

قالها برانكو بعدما أوقف محرِّك السيارة وأطفأ أنوارها، فنفّذنا أوامره باستغراب كبير وأنا أتساءل في أعماقي عن حقيقة ما يدور في رأسه من أفكار.

سِرْنا بين المنازل المتناثرة هنا وهناك، والبعيدة تماماً عن أجواء قلب المدينة، وما إن لاحَت لي بعض الأضواء القريبة حتى قلت:

- مدرج المطار؟ أعتقد بأنني رأيتُ هذا المكان من قبل!

رسم برانكو على وجهه ملامح الجدية وهو يقول:

- إنها ضاحية دوبرينيا، في الجنوب الغربي من سراييفو.

أجبته بسرعة:

- نعم، نعم، لقد تذكّرت! لقد مرَرتُ بهذا المكان فور وصولي إلى سراييفو قبل سنة من الآن!

سألته مديحة وهي تداعب شعر نور:

- لماذا أتيتَ بنا إلى هنا يا برانكو؟

التقطَ نَفَساً عميقاً، ثم أجابها وهو يشير بأصبعه إلى بناية مظلمة معزولة:

- هنا يقبع الأمل الذي يعمل عليه الرجال بهمّة ونشاط وسرِّية تامة، منذ أزيد من ستة أشهر...

شدَّ قامته في اعتدادٍ ليضيف بنبرة حازمة:

- نفق الحياة، الذي سنكسر به حصار سراييفو...

***

7- سر الاعتراف

الخميس 19 ديسمبر 1991
بين قصبة الوداية التاريخية وكاتدرائية القديس بيير - الرباط:

جلس على مقعدٍ من تلك المقاعد الخشبية التي تزيّن مقهى الأوداية، غير بعيد عن المنزل، محتفظاً بالوقار نفسه الذي وصَفَته بريجيت في مذكّراتها، وانشغَلَ بمراقبة التقاء مياه المحيط الزرقاء بمياه نهر أبي رقراق، وقد بدَت من موقعنا الجميل ذاك أروع بكثير من صورتها الليلية المخيفة، التي كدتُ أفقد حياتي غَرَقاً فيها.

قلتُ بغضبٍ شديد وقد شعرتُ في قرارة نفسي بأنه يتعمّد إغاظتي بسكوته ولامبالاته:

- لقد قبلتُ مرافقتك إلى هنا مرغماً، لم أسألك عن علمك بمَقْدمي أو كيفية تسلُّلكَ إلى المنزل، فقد كشَفَت مذكرات بريجيت عن مدى خبثك ودهائك، وحافظتُ على هدوئي رغم أنني أتمنى قتلك، أنت الذي تسبَّبت جرائمك المجهولة في تدمير حياتي، لكنني سأسألك مرة أخرى وأخيرة، ماذا فعلتَ بأبي وأمي؟ وكيف نقلتني سراً، من المغرب إلى فرنسا؟

توقَّعت أن تساهم نبرتي الحادة في إجباره على الكلام، لكنه أجابني ببرود:

- يقدِّمون هنا شاياً ممتازاً، سأطلب كأسين، قد يُساهم الشاي في تجديد نشاطك، فمن الواضح أنك قضيت ليلة متعبة جداً!

لم ينتظر ردّة فعلي، بل أشارَ بيده إلى النادل، الذي تقدَّم نحونا بخطوات واسعة، مرتدياً ملابس مزركشة وقبّعة حمراء أعرف أنّ المغاربة يطلقون عليها اسم الطربوش، وحذاء أصفر غريب الشكل، سمعتُ من بعض أصدقائي في مارسيليا أنّ اسمه «البلغة».

قال النادل الشاب بفرنسية سليمة، منتبهاً إلى سحنة الأب الأوروبية المميزة:

- مرحباً بكما في مقهى الأوداية، ما الذي يمكنني أن أقدِّمه لكما؟

أجابه مبتسماً:

- شايكم المنعنع طبعاً، أو «الزيزوا» كما تسمّونه!

حافظ النادل على أدبه الجمّ وهو يقول:

- حالاً، مرحباً بكما مرة أخرى.

انتظرتُ ابتعاده لأخاطب الأب قائلاً بصرامة:

- هيا، كلّي آذان صاغية!

تطلَّع إليّ بعينين متفحِّصتين، قبل أن يقول بلهجة ساخرة:

- لقد ورثتَ هذه الشراسة عن والدتك، الراحلة بريجيت نوسي، أنت تشبهها إلى حدٍّ كبير...

صرختُ في ثورة:

- ليسَت والدتي، إنها مجرد شريكة في جريمة متكاملة الأركان خطَّط لها عقل شيطاني شرير...

ثم أضِفتُ بصوتٍ هامسٍ متوسِّل بعدما انتبهت إلى أنّ صراخي قد زاد عن حدّه:

- ارحَمْني، منذ قراءتي لتلك المذكرات وعذاب البحث عن الحقيقة يكادُ يقتلني!

ما إن أحضَرَ النادل ما طلبه الأب، حتى سلَّمني هذا الأخير كأساً وأشار إليّ بإيماءة سريعة من رأسه حتى أتبَعه.

نهَضَ بخفّة لا تتناسب وسنوات عمره، ثم توجَّه بخطى واسعة نحو الحديقة المحاذية للمقهى، فلحقتُ به.

حديقة فيحاء على الطراز الأندلسي الساحر الذي قرأتُ عنه مراراً، ميَّزتها الأسوار العالية التي دلَّت على عمرها الطويل، فيما منحتها المزروعات المتنوعة والبرك المائية جاذبية لا تقاوَم، فلم أستغرب انشغال بعض السياح الأجانب المنتشرين في جنبات الحديقة بتخليد هذه المشاهِد بكاميراتهم وتعليقاتهم المنبهرة.

- يطلق المغاربة على هذه الحديقة اسم «الرياض»، يقولون بأنها تُحيي في أنفسهم مشاعر الشوق والحنين إلى الماضي المجيد، هناك في إسبانيا، أو الأندلس كما يحبّون مناداتها، أيام أمجاد غرناطة وطليطلة وقصر الحمراء بحسب قولهم.

قالها باللهجة الساخرة نفسها، ثم توقّف فجأة، واستدار نحوي، ليحدجني بنظرة عميقة طويلة، قال بعدها:

- انتشرت كلمة الرب بين أمازيغ شمال أفريقيا منذ العصور الرومانية القديمة، ووصل عدد المجاميع الكنسية في المنطقة إلى ثلاثين مجمعاً مع متمّ القرن الثالث الميلادي، لكن المدّ المسيحي بين الأمازيغ بدأ في التراجع مع وصول طلائع جيوش المسلمين إلى المنطقة أواخر القرن السابع الميلادي، فاختفت المسيحية بشكل تدريجي مع دخول الدين الجديد.

جذبني من يدي، لنجلس فوق كرسي خشبي طويل تظلّله نخلة باسقة، ثم أكمل:

- لم تنبعث آمالنا في إعادة إحياء كلمة الرب ونشر المسيحية هنا إلّا مع بداية القرن التاسع عشر، وذلك بالتزامُن مع تدفق عدَدْ كبير من المهاجرين الأوروبيين إلى المنطقة بعد سيطرتنا المبكرة على الجزائر، فبنينا الكنائس والمدارس والمؤسسات المسيحية، وأطلقنا حملات تبشيرية واسعة ومنظمة في عددٍ من المدن المغربية كفاس ومكناس وصفرو ومراكش، مع تركيزٍ مباشر على جبال الأطلس، وقد يتبادر إلى ذهنك هنا سؤال وجيه، لماذا الأطلس بالذات؟

أجبته محنقاً:

- ومَن قال لك إنّ الإجابة عن هذا السؤال قد تهمّني أو تشغل تفكيري، وما علاقة هذا الكلام بموضوعنا أصلاً؟

واصَلَ سردَه كما لو أنّ تعليقاتي لا تعنيه:

- بنينا خطّتنا على المعطيات التاريخية التي أشرتُ إليها، والتي تقول إن الأمازيغ في المتناول، لأنهم كانوا مسيحيين في الزمن الأول، وإسلامهم ليس عميقاً متجذّراً، تديّنهم سطحي يسهُل اقتلاعه بكلّ سهولة، كما إنّ مقاومتهم العنيفة للوجود الفرنسي أشعَرَتْنا بضرورة تمسيحهم كسبيلٍ وحيد لاستيعابهم والسيطرة عليهم، فاستخدمنا كلّ الوسائل المُمكنة للتغلغل أكثر في أوساط المغاربة بكلّ قومياتهم، وقام أسقف المغرب آنذاك بتأسيس مركز للدراسات والأبحاث يهدف إلى فهم الطبيعة المجتمعية للمغاربة، بخاصة الأمازيغ منهم، فانطلقت حملاتنا بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن الحالي، جعلنا من مدينة ميدلت في جبال الأطلس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق لقوافل التنصير، معتقدين أننا سنحقّق

نتائج مشجّعة كما هو الحال بالنسبة إلى منطقة القبايل الجزائرية.

سألته باستخفاف:

- والنتيجة؟

أطلق تنهيدة متحسّرة طويلة، ثم قال:

- لا شيء، لم تتجاوز النتيجة الصفر، فقد بنينا خططنا على معطيات خاطئة، وفشلنا فشلاً ذريعاً في استقطابهم نظراً إلى تشبّثهم القوي بالإسلام، وانتصار الجذور على محاولات التهجين، إلّا إذا استثنينا بعض الحالات الفردية كالأب جون محمد بن عبد الجليل[1]، وهي حالات معزولة لا تعكس حجم الجهد الكبير المبذول.

شعرتُ بأنّ ما يرويه أعمق بكثير ممّا ظننت في البداية، وأنه على علاقة وثيقة بحكايتي.

تذوّقت الشاي بصمت، محاولاً مجاراة الأب وتصنّع الهدوء، لعلّ ذلك يساهم في تخلّيه عن التلاعب المقيت بأعصابي، قبل أن أقول بلهجة باردة لكنها واثقة:

- وفكّرت أنت في إحياء المشروع التبشيري من جديد، حتى لو تعلّق الأمر بمحاولة فردية واحدة، فقمت باستغلال قصة حبّ بريجيت الفاشلة وتحويل مجرى الأحداث لصالحك، أليس كذلك؟

---

(1) جون محمد بن عبد الجليل (1904-1979) راهب كاثوليكي مغربي، ساهمَ التحاقه المبكر بالديار الفرنسية وتأثير المراسلات بينه وبين المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون في تحوّله إلى المسيحية، وكما كان متوقعاً قامت ضجّة كبيرة بالمغرب إثر تنصّره، إذ تبرّأ منه أبوه وكلّ أفراد أسرته وبلده، ليبقى في فرنسا أستاذاً بالمعهد الكاثوليكي حتى تركه عام 1964 بعد إصابته بسرطان اللسان، مات سنة 1979 ودُفن في فرنسا.

رفَع حاجبيه وخفضهما، وحافَظ على صمته لبعض الوقت، ثم افترّ ثغره عن ابتسامة عجزتُ عن تحديد مغزاها:

- كما توقّعت، لم تجانب الراحلة الصواب عندما تحدّثت عن ذكائك وسرعة بديهتك...

قاطَعَتْه نوبة طويلة من السعال، أكمل بعدها:

- كنتُ أعتبر بريجيت مثل ابنتي التي حرمني الالتزام الكنسي من إنجابها، وقد نشأت في حضني منذ نعومة أظافرها، هناك في الجزائر، وكانت علاقتها بي أقوى بكثير من علاقتها بوالديها، ربَّيتها على التعاليم المسيحية التي التزَمَت بها وحوّلتها إلى مؤمنة حقيقية...

قاطعتُه متهكماً:

- متأكّد من أنك لقّنتها التعاليم المسيحية الصحيحة؟ فقد كشَفَت مذكّراتها وربما طريقتها الخاطئة في التربية عن عنصرية وكراهية واضحة للآخرين!

تظاهَرَ بأنّه لم يسمع تعقيبي، مواصِلاً كلامه:

- ربما كنت صارماً في تربيتي، فلقّنتها كلّ شيء باستثناء مفهوم واحد أساءت هي استيعابه، فارتكبَت الخطأ الفادح الذي أجبَرَها على دفع الثمن الباهظ.

تلاحقت أنفاسه، فأدركتُ بخبرتي أنّ حيويته مصطنعة، وأنه يعاني من ضيق واضح في التنفس، لكنني تجاوزتُ الأمر منتبهاً لما سيقوله.

- الحب...

خيِّل إليّ أنني لم أسمع ما قاله جيداً، فتجاهلتُ استغراب السياح من منظرنا وأنا أهتف باستنكار حقيقي:

- الحب؟

شَرَدَ ببصره بعيداً وهو يضيف:

- يخلط الشباب دوماً بين ثلاثة مفاهيم متداخلة هي الإعجاب والشهوة والحب، ويحسبونها واحداً، لا علاقة لطهارة الحب بوحل الخطيئة الذي لوّث نقاء بريجيت وتديّنها الصافي.

سكت طويلاً، وانشغلَ بمداعبة الكأس التي أفرَغَ نصف شايها في جوفه، فحسبتُ أنه توقّف عند هذا الحدّ، ثم فهمتُ متأخراً حاجته إلى التقاط أنفاسه وربما تجميع أفكاره، ليُكمل بعد ذلك:

- قابَلَت بريجيت أحمد في ظروف صعبة لا يمكن أن نَغفل تأثيرها، شابة جميلة طُرِدت لتوّها من بلدها، وأتت إلى فرنسا خائفة من المستقبل المجهول، لكنها تناست تعاليم الكتاب المقدّس ووصايا القديسين، ما وردَ مثلاً في الإصحاح الخامس من رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: «نَفْتَخِرُ أيضاً فِي الضِّيقَاتِ، عَالِمِينَ أَنَّ الضِّيقَ يُنْشِئُ صَبْراً، وَالصَّبْرُ تَزْكِيَةً، وَالتَّزْكِيَةُ رَجَاءً، وَالرَّجَاءُ لاَ يُخْزِي، لأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا»...

اتّفقت مع الأب فرانسوا أو اختلفت معه، أعترفُ بدهائه وقدرته الهائلة على توظيف النصوص الدينية لصالحه، وبمهارة منقطعة النظير.

هذا ما تبادَرَ إلى ذهني في تلك اللحظة، لكنني فضّلت مواصلة الاستماع وترك التحليل والتمحيص لوقت لاحق.

- التقت بريجيت صدفة بشاب أنقَذَها بعد فقدانها للوعي في الميناء، ربما أُعجِبَت بشهامته، أو أحسَّت بشعور غريب لم تألفه من

قبل وهي بين ذراعيه، لكنني مُصرّ ومتأكّد من أنها لم تقع في حبه، فأنا لا أصدّق خزعبلات الحب من أول نظرة وكل هذا الهراء، استغلّها الوغد وتلاعب بها باسم تلك المشاعر المزيَّفة، وتخلى عنها بعدما وصلَ إلى غايته بالاستقرار في فرنسا وتحسين وضعه المادي الذي تركَ من أجله وطنه، ولأن «طريق الخطاة مفروش بالبلاط، وفي منتهاه حفرة الجحيم»[1]، فقد سارت بريجيت في هذا الطريق مُغمَضَة العينين، غير عالمةٍ بأنها تدمّر مستقبلها بيدها، و. . .

قطع حديثه فجأة وقال:

- أفضِّل أن نُكمِلَ حديثنا في مكان آخر، ستذهب معي إلى الكنيسة، مفهوم؟

لم أكُن في موقع يسمح لي بالاعتراض، فرفعتُ كتفي كعلامة على الموافقة. . .

* * *

قادتنا سيارة الأجرة إلى العنوان الذي أملاهُ الأب على السائق، وعندما نزلنا وجدتني في ساحة واسعة تُحيط بها بعض الإدارات العمومية، غير بَعيد عن قلب العاصمة النابض، لكنني لم أمنع عيني من التطلّع إلى عظمة البناء الشامخ والمنتصِب أمامي.

- إنها ساحة الجولان، وهذه كاتدرائية القديس بيير، التي شاءَت الصدف أن تحمِل اسم الحي نفسه الذي نشأت فيه هناك في مارسيليا، وهي المعلمة المسيحية الكاثوليكية الوحيدة في العاصمة المغربية، إذا استثنينا كنيسة القديس فرانسوا، غير بعيد عن هنا، والتي تحمل اسمي نفسه، لكنها لا تفتح أبوابها للعموم، دشّنت

(1) سفر يشوع بن سيراخ (الإصحاح الواحد والعشرون).

الكاتدرائية سنة 1921 من طرف المارشال هوبير ليوتي، أول وأشهر مُقيم عام بالمغرب.

هكذا قال الأب وهو يدلف إلى داخل الكاتدرائية، فتبعتُه.

صحيح أنّ هذه الكاتدرائية تجسِّد الهندسة المعمارية الأوروبية في أروع تجلياتها، ولكن. . .

الأيقونات، السقف المزخرف، المَذْبَح، العلوّ الشاهق، لم تنجح أيّ منها في استثارة انتباهي وإعجابي.

عندما ينشغل القلب، تعجَز العين عن النظر، وإن كانت مفتوحة. . .

- بعد علمي بحقيقة ما وقع لبريجيت، وقراءتي لما ورد في مذكّراتها بتمعُّن، شعرتُ بأنها فرصة ذهبية لضرب عصفورين بحجر واحد، ردّ اعتبار ابنتي الساذجة، والانتقام ممَّن جرح كبرياءها من جهة، وإحياء حلمي القديم بانتزاع طفلٍ مسلمٍ من ذويه وتربيته على التعاليم المسيحية من جهة أخرى. . .

قاطعتُه بنبرة خالَطت سخريتها مَرارة كبيرة:

- خطَّطتَ لأن تجعل مني نسخة جديدة من هذا المدعو جون محمد بن عبد الجليل، أنت شيطان!

أجابني بهدوء مستفزّ:

- ربما نعم، وربما لا، أذكِّرك فقط بأنّ المسلمين قد سبقونا إلى ذلك، ابحَث عن أصول الانكشارية في كتب التاريخ وستفهم قصدي[1].

---

(1) لم يجانِب الراوي الصواب عندما وصفَ الأب فرانسوا بالشيطان، فقد حاول هذا الأخير تبرير جرائمه بالقول إنه كرَّر ما فعله المسلمون قبله، والمقصود هنا فرقة الإنكشارية الشهيرة، الأفضل تدريباً والأكثر نفوذاً في =

ثم قالَ بنبرة أكثرَ جدّية:

- على أية حال، ليس هذا موضوعنا الآن، المهم أنني خطَّطت للأمر بعناية، وقرَّرت التخلص من أحمد بهدوء، نسَّقت بين فرنسا والمغرب، واستطلعتُ الأخبار في عين اللوح، فانتظرتُ ولادتك وعَودة أحمد إلى المغرب لأدبِّر له بمساعدة بعض المخلصين حادثة سير قتلته على الفور، قبل أن يكحِّل عينيه بك، فنجح بذلك الجزء الأول من الخطّة.

اتّسعت عيناي في ارتياع حقيقي، وارتعَشَ صوتي وأنا أقول:

- كيف. . . كيف ذلك؟

حافَظَتْ ملامحه على جمودها وهو يجيبني:

- عندما علم أحمد بولادتك، مَنَعه الشوق من انتظار حجز مكان له في سفينة قادمة من مارسيليا إلى ميناء طنجة، وهي العملية التي كانت تستغرق وقتاً طويلاً آنذاك، فعَرَض عليه صديقه المغربي نقله عبر سيارته من فرنسا إلى المغرب، مروراً بإسبانيا التي كانت حركة الملاحة البحرية بينها وبين المغرب أسهل وأسرع بعض الشيء، وكل هذا تحت مراقبة أعواني المخلصين الذين تتبّعوا مسار الرحلة ولم يسمحوا للصديقين بتجاوز حدود إسبانيا.

= الجيش العثماني، والتي اختلف المؤرخون حول حقيقة أصولها، فبينما يقول المستشرقون الغربيون إنّ الإنكشاريين هم أطفال نصارى انتُزعوا من أسرهم بالقوة في المناطق المسيحية الخاضعة لسلطة الإمبراطورية العثمانية، وأجبِروا على اعتناق الإسلام والخضوع لتدريبات عسكرية عنيفة منذ الصغر، يصرّ مؤرخون مسلمون على أنهم أبناء عائلات اعتنقت الإسلام طواعية ودفعت أبناءها للانضمام إلى الجيش العثماني، وسواء كان المستشرقون على حق أمْ مخطئين في تفسيرهم هذا، فإنّ ربط فرانسوا بينه وبين جريمة اختطاف الراوي يدلّ على خبثٍ ودهاء قلّ نظيره.

سَعَلَ طويلاً ثم أكمل:

- شهدت هذه الفترة بداية الاضطرابات في منطقة الباسك الحدودية بعد إنشاء حركة إيتا الانفصالية[1]، التي وَسعت دائرة نشاطها لتشمل مناطق إسبانية أخرى، ربما لم تكن بالحدة الحالية نفسها، لكن شمال إسبانيا لم يكن مستقرّاً تماماً، بين جرائم الخطف والقتل والابتزاز وغيرها...

قاطعته بصوت أجشّ:

- فهمت، الحيلة القديمة نفسها التي ما زالت سارية المفعول إلى يومنا هذا، استغلال فوضى الاضطرابات السياسية لارتكاب جرائم انتقامية، اعترَضَ أعوانك سبيل والدي وصديقه، قتلوهما وسرقوا أو أحرقوا السيارة ولاذوا بالفرار، وألصقوا الجريمة بعناصر الحركة الانفصالية.

أظهَرَ السعال مدى ضعفه وتهالكه، لكنه رسم على شفتيه ابتسامة شاحبة:

- بالضبط، كانت ضربة ذكية ونظيفة لم تُثِرْ انتباه أحد، وانتقاماً ردّ الاعتبار لبريجيت التي دمَّر ذلك الوغد حياتها.

صمتٌ طويلٌ خيَّم على المكان، قطعته أنا بسؤالي:

- ووالدتي؟

جَلَسَ على مقعد خشبي طويل، بعدما أعياه الوقوف، ثم قال:

---

(1) إيتا منظمة باسكية متطرّفة، أنشئت سنة 1959 ونهجت خيار العنف والعمليات المسلحة لانتزاع استقلال إقليم الباسك عن إسبانيا وتأسيس دولة اشتراكية مستقلة، وخاضت صراعاً طويلاً مع السلطات الإسبانية، امتدّ لعدة عقود، قبل أن تعلن عن إلقاء السلاح وإنهاء أنشطتها العسكرية سنة 2011.

- أكملت الجزء الأول من الخطة، ثم بدأتُ في التخطيط للجزء الثاني، الأصعب والأكثر تعقيداً، والمتعلّق بانتزاعك من حضن أمك، فانتظرتُ مرور بضعة أشهر، ريثما تكبُر أنت قليلاً، وريثما يجفّ دمع والدتك وأسرتك وأهل القرية، الذين انفطَرَ قلبهم حزناً على والدك، ولأنني طيِّب القلب ولا يمكن أن أقتل إلّا لغاية أو هدفٍ معيّن، فقد فكَّرت في طريقة أصلُ بها إلى غايتي بلا دماء، فوالدتكَ بريئة ولا علاقة لها بانتقامي من أحمد. . .

قاطعتُه متهكّماً:

- طيب القلب فعلاً! أشكرك. . .

تجاهلَ تعليقي مواصلاً سرده:

- استخدمتُ حيلة بسيطة، ما زالت سارية المفعول إلى يومنا هذا كما قلتَ أنت، اقتربتُ من أهل القرية متنكّراً ومُخْفِياً هويتي الحقيقية، فهمتُ طبيعتهم وطريقتهم في التفكير والتعامل مع الأمور، ثم أطلقت بينهم بعض الإشاعات دون أن ألفت نظرهم إليّ، إشاعات مفادُها أنّ عائشة والدتك، التي لم يتجاوز عمرها آنذاك سبع عشرة سنة، ليست شريفة كما يظنون، وأنها استغلّت غياب زوجها ثم وفاته لارتكاب أفعال مشينة تمسّ بكرامة أسرتها وقريتها.

أطلَقَ ضحكة مخيفة لا تتناسب مع ضعفه الواضح، قالَ بعدها:

- لكَ أن تتخيَّل البقيّة، ثارت ثائرة أهل القرية، المُحافظين بطبعهم، لم يستمعوا إلى توسّلات عائشة ومحاولاتها المستميتة لإثبات براءتها، أولاً لأنها صغيرة السن، وثانياً لأنها امرأة لا يُؤخذ بكلامها، فطَرَدوها من القرية وهي تحملك بين ذراعيها، مشكِّكين أيضاً في نَسَبِكَ أنت.

انتفضتُ كالمصعوق وأنا أقول:

- أنت شيطان!

أجابني ساخراً:

- ابحث عن كلمة أخرى غيرها يا عزيزي، المهم أنها هامت على وجهها لأيام وأنتَ معها، رضيع لم يتجاوز عمره بضعة أشهر، فكان من السهل عليَّ التدخل بمساعدة أعواني لأخذكَ منها، فجُنَّت المسكينة!

قلتُ ساهماً:

- أعوانك منتشرون في كلّ مكان.

التقَط عبارتي ليردّ عليها بحَزم:

- هذا لأننا أقوى بكثير ممّا تظن. . .

ثم أضاف:

- لكنني أشفقتُ عليها، فقرَّرت إبعادها عن القرية، ونقلها إلى إقليم قلعة السراغنة جنوباً، وبالضبط إلى بلدة بويا عمر وضريحها المتخصّص في استقبال المجانين والمرضى النفسيين، لتضمن المأكل والمشرب والرعاية بعد تخلّي الجميع عنها، لكنها لم تتحمّل قسوة العيش هناك، وتوفيت بعد وصولها بأسابيع قليلة، أمّا نقلك إلى فرنسا فكان سهلاً للغاية، لا تنسَ أنّ الإجراءات الجمركية والرقابية كانت ضعيفة للغاية آنذاك.

انهارَت مقاوَمتي، ولم أعُد قادراً على تحمّل المزيد، فتجاوزتُ المسافة الفاصلة بيني وبينه بقفزة واسعة، وامتدّت أصابع يدي اليسرى لتُطبق على عنقه النحيل بحركة واحدة، وضغطتُ بكلّ قوة حتى دارت عيناه في محجريهما، وجدران الكاتدرائية تردّد صدى كلماتي الساخطة والمقهورة:

- سأقتلك، سأمزّقك إرباً أيها السفاح!

غرسَ أظافر أصابعه الطويلة في معصمي، كمحاولة أخيرة للدفاع عن نفسه، فأطلقتُ صرخة متألمة، ما مكّنه من التخلّص من قبضتي.

اصطبَغَ وجهه بحُمرة مخيفة وهو يسعل بقوة، ويجاهد لالتقاط أنفاسه، قبل أن يقول بصعوبة:

- أيها المجنون، كدتَ تقتلني، وأين؟ داخل الكنيسة!

ثم عدَّل من هندامه وهو يضيف:

- لم أحسبكَ بهذا التهور، أنا لم أقرِّر مصارحتك بهذه التفاصيل إلّا لإشباع فضولك، ولأنني واثقٌ من تعقّلك وقدرتك على السيطرة على أعصابك، قلْ لي، ماذا ستجني من قتلي هنا؟ ستدمّر مستقبلك وتقضي ما تبقى من عمرك في السجن، أنت الجراح المرموق الذي تشهد مارسيليا بكفاءته، يمكنك تبليغ الشرطة، وسأكتب لك اعترافاً مفصَّلاً بما وقَع إنْ أرَدت، ورغم ذلك ستستغرق المساطر الإدارية والقانونية وقتاً طويلاً، وأنا متأكِّد من أنّ موتي سيكون أسرع، وحتى لو سُجِنت فغالباً سأقضي هنا بضعة أسابيع قبل أن يتمّ ترحيلي إلى فرنسا، صدّقني، لن يفيدك الماضي بشيء، فحتى بحثك عن جذورك لا معنى له، اذهب إلى مسقط رأسك في عين اللوح، القرية التي بقيت كما هي منذ زيارتي الأولى إليها قبل ثلاثين عاماً، وأؤكد لك بأنك ستهرب منها وتعود بسرعة فائقة إلى فرنسا، وربما ستَشكرني على صنيعي، فأنتَ لن تحتمل العيش هنا أبداً، تجاوَز كلّ ما حدث واعتبره بداية جديدة تتخلّص فيها من رواسب الماضي وتنطلق بكلّ حماس نحو المستقبل المشرق، واعتبر هذا

اعترافاً أخيراً من كاهن اعتادَ على منح سرّ التوبة للمؤمنين في الكنيسة[1]، غير عالمٍ بأنه سيخضع له أيضاً يوماً ما.

اغرورقَت عيناي بالدموع، وشعرتُ بأنني أضعف منه بكثير، رغم بنيته النحيلة ومرضه، فقلت مستسلماً:

- لماذا كلّ هذا؟ لماذا؟

أجابني ببساطة:

- لأصنع منك كاثوليكياً مغربياً عصرياً، روحه مغربية لكن تربيته فرنسية، حلمتُ بشابٍّ متشبِّع بتعاليم الكتاب المقدّس، وقادرٍ على القيام بالمَهام المَنوطة به لاختراق جدار التمنّع المغربي، لكنني فشلتُ فيما فشل فيه الآخرون، فكنتَ أنتَ تكريساً لما رويته لك في البداية، وانتصَرَت جذورك على مخطَّطاتي، وقد بدأَت ملامحُ ذلك تتّضح منذ تعميدك في الكنيسة عندما...

قلت بسرعة:

- أعلم ذلك، لقد ذكرت بريجيت تفاصيل ما وقع في الصفحات الأخيرة من كراسة مذكراتها.

رسم على وجهه علامات الخيبة وهو يردف:

- كرَّرت الراحلة ما فعلته أنا معها، عندما حاولت الاعتماد على الصرامة والترهيب في تربيتك، وتنشئتك على التعاليم المسيحية بالإجبار والقوة، ومثلما كانت أول تجربة لها من دوني كفيلة بأن تغيِّر مسار حياتها إلى الأبد، أدَّت شدّتها وقسوتها إلى نمو روح التمرّد

---

(1) سرّ التوبة أو سرّ الاعتراف هو الإقرار بالذنب وطلب الصفح من الله بحسب التعاليم المسيحية، وذلك بسماع إرشاد روحي ونفسي من كاهن في الكنيسة، ثم التكفير عن الذنب بأعمال برّ، وذلك بشكل دوري أقلّه مرة في السنة، وسرّ التوبة يصنّف ضمن الأسرار السبعة المقدّسة في الكنيسة الكاثوليكية.

والعصيان في أعماقك، فرفضتَ الالتزام بأوامرها وكان نفورك من الكتاب المقدّس والطقوس الكنسية واضحاً، وكنتَ مُصراً بغرابة على تعلّم اللغة العربية والاختلاط بأبناء المهاجرين كما لو كنتَ تتحداها وتتعمَّد إغاظتها، لقد تناست بريجيت وأنا قبلها بأنّ أمواج رغباتنا تتكسَّر دوماً على صخرة القدر، وأنّ حياة بلا أخطاء هي حياة خاوية، ميتة...

تمنّيت في أعماقي لو أفتح عيني لأجدني مستلقياً في فراشي الوثير هناك في مارسيليا، مطمئناً إلى أنه مجرّد كابوس لا علاقة له بالواقع، لكن هيهات...

- طيب، ماذا سأفعل الآن؟

ضحك مرة أخرى قبل أن يجيبني:

- ماذا ستفعل؟ اذهَب إلى مسقط رأسك لتتعرَّف على القرية كسائح، أو احجز تذكرة في أول طائرة عائدة إلى مارسيليا، هذا شأنك، أما أنا فقد انتهَت مهمّتي هنا، وقد انتظرتُ مَقدَمك فقط لأقابلك للمرة الأخيرة قبل مغادرتي البلاد.

قلت:

- ستعود إلى فرنسا لتقضي ما تبقّى لك من أيام في كنيسة أو دير منعزل، بعدما لطَّخت يديك بدماء الأبرياء، أليس كذلك؟

أجابني وهو يهزّ رأسه كعلامة على النفي:

- لا، أمثالنا لا يرتاحون أبداً، ويخدمون الرسالة المقدّسة حتى الممات، سأغادر إلى فرنسا غداً، لكن لأيام معدودة فقط، أعود بعدها إلى الجزائر هذه المرة، التي حقّقت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ مفاجأة بتصدّرها للانتخابات البرلمانية أمام جبهة التحرير الوطني، وهناك توجُّه عام يقضي بإلغاء النتائج بالقوة، ما ينذر بتفجّر

الأوضاع والذهاب بالبلاد نحو المجهول، وهذا يتطلَّب مني الوقوف على بعض الأمور مباشرة من قلب الحدث، وتحويلها إلى ما قد يخدم مصالحنا و. . .

قلت محنقاً:

- لا شأنَ لي بهذا الكلام، لستُ مهتماً بالسياسة وأسرارها، يكفيني الزلزال الذي تسبَّبت فيه اعترافاتك يا فرانسوا.

ثم دُرتُ على عقبي وهممتُ بالرحيل، لكنه استوقفني بهتافه:

- مهلاً، ألن تودِّعني أو تعانقني على الأقل؟ هذه أول مرّة نلتقي فيها بشكل مباشر، ويبدو أنها ستكون الأخيرة!

لم أخطئ نبرة التهكّم في كلامه، فحانَت مني التفاتة سريعة إليه، لأقول:

- لولا احترامي لهذا المكان المقدَّس لبصقتُ على وجهك يا فرانسوا. . .

لكنه أضاف:

- ربما فشلتُ في مهمّة تنصيرك، لكن هذا لا يعني أنني لم أنجح في مهام أخرى محدّدة!

التقَى حاجباي في تساؤل حقيقي، وأنا أحاول تفسير مغزى كلامه، لكنني تجاوزتُ آثار الدهشة بسرعة وأنا ألقي على مسامعه بورقتي الأخيرة:

- ورد في الإصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس «الْمَحَبَّةُ تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ. الْمَحَبَّةُ لاَ تَحْسِدُ. الْمَحَبَّةُ لاَ تَتَفَاخَرُ، وَلاَ تَنْتَفِخُ، وَلاَ تُقَبِّحُ، وَلاَ تَطْلُبُ مَا لِنَفْسِهَا، وَلاَ تَحْتَدُّ، وَلاَ تَظُنُّ السُّوء، وَلاَ تَفْرَحُ بِالاثْم بَلْ تَفْرَحُ بِالْحَقِّ، وَتَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ، وَتُصَدِّقُ كُلَّ شَيْءٍ، وَتَرْجُو كُلَّ شَيْءٍ، وَتَصْبِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَسْقُطُ أَبَداً» إن كان الشباب يخلطون بين الحب والشهوة والإعجاب، فإنّ المتطرفين لا يعرفون معنى الحب أصلاً، يحفظون النصوص، لكنهم لا يفهمون روحها، يستذكرونها في كل وقت وحين، لكنها لا تنفُذُ إلى قلوبهم ولا تتجاوز حناجرهم، أنا لم أنفر من الكتاب المقدّس كما تظنّ، بالعكس، قرأته وتدبّرت معانيه السامية، لكنني لم أجدها حاضرة في حياة بريجيت وتصرّفاتها وعلاقتها بالآخرين، ثم قابلتكَ الآن فازدادَ يَقيني من أنك مجرّد سفاح يطوِّع النصوص خدمة لأهدافه، أمّا روح رسالة المسيح الداعية إلى قيم التسامح والحب والسلام فأنت أبعد ما تكون عنها، مع السلامة.

كان وقعُ كلماتي قاسياً عليه، فقد اختلَّ توازنه ومَنَعَه من السقوط أن أمسَكَ بطرَف المقعد الخشبي، لكنني لم أعره أيّ اهتمام، وغادرتُ المكان بخطى ثابتة.

* * *

خرجتُ من الكاتدرائية غير عالم إلى أين ستقودني قدماي. . .

أشرتُ بيدي إلى سيارة أجرة، وقفت إلى جانبي، فركبتُ إلى جانب السائق بحركة آلية.

- **إلى أين؟**

قالها بأدب، فأجبته بلا وعي مني:

- **لا أدري. . .**

ردّ بتعجّب:

- **نعم!**

أغمضتُ عيني للحظات، ثم فتحتهما فجأة وتحرَّك لساني بالقول:

- **مستشفى ابن سينا. . .**

وصلتُ فلم أكلِّف نفسي عناء تفقّد غرفة الإنعاش، لعلمي بأنّ تحسّن حالة جيهان سيحتم عليها مغادرتها، فبحثت عن الطبيب الشاب، الذي قابلني صدفة في الممرّ الجانبي، فقال بسرعة:

- أين ذهبتَ يا رجل؟ انتظرتك لأداء صلاة الصبح جماعة ولم تأتِ، واختفيتَ بعدما حاول والدا جيهان شكرك على صنيعك، غريب أمرك فعلاً!

أجبتُه بسرعة:

- ها قد عدتُ للاطمئنان عليها، دُلَّني على رقم الغرفة من فضلك، فأنا. . .

قاطعني ضاحكاً:

- عن أيّ غرفة تتحدّث؟ إنها عنيدة جداً، فقد أصرَّت على المغادرة والعودة إلى المنزل، قالت بأنها تشعر بتحسّن كبير، فلم أجد بُدّاً من الموافقة، هذا شأنها!

فاجأني كلامه، وشعرتُ بأنني أضعتُ وقتي بلا طائل، فعدتُ أدراجي بسرعة، لكنني توقّفت وسألته غير آبهٍ باستغرابه:

- أين يمكنني أن أجد محلاً لبيع الورود؟

ابتسمَ بخبث، كما لو كان يوحي إليّ بفهمه لقصدي، ثم قال:

- إسأل عن «بلاس بيتري»، القريبة من ساحة الجولان وكاتدرائية القديس بيير، يوجد هناك أفضل بائعي الورود في العاصمة.

ضربتُ جبهتي بيدي، متحسّراً على تَركي لهذه المحلات بالقرب مني والقدوم إلى هنا، فودّعته بسرعة ثم غادرتُ المستشفى ركضاً. . .

* * *

عدَّلتُ من هندامي المبعثر، وحاولتُ تجاوز آثار التعب وقلّة النوم، وأنا أطرق باب المنزل الهادئ والمنعزل، غير بعيدٍ عن محيط صومعة حسان.

لحظات قليلة، فتحت بعدها والدة جيهان الباب...

انعقد حاجباها في تساؤل، وهي تراني حاملاً باقة الورد، قبل أن يفتر ثغرها عن ابتسامة كبيرة وهي تقول:

- أنت الشاب الذي أنقذ ابنتي! تفضّل، أهلاً وسهلاً بك!

دعتني إلى الجلوس، ثم نادَت زوجها الذي أتى مُسرِعاً، وما إنْ رآني حتى عانقني بحرارة وهو يقول:

- لن أنسى معروفك هذا أبداً، أنت بطل! ولكن كيف عرفت عنوان المنزل؟

قلت ببساطة:

- هذا واجبي، وجدتُ العنوان في بطاقة جيهان الشخصية بعدما أحضرتها إلى المستشفى...

ثم أضفت:

- أين هي جيهان؟ هل هي بخير؟

قال مبتسماً:

- إنها نائمة، لقد أصرَّت على مغادرة المستشفى، قائلة بأنها تشعُر بتحسّن، لكنها متعبة، لا يمكننا أن نغفل آثار صدمة الحادثة عليها...

تدخّلت الأم مؤيِّدة كلامه:

- عين وأصابت ابنتي، إنها تتحمّل من المعاناة ما يفوق سنوات عمرها!

قلتُ في حَرَجٍ وأنا أعدّ نفسي للمغادرة:

- حسناً، سأعود في وقت لاحق و...

لكنه أوقَفَني بحركة من يده:

- مستحيل! ستشاركنا وجبة الغداء، وتقضي معنا اليوم بأكمله، أنت ضيفنا!

ثم أضافَ بجدّية:

- وقد تكون هذه فرصة لنتعرّف عليك أكثر...

دارت كؤوس الشاي، وانشغَلَت الأم بإعداد وجبة الغداء في المطبخ، فوجدَها الأب فرصة سانحة للحديث:

- اسمي جمال الحسني، أعمل محامياً، وزوجتي فريدة أستاذة جامعية في كلية الآداب، رزقنا الله بابنتين هما سكينة التي تتابع دراستها في باريس، وجيهان.

قلتُ مجاملاً:

- حفظهما الله ورعاهما!

أكمَلَ كلامَه بصوت هادئ:

- لقد تعرَّضت جيهان لصدمة قاسية إثر الوفاة المفاجئة لخطيبها علي في معارك الصحراء، فقد أسقَطَ الانفصاليون طائرته الحربية قبل بضعة أشهر و...

قاطعته بأدب:

- نعم، لقد روَت لي جيهان تفاصيل ما حصل.

قال متأثراً:

- لقد غيّرتها الفاجعة، فقدَت روحها المرحة واكتسبَ محيّاها حزناً غريباً، ودخلت في عزلة لا تتناسب وشخصيتها المنطلقة

والاجتماعية، أصبَحَت كتومة لا تشاركنا همومها، وعصبية تثور لأتفه الأسباب وتتشاجر مع الجميع، علاقتها معنا متوتّرة ونخشى أن ترتكب فعلاً متهوّراً يعرِّض حياتها لمكروه، فنحاول التعامل معها بصبرٍ وكياسة، تطلب الخروج والتجوّل لوحدها بالسيارة في شوارع الرباط فنوافق، لم تكن تنقصنا سوى حادثة سير نجَت منها بأعجوبة بفضل الله تعالى، الذي سخَّرك لإنقاذها في الوقت المناسب.

أطرقتُ صامتاً، حائراً بين واجب مصارحته بحقيقة محاولة ابنته الانتحار، وضرورة الانتظار حتى أفهم المزيد، فقلتُ بعد برهة تفكير:

- ألَم تفكِّر في عرضها على اختصاصي نفسي؟ لربما ساعَدَها ذلك على تجاوز مخلفات الصدمة، فهذه التصرّفات طبيعية ومفهومة، وجيهان لم تستوعب بعد حقيقة موت خطيبها علي...

قالَ بلهجة ذات مغزى:

- هذا لأننا في المغرب يا عزيزي، ما زالت عيادات الأطباء أو الاختصاصيين النفسيين قليلة جداً، أضِفْ إلى ذلك أنّ المجتمع لا يرحم، قد يعتبرونها مجنونة أو ما شابَه، ويضاعفون من معاناتها!

المجتمع؟ فليذهب هذا المجتمع إلى الجحيم إنْ كان سيقف في وجه استعادة شابة مصدومة لحياتها الطبيعية.

عجيب أمرك يا أستاذ جمال! واضحٌ جداً أنك إنسان مثقف وقادر على تجاوز هذه القيود السخيفة، لكنك خائف...

لماذا هذا الخوف المَرَضي من كلام الناس الذين نكتشف متأخرين أنهم لا يعيروننا أي اهتمام؟ كيف لا وهُم لا يملكون الوقت لذلك أصلاً!

دارَت هذه الأفكار في رأسي ولم تتجاوز لساني، فقلتُ بهدوء:

- أعتقد أنها بحاجة إلى تغيير الأجواء، قد يساعدها السفر على ذلك، لربما وجَدَت الهدوء والصفاء الذهني الذي تبحث عنه ولم تجده هنا...

قاطَعَني بحماس:

- أوافقك الرأي، ويبدو أنها أصبحت مقتنعة بذلك، فقد أسرَّت إليّ قبل خلودها إلى النوم بأنها مُتعَبة وتفكِّر في قضاء بضعة أيام في مسقط رأس خطيبها علي، لتزور قبره وتدعو له بالرحمة وتبتعد عن ضغط المدينة وصخبها، وأعتقد بأنني سأوافق، بعد اطمئناني على حالتها الصحية طبعاً، لي أقارب هناك وسيرحِّبون بها بكلّ تأكيد.

قلت بسرعة:

- جميل، فكرة ممتازة إنْ كان مسقط رأس الراحل بعيداً عن هنا، هو في البادية إذاً...

تهلَّلت أساريره وهو يجيبني:

- نعم، إنها قرية بعيدة، هناك في جبال الأطلس المتوسط، واسمها عين اللوح!

انتفضتُ من هول المفاجأة، وسرى في جسدي ما يشبه التيار الكهربائي، وفقدتُ القدرة على النطق، فيما واصَلَ جمال كلامه:

- بالمناسبة، قال الدكتور الذي أشرف على حالة جيهان في المستشفى بأنك طبيب، وأن إسعافاتك ساهمت بشكلٍ كبير في إنقاذ جيهان، ما قصَّتك أنت؟ وما سرّ هذه اللكنة الغريبة التي تتكلم بها العربية؟

بذلتُ كلّ ما في وسعي لأبدو طبيعياً، وأنا أجيبه بتلعثم:

- في الحقيقة أنا...

لكنني لم أكمل كلامي، فقد ظهرَت جيهان فجأة، راسمةً على محياها الجميل علامات الضيق وهي تحدجني بنظرات غاضبة، قبل أن تقول بعصبية واضحة:

- **هيه أنت! ماذا تفعل هنا؟**

* * *

Objekt BD -8

الجمعة 30 يوليو 1993

ضاحية دوبرينيا - سراييفو:

الظلام، الحرارة، ضيق التنفس، الخوف، الترقب، الشكّ، وصراع متواصل بين الموت والأمل...

يغطّي التراب وجهي ويلتصق بصدري المبلّل بالعرق، لكنني أواصل الحفر مع زملائي بكلّ ما أوتيت من إصرار وقوة.

خمسة أيام كاملة ونحن في ضاحية دوبرينيا، بعيداً عن أعين الجميع، نُساهم في العمل بهمَّة عالية، بعدما علمنا بأنّ أبطال سراييفو لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الجبروت الصربي والتواطؤ الدولي، وقرَّروا كسر الحصار معتمدين على أنفسهم، مطلقين عملية سرية حملت اسماً رمزياً معبِّراً...

«العملية ب/ د» أو «**Objekt BD**» باللغة البوسنية.

لم يكن مُرحَّباً بنا في البداية...

نعم، فقد اتّهم بعض الشباب صديقنا برانكو بالخيانة، لأنّ العملية مُدرَجَة ضمن إطار السرّية المطلقة، وأيّ معلومة مسرَّبة قد تنسف مجهود ستة أشهر من العمل المتواصل، لكن قصة نور المؤثِّرة

جلبت تعاطف الجميع، كما أثبتنا حُسن نيّتنا عندما ساهَمَت مديحة مع نساء ضاحية دوبرينيا في إعداد وجبات الطعام للجنود والمتطوّعين المكلَّفين بالحفر، فيما انخرطتُ أنا معهم في العمل الشاقّ كما لو كنت أعرفهم منذ زمن طويل.

أسعل بشدّة، وأشعر بالاختناق، وأنا على عمق بضعة أمتار تحت سطح الأرض، فأتحسَّر على انهيار لياقتي البدنية، التي كانت المحافظة عليها واجباً مقدّساً بالنسبة لي، عندما كنتُ هناك، في عاصمة الجنوب الفرنسي، أعيش حياة طبيعية هادئة لا تعكّر صفوها أيّ منغصات، قبل أن تحوّلها اعترافات بريجيت نوسي إلى ماضٍ بعيد يزداد يقيني يوماً بعد يوم بأنه لن يعود أبداً.

وهران، مارسيليا، الرباط، عين اللوح، سراييفو...

كلها إحداثيات مشتَّتة في خارطة التيه، وبين البداية الغامضة والنهاية المجهولة سؤال مبهم لا أعتقد بأنني سأعثر على إجابته قريباً...

مَن أنا؟

أحاول طردَ هذه الأفكار من مخيِّلتي وذاكرتي المنهكة، فأستعيد ما ردَّده الجنود على مسامعي أكثر من مرّة وهُم يتحدّثون عن تفاصيل قصة بناء هذا النفق...

* * *

لا فرَج إلّا بعد الشدة، ولن يولَد الأمل إلّا من رحم اليأس.

يقولون إنّ كلّ شيء بدأ بفكرة، فكرة مجنونة لم يكن أحد ليصدِّق أنها قابلة للتنفيذ على أرض الواقع...

لكن الجنون أثبَتَ دوماً بأنه الأقدر على مواجهة المستحيل.

جنرال بوسني، يُدعى راشد زورلاك، كان في مهمّة خارج

سراييفو، وعندما عاد إليها استغرق عبوره خمسة أيام بسبب شدّة القصف والقذائف المنهمرة هنا وهناك.

وهو منبطح أرضاً، قرب مدرج المطار، فكَّر في وسيلة لكسر الحصار الصربي والعبور بسلاسة من وإلى سراييفو.

لا بديل عن بناء نفق يربط المناطق الحرة ببعضها، ولكن هل هذا ممكن؟

اتفق الجميع على أنّ المهمة مستحيلة، لكن الجنرال لم يستسلم، فاتصل بمهندس شاب يقولون بأنه الأفضل في سراييفو.

نجاد برانكوفيتش...

آمَنَ نجاد بأنّ تنفيذ الفكرة ممكن، وليس مستحيلاً، رغم صعوبته، كما أنه الخيار الوحيد لتحطيم القبضة الصربية وإنقاذ شعب يوشك على الموت جوعاً.

أقصَر طريق تربط المناطق الحرة داخل العاصمة سراييفو بخارجها توجد بالقرب من مدرج المطار.

يسيطر العدو الصربي على أليجا، وأيضاً فويكوفيتش ولوكافيتسا القريبتين من الموقع، فيما تُحكِم قوات الأمم المتحدة قبضتها على مدرج المطار، وبقي ممرّ ضيق يدافع عنه البوسنيون في بوتمير.

أي أنّ النفق المزمع بناؤه تحت الأرض سيربط ضاحية دوبرينيا ببوتمير مروراً بمَدرج مطار سراييفو.

وبدأت عمليات المراقبة والاستطلاع الميداني بسرية تامة، خشية علم الصرب وقوات الأمم المتحدة بالأمر، قبل أن يتم التوقيع على الأمر بتنفيذ المشروع يوم 22 ديسمبر 1992.

أُجرِيَت في البداية الحسابات الدقيقة المتعلّقة بطبيعة التربة

وطول النفق والمواد اللازمة للبناء، وباقي التفاصيل التي تدخل ضمن تخصّص الهندسة المدنية، وإن عانى نجاد ومَن معه من عدّة مشاكل، فقد استولى الصرب في بداية الحرب على الخرائط الدقيقة للمنطقة، كما أنّ النقص كبير جداً في مواد البناء اللازمة للعمل، أضِفْ إلى ذلك أنّ التحدي الأكبر كان صعباً وسهلاً في الآن نفسه!

كيف نبني نفقاً يسمح طوله باختراق التحصينات الصربية، لكن ليس بالقدر الذي يجعل العدو قادراً على اكتشافه؟

تجاوز نجاد هذه المعضلة، وقام بتحديد نقطتين سيبدأ العمل منهما في الآن نفسه، على أن يتمّ الالتقاء في نقطة محدّدة وفي تاريخ معيّن استناداً للحسابات النظرية الدقيقة.

مخزن بناية في دوبرينيا، ومنزل عائلة كومار في بوتمير.

انتهى دور العقول، وبدأت مهمة السواعد...

تمّ تقديم المخطّط إلى قيادة الفيلق الأول في الجيش البوسني الفتي، فقام قائد الفيلق مصطفى خيرولاهوفيتش بإصدار أوامره للفرقتين الرابعة والخامسة لإمداد المهندسين بكلّ ما يحتاجونه إلى بناء النفق، وكذلك الرئيس علي عزّت بيغوفيتش، الذي علم بالأمر فأوصى بتوفير كلّ الإمكانات الضرورية لإنجاح المشروع، رغم موقفه الحرج وانشغاله الدائم بضغط المفاوضات والموقف السياسي البوسني المعقّد والصعب.

شكّلت مجموعتان للعمل، الأولى تبدأ من دوبرينيا ويرأسها نجاد المهندس الشاب، والثانية من بوتمير ويرأسها فضل شيرو، وتمّ إمدادهما بوحدة عسكرية من 160 جندياً، أطلق عليها اسم وحدة السلطان الفاتح، فيما تولّى متطوّعون مسنّون تابعون لقوات الدفاع المدني مهمة حفر خندق يؤدي إلى النفق.

وأعطي الضوء الأخضر لإنطلاق عملية ب/ د أو Objekt BD التي ترمز للحروف الأولى من كلمتي دوبرينيا وبوتمير.

كانت البداية صعبة جداً، فقد تمّ حفر الـ 15 متراً الأولى في درجات حرارة منخفضة جداً، وشَعَر الجنود بالاختناق كلما زادَ الحفر، بفعل نقص الأوكسجين، فتمّ تقسيمهم إلى فِرَق تعمل كلّ واحدة منها خمس دقائق فقط تستبدل بعدها بأخرى وهكذا.

ورغم كلّ الاحتياطات المتعلِّقة بسرية العمل، تسرّب الخبر إلى قوات الأمم المتحدة...

علمت بأنّ «شيئاً ما» يحدث، وأن أبناء سراييفو لا يثقون بها، فعملت جاهدة على كشف المشروع وإجهاضه، لكنها لم تفلح في ذلك.

صحيح أنّ عدداً كبيراً من العمال يحفرون يومياً، لكن شخصين فقط كانا يعرفان الاتجاه الحقيقي للنفق، فعجزت القوات الدولية عن فعل شيء.

أمّا الردّ الصربي فكان واضحاً...

قصف عشوائي رهيب، استهدف ضاحية دوبرينيا بكاملها، في محاولةٍ لإجبار سكّانها على الاستسلام والكشف عن أيّ خيط يقود إلى إجهاض مشروع النفق، لكن بلا جدوى.

وهذا ما يفسّر الارتفاع المَهول في أعداد الضحايا الذين عالجناهم في المستشفى، وعلمنا في تلك الفترة أنهم قادمون جميعاً من دوبرينيا.

أصاب القصف العشوائي موقع النفق أيضاً، عن غير قصد طبعاً، وقتل متطوّع، هو الشهيد مجيد عاريفوفيتش، وجُرح آخرون،

لكن وتيرة العمل لم تتوقف، بل ازدادت سرعة، بعدما تحوّل الجنود والمتطوعون إلى آلات حفر تعمَل بلا كللٍ أو ملل.

كان من المفروض أن ينتهي العمل وتلتقي النقطتان ليلة 26 يوليو 1993، أي في الليلة نفسها التي أحضرنا فيها برانكو إلى الموقع، لكن هامش الخطأ بين الحسابات النظرية والتطبيقية، وبعض العراقيل الأخرى، أجّلت الافتتاح إلى أجَلٍ غير مسمّى، وها نحن نواصل العمل بإصرار، وسط ظروف سياسية وعسكرية أقلّ ما يُقال عنها أنها كارثية.

الظروف القاسية التي أجبرتنا جميعاً على انتظار بصيصٍ من النور، هناك في نهاية النفق...

* * *

شعرتُ بأنّ قدماي تعجزان عن حملي، وأن قلة الأوكسجين ستُصيبني في مقتل، فعُدت أدراجي، لأرتاح قليلاً قبل استئناف العمل مع باقي الرجال.

مَلأت رئتي بهواء دوبرينيا المنعش، ثم تجاوزتُ تعبي وأسرعتُ الخطى نحو الموقع القريب الذي حوّله المهندسون المدنيون والضباط إلى ما يشبه مركز القيادة العسكرية ومكتب الدراسات الميدانية.

سحابة دخان كثيفة، سببها تدخين معظم مَن في المكتب بشراهة، فقلت ساخراً وأنا أسعل:

- ألم يُخبركم أحد بأنّ التدخين ضارّ بالصحة؟ لم أرَ شعباً واقعاً في غرام السيجارة مثل الشعب البوسني!

أجابني برانكو ضاحكاً:

- وهل تعلَم أنّ أجرة كلّ جندي ومتطوّع هنا هي علبة سجائر

كاملة يومياً؟ السجائر التي أصبح ثمنها بسعر الذهب في السوق السوداء!

قاطعته:

- جميل، قد تكون هذه فرصتكم للإقلاع عنه!

حافظ على ابتسامته وهو يقول:

- دعكَ من موضوع السجائر وانظر إلى نفسك في المرآة، أيُعقل أنّ الدكتور الوسيم الحريص على نظافته وتناسق هندامه قد تحوّل إلى كتلة من العرق والقذارة تتمشى على قدمين؟ أنت لم تعُد أنت يا عزيزي...

التفتُّ بالفعل إلى مرآة قريبة، فأدركت مدى صحة كلامه، مع اختلاف بسيط...

أنا لم أعُد أنا منذ زمن طويل، وليس اليوم فقط!

قطع كلامنا صوت المهندس نجاد، وهو يتكلّم عبر الهاتف بصوت مرتفع، وبدا من نبرته الغاضبة وانعقاد حاجبَي برانكو أنه يتعرّض لضغط رهيب.

أنهى مكالمته وانتبه إلى وجودي فوجّه كلامه إلينا بالإنجليزية:

- المكالمات لا تنقطع، والسياسيون ينتظرون إنهاء العمل بفارغ الصبر، فموقفهم التفاوضي سيئ جداً، وقبولهم بخطّة التقسيم يعني ضياع البوسنة إلى الأبد، تمّ اختراق دفاعاتنا في إيجمان بعد مقاومة عنيفة وبطولية، لكن النقص في الرجال والعتاد أجبر قواتنا على التراجع، كلّ الأنظار موجّهة إلينا، نحن الخلاص المرتقب لقيادة وربما شعب بأكمله، لكن الأشغال لم تنتهِ بعد، رحماك يا ربي، الحمل كله على عاتقي أنا!

احمرّ وجهه الوسيم وهو يتكلّم بانفعال، فقلتُ مواسياً:

- لم يبقَ الكثير، ستلتقي النقطتان في أقربِ وقت...

ثم حاولتُ تلطيف الأجواء والرفع من معنوياته قائلاً:

- كم يبلغ طول النفق؟

أجابني وهو يراجع حساباته المُدرَجَة في تصميم ضخم مثبت على الحائط المقابل:

- يتألّف النفق بحسب مخطّطنا المدروس من 160 متراً مغطّاة من جهة دوبرينيا، 340 متراً مغطاة من جهة بوتمير، و340 متراً تربط بينهما تحت مدرج المطار، يبلغ علوه من جهة دوبرينيا 160 سنتيمتراً فقط، وهذا ما يجبر معظم العمال على الحفر وهم شبه راكعين، سمك السقف 80 سنتيمتراً وعرض النفق لا يتجاوز المتر، أما من جهة بوتمير فيبلغ علوّه 180 سنتيمتراً، مع عمق تبلغ أقصى نقطة له خمسة أمتار تحت سطح الأرض[1].

قلتُ باهتمام:

- اعذُرْ جهلي يا نجاد، فأنا طبيب ولا أفقَه شيئاً في الهندسة المدنية، لكنني أتساءَل، ألم يواجهكم عائق وجود مياه جوفية في الموقع؟

أجابني مبتسماً بعدما نجحتُ في تبديد جزء من غضبه:

- واجَهَتْنا هذه المشكلة بالفعل، إذ كان من الصعب تحديد مستوى المياه الجوفية في ظلّ الحصار والقصف المتواصل، فكان الحلّ بوجود الكثير من الآبار الإرتوازية التي تعمَل بالمضخات اليدوية، وتمّ تحديد المستوى بإنزال حبلٍ في ماسورة إحدى المضخات.

---

(1) كيف ينسى الراوي أسماء بعض الأماكن والشوارع والأحداث، ويتذكّر هذه الحسابات الدقيقة بكلّ سهولة ويُسر، تناقضاته محيِّرة فعلاً!

سألته:

- **وماذا عن الدعامات؟**

هَمّ بالإجابة، لكن برانكو سبقه إلى القول:

- **احتاج المدخل والدعامات المثبتة للنفق إلى مواد بناء غير متوفّرة في سراييفو المحاصَرَة، بخاصة الحديد، فلجأنا للخشب، ولأنّ مخزون هذا الأخير مخصّص بالدرجة الأولى للتدفئة فقد استعنّا بأخشاب أبواب المنازل والنوافذ وخزانات الملابس التي سألتني عنها قبل أيام.**

أزحت خصلة تدلّت على جبيني قبل أن أقول:

- **سؤال أخير، كيف واجَهتم محاولات قوات الأمم المتحدة لكشف المخطّط ومنعه؟**

أجابني نجاد:

- **كانوا على وشك الإطباق علينا، بمعدّاتهم ووسائل اتصالهم المتطوّرة، لكننا تداركنا الأمر بحَفر نفق آخر موصول بالنفق الأصلي من الجانب بزاوية قدرها 130 درجة، كما أننا...**

لم أقاطعه أنا أو برانكو، أو حتى أحد الحاضرين، بل كان أحد المتطوعين، الذي اقتحم المكان قائلاً بصوت لاهث مرتجف:

- **كارثة يا نجاد! لقد فوجئ العمال بسماع أصوات حفر من الجانبين، ما يعني وجود خطأ في الحسابات واستحالة التقاء فريقَي العمل بين دوبرينيا وبوتمير في نقطة واحدة!**

* * *

9- مقابر التيه

الأحد 12 يناير 1992

قرية عين اللوح - قلب جبال الأطلس المتوسط:

غريب أمرنا فعلاً...

نطلب من غيرنا ما لا نستطيع فعله، وننشد المستحيل منتظرين من غيرنا تحقيقه!

عندما اقترحَت جيهان على والدها السفر إلى عين اللوح، أيّدت الفكرة وتحمّست لها بشكل غريب...

هل لاعتقادي بأنّ تغيير الأجواء سيساعدها على تجاوز آثار الصدمة؟ أم لأنني بحاجة إلى مَن يقف بجانبي في رحلة عودتي إلى الجذور؟ أم تُراها فرصة سانحة للاقتراب من جيهان ومحاولة فَهم عصبيتها وهالة الغموض التي تحيط بها نفسها؟

لا أدري...

كلّ ما أعلمه هو أنني عنيد، وأنّ اقتراح الأب فرانسوا بنسيان ما حَصل والعودة إلى مارسيليا لبدء حياة جديدة قد قابَلته رغبة حقيقية في البحث عن القرية التي خرجتُ منها رضيعاً قبل ما يقارب الثلاثين عاماً، حتى لو ارتبط الأمر فقط بالعثور على المقبرة التي يرقُد فيها والدي.

لكن يبدو أنّ المسألة أصعب بكثير ممّا ظننت، وتردُّد جيهان في زيارة قبر حبيبها الراحل أوضَح دليل على ذلك.

أسبوع كامل بين أحضان جبال الأطلس، دون أن يجسر كلانا على القيام بخطوة ما...

كلّ ما فعلناه هو التجوّل بين دروب القرية، وقد حافَظَ كلّ واحد منّا على عزلته وابتعاده الروحي عن الآخر، وإن كانت المسافة بيننا لا تتجاوز بضعة سنتيمترات عندما نسير متجاورين.

لا معنى لتقارب الأجساد إن كانت الأرواح متباعدة...

أنا أصبّ اللعنات على فرانسوا وخططه الشيطانية ألف مرة بعدما وقعتُ في غرام أجواء عين اللوح الساحرة التي حُرمت منها طويلاً، وجيهان محتفظة بصمتها المطبق بعدما ساهم هدوء المكان في تخلّيها النسبي عن العصبية وحدّة الطبع، وإن تمنّيت في قرارة نفسي لو تتكلم، لو تقول أيّ شيء، فكلام هذه الفاتنة مريح، وإن كان قاسياً، وصمتها مخيف، وإن كان هادئاً.

أحكَمْتُ إغلاق أزرار معطفي، وأنا أسير إلى جانبها، وحاولتُ دفعها إلى الكلام بالقول:

- لم أكن أتخيّل أنّ عين اللوح بمثل هذا الجمال، منظر البيوت الصغيرة المحتمية بالجبال يخلب الألباب ويُسحر العقول!

احتفظت بصمتها، فأضفت:

- مهما بدت بعض الأمور جميلة، فإنك لن تشعر بروعتها إلّا إذا شاركتها مع أحدٍ ما.

ردّت باقتضاب:

- طبعاً، إلّا إذا تحوّل هذا «الأحد» إلى متطفّل لَزِجٍ ينتهك خصوصيات الآخرين، فتلك قصة أخرى...

فهمت رسالتها المبطّنة، فأجبتها بسرعة:

- أنا لستُ متطفّلاً، لكنني أخشى عليكِ من تدهور حالتك الصحية، تذكّري أنني حافظتُ على سرّك ولم أخبر أحداً بحقيقة ما جرى تلك الليلة عندما حاولتِ الانتحار.

قالت بتهكّم خالطته عصبية واضحة:

- هكذا إذاً! أشكرك على صنيعك العظيم يا دكتور، لكن مَا شأنك بي، لماذا تبعتني إلى هنا؟ تقول بأنك تخشى عليّ من تدهور حالتي الصحية، ابتعد عني وسأكون في خير حال، مفهوم؟

حاولتُ الاحتفاظ بهدوئي، لكنّني فشلتُ في ذلك عندما قلت بحدّة:

- يا لكِ من نرجسية يا جيهان! مَن قال لك إنّ السبب الرئيس لمَقْدمي إلى هنا هو أنت؟ أنا أيضاً لي أسبابي الشخصية التي لا تعلمين عنها شيئاً، أسبوع كامل ونحن هنا، أنا في ذلك الفندق الصغير، وأنت عند أقاربك، منحتكِ الهدوء الذي تطلبين، تركتكِ تتجوّلين لوحدك في أرجاء القرية، ومع ذلك لم تجسري على زيارة المقبرة، ثم تتهمينني بأنني السبب، ما هذا العبث؟

ثم أمسكتُ بيدها بسرعة مضيفاً:

- لن أنتظر أكثر من ذلك، سنُنهي هذا التردّد الآن!

* * *

صغيرة هي المقبرة، صغر القرية الجبلية، فقد تناثرت شواهد القبور القليلة هنا وهناك، لكن الضباب الكثيف صبيحة ذلك اليوم جعل مهمة البحث صعبة بعض الشيء.

- أخبَرَني والدكِ بأنك رفضتِ المشاركة في الجنازة، ما يعني أننا مضطرّون للبحث عن قبر علي بأنفسنا. . .

قُلتُها وأنا أدير بصري بين الشواهد، التي تنوّعت بين الرخامية الباذخة والحجرية الصلبة، فيما اكتفت بعض القبور بشواهد خشبية بسيطة.

إنه ذلك الإصرار الغريب على فرض الفوارق الاجتماعية والطبقية، حتى بين الموتى و. . .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]

صدق الله العظيم

«الشهيد علي السلامي»

(ازداد بتاريخ 13 مايو 1964، وتوفي يوم 3 أغسطس 1991 دفاعاً عن شرف ووحدة وطنه)

ما إن لمحتُها حتى همستُ في أذن جيهان بهدوء:

- ها هو ذا قبر الراحل، كوني قوية، فعودة الماضي مستحيلة، المستقبل كله أمامك و. . .

صمتُّ شاعراً بأنني أقول كلاماً سخيفاً لا معنى له، ثم تراجعتُ إلى الوراء مفضِّلاً تركها لوحدها، تُناجي حبيبها وتودِّعه لآخر مرة.

المسكينة. . .

لا أنكر بأنّ شعوراً عارماً بالشفقة والتعاطف قد اعتراني، وأنا أراها راكعة على ركبتيها، وقد انسدل شعرها الطويل على كتفيها، وتلطّخ معطفها الأبيض بآثار التراب النديّ، وهي شبه غائبة عن الوعي، نزعَت قفّازيها وأمسكت بحفنة من التراب تداعبها في صمت.

---

(1) سورة آل عمران (الآية 169).

وحدها الدموع التي تكلّمت. . .

هي لم تتمالك نفسها وانخرطت في نوبة بكاء حارّ عنيف قد يساعدها على التخفيف من معاناتها، وأنا انتحيتُ مكاناً قصيّاً لأراقبها من بعيد رغم حاجز الضباب الذي حجب عني الرؤية، محاولاً في الوقت نفسه منع دموعي أنا من الانهمار، قبل أن أستسلم لها أيضاً، لعلّ غشاوتها تساعدني على الإبصار بوضوح. . .

نعم، ألم يقُل الفرنسيون إنّ العين التي لا تبكي لا تُبصر في الواقع شيئاً؟

ولكن، كيف سأجد قبر والدي وأنا لا أعرف عنه سوى أنّ اسمه أحمد، وأنه توفي سنة 1963، بحسب ما ورد في مذكّرات بريجيت واعترافات الشيطان فرانسوا؟

نعم، القبور قليلة، لكن المعلومات المتوفرة بين يدي قليلة أيضاً!

تلمَّست شاهد قبر بجانبي، وأزحتُ عنه الأتربة، باحثاً عن سراب لا وجود له.

كرَّرت الشيء نفسه مع قبر آخر، وثالث، وسادس، وعاشر. . .

موحا، الحسين، مليكة، سالم، بوشعيب، فاطنة، الغالية، إبراهيم، عياد. . .

1956، 1988، 1971، 1965، 1990، 1979، 1983، 1967. . .

أرقام وأسماء تباعدت وتداخلت أمام عيني حتى كدتُ أفقد كلّ ما تبقى لديّ من اتّزان وصبر، فانهارت قواي وركعتُ ممسكاً جانبيّ رأسي في ألم، غير آبهٍ بالجروح والخدوش التي تركت ندوبها في أصابعي وأنا أنبش التراب بإصرار.

- التيه ظلمة، واليقين شعاع من نور، ابحثْ عنه في قلبك، وحده سيهديك إلى الطريق القويم...

فاجأني الصوت الرخيم، واليد المربتة على كتفي، فأدرتُ رأسي بسرعة لأجد أمامي كهلاً في منتصف الخمسينيات على أبعد تقدير، يرتدي جلباباً بنياً ثقيلاً، ويلفّ عنقه بكوفية سوداء، وقد خالطَ لحيته القصيرة المشذّبة بعض الشيب، فيما توقّدت عيناه ببريق غريب وافترّ ثغره عن ابتسامة خفيفة منحتني شعوراً عارما بالراحة.

- مَن أنت؟

قلتها متسائلاً، فأجابني بالهدوء نفسه:

- فلتُجِبْ أنت عن هذا السؤال، ألست الغريب هنا؟

انتظرَ إجابتي، لكن صمتي دفعه إلى القول:

- أنا عبد السلام، فقيه القرية وإمام مسجدها، وأعتقد أن بإمكاني مساعدتك، هل تبحث عن قبر معين؟

كنتُ على وشك تجاهله، لكن لهجته الهادئة شجّعتني على الكلام:

- أبحث عن قبر شخص يدعى أحمد، هو من أبناء القرية، هاجر في وقت مبكر إلى فرنسا، وفي إحدى رحلاته تعرّض لحادثة سير في إسبانيا، مات على إثرها ونُقل جثمانه ليُدفن في مسقط رأسه هنا، أعتقد بأنه توفي سنة 1963.

ضاقت عيناه وهو يسألني ببطء:

- ومَن أنت حتى تسأل عنه؟

التقطتُ نفساً عميقاً قبل أن أقول:

- أنا ابنه...

انتفض وقد اتّسعت عيناه في دهشة، وقال بعد تردّد:

- مستحيل! لا يمكن أن يكون ما تقوله صحيحاً!

أجبته بصوت مرتجف:

- هل... هل تعرفه؟

بدا واضحاً أنّ وقع كلماتي كان مفاجئاً، فقد شعرتُ بأنه يفكر في شيء ما، لكنه حسمَ أمره أخيراً:

- اتبعني...

أطعتُه بحركة آلية، فاقتادني بين القبور والضباب وهو يمشي بخطوات سريعة، حتى أوصلني إلى قبرين منعزلين.

حدجني بنظرة ثابتة طويلة ثم مسح شاهد أحدهما بكمّه، فقرأت:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1]

صدق الله العظيم

أحمد الزايدي

(توفي سنة 1963)

قال بعد دقيقة صمت:

- هذا هو القبر، لكنني لا أصدّقُكَ، فأنا...

قاطعته بعصبية:

- قلت لك بأنني ابنه، وحتى أثبتُ لك صدق كلامي سأضيف بأن والدتي تدعى عائشة، الأرملة التي طردها سكان القرية بعدما اتهموها في شرفها، فحملتني بين ذراعيها وهامت على وجهها و...

(1) سورة الفجر (من الآية 27 إلى الآية 30).

سكتُّ منتبهاً إلى معالم الصدمة التي تركت آثارها على وجهه، ثم فوجئتُ بجيهان قادمة نحوي وهي تصرخ:

- أيها الأناني الجبان، لماذا تركتني لوحدي هناك، بين القبور الموحشة والضباب الكثيف؟ كدتُ أموت رعباً، ألا تفهم أنني بحاجة إليك!

ثم انهمرت دموعها مرة أخرى، فتجاوزتُ دهشتي واستغرابي، واحتضنتها مواسياً دون أن أكلّف نفسي عناء محاولة فَهم تناقضاتها، لتستكين بين ذراعي كقطة صغيرة تبحث عن الأمان.

* * *

كؤوس شاي، خبز طازج، زبدة، عسل، زيت زيتون وبيض مسلوق...

هكذا امتلأت الطاولة الخشبية القديمة بما لذّ وطاب، وقد أصرّ الفقيه عبد السلام على أن نفترش الأرض ونحن نشاركه وجبة الإفطار في المنزل الصغير، غير بعيد عن المسجد.

- تعوّدت القرية على استقبال السياح المغاربة والأجانب خلال فصل الشتاء، للاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلابة التي حبا الله بها هذه المنطقة، عندما تتعانق الجبال التي تكسو قممها الثلوج مع عيون المياه الصافية والغابات الغنية بأشجار الفلين والبلوط الأخضر، لكن موجة الجفاف أثّرت قليلاً على أعداد الزوار، ما جعل منظركما غريباً ومثيراً للأقاويل والإشاعات بين أهالي القرية، تتشاجران دائماً ولا يعلم أحد حقيقة ما يدور بينكما، انتبهت صدفة إلى أنكما سلكتما طريق المقبرة، وشعرتُ بأنّ في الأمر سراً ما، فتبعتكما.

قالها ثم وجّه كلامه إلى جيهان:

- رحم الله خطيبك يا ابنتي، كان طفلاً صغيراً عندما انتقلَت أسرته إلى الرباط قبل سنوات طويلة...

وأضاف بحسرة:

- هكذا هي الحياة التي لا يملك مفاتيح أسرارها إلا الله سبحانه وتعالى، قد تجبرك أحياناً على دفع ثمن باهظ لقاء خيار صائب، وليس العكس!

صمت للحظات، ليساعدها ربما على استيعاب فحوى كلامه، قبل أن يخاطبني قائلاً:

- أمّا أنت يا بني، فقد فسّرت حكايتك -رغم غرابتها- الكثير من الأمور، إنها الحلقة المفقودة التي كنت أبحث عنها، كنت متأكداً من أنّ يداً خفيّة تقف وراء وفاة والدك المفاجِئة وطرد والدتك من القرية بعد اتهامها بالفساد، لم أقتنع يوماً بأنهما حادثتان منفصلتان لا تربط بينهما أية علاقة.

قلت باهتمام:

- تتحدث كما لو أنك عايشتَ أطوار هذه القصة بنفسك!

شردَ ببصره بعيداً وهو يجيبني:

- أجل، وربما كنتُ طرفاً فيها أيضاً...

لم يترك لي أيّ مجال للتفكير، فقد نهضَ وهو يردف بسرعة:

- اتبعاني.

سبقنا بخطواته السريعة، فاستغلّت جيهان الفرصة لتهمس في أذني قائلة:

- حكايتك غريبة فعلاً، لمَ لا تفكر في كتابتها؟ ستكون رواية الموسم!

أجبتها وأنا أحاول تجاهل رائحة عطرها المميزة:

- لقد أخبرني والدك بولعك الشديد بالأدب والشعر والروايات، ما لا تعلمينه هو أنني أشاطرك هذا الولع، أمّا خصوصياتي فهي ملك لي، لا أريد أن يشاركني فيها أحد...

قاطعتني بالنبرة الهامسة نفسها:

- لو كنت قارئاً نهماً ومولعاً حقيقياً بالأدب كما تقول لعلمتَ أنّ أعظم الأعمال الخالدة هي تلك التي استقاها مبدعوها من الواقع، اكتب، فالكتابة خير دواء لمن أرهقهم داء اسمه الحياة.

تنحنح الفقيه، فقلت بحرج:

- حسناً، سنناقش هذا الموضوع فيما بعد.

ثم أضفتُ بلهجة ذات مغزى:

- «شانيل رقم 19»، عطر زهري خشبي رقيق ينبض بنعومة أزهار السوسن وعبير الباتشولي، العطر الشخصي لكوكو شانيل، وتمّ منحه هذا الاسم تيمناً بعيد ميلادها في التاسع عشر من أغسطس 1883، طرح لأول مرة سنة 1970، عاماً واحداً قبل وفاة المصمّمة الشهيرة، لا تغيّريه، فهو يناسبك كثيراً...

فغرت فاهاً في دهشة، فغمزتها بسرعة وأنا أدفعها أمامي برفق.

***

لا يمكن القول إنها مكتبة بالمعنى إياه، لكنها مرتبة ومنظّمة رغم تواضع الطاولة المتهالكة التي تحمل فوقها عدداً كبيراً من الكتب والمخطوطات، وإن بدا لي أنّ صاحبها حريص على الاعتناء بها وصيانتها باستمرار.

التقطَ الفقيه عبد السلام كتاباً، ثم تصفّحه للحظات وهو يعدل من وضع نظارته، قبل أن يقول:

- جاء في محكم التنزيل، وبالضبط في الآية السادسة من سورة

الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ وفي الآية الحادية عشرة من سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ صدق الله العظيم.

ضاقت عيناي وأنا أحاول تفسير مغزى الآيات، فيما ابتسمت جيهان كعلامة على الفهم.

لكنها لم تكن سوى مقدِّمة لما هو آت. . .

- أم المؤمنين عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم نفسها تعرّضت للطعن في شرفها، في ما يُعرف بحادثة الإفك، وملخّص القصة أنّ بعض المنافقين اتهموها هي والصحابي صفوان بن المعطل بارتكاب الفاحشة، إذ تأخّرت عن ركب الجيش العائد من غزوة بني المصطلق بسبب بحثها عن عقد ضاعَ منها، فتطوّع الصحابي وأوصلها إلى الركب معزّزة مكرَّمة، شاع الخبر بين أهل المدينة، وتأخّر الوحي، فمرضت عائشة، وشاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمر، قبل نزول الآيات البيّنات الواردة في سورة النور، والتي برأت أم المؤمنين وأظهرت الحق لمن شكّ في عفّتها وطهارتها.

تبادلت نظرة طويلة مع جيهان، فيما أكمل هو:

- لم تمضِ أسابيع قليلة على وفاة والدك حتى بدأت الهمهمات والإشاعات تسري بين الأهالي كالنار في الهشيم، قالوا بأن أمك - التي شاء القدر أن تحمل اسم أم المؤمنين نفسه- تُقيم علاقات محرّمة مع شباب القرية، رغم أن تراب قبر والدك لم يجفّ بعد كما نقول نحن في التعبير الدارج، ثم تحوّلت الإشاعات إلى اتهام صريح

لا أدري كيف أصدره الجميع دون دليل مادي واضح، كنت يومها شاباً في أواسط العشرينيات من عمري، حفظت القرآن في سنّ مبكرة وأتممت دراستي في جامعة القرويين بفاس، لكنني فضّلت العودة إلى مسقط رأسي لأقوم بواجبي في تثقيف أهل القرية وتعليمهم أمور دينهم، نلت ثقتهم فاختاروني إماماً للمسجد رغم حداثة سني، وعندما وقعت الواقعة ذكّرتهم بآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وأوصيتهم بضرورة التثبّت قبل إصدار الاتهام، وسماع رأي الشابة ودفاعها عن نفسها، وقد استغربتُ الكيفية التي أصدروا بها الاتهام دون أن يظهر أيّ دليل على أنّ أحد شباب القرية متورّط في علاقة مشبوهة معها، انقسمت الآراء، فقرّر أحد الوجهاء مسموعي الرأي هنا عقد اجتماع هو أشبه بالمحاكمة للبتّ في الأمر.

قلت مستغرباً:

- محاكمة! وأين القانون والسلطات المحلية؟

همَّ بالإجابة، لكن جيهان سبقته إلى ذلك:

- كلّ القرى النائية هكذا، لا تعترف بسلطة الدولة إلا نادراً، وتصرّ على حلّ مشاكلها بنفسها!

قال الفقيه:

- بالضبط! المهم أنهم تجاهلوا توسّلات والدتك ودفاعها المستميت عن نفسها، واعتبروها مجرّد مراهقة طائشة تستحق عقاباً قاسياً على «أفعالها»، وبدا واضحاً أنّ هذا الوجيه الذي تحدّثت عنه يدفع الجميع دفعاً نحو طرد عائشة من القرية، اعتماداً على مكانته واستفادة معظم سكان القرية من إعاناته المالية والعينية.

همست جيهان بصوت مسموع:

- عندما تتغلب سلطة المال على رمزية الدين...

أما أنا فقد سألته بعصبية:

- لماذا كلّ هذا؟ ما علاقة الوجيه بوالدتي حتى يكرهها هكذا؟

ابتسامة باهتة رسمها على وجهه وهو يجيبني:

- السبب واضح وبسيط، فقد عرض عليها الزواج بعد وفاة والدك مباشرة، لكنها اعتذرت بأدب قائلة بأنها نذرت حياتها لابنها بعد وفاة زوجها، ويبدو أنه لم يتقبّل الأمر واعتبر رفضها إهانة بحقه.

صمت للحظات قبل أن يكمل:

- ولو أنني متأكّد من أنه أغبى من أن يخطّط لكلّ هذا بمفرده...

شعرتُ بأنّ معالم القصة بدأت تتضح لي، فقلت بسرعة:

- تقصد أن الأب فرانسوا هو العقل المدبر، وأن هذا الوجيه مجرد منفذ!

داعبَ لحيته للحظات ثم قال:

- طبعاً، وقد راقبتُ بتوجس كبير آنذاك مَقدَم كهل غامض إلى القرية، أشاعَ بين أهل القرية أنه مستثمر فرنسي جاء لينفّذ مشاريع تنموية في المنطقة، ظهر فجأة ثم اختفى فجأة، ولم يفهم أحد حقيقة تصرّفه الغريب هذا.

- إنه الأب فرانسوا، جاء متنكراً ليستطلع الأمور ويبثّ الإشاعات ويحرّض بعض ضعاف النفوس على النيل من والدتك.

كان هذا تعقيب جيهان، فاتّسعت ابتسامة الفقيه، وهو يثني على سرعة بديهتها، ثم أردف:

- فهمت أنّ مقتل أحمد واتهام عائشة بالفساد وظهور فرانسوا في القرية علامات على وجود مخطط خفي لتصفية هذه الأسرة الصغيرة واقتلاعها من جذورها، لكنني افتقدتُ للدليل القاطع، أو

الحلقة المفقودة الرابطة بين الأحداث، المهم أنّ أهل القرية طردوا والدتك وأنت بين ذراعيها، رافضين حتى الاستماع لنصحي وتوجيهاتي، فهكذا هي الجماهير المتحمّسة، أَقْنِعْها بأمر معين مهما بدت تفاهته، بخاصة عندما يتعلق الأمر بالفضيلة والشرف، وتأكّد بأنها ستكون مستعدة لشحذ سكاكينها وذبحك إن أنت خالفتها الرأي، مهما بلغت قوة حججك وبراهينك.

نزع نظارته ومسح زجاجها، ثم أعادها إلى مكانها مضيفاً:

- لجأت المسكينة إليّ، فآويتها في هذا المنزل لبضعة أيام كنت أبيتُ خلالها في المسجد، لكنه كان مجرد وضع مؤقّت لم تحتمله الشابة الحائرة بين مصيبتها وضرورة الاعتناء بك، أنت الذي لم يتجاوز عمرك بضعة أشهر، فغادرت فجر اليوم السادس إلى وجهة غير معلومة، مستغلّة انشغال الجميع بأداء صلاة الصبح في المسجد.

اضطربَ صوتي وأنا أقول:

- والبقية أعرفها، كما حكاها لي ذلك الشيطان...

أجابني بهدوء:

- نعم، لكن ما لا يعلمه فرانسوا هو أنني لم أستسلم، فقد بحثتُ عن عائشة بعد اختفائها، وتتبَّعت خطواتها وسألت عنها، حتى اهتديتُ إلى طريقها وعلمتُ أنها موجودة في ضريح بويا عمر، بعيداً عن هنا، وسافرتُ إلى هناك، لكنني وصلتُ بعد موتها بيوم واحد فقط، فعلمتُ أنّ من واجبي إكرامها ودفنها في مسقط رأسها، فهي صاحبة القبر المجاور لقبر أحمد.

ران صمتٌ طويل على المكان، قطعته أنا بالقول:

- وهكذا دُمِّرَت أسرتي وأصبحت حياتي بلا معنى بعدما فقدتُ كلّ شيء!

أظهر علامات الأسف وهو يردّ على كلامي:

- قُتِلَ والدك، وماتت والدتك، خطفوك أنت، حتى والدا أمك تركا القرية عاجزين عن تحمّل «العار» الذي لحق بهما، أما والدا أبيك فقد توفيا منذ سنوات طويلة، حتى الوجيه الذي كلّمتك عنه قُتِل في حريق أتى على منزله وبعض أملاكه، ورغم أنّ معظم التحريات أثبتت أنه مجرد حادث عرضي، إلّا أنني لا أستبعد وقوف المدعو فرانسوا وراءه لإخفاء الأدلة والتخلص من الشهود، فنحن أمام سفّاح لا يتورع عن القتل في سبيل الوصول إلى غاياته.

لكنه استدرك قائلاً:

- قد لا تصدّق كلامي، لكنني مؤمن بأن بعد هذا العذاب خيراً لا يدركه إلا الله سبحانه وتعالى، راجع معي الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، حسناً فعلت بتجنّب الاعتداء على فرانسوا وتدمير مستقبلك بسببه، فأنا متأكّد من أنه سينال الجزاء العادل على جرائمه، والدك أخطأ، وأمك كانت ضحية، أنت دفعتَ الثمن لثلاثة عقود فقدتَ خلالها أصلك وماضيك وهويتك، لكنني مطمئن لمشيئة الله وقدرته على إبدال كلّ هذا الحزن بفرح وخير سيظهر بالتأكيد، لكن في الوقت المناسب، وفي ذلك امتحان لك ولقدرتك على الصبر.

تدخّلت جيهان في النقاش قائلة بغضب:

- هذا مثير للاشمئزاز، لم أكُن أتخيل أن المسيحيين بمثل هذه الوحشية!

أجابها الفقيه بالابتسامة والنبرة الهادئة نفسها:

- لا يا ابنتي، بذرة الشرّ الكامنة في أعماق البشر لا علاقة لها

بالأديان، المشكلة مرتبطة دوماً بالإنسان، لا بمعتقده، والدين ضروري بالنسبة إلى فرانسوا ومَن هم على شاكلته، لا لخدمة الناس وإنما للسيطرة عليهم وتطويعهم خدمة لأهداف معينة، وأمثال هؤلاء موجودون في كلّ مكان للأسف.

ثم وجَّه كلامه إليّ قائلاً:

- أعلم أنه من السابق لأوانه طرح هذا السؤال، لكنني أتطلّع فعلاً إلى الحصول على إجابة واضحة، الآن وبعد ظهور الحقيقة وانكشاف الأسرار، هل فكّرت في الخطوة القادمة؟ ستبقى هنا؟ أم تنسى كلّ شيء وتعود إلى فرنسا وتواصل حياتك بشكل طبيعي كما لو أنّ شيئاً لم يكن؟

نعم، من المبكر جداً طرح هذا السؤال، لكنني حدجت جيهان بنظرة طويلة أكّدت لي بما لا يدَع مجالاً للشك أنّ جوابي محسوم وقراري لا رجعة فيه[1].

* * *

(1) أعتقد بأنّ ما وَرَدَ في هذا الفصل دليل آخر على أنّ الراوي يتعمّد عدم ذكر اسمه، وأنه بدأ في كتابة مذكراته على هذا الأساس، فمن الطبيعي مثلاً أن يسأل الراوي الفقيه عبد السلام عن اسمه الحقيقي، لكنه تجنَّب تسجيل ذلك في أوراق مذكراته، لسبب لا يعلمه إلّا هو.

10- ضربة فأس...

بين ليلة الجمعة 30 يوليو وفجر السبت 31 يوليو 1993
ضاحية دوبرينيا - سراييفو:

لا يمكن أن يكون ما قاله المتطوع حقيقياً!

هل عدنا إلى نقطة الصفر وضاعت مجهودات وتضحيات الجميع بلا طائل؟

مستحيل!

توغّلنا أنا وبرانكو داخل النفق، فكشفت الإضاءة الخافتة عن وجوه ممتعضة وغاضبة أثبتت صحة كلام المتطوع.

أصختُ السمع فالتقطَتْ أذني أصوات الحفر من الجانبين، ما يدلّ فعلاً على وجود خطأ في الحسابات وعدم التقاء النقطتين، فصرختُ قائلاً:

- اتصلوا بفريق بوتمير عبر اللاسلكي، لربما فهمنا منهم حقيقة ما يحصل، أو على الأقل منعناهم من مواصلة الحفر حتى نتدارك الخطأ بأسرع ما يمكن!

- هذا غير ممكن، فقد تخترق قوات الأمم المتحدة أو حتى الميليشيات الصربية اتصالاتنا اللاسلكية بسهولة تامة، نحاول تجنّب

هذا الخيار قدر الإمكان لأنه غير مأمون الجانب وربما يعقّد الأمور أكثر فأكثر!

هكذا أجابني برانكو محنقاً، فضربتُ الأرض بقدمي، وكدتُ أبكي من شدّة القهر وأنا أسمع أصوات الحفر المتواصل من الجهة الأخرى.

تعالت الهمهمات بين العمال، وانهار بعضهم وقد انتابهم شعور عارم باليأس، فيما عقد برانكو حاجبيه مفكّراً في حلٍّ لهذه الورطة.

أمّا نجاد فقد غابت الدماء عن وجهه الذي أصبح أقرب إلى وجوه الموتى، بعدما رأى كلّ مشاريعه وحساباته الدقيقة تنهار في غمضة عين.

وفقد أحد العمال أعصابه، فحمل مطرقة ملقاة على الأرض وحاول أن يحطّم بها بعض الدعامات وهو يتفوّه بكلام ما.

- يا إلهي ماذا تفعل؟ هل جننت؟

قلتها وأنا أحاول الإمساك به، لكن ثورته كانت أقوى مني، بل أقوى منا جميعاً، وهو يحاول التملّص منا ومواصلة تخريبه للدعامات.

إنه انهيار عصبي يحتاج معه العامل إلى حقنة مهدِّئة، ولكن من أين لنا بهذا الترف الآن؟

تعالى الصراخ، قبل أن يقطعه برانكو قائلاً:

- اصمُتوا!

ثم وضع سبابته على شفتيه طالباً منّا السكوت، وقد أصاخَ سمعه نحو نقطة معينة، فصمتنا جميعاً.

هي برهة قصيرة، سمعنا بعدها صوتاً خافتاً من الناحية المقابلة. . .

كانت طرقات قوية على ماسورة من حديد.

صرخ برانكو فَرَحاً وهو يقول:

- **لقد ضرب العامل على ماسورة حديدٍ بالمطرقة، عن غير قصد طبعاً، فسمعها الفريق الآخر وردَّ عليها بالمثل!**

لم نفهم قصده، فأضاف:

- **سماعنا أصوات الحفر من الجانبين كان مجرّد خدعة سمعية، الحسابات صحيحة وفريق بوتمير أقرب إلينا من أيّ وقت مضى، هيا بنا!**

قالَها وهو يُمسك بالفأس وينطلق نحو نقطة الحفر.

- **ماذا تنتظرون؟ هل سأحفر لوحدي أم ماذا؟**

قالها في حماس، فانتزعتنا كلماته الواثقة من ذهولنا وحملنا المعدّات القليلة ولحقنا به مُسرعين.

بين مَن يحفر بالفأس، ومَن يزيح التراب بيديه العاريتين، تحوَّلنا جميعاً إلى ما يشبه معدّات حفر بشرية لا تعرف الراحة وقد زرعت فيها كلمات برانكو الأمل.

تعالت الأصوات من الجانب الآخر...

نعم نحن نقترب!

ضربة فأس أولى...

وثانية...

وثالثة...

ثم انهارت طبقة سميكة من التراب لتظهر يدٌ قوية ملطّخة بالتراب وممدودة نحونا.

التقَتْ النقطتان!

نجحَ مشروع بناء النفق!

كسرنا حصار سراييفو!

وتعالت صرخات الفرح، والتكبير، واختلطت الدموع بالضحكات، ونحن نعانق بعضنا ونحيي زملاءنا في فريق بوتمير.

تحدّينا سطوة المستحيل، وسمحنا لشعاع الأمل بالمرور، لننقذ أبناء أميرة البلقان، العطشى، والجوعى، والجرحى!

انهمرت الدموع من عيني وأنا أرى هذا المشهد الأصعب من أن أصوّره، الأعمق من أن تحسن كلماتي وصفه.

نعم...

بعض اللحظات هكذا، يفسد روعتها البحث عن كلمات مناسبة لتخليدها، حسبك أن تعيشها فقط...

خمسة أيام كانت كافية ليجتاحني سيلٌ هادرٌ من المشاعر الجيّاشة المتضاربة.

بين الشك واليقين، اليأس والأمل، الحزن والفرح، كما لو كنت هنا، مع هؤلاء الأبطال، منذ ضربة الفأس الأولى قبل أشهر طويلة...

ضربة الفأس التي لو استمع صاحبها لاستخفاف المشكّكين وسخرية الشامتين لما فعلَ شيئاً، ولما تمكّن أبطال سراييفو من تحطيم قبضة الحصار المطبق على أنفاسهم.

* * *

وامتزجَ صوت الأذان القادم من بعيد بتسلّل خيوط الفجر معلنة عن بدء يوم جديد.

الـ 31 من يوليو 1993.

يوم لن ينساه أبناء سراييفو أبداً...

أكملنا ربط النقطتين ببعضهما، وثبّتنا الدعامات والأساسات، قبل أن يبدأ العمل الحقيقي.

لم نضيّع دقيقة واحدة، ففي تلك الليلة، تمّ إدخال 15 طناً من

الأسلحة والذخائر إلى سراييفو، لدعم صمودها وتثبيت نقاطها الدفاعية، فيما غادرت أول وحدة عسكرية بكامل عتادها، بقيادة عدنان سولاكوفيتش، إلى جبال إيجمان الاستراتيجية للمساهمة في تصحيح الوضع العسكري واستعادة النقاط المفقودة[1].

معادلة بسيطة جداً. . .

سراييفو تحتاج إلى السلاح، وجبال إيجمان تنتظر الرجال!

ساعدت نور على ارتداء معطفها رغم أننا في فصل الصيف، خوفاً عليها من برد الصباح.

تدبّرت أيضاً أمر حذاء ثقيل يناسب قدميها الصغيرتين ويمكّنها من عبور النفق الذي ما زالت بعض نقاطه مغمورة بالمياه إلى مستويات مرتفعة، فالعلوّ المنخفض الذي لا يتجاوز الـ 160 سنتيمترا سيمنعني من السير راكعاً وحملها على ظهري في الآن نفسه.

- ما زلت مصرّاً على اصطحاب نور والذهاب وحدكما إلى موستار؟ فكّر في الأمر مرة أخرى، لربما كان ذهابي معكما مفيداً، فأنا أعرف المنطقة جيداً!

قالتها مديحة بنبرة متأثرة، فأجبتها:

- لا خيار أمامنا يا عزيزتي، كما أنّ المسألة ليست بتلك الصعوبة، المهم أن نجد رامز والد نور. . .

---

(1) كلّ المعلومات التي ذكرها الراوي صحيحة ومضبوطة، يلتمع الدمع في عيني وأنا أقرأ ما كتبه، فقد كنت يومها في إيجمان، رفقة زملائي في الجبهة، نعيش وضعاً ميدانياً صعباً جداً، فكان وصول وحدة سولاكوفيتش مثل هدية من السماء، وكم أفرَحَنا خبر اكتمال بناء النفق الذي أنقذ سراييفو من الموت، تجدر الإشارة هنا إلى أنّ النفق ما زال موجوداً إلى يومنا هذا، وقد حوّلته السلطات البوسنية إلى متحف يزوره السياح من جميع أنحاء العالم، ليكتشفوا فيه قصة الإرادة، والصمود، والأمل الذي لا يموت.

راجعتُ محتويات حقيبتي (التي أحضرتها معي إلى دوبرينيا في وقت سابق) للمرة الثانية، ثم أضفتُ إليها حزمة الأوراق التي أكتب فيها مذكراتي، وقلم الحبر الذي رافقني من مارسيليا إلى سراييفو، وربما إلى موستار، وما زال مُصرّاً رغم ذلك على الكتابة.

- كما توقعت، لن تفارق مذكراتك، لو تركتها هنا ما كان أحد ليلمسها، ستكون في الحفظ والصون!

أجبتُ مديحة مبتسماً:

- أنا لا أثق بك يا جميلتي، ما زلت مصراً على أنّ الوقت لم يحِنْ بعد لقراءة مذكراتي، حتى لو كانت مكتوبة بالعربية، أنا لا أضمن عدم بحثك عن متكلم بها ليترجم لك أسرارها، ففضولك لا حدود له!

ثم أضفت:

- لكنني أعدكِ بإطلاعك عليها يوماً ما، ومَن يدري، قد يُشاركك العالم كله ذلك...

زفرت في ضيق مصطنع قبل أن تقول:

- يا لك من لئيم!

لكنها ارتمَت في أحضاني بحركة مفاجئة وهي تقول باكية:

- اعتنِ بنفسك أرجوك! عُدْ إلينا في أسرع وقت ممكن!

أحطتُ ظهرها بذراعي، وقد أطلقت لدموعها العنان...

لست مغفّلاً حتى أتجاهل حقيقة مشاعرها، لكنني أحمل بين ضلوعي قلباً محطّماً لم يقدر على نسيان عشقه الأوحد بعد فقدانه، وأنا لن أبحث عن حبّ جديد أفتش في ملامح صاحبته عن حبي القديم، ففي ذلك ظلم كبير وأنانية جارحة.

وأنا لست أنانياً، ولا أريد أن أظلمك معي يا مديحة...

أزحتها عني برفق، بعدما أشار إليّ برانكو بطرف أصبعه حتى أتبعه.

- كما شرحتُ لك، ستعبران النفق إلى بوتمير، وهناك ستسأل عن العمّ صالح سليمانوفيتش، إنه مشهور برحلاته المستمرة بين سرايفو وموستار، كان يملك سيارة نصف نقل مجهّزة لشحن الخضار، لكن ظروف الحرب أجبَرَتْه على تغيير نشاطه.

التقَطَ نفَساً عميقاً، أكمَلَ بعده كلامه:

- هو يعرف تضاريس المنطقة جيداً ويكرِّر على مسامع الجميع أنه يحفظها كما يحفظ خطوط يده، ويعرف أيضاً كيف يتجنب الحواجز الصربية المتناثرة هنا وهناك، وقد يفيدك بمعلومات عن المفقود الذي تبحث عنه.

أجبته:

- عظيم، أتمنى أن تكلِّل مجهوداتنا بالنجاح!

أدرتُ بصري في المكان، مخافة أن يسمعني أحد، ثم قلت بصوت هامس:

- من حسن حظّنا أنّ العقيد رايلي انتقل بشكل مفاجئ إلى جبهة سربرنيتسا، إثرَ تصعيد الصرب لهجماتهم وقيامهم بمحاصرة قواعد القوات الدولية، كما أنّ تهريب نور أجبَرَ تلك العصابة على تجميد نشاطها، لكنني لا أثقُ بما يمكن أن يحدث في المستقبل، لا سبيل أمامنا سوى فضح المؤامرة عبر وسائل الإعلام...

حدجتُ مديحة بنظرة طويلة لأقول بعد ذلك:

- مديحة أمانة في عنقك يا برانكو، رايلي انتهازي جبان، قد يعود في أية لحظة وينتقم مني باختطافها أو محاولة قتلها، ستحميها حتى لو كلّفك ذلك حياتك، أليس كذلك؟

أطلق ضحكة قصيرة أجابني بعدها:

- تتحدث كما لو كنت ذاهباً بلا رجعة، إنها مجرّد رحلة قصيرة، اطمئن، لن يصيب مديحة مكروه ما دمت حياً!

ثم عانقني بحرارة قائلاً:

- رافقتكما السلامة يا صديقي، تأكّد بأنني لم أقابل في حياتي مَن يملك مثل شهامتك!

قلت بلا مبالاة:

- نحن نعيش في زمن أصبح فيه القيام بالواجب عملاً بطولياً، هذا كلّ ما في الأمر، مع السلامة...

ثم حييته بإشارة من يدي، لأعود إلى نور وأنحني مربتاً على خدها مداعباً، فقالت ببراءة:

- سنذهب إلى موستار؟ سنبحث عن بابا هناك؟

كانت الشهور الماضية كافية لأتقن بعض أساسيات اللغة المحلية، وإن كنت غير قادرٍ على التكلّم بها بطلاقة، فأجبتها ببوسنية ركيكة:

- نعم يا حلوتي، سنبحث عن بابا رامز في موستار! هيا بنا إذاً!

قلتها، ثم حملتُ الحقيبة على ظهري، وأمسكت بيد نور اليسرى، وألقيت نظرة أخيرة على مديحة الباكية، وبرانكو المبتسم، قبل أن نتوجه نحو مدخل الخندق المؤدي إلى النفق، وننطلق في رحلتنا نحو موستار.

الرحلة التي لا أدري إن كانت للبحث عن رامز المفقود، أم عن روحي التائهة...

* * *

11- عودة ملغومة

الأحد 3 مايو 1992

بحيرة أفنورير - ضواحي قرية عين اللوح - قلب جبال الأطلس المتوسط:

ساهماً شارداً، أراقب صفحة المياه الرقراقة التي تشكّل هذه البحيرة الساحرة والشاسعة، وقد أكّدت لي هي الأخرى أنّ بلداً كهذا لا يمكن أن يكشف مفاتنه وأسراره إلّا لمن يستحقها.

اسمها بحيرة أفنورير، ترتفع عن سطح البحر بحوالي 1800 متر، وتجمع بين مياه التساقطات المطرية وما تبقى من الثلوج الذائبة القليلة أصلاً بفعل موجة الجفاف المؤثرة.

تُحيط بالبحيرة غابات الأرز من كلّ جانب، فيما تحوّلت جنباتها إلى مساحات خضراء لا يمكن للرائي إلّا أن يقع في غرامها من أول نظرة.

أسرابٌ من الطيور المهاجرة التي تستعدّ للعودة إلى أوروبا بعدما هربت من صقيعها في الشتاء، ولاذَت بالبحيرة باحثة عن الدفء، في رحلة تتكرَّر كلّ مرة، والطريقة بنفسها، كإشارة واضحة على أنّ دورة الحياة هكذا، تتوالى أيامها وتستمرّ دون أن يعكّر صفوها أحد. . .

أعتقد بأنني أشبه هذه الطيور المهاجرة، فقد هربتُ من وحشة الوحدة وعذاب البحث عن الحقيقة في فرنسا، إلى دفء الجذور وحرارة اللقاء هنا في المغرب.

ولكن...

- فيمَ تفكر؟

لم أكن بحاجة إلى الالتفات، فأجبتُ عن السؤال باقتضاب:

- لا شيء...

لكنني تخلّيت عن صمتي بعد لحظات قليلة وأنا أوجّه كلامي إلى الفقيه عبد السلام:

- عندما عدتُ إلى القرية، وحللتُ لغز مذكرات بريجيت نوسي واعترافات الأب فرانسوا، اعتقدتُ بأنّ العقدة قد انحلّت أخيراً، وأن عذابي قد انتهى، لكنني أشعر بأن رحلة التيه لم تصل بعد إلى محطتها الأخيرة، يخيَّل إليّ أن السؤال الجوهري «مَن أنا؟» ما زال بلا إجابة مقنعة حتى الآن!

ابتسم كعادته وهو يجيبني بهدوء:

- حالة الضياع أو انعدام الوزن التي تعيشها طبيعية جداً يا ولدي، أنت تتعرّف على ذاتك ومحيطك الحقيقي شيئاً فشيئاً، عشت في فرنسا لمدة طويلة، درستَ هناك وبنيتَ مستقبلك، ثم اكتشفتَ حقيقة أصولك المغربية فأتيت إلى هنا باحثاً عنها، لا أخفي عنك بأنني فوجئت بقرارك الشجاع بالبقاء، فقد حسبتُ أنك ستحقّق توقع فرانسوا وتعود إلى حياتك الطبيعية المعتادة في مارسيليا بأسرع ما يمكن.

يبدو أنّ ملامح عدم الفهم قد تركَت آثارها على وجهي، فقد أضاف بسرعة:

- على ذكر الأب فرانسوا، أنا لا أعتقد بأنّ المشروع التبشيري الذي ينتمي إليه ساذج إلى هذه الدرجة حتى يقول ببساطة أنه فشل في تنصيرك، وأنّ قوافل التبشير التي جابت مناطق المغرب لم تحقّق نتيجة تُذكر، نعم، حالة الأب جون محمد بن عبد الجليل مشهورة جداً، لكنها معزولة ومنفصلة تماماً عن السياق الحقيقي، أستحضر هنا مقولة منسوبة إلى أحد المبشّرين الأوائل في منطقة الشرق الأوسط قال فيها: «سنُخرج المسلمين من الإسلام، وحتماً لن نُدخلهم المسيحية!»، فهمت؟ حتى لو لم ينجحوا في التنصير، فإنهم قادرون على إنتاج أجيال تائهة متذبذبة تحمل في أعماقها كلّ التناقضات الممكنة.

قلت باهتمام:

- ألا يتحمّل المسلمون أيضاً جزءاً من هذا التذبذب والتخبّط؟

عقد ساعديه خلف ظهره، وشاركني تأمّل مياه البحيرة، قبل أن يقول بعد تفكير عميق:

- مشكلة المسلمين اليوم أنهم مرتاحون لنظرية المؤامرة، ويعتبرونها شماعة يعلّقون عليها كلّ مصائبهم، نعم، قد تكون المؤامرة موجودة، لكننا نرفض الاعتراف بضعف الخطاب الديني القادر على مجابهتها، نحن ممزّقون بين سَيل من الكتب والمقالات والبرامج المتخصّصة في مهاجمة الإسلام وتشكيك المسلمين في دينهم عبر دسّ السم في العسل بطريقة بارعة، وموجة بغيضة من التكفير والتطرّف والغلوّ تعتبر أن تبليغ رسالة الدين لا تكون إلّا بالقتل وسفك الدماء، أنت نشأت في فرنسا بعيداً عن كلّ هذه التعقيدات، لم تعايش التحوّلات التي مسّت المغرب وربما المنطقة بأكملها، عندما ظهرت جماعات تعتقد أنها المخوّلة الوحيدة بتفسير

تعاليم الإسلام على هواها واعتبار كلّ مَن يخالفها كافراً وجب قتله، لم ترَ بأمّ عينك كيف ترك شباب في عمر الزهور كلّ شيء هنا، أحلامهم وحاضرهم ومستقبلهم، وألقوا بأنفسهم في محرقة اسمها الجهاد ضد السوفييت في الحرب الأفغانية، عندما صدّقوا آلة إعلامية ضخمة استعملتهم خدمة لأهداف استراتيجية لا علاقة لهم بها، إنّ مَن يحارب مُطالَب قبل حمل سلاحه بالإجابة عن سؤال جوهري بينه وبين نفسه: أنا سأحارب مَن؟ ولصالح من؟ لم تشهد يا ولدي كيف انتشرت شائعات قوية بين الناس، عن المجاهدين الأبطال الذين يُسقِطون مقاتلات ومروحيات العدو السوفييتي الملحد بهتاف «الله أكبر» وحده، غير عالمين بأنّ هذا مجرّد ضحك على الذقون يضرّ بالمسلمين ولا ينفعهم بشيء، وأن مَن تسقط المروحيات هي صواريخ ستينغر التي سلّمتها المخابرات المركزية الأميركية لهؤلاء «المجاهدين»، المثير للسخرية الحزينة هنا أنهم طردوا هذا العدو في النهاية، لكنهم عوض أن يتعاونوا على إعادة إعمار البلد المدمّر، تقاتلوا فيما بينهم حول مَن يحكم تلك الأنقاض، وما زالوا مستمرين في سفك دماء بعضهم البعض حتى الآن، متحدّثين عن المعارك الفاصلة التي ستُعلي راية الإسلام في «كابل» و«قندهار» و«وادي بانشير»، ومَن يدري، قد تتكرّر القصة بحذافيرها في مناطق أخرى، أرى بعين التوجّس بوادر اندلاع حرب أهلية في الجزائر، وتأزم الأوضاع في البوسنة التي حوصرت عاصمتها سرايفو وقصفت بالقنابل والصواريخ، مشكلتنا باختصار وحتى لا أبتعد عن موضوعنا، هي أننا لا نقرأ التاريخ ولا نستوعب دروسه، ولا نفهم أنّ الإلحاد والتطرّف وجهان لعملة رائجة في عصور الانحطاط الحضاري.

رمقته بإعجاب حقيقي، ويبدو أنه قد فطن إلى ذلك، إذ سألني مبتسماً:

- ما بك؟ لم تفهم كلامي أم ماذا؟

أجبته:

- لا بالعكس، لكنني...

قاطعني:

- لم تتوقّع أن أكون ملمّاً بما يجري حولي من أحداث، وأن إمامة الناس في مسجد قرية منسية في جبال الأطلس ستمنعني من مواكبة العصر الذي أعيش فيه، أليس كذلك؟

قلت باقتضاب:

- ربما...

ثم أضفتُ بعد برهة صمت:

- عندما قابلتك لأول مرّة خيّل إليّ أنك ستكون نسخة طبق الأصل من الأب فرانسوا، وأنك ستبدأ برنامجاً مكثفاً لإجباري على اعتناق الإسلام، لكنني فوجئت بطريقة مغايرة في التعامل، تعتمد على اللين واللطف وسعة الصدر، أنت تحمل فكراً مختلفاً عن السائد!

أجابني ببساطة:

- لبس المفاهيم المعاصرة هو ما يجعل طريقتي الطبيعية في التفكير غريبة، وليس العكس.

ثم أضاف بنبرة أكثر جدّية:

- ماذا سأستفيد من إجبارك على اعتناق الإسلام؟ يخاطب الله تعالى نبيه الكريم في الآية 56 من سورة القصص ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي

مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ صدق الله العظيم، أنت تمرّ بمرحلة دقيقة جداً، تتطلّب استقرارك أولاً ثم وصولك إلى الصفاء الذهني والنفسي الذي تبحث عنه بعد ذلك، فهمتَ أنك قارئ نَهِمٌ فوضعتُ مكتبتي الصغيرة -على تواضعها- تحت تصرّفك، تقرأ وتقرأ وتقرأ ثم تسألني عمّا استعصى عليك فهمه دون أدنى تدخّل مني، قبل شهرين تقريباً فاجأتني برغبتك في صوم بضعة أيام من شهر رمضان المبارك، وقلت بنفسك إنها كانت تجربة مميّزة، هذا ما قصدته، يجب أن تخرج من صحراء التيه بنفسك، فهي معركتك أنت، أنت وحدك!

قلت بحسرة:

- على ذكر الصحراء والسراب، أشعر بأنني أنهل من ماء البحر، كلما شربتُ منه ازداد عطشي!

أجابني بهدوء:

- من قلب التيه يولد النور، أنت تسير في الطريق الصحيح، اصبر وستنال ما تريد، ولا تيأس، حتى لو شعرت بأنّ كلّ الأبواب موصَدَة أمامك...

انشغل بمداعبة لحيته، كعادته عندما يغرق في تفكير عميق، قبل أن يردف:

- املأ قلبك بالخير والحب، وسترى كيف ستتغير حياتك إلى الأفضل، وعلى هذا الأساس أتمنى أن تنزع من قلبك كره بريجيت، نعم، شاركت هي وزوجها في جريمة قذرة متكاملة الأركان، لكن ما ورد في مذكراتها يدلّ على أنها أحبَّتك بصدق، وربما لم تعرف المعاني الحقيقية للحبّ إلّا بفضلك، بعدما عجز الأب فرانسوا عن تلقينها إياها.

لم أجد كلمة واحدة تعبِّر عمّا يعتمل في أعماقي من مشاعر متناقضة، فلجأتُ إلى الصمت.

يبدو أنه قد انتبه إلى اضطرابي، فغيَّر دفة الحديث بالقول:

- كيف حال جيهان؟

خفَقَ قلبي بقوّة عند سماع اسمها، لكنني حاولت تجاوز آثار ذلك وأنا أجيبه:

- بخير، علاقتنا ممتازة ونقترب من إعلان ارتباطنا الرسمي في قادم الأيام، ولكن. . .

بترتُ كلامي فجأة، فقال باهتمام:

- ولكن ماذا؟

زفرتُ في ضيق وأنا أجيبه:

- لا أدري، تحيِّرني بتصرفاتها وطريقة تعاملها معي، يخيّل إليّ أحياناً أنها تبادلني المشاعر نفسها، وأكاد أجزم أحياناً أخرى أنها تنفر مني، إنها رائعة للغاية، وأعترف بأنني وقعتُ في غرامها بسرعة كبيرة، لكن تناقضاتها غريبة، أكاد أسلِّم بعجزي عن السيطرة عليها. . .

ثم أضفتُ بسخرية مصطنعة:

- على رأي جريجوري بتشورين: «يجب عليك إنْ أردت السيطرة على منطقهن أن تتخلى عن أبسط قواعد المنطق»[1].

أطلق ضحكة صافية بدَّدت القليل من شكّي، ثم قال:

- السيطرة؟ هل تخوض حرباً ضدّها حتى تتحدث عن المواجهة

---

(1) جريجوري ألكسندروفيتش بتشورين هو بطل رواية **بطل من هذا الزمان** للشاعر والأديب الروسي الراحل ميخائيل ليرمنتوف (1814-1841).

ومن منكما سيُخضع الآخر لسيطرته؟ تذكّر بأنكما تقابلتما في ظروف غريبة، أنتما تعانيان من تبعات الماضي، أنت تجاهد للبحث عن ذاتك المفقودة، وهي تتعافى شيئاً فشيئاً من آثار صدمة وفاة خطيبها وما تبعها من اضطرابات كادَت تودي بحياتها، امنحها بعض الوقت، فجيهان شابة رائعة وذكية للغاية، وتستحق منك بعض الصبر.

خيِّل إليّ أنه أنهى كلامه، لكنه أكمل:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيّمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً»[1]. وأوصى أيضاً بالرفق واللين في التعامل معهن، في تعبير رائع سأترك لك مهمة فهمه بنفسك، لأنني أدرك مدى إلمامك باللغة العربية ومعانيها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «رفقاً بالقوارير»[2]، ولك أن تتدبّر القصد الذي يجمع في المرأة رقة الأنوثة وجمال الإنسانية وعذوبة الروح وشفافية النفس وتألقها.

أسعدتني كلماته، فقلتُ بحماس:

- سترافقني عندما أتقدّم لخطبة جيهان رسمياً، أليس كذلك؟

أومأ برأسه علامة على الموافقة، وهو يربت على كتفي مشجّعاً، لتهبّ نسمة هواء دافئة ذكّرتني بأن وقت العودة قد حان، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الفقيه عبد السلام الذي قال:

- وقت أذان صلاة الظهر يقترب، يجب أن أعود إلى القرية الآن.

---

(1) رواه البخاري.

(2) متفق عليه.

لكنني استوقفته بحركة من يدي:

- سؤال أخير من فضلك!

لم أترك له مجالاً للرد، بعدما أضفت بسرعة:

- هل فقهاء الإسلام مثل رهبان المسيحية، لا يتزوجون ولا ينجبون الأطفال؟

بدا واضحاً أنه قد فهم ما يدور في رأسي، فقد أجابني باقتضاب وغموض:

- لا طبعاً...

ثم قال منهياً الحوار:

- لقد تأخرنا، هيا بنا!

* * *

راقبت طريق العودة من بحيرة أفنورير إلى قرية عين اللوح عبر نافذة سيارة النقل الصغيرة التي مرّت من المكان، فلم أتبادل كلمة مع الفقيه إلّا عندما اقتربنا من القرية التي لاحت صومعة مسجدها من بعيد.

- منظر أشجار الأرز والكرز المصطفَّة على جنبات الطريق يخلب الألباب، إنها تضيف للمنطقة جمالاً أعجزُ عن وصفه!

هكذا قلت بافتتان حقيقي، فأجابني:

- منطقة عين اللوح مشهورة بإنتاج الكرز، وغالباً ما ينطلق موسم جَنيه بين نهاية شهر مايو وبداية شهر يوليو.

ثم أضاف بجدّية:

- ما جديد إجراءاتك الإدارية في العاصمة؟

قلتُ بمرح مصطَنَع:

- لماذا تذكّرني بذلك الآن وأنا أستعدّ للعودة بعد ساعات قليلة إلى الرباط؟ أنا مُطالَبٌ فعلاً بالتعوّد على بطء تلك الإجراءات وتعقيدها هنا، كلّ ما أطلبه هو الحصول على تصريح بمزاولة مهنتي كطبيب في مسقط رأسي، مع أنني أبديتُ استعدادي للتبرّع وتزويد مستوصف القرية بمعدّات طبية أظنّ أنه بحاجة ماسة إليها، أمّا إثبات مغربيتي بالحجج والوثائق والبراهين فأعلم أنه صعب جداً، على الأقل في المرحلة الحالية، ما يجعلني مكتفياً حتى الآن بجواز سفري الفرنسي و...

قطعت كلامي وقد أثار انتباهي أمر آخر:

- هذه البناية في ضواحي القرية، أرى أنّ طراز بنائها الحديث مختلف تماماً عن السائد في عين اللوح، ثم ما سبب انعزالها هكذا؟

ألقى الفقيه نظرة سريعة من النافذة قبل أن يقول بنبرة فاترة:

- آه عرفتها، إنها مؤسسة لرعاية الأطفال الفقراء والمتخلى عنهم في المنطقة، تسمي نفسها «الأمل» أو «قرية الأمل» لا أذكر بالضبط، يتولى تسييرها بعض الأجانب، وهي موجودة هنا منذ سنوات طويلة.

قلت في حماس:

- عظيم! إنها فكرة ممتازة للغاية، قد يشجّعني هذا على التعاون مع إدارة المؤسسة مستقبلاً لـ...

فوجئت بمقاطعته لكلامي وهو يستطرد:

- أنا متأكد من أنّ هذه المؤسسة تخفي بين جدرانها سراً غامضاً لا أدري كنهه بالضبط، صحيح أنّ بعض الظنّ إثم، لكنني أشكّ في طبيعة نشاطاتها، فقد حاولت أكثر من مرة الاطمئنان على الأطفال، لكنني مُنِعْت حتى من ولوج المبنى، بذريعة الخوف على

سلامة الصغار وضرورة ابتعادهم عن كلّ المؤثرات الجانبية، وهو سبب واهٍ ضاعَفَ من شكوكي أكثر.

اتّسعت عيناي في دهشة، فأضاف باقتضاب:

- على أية حال، وضع المؤسسة قانوني ولم يصدر عنها أبداً ما يريب، المهم أن الأطفال بأمان وقد تكون شكوكي بلا معنى، سأبحث في الموضوع فيما بعد.

* * *

الرباط أخيراً...

رحلة متعبة كالعادة، بين نقل بري من القرية إلى إفران، ثم سفرٍ عبر القطار من مكناس إلى الرباط.

تعدّدت تنقلاتي بين العاصمة والقرية في الفترة الأخيرة، لكنني أشعر بالنشوة نفسها كلّ مرة، كما لو أنها زيارتي الأولى!

مرَّت بي هذه الخاطرة على حين غرّة، فابتسمت بلا وعي مني...

لا داعي للمراوغة، لا علاقة لهذه النشوة بالرباط، بل بمن خطفوا قلبي وسكنوا الرباط!

أشارت عقارب ساعة المحطة إلى التاسعة مساء، فضربت الأرض بقدمي محتجّاً، كيف لا وقد تأخّر القطار لما يفوق التسعين دقيقة.

أنا مُطالبٌ بالتعوّد على هذه الأمور، لكنها لا تُحتمل فعلاً!

كان من المفروض أن يصل القطار في السابعة والنصف، وهو وقت معقول سأتمكّن معه من زيارة منزل حبيبتي والاطمئنان عليها.

أمّا إن طرقت باب منزلها في التاسعة فسأضرب بقواعد اللياقة عرض الحائط!

نعم، لقد تحوّل الأستاذ جمال إلى صديق حميم، أسهر معه حتى ساعات متأخرة من الليل، نتجاذب أطراف الحديث ونتبادل الآراء في شتى المواضيع، ليصرّ في كلّ مرة على اصطحابي بسيارته إلى المنزل الصغير في قصبة الأوداية.

ولكن...

لم تستغرق مني هذه الحيرة بين الخجل والشوق سوى بضع ثوانٍ، حسمتُ بعدها أمري وانطلقتُ ماشيا صوب «بلاس بيتري» ومنها إلى حسان.

للقلب أحكامه، فليغمض المنطق عينيه قليلاً...

- تأخّرت كثيراً يا عزيزي، يبدو أنها المواصلات كالعادة...

قالتها جيهان وهي تقبّل وجنتي بسرعة، فأحطتُ خصرها بذراعي اليسرى مجيباً:

- أجل، اشتقت إليك كثيراً يا مجنونتي الصغيرة و...

لكنها قاطعتني بهمسة في أذني:

- اخفِضْ صوتك أيها الأحمق، ستفضحنا، اذهَبْ وسلِّم على والدي، أو بالأحرى صديقك الأستاذ جمال.

لم أغفل نبرة الدلال في صوتها، فغمزتها بعيني قبل أن أتوجّه إلى غرفة الجلوس وأقف أمام والد جيهان المنشغل بقراءة الصحف.

ولأننا تخلينا عن الرسميات بيننا منذ فترة طويلة، فقد قال دون أن يرفع عينيه عن الجريدة أو يكلّف نفسه عناء إلقاء التحية:

- العالم ليس بخير، سقوط قتلى بالعشرات، وإتلاف للممتلكات العمومية في لوس أنجلس بالولايات المتحدة الأميركية، بعد النطق ببراءة رجال الشرطة الذين هموا بضرب المواطن الزنجي

رودني كينج، وفي تطورات الحرب في البلقان، الجبل الأسود يعلن انضمامه إلى جمهورية صربيا الوريثة الكبرى لما تبقى من يوغوسلافيا، وصرب البوسنة يحتجزون الرئيس البوسني علي عزت بيغوفيتش وابنته سابينا بعد عودتهما من محادثات سلام في لشبونة، كما أن. . .

قاطعتُه بأدب:

- ومنذ متى كان العالَم بخير؟ ابتعدْ عن إدمان قراءة الصحف، فهي لا تسبِّب سوى الاكتئاب وارتفاع الضغط الدموي.

تناهى إلى مسامعنا صوت والدة جيهان القادم من المطبخ، فقال وهو ينهض بسرعة:

- إنها فريدة، غالباً ستطلب مني مساعدتها في إعداد السلطة، فهي تعلَم مدى إتقاني لها، انتظرني، سأعود بعد دقائق، أريد أن أسمع رأيك حول مستقبل العلاقات الفرنسية المغربية على ضوء. . .

لم أسمع بقية كلامه، فقد لحق بزوجته إلى المطبخ، لألتقط الصحيفة وأذهب نحو الشرفة الواسعة التي تحبّ جيهان اتخاذها كمكان للجلوس والقراءة.

لم تكن تضع مساحيق تجميل، ولا أظنّها كانت بحاجة إليها، فابتسامتها لوحدها قادرة على جعلها أجمل نساء الأرض في نظري.

حاولتُ الإمساك بيدها، فتمنّعت بدلالها الساحر المعهود، ثم خطَفت مني الجريدة بسرعة وتشاغلَت بتصفّحها، وقرأت بصوت مرتفع:

- الأحد 3 مايو 1992، برج العقرب (23 أكتوبر-21 نوفمبر): شخصيتك الموزونة والهادئة تخفي قلباً ينبض بالانفعالات والعواطف، تعمل باندفاع، بشغف وبإصرار للوصول إلى الحقيقة،

ولا تُظهر مشاعرك إلى العلن، نصيحة اليوم: لا تتجاهل الجانب الرومانسي في علاقتك، استعدّ لمفاجآت قريبة.

قلت باستنكار:

- ما هذا السخف؟ أتصدّقين هذا الكلام الفارغ؟

مَنَحتني نظرة عاشقة اخترقت بسهامها قلاع قلبي، ثم أجابتني:

- سمِّها عادة لم أستطع التخلص منها بعد، نحن نعلم أنّ ما تنشره فقرة الأبراج مجرّد كلام فارغ، لكننا نعجز في كلّ مرة عن مقاومة تلك الرغبة الجامحة في قراءتها، ببساطة لأننا نخشى المجهول وفي الوقت نفسه نتحرّق شوقاً لمعرفته.

كما عهدتها دائماً، تقول كلاماً عميقاً أعجز معه عن الردّ بطريقة مناسبة...

أخرجتُ من جيب سترتي وردة ملفوفة بعناية، فالتقطَتْها بأناملها، ثم تنسَّمت عطرها، وهي تقول:

- كعادتك، لا تنسى وردتي مهما حصل، أنصحك بتوقيع عقد اشتراك سنوي مع محلات بيع الورود في «بلاس بيتري»!

قلت في هيام وأنا أراقب خصلات شعرها التي داعَبَها نسيم الليل:

- فليكن عقداً أبدياً، الورد لا يستحقّ إلّا الورد...

ابتسمت في سعادة، قبل أن تقول بنبرة مغايرة:

- خبير بلغة الورود، وتميّز بين أنواع العطور بطريقة مذهلة، متأكّد من أنني أول أنثى في حياتك كما تكرِّر على مسامعي كلّ مرة؟

أجبتها بتخابث:

- إذا ما تجاوزنا حماقات المراهقة، وتجاهلنا بعض المغامرات الصغيرة التي سبقت تلك اللحظة المفصلية التي خلّدتها ساعتي

اليدوية في التوقيت المعلوم، فأنتِ فعلاً أول حبّ في حياتي...

ضربتني على كتفي بغضبٍ مصطنع، فأضفتُ:

- «لعَيْنَيْكِ ما يَلقَى الفُؤادُ وَمَا لَقِي
وللحُبّ ما لم يَبقَ منّي وما بَقي
وَما كنتُ ممّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قلبَه
وَلكِنّ مَن يُبصِرْ جفونَكِ يَعشَقِ»

فغَرَت فاها في دهشة حقيقية، وقد اصطبغت وجنتاها بحمرة الخجل، ثم قالت بتأثّر:

- شعر المتنبي؟ متى بدأتَ في الاطّلاع عليه أيها المجنون؟ أنت تتقدّم بسرعة خيالية لم أكن أتصورها! حدسي في محله، أنت ذكي جداً، لكنك تتظاهر بالعكس!

أجبتُها بابتسامة صافية، فأردفَت:

- سأستخدم هذه الوردة لاستذكار رقم صفحة الكتاب الذي أطالعه...

ألقيتُ نظرة خاطفة على الطاولة، فلمحتُ اسم الكتاب وقلت:

- أزهار الشرّ، رائعة الشاعر الفرنسي شارل بودلير.

قالت في حماس وهي تمسك بيدي:

- أجل، تعال، سأقرأ عليك بعض المقاطع!

فتحَت الكتاب بسرعة وقرأت:

- الحمق والضلال والإثم والشّح La sottise, l'erreur, le péché, la lésine,

تحتل نفوسنا وتجهد أجسادنا Occupent nos esprits et travaillent nos corps,

Et nous alimentons nos aimables آثامنا عنيدة وندمنا جبان
remords,

Comme les mendiants ونحن ندفع غالياً ثمن اعترافاتنا
nourrissent leur vermine.

شعرت بانقباضٍ مبهم وأنا أردِّد معها هذا المقطع الذي أحفظه عن ظهر قلب، لكنني تابعتُ معها تصفحها وقراءتها:

Pour ce vieux corps sans âme et mort parmi les morts!

أطلقت زفرة حارة وأنا أخاطب نفسي:

- نعم يا عزيزي شارل، كم أنت صادق في كلامك، فاقد الروح ميت بين الموتى!

تجاوزت تلك الرعشة الغريبة، وأنا أقترب من جيهان أكثر، حتى شعرتُ بأنفاسها تحاصرني.

- دعينا من كلّ هذا الآن، فأنا...

تخلَّت عن كل تمنّعها وهي تغمض عينيها وتجيبني بهمس ضعيف:

- أعلم... لا تقل شيئاً...

أمسكتُ جانبَي خصرها بكلتا يدي، وأغمضتُ عيني أيضاً

و...

وأتى جرس الباب ليجبرنا على العودة إلى أرض الواقع، فأبعدتني عنها برِفق وهي تقول:

- إنها العاشرة مساء، مَن سيطرق باب منزلنا في هذا الوقت المتأخر؟

ثم غادرت الشرفة راكضة وتركتني ألعنُ هذا الجرس الذي حرمني من شاعرية اللحظة و...

فوجئتُ بصوتها وهي تطلق صرخة قوية كادت تنتزع قلبي من مكانه، فتبعتُها بسرعة البرق وأنا أهتف باسمِها في خوف ولوعة.

وصلتُ إلى باب المنزل مرفوقاً بوالدي جيهان، فاتَّسعت عيناي في ارتياع وأنا عاجز عن الإتيان بحركة أمام هول المشهد.

حبيبتي فاقدة الوعي بين ذراعيه، وهو يحاول إسعافها بكلّ الطرق المُمكنة.

هزيلاً، ضعيفاً، مكسوراً، لكنه هو...

مَن زرتُ قبره رفقة جيهان، هناك في عين اللوح...

الطيّار المقاتل في صفوف القوات المسلحة الملكية المغربية:

علي السلامي...



الجزء الثالث

موت

الداء الحقيقي هو الخوف من الحياة، لا الموت.

نجيب محفوظ

أنا لست ملاكاً، ولن أكون كذلك، لكنني أبذل كلّ ما في وسعي لأكون إنساناً.

الراوي المجهول

الأسلحة يا عزيزي مثل النساء، جميلة جداً، رقيقة جداً، وخطيرة جداً، ومهما حاولت المراوغة لا يمكنك إلّا أن تستسلم لسحرها في النهاية.

برانكو رازناتوفيتش

1- لدغة العقرب[1]

السبت 31 يوليو 1993

في مكان ما من الريف البوسني:

«تجاهلت النظرات الفضولية التي رمقني بها بعضهم وأنا منزوية في ركن قصيّ لوحدي ومنهمكة في الكتابة، بعدما شعرتُ بأن القلم سيكون رفيقي ومؤنسي الوحيد في غربتي القسرية الجديدة».

قالتها بريجيت عندما أقلّتها السفينة من وهران إلى مارسيليا، وشاء القدر أن ينتابني الشعور نفسه بعد ثلاثين عاماً، وأنا أحتضن نور بذراعي اليمنى، وأشغل يدي اليسرى بالكتابة، رغم كلّ الأعين الفضولية التي استغربت مني هذا التصرف.

أطفال، عجزة، أمهات، وجرحى، جميعهم فرّوا من جحيم القتال المستعر حول سراييفو، بحثاً عن ملاذٍ أكثر أمناً.

كما قال برانكو، يتعلّق الأمر بسيارة نصف نقل كانت تُستخدم سابقاً لشحن الخضار والفواكه، قبل أن يحوّلها صاحبها العم صالح

---

(1) ابتداء من هذا الفصل، شابَ بعض الاضطراب خطّ الراوي وطريقته في السرد، ما يدلّ على أنه واصَلَ كتابة مذكراته في ظروف أقلّ ما يُقال عنها أنها كارثية!

سليمانوفيتش إلى وسيلة مواصلات فرضتها ظروف الحرب، بين ضواحي سراييفو وموستار، وتكدَّسنا جميعنا فيها.

وجدتُ صعوبة كبيرة في التواصل مع العم صالح، حتى أفهم منه بعض التفاصيل المتعلقة بالرحلة، فهو لا يُتقن إلّا البوسنية، التي لا أستوعب معظم مفرداتها إلّا بمشقة، ما اضطرّه للاستعانة بالإشارات، وتكرار كلامه ببطء، وأكثر من مرة، حتى تتّضح الصورة أمامي، ولو بشكل جزئي.

ما فهمته أنّ الرحلة بين سراييفو وموستار جنوباً، تعني بشكلٍ أو بآخر الدخول إلى الحدود التاريخية لمنطقة الهرسك، والتي تعتبر موستار عاصمتها.

قال كلاماً كثيراً عن الطريق الرئيسة التي تمرّ عبر مناطق عجزت عن تذكُّر أسمائها المعقّدة، ومنها إلى مدينة تُدعى كونيتس، قبل الدخول إلى موستار من الشمال الشرقي[1]، وهي الأسهل بحسب قوله، لأنها تتجنّب المناطق الجبلية الوعرة قدر الإمكان، والأقصر، لأنّ السفر عَبرها لا يستغرق سوى ساعتين أو ساعتين ونصف ساعة على أبعد تقدير، لكنها الأخطر، لأنها تستلزم المرور عبر سفوح جبل إيجمان الذي يشهد أعنف المعارك بين القوات البوسنية والميليشيات الصربية، كذلك الشأن بالنسبة إلى جبل آخر ميَّزتُ من اسمه أنه يرمز إلى البياض أو ما شابه[2]، يعرف بدوره معارك طاحنة، كما أن الطرفين يتصارعان على كونيتس التي تشكّل حلقة

---

(1) يقصد المرور عبر لوكافيتسا وبعدها إليدجا قبل الوصول إلى كونيتس ومنها إلى موستار.

(2) جبل بيلاشنيتسا أو الجبل الأبيض.

وصل رئيسة في ما بات يُعرف بحرب الممرات، التي أطلقها الصرب منذ متمّ العام الماضي، بهدف السيطرة على طرق الإمداد والربط بين المناطق التي احتلوها في شرق وشمال ووسط وغرب البلاد، وهُو ما تحاول القوات البوسنية منعه.

توجد طريق أخرى تتجنّب المدن الرئيسة وتلتف شرقاً عبر القرى والأرياف البوسنية، لكنها ستُجبرنا على المرور عبر سفوح الجبال الوعرة والمقفرة، ما سيجعل رحلتنا تستغرق أكثر من ست ساعات، لكن الأخطر من هذا أنها لا تبتعد كثيراً عن مناطق سيطرة الصرب شرقاً، عبر حزام يضمّ أسماء قرى وبلدات كثيرة معقّدة وصعبة النطق.

باختصار شديد، نحن بين فكّي كماشة، وأمام خيارين أحلاهما مرّ، ما يُجبرنا على اختراق خط النار واللجوء إلى الخيار الثاني الأقل خطورة، بحُكم تأكيد العم صالح معرفته بأسرار الطريق ومواقع الحواجز الصربية لتجنبها[1].

رغم أنّ ظروف السفر لم تكُن تسمح بهذا الترف، إلّا أنّ مشاهدات الطريق أثبتت لي أن البوسنة لا تستحق هذه الحرب المدمِّرة.

---

(1) في تلك الفترة من سنة 1993، وبحُكم اتصال شرق البوسنة بالحدود الصربية، فقد امتدّت سيطرة الميليشيات الصربية في الجبهة الشرقية لتصلَ إلى بيلجينا وزفورنيتش وفيشغراد وفوتشا والأرياف المحيطة بها، فيما حوصِرَت جورازدي بالمدرّعات، وحدها سربرنيتسا التي أعلِنَت منطقة آمنة تحت حماية قوات الأمم المتحدة مقابل تسليم المقاتلين البوسنيين لأسلحتهم، نستخلص من هذه المعطيات أنّ الراوي لم يُجانب الصواب عندما سمّى الممر الضيق الرابط بين سراييفو وموستار بخط النار الواقع بين فكي كماشة.

عروس البلقان التي تكالَب عليها الضباع وتناوبوا على اغتصابها بوحشية لا مثيل لها. . .

أحياناً يدفعك الخوف الشديد إلى مراقبة كلّ ما تلتقطه عيناك من مشاهد مهما بلغت تفاهتها، وربما تجاهلتها ساعة الطمأنينة والأمان مهما بدت تفاصيلها واضحة!

وأحياناً أخرى يضرب لك القدر موعداً حاسماً مع الجمال، لكنه يُلاعبك ويأتي على حين غرّة وفي أسوء وقت ممكن!

مثلي تماماً. . .

لم أستمتع بروعة طبيعة مسقط رأسي في عين اللوح كما يجب، ويتراءى أمام عيني إبداع الخالق في أرياف البوسنة، دون أن أجد الوقت أو المزاج الرائق للارتماء في أحضانه.

أشجار الزان والتنّوب التي تضمّها غابات شاسعة على طول الطرق الجبلية الملتوية، مع غنى واضح بأنواع نباتية لم أرَ مثلها من قبل وتَحفَل بها المراعي الخضراء وجوانب البحيرات الجبلية، فيما تحرّرت القمم الشامخة من الرداء الأبيض الذي كساها في الشتاء، لتكتسب بهاء مغايراً تلمس فيه دفء الصيف وهدوء الطبيعة.

هذه الطبيعة التي لم تتدخّل يد الإنسان إلّا لتدمِّرها. . .

لم أتبادَل كلمة مع مرافقي السفر، باستثناء بعض الإشارات السريعة، إمّا لطلب مياه الشرب، أو السؤال عن الساعة، وحدها نور مَن أصرّت على ملاعبتي وإطلاق ضحكاتها الصافية والبريئة.

الغريب هنا أنني أجهل إنْ كانت مجرّد ضحكات عفوية، أم أنها دليل إضافي على سرعة بديهة هذه الطفلة الذكية، التي لا أستبعد تعمّدها خَلق جوّ من المرح بيننا، لعلّها تساهم في تبديد سحابة البؤس المخيمة على الجميع.

وكذلك كان، فقد شارَكَها الأطفال اللعب، وأضاءت الابتسامات وجوهاً حسبتها من شدّة الحزن لا تضيء، وتشارك الجميع، شيباً وشباباً وصغاراً، غناء مقطوعات من الفلكلور المحلي، لم أفهم معظم مفرداتها، لكنني تفاعلت مع ألحانها باستمتاع كبير.

يا لغرابة المشهد، تفصلنا كيلومترات قليلة عن مواقع الاشتباكات الضارية بين القوات المتصارعة، ونبتعد بمسافات قصيرة عن تمَوْقع أولى خطوط التماس مع مناطق السيطرة الصربية، ورغم ذلك نخترق خطوط الخوف والنار، نضحك ونغني!

لو أننا عقلاء لكان تصرّفنا هذا تعبيراً واضحاً عن الجنون، ولو كنّا مجانين لكان ما فعلناه عين العقل...

علمتُ من مراهق أشقر يجلس بجانبي أنّ عقارب الساعة تقترب من الإعلان عن الرابعة بعد الزوال، عندما أصدَرَ محرّك السيارة حشرجة مفاجئة أجبرتها على السير بصعوبة لبضعة أمتار قبل أن تتوقّف وسط المروج الخضراء المقفرة.

حملتُ حقيبتي ونزلت من السيارة وأنا أهتف متسائلاً:

- ماذا هناك؟

كذلك الشأن بالنسبة إلى معظم مرافقي السفر، ممّن انتابهم الخوف الشديد، فتناهى إلى مسامعي صوت الهمهمات المترقّبة والمذعورة.

غادر العمّ صالح السيارة وألقى نظرة سريعة على المحرك، ثم خاطبنا بنبرة تعمّد أن يوضحها بالشكل الكافي حتى أفهمها:

- لا تقلقوا، إنه مجرّد عطل بسيط لن يستغرق إصلاحه سوى دقائق معدودة، يمكنكم استغلالها لأخذ قسط من الراحة!

قلتُ بالعربية:

- هل تسخر منّا أم ماذا؟ نحن نسابق الزمن للهرب من كلّ الأخطار المحدقة بنا والوصول إلى موستار بأقصى سرعة، وأنت تتحدّث عن الراحة!

أجابني بلا مبالاة واضحة:

- لا أفهم ماذا تقول، لكن يبدو من لهجتك أنك غاضب، اطمئن، سنستأنف رحلتنا بعد قليل، المكان مؤمن وبعيد تماماً عن أية تهديدات. . .

سألته:

- أين نحن الآن؟

رفع رأسه وأدار بصره في المكان مجيباً:

- نحن الآن في الأرياف الجبلية، بين بلدتَي كروتشكا وجيزيرو، تفصلنا تسعون كيلومتراً فقط عن موستار.

أمسكت نور بركبتي ودفعتها برفق، فرفعتها إليّ بذراعي اليمنى وأنا أخاطبها:

- لا تقلقي يا حبيبتي، نحن. . .

لكنها قاطعتني بسرعة وهي تهمس في أذني:

- عمي، أريد أن. . . أنا بحاجة إلى. . .

قالتها ثم أشاحت بوجهها وقد احمرّت أذناها خجلاً، فأجبتها مبتسماً:

- آه فهمت، سأرافقك!

قلتها وأنا أمدّ بصري ناحية تلة قريبة غطّتها الأشجار، وأراقب مرافقي السفر الذين تفرّقوا غير بعيد عن المكان، محاولين الترويح عن أنفسهم بالحديث أو الاكتفاء بالصمت والمراقبة.

أنزلتُ نور وأمسكتُ بيدها ثم دفعتها للركض مضيفاً:

- **هيا بنا...**

* * *

- **كلّ شيء تمام؟**

قلتُها وقد أشحت بوجهي، فأجابتني ببراءة:

- **نعم!**

استدرتُ لأساعدها على هبوط التلة التي صعدنا إلى قمتها واحتمينا بكثافة أشجارها حتى تتوارى نور عن الأنظار لقضاء حاجتها، لكنني فوجئتُ بها تمشي في الاتجاه المعاكس.

لم أفهم طبيعة تصرّفها الغريب، فانعقد حاجباي في تساؤل، لأنتبه بعد لحظات إلى أنها تطارد سنجاباً صغيراً جميل الشّكل.

رفعت صوتي معاتباً:

- **نور، هذا ليس وقتاً مناسباً للّعب، عودي حالاً!**

لم تأبه الشقيّة لهتافي، فلحقتُ بها، لكنها واصلت خطواتها الحثيثة التي تحوّلت إلى ركض سريع.

أتعَبَني الجري خلفها، لكنني أمسكتُ بها أخيراً، وجذبتها إليّ بقسوة، وأنا أصرخ في وجهها:

- **ألا تفهمين؟ يجب أن نعود الآن، المكان خطر جداً!**

أجابتني بدموع سالت على خديها، وبكاء قطع نياط قلبي، وهي تردِّد:

- **فيفيريتسا... فيفيرتسا...**[1]

لم أفهم ماذا تقصد، لكنني عانقتها معتذراً وأنا أقول:

---

(1) Vjeverica... Vjeverica (سنجاب! سنجاب!).

- آسف يا حلوتي، لن أكرّرها مرة أخرى، وأنت كذلك ستكونين مطيعة، اتفقنا؟

ردَّت بإيماءة من رأسها، فمسحتُ دموعها بيدي، وأمسكتُ بيدها مشجِّعاً، لنعود سوية و. . .

وافتضّ صوت الرصاص الكثيف بكارة الصمت المطبق على المكان. . .

انتفض جسدي بقوة، وشهقت نور في رعب، ونحن نسمع أصوات إطلاق النار، فحملتها بين ذراعي واقتربت من قمة التلة بخطى وئيدة لأستطلع الأمر و. . .

اتسعت عيناي في ارتياع، وأنا لا أكاد أصدق ما أرى، حتى خيِّل إليّ أنه مجرد فيلم رعب رديء يجري تصوير لقطاته أمام ناظري.

لكنها الحقيقة. . .

والحقيقة أحياناً أبشع من أن تكون قابلة للتصديق. . .

كادت نور تطلق صرخة مدوية، لكنني كتمتُ أنفاسها بسرعة، قبل أن أفطن إلى أنّ الأسلم لها هو حجب عينيها عن رؤية هذا الهول الذي يعجز أقوى الرجال عن استيعابه، فما بالكَ بطفلة بريئة في الخامسة من عمرها!

فرقة صربية مكوّنة من عشرين مقاتلاً، ميَّزت من ملابسهم أنهم ينتمون إلى وحدة «العقارب». . .

قاموا بمهاجمة السيارة ومعها العم صالح ورفاق السفر الذين تركتهم قبل دقائق معدودة، ولم يضيّعوا الكثير من وقتهم في الاستجواب أو الاستفسار عن حقيقة المسافرين أو وجهتهم المفترضة، بل أطلقوا رصاص رشاشاتهم الآلية على الرجال، بمن

فيهم العم صالح، الذي حاول الدفاع عن الآخرين ببندقية صيد قديمة، فأردوه قتيلاً في الحال، لتبدأ المجزرة الحقيقية...

لو اكتفوا بإطلاق النار على العُزّل لكان ذلك أسلم وأخفّ وقعاً على النفس، وعلى العين التي أراد لها القدر أن تشهد كلّ هذه التفاصيل الموْغِلَة في السادية والبشاعة.

فقد...

(.......................................)[1]

أغرَقَت الدموع الصامتة عيني، وشعرتُ بأنّ الدوار العنيف سيقذف بي إلى هوة سحيقة من اللاوعي، ثم عجزتُ عن كبح جماح السائل الساخن الذي بلّل سروالي، فلم أجد بداً من حمل نور بين ذراعي والركض في الاتجاه المعاكس، بأقصى سرعة تسمح بها أعصابي المنهارة...

أركض...

أتعثر...

أسقط...

أتأكد من أنّ نور بخير...

أنهض من جديد...

أدعو الله ألّا تخونني رجلاي الوهنتان مرة أخرى...

أواصل الركض نحو وجهة غير معلومة...

أهرب...

---

(1) رغم أنني مطالَبٌ بعرض محتوى المذكرات كما هو، دون زيادة أو نقصان، إلّا أنني مضطرّ لحذف المقطع الذي وصف فيه الراوي بدقة شديدة ما رأته عيناه من أهوال ارتكَبَها مقاتلو وحدة العقارب بحقّ المدنيين العزّل، وذلك احتراماً لمشاعر القرّاء.

من القتلة...

لا...

بل ممّا رأته عيناي من أهوال لا أصدِّق أنّ مَن ارتكبها بشر مثلنا...

أنا نذل... جبان...

لماذا بقيتُ حياً؟ لماذا لم أفعل شيئاً لإنقاذهم؟

نعم، لم أكن لأفعل شيئاً يُذكر، ولكن الموت معهم أشرف لي من الفرار بهذه الطريقة الجبانة المخزية!

ولكن...

ما ذنب نور، التي لم تكن لتَسلم من بطشهم ووحشيتهم؟

هل نحن محظوظان؟ أم...

أواصل الركض، وأنا أستعيد كلّ ما حكاه لي برانكو عن فظاعات وحدة «العقارب» أو Škorpioni باللغة البوسنية، والتي كنت شاهداً على إحدى لدغاتها القاتلة.

قال إنها فرقة شبه عسكرية مشهورة، يقودها سلوبودان ميديتش، وتتفنَّن في ارتكاب الجرائم السادية والوحشية، صحيح أنّ كلّ الميليشيات الصربية الأخرى تفعل ذلك، لكن أحداً لم يكن ليَصل إلى ربع ما تقترفه هذه الفرقة المرعبة، التي يتناقل الجميع خبر تلقّيها المباركة والدعم المباشر من الكنيسة الأرثوذكسية في بلغراد، ما متَّعها بنوع من الاستقلالية والتمرّد حتى على القيادة الموحَّدة للميليشيات الأخرى، فكانت غاراتها المفاجئة على المدنيين العُزّل في الأرياف البوسنية مألوفة جداً، دون اكتراث بحُرمة خطوط التماس أو اتفاقيات وقف إطلاق النار، كلّ هذا لأنَّ تعصُّبها الأعمى جَعَلَها مؤمنة بأنّ البوسنة جزء لا يتجزأ من صربيا الكبرى.

صربيا الكبرى التي لا مكان فيها للبوشناق المسلمين أو الكروات الكاثوليك. . .

وهكذا تركَت الفرقة توقيعها الممهور بالدم على سلسلة من الجرائم المُوغِلة في الوحشية كحرق القرى الآمنة، اغتصاب النسوة أمام أعين الأبناء، بقر بطون الحوامل وقتل الأجنّة أو حتى دفنِ الجرحى أحياء.

لكن الأخطر من ذلك كله هو إصرار عناصر الوحدة الإرهابية على ترك بصمة مميَّزة دالة عليهم، وهي رسم علامة الصليب بالسكاكين على أجساد الضحايا، وقطع أصبعين وترك ثلاثة أصابع فقط في أيادي قتلاهم، في إشارة صريحة إلى عقيدة التثليث في الديانة المسيحية.

عقول مريضة لا أعتقد بأنّ فصيلاً أو جيشاً أو جماعة مهما بلغت قسوتها وساديّتها ستتفوق عليها يوماً ما!

أواصل الركض حتى تنقطع أنفاسي وأجدني بالقرب من بحيرة جبلية مترامية الأطراف وشديدة الزرقة، تحدّها المرتفعات من كلّ جانب وتحفّ جوانبها الأشجار الباسقة والمساحات الخضراء الواسعة.

هنا اقتنعتُ أخيراً بأننا ابتعدنا بمسافة كافية، فتركتُ يد نور وركعتُ إلى جانب البحيرة، أفرّغ ما في جوفي بعدما عجز جسدي المكدود عن التحمّل أكثر من ذلك.

لا يمكن أن يكون ما رأيته حقيقياً. . .

مستحيل!

القذائف المنهمرة على سراييفو أرحَم بكثير من هذا الرعب الدموي!

غمرتُ وجهي بمياه البحيرة الباردة، محاولاً إقناع نفسي بأنّه مجرد كابوس سأستفيق منه بعد لحظات.

ولكن هيهات...

لقد كنتُ شاهداً بالفعل على مجزرة يشيب لهولها الولدان...

أمسكَت نور بيدي، وقد حمَلت عيناها الخضراوان كلّ معاني الخوف، فعانقتها محاولاً طمأنَتَها، قبل أن أستسلم لنوبة بكاء ضاعَفَت من جزعها أكثر، فانهمَرَت دموعها أيضاً وهي ملتصقة بي من شدّة الفزع.

كلّ هذا وأنا عاجز عن استيعاب الحقيقة الأكثر خطورة...

لقد ضعنا في أرياف البوسنة، وما من سبيل للوصول إلى موستار...



2- الرمال الملتهبة

قصاصات متفرقة من صحيفة «الوطن» المغربية تمّ العثور عليها في حقيبة الراوي[1]

العدد 1359 - الثلاثاء 2 يونيو 1992:

* * *

وصفات سريعة

عصير البرتقال بالجزر

يُعتبر عصير البرتقال بالجزر أحد أفضل العصائر المنعشة والصحية نظراً إلى احتوائه على نسبة عالية من الألياف ومساهَمته في تخليص الجسم من السموم، نقدِّم لكِ سيدتي طريقة إعداده.

المكونات:

جزرتان صغيرتان.

برتقالتان.

---

(1) تحدّثتُ في المقدمة عن الصعوبات الجمّة التي واجهتني في ترميم قصاصات الجرائد التي أصيبت بالتلف الجزئي، نظراً إلى جودتها الرديئة، سواء على مستوى الورق المستعمَل أو حبر الطباعة، ما حرَمني من إنقاذ محتواها بشكل كامل، وعليه فإنّ بعض الأسطر أو الفقرات الواردة في هذه القصاصات لن تكون كاملة وسيتم وضع علامة (. . .) للإشارة إليها.

1/ 2 معلقة من مسحوق (. . .)

السكر (اختياري).

1 لتر من الماء.

طريقة التحضير:

قومي بتقشير البرتقال والجزر واغسليهم جيداً مع الحرص على تقطيعهم إلى شرائح مناسبة الحجم.

جهّزي وعاء متوسطَ الحجم لإضافة قطع الجزر بداخله مع كمية مناسبة من الماء وضعيه على النار لدقائق.

بعد الانتهاء من سلق الجزر ضعي قطع البرتقال مع الجزر والزنجبيل في وعاء الخلط، واخلطيهم جيداً إلى أن يصبح المزيج ناعماً وسلساً.

قومي بتصفية العصير باستخدام المصفاة قبل التقديم والاستمتاع بالطعم الرائع.

* * *

حكاية عائد

الحلقة الأولى: السقوط

إنه النقيب الطيار في صفوف القوات المسلّحة الملكية علي السلامي، الذي شغَلَت حكايته كلّ المغاربة، إثر عودته المفاجئة من معتقلات العار في تندوف، هو الذي أسقط الانفصاليون طائرته المقاتلة وأعلنوا عن موته بشكل رسمي!

صحيفة «الوطن» كانت سبّاقة في الوصول إلى الطيار البطل، وأجرَت معه سلسلة من المقابلات كشف من خلالها عن حقيقة لغز موته المُعلَن والأهوال التي واجهها كأسير في معتقلات الانفصاليين، ثم تمكّنه من الفرار والعودة إلى حضن الوطن والأهل، وهي كلها

معلومات خاصة وحصرية لجريدتنا التي عوّدتكم دائماً على التميّز في نقل الخبر.

ننشر محتوى هذه المقابلات على شكل حلقات أسبوعية، ترقّبوها كلّ يوم ثلاثاء.

اسمي علي السلامي، أبصرتُ النور في قرية عين اللوح الأطلسية يوم 13 مايو 1964، وبعد سنوات قليلة انتقَلَت عائلتي إلى الرباط، حيث تابعتُ دراستي هناك، فحصلتُ على شهادة البكالوريا شعبة العلوم الرياضية من ثانوية مولاي يوسف العريقة سنة 1983، ثم بعدها (. . .)

بعد عودتي من مدينة تور الفرنسية التي اجتزتُ فيها عدّة دورات تدريبية بنجاح تام، تسلّمت مهامي كطيّار مقاتل في صفوف القوات المسلحة الملكية المغربية، وتمّ استدعائي للالتحاق بالجبهة الجنوبية سنة (. . .)

استقرّ الوضع بشكل نسبي بعد معركة كلتة زمور، واقتنع العدو بأنّ الجدار الدفاعي المغربي الذي اكتمل بناؤه سنة 1987 قد قطع الطريق تماماً أمام مخطّطات الانفصاليين الرامية إلى تثبيت حالة اللااستقرار في الصحراء المغربية.

لا يمكنني تقديم معلومات دقيقة ووافية عن الجدار الرملي، فهي تدخل ضمن بند السرية المطلقة، لكنني سأوضح بعض الأمور للقارئ المهتم وأقول إن الأمر يتعلق بمرتفع رملي/صخري يصل ارتفاعه إلى 3 أمتار، وتخترقه مواقع للمراقبة تجُوبها دوريات منتظمة، ولا يكتسب أهميته فقط بوصفه حائطاً رملياً وإنما لاحتوائه على شريط ألغام مضادّة للأفراد والآليات وشبكة رادارات متطوّرة للإنذار المبكر، تخطر القوات المتمركزة بأيّ خرق متوقع.

استغرق بناء الجدار الرملي سبع سنوات، بين عامي 1980 و1987، على 6 مراحل:

الأولى بين 1980 و1982: بين راس الخنفرة وبوجدور على طول 500 كلم، لحماية بوجدور والسمارة والعيون وبوكراع وراس الخنفرة.

الثانية بين 1983 و1984: بين جنوب غرب بوكراع وتورغت على طول 300 كلم، لحماية أمغالا.

الثالثة 1984: انطلاقاً من الزاك لحماية الجديرية والحوزة على طول 320 كلم.

الرابعة بين 1984 و1985: لحماية المحبس والفارسية على طول 380 كلم.

الخامسة 1985: انطلاقاً من جنوب غرب أمغالا إلى البيردة على طول 670 كلم، لحماية كلتة زمور وبئر أنزران والداخلة.

السادسة 1987: لحماية أوسرد وتيشلا وبئر كندوز وصولا إلى الكركرات، على طول 550 كلم.

أضف إلى ذلك أن (. . .)

(. . .) ستقبل باتفاقية لوقف إطلاق النار قد يتمّ توقيعها أواخر (. . .)

(. . .) وهكذا أقلعتُ بطائرتي المقاتلة من طراز إف-5 في إطار مهمة مراقبة روتينية، لاستطلاع الوضع والتأكّد من تراجع العدو عن محاولاته المستميتة لاختراق الجدار، وهي المحاولات التي أثبتت فشلها الذريع، خاصة بعد هزيمته النكراء في معركة كلتة زمور، والتي دارت رحاها بين شهري أكتوبر ونوفمبر 1989، وأشرف عليها القيادي الانفصالي المعروف لحبيب أيوب شخصياً.

السبت 3 أغسطس 1991، يوم صيفي قائظ، التزمتُ فيه بالمهمّة المُوكَلة إليّ، وتتعلّق بمراقبة خطوط التماس في الجزئين الأول والثاني من الجدار الأمني، والإبلاغ عن التحرّكات المريبة، في الجهة المقابلة لخطّ السمارة بوكراع في اتجاه أمغالا.

إجراءات اعتيادية، لم تحمل معها أيّ جديد، فالمنطقة مؤمَّنة ولا دليل على وجود محاولات اختراق أخرى، فقرَّرت إنهاء الطلعة الجوية والعودة إلى القاعدة.

فجأة رصدت رادارات المقاتلة تحرّكاً غريباً خلف خطوط العدو، بالقرب من تفاريتي، فأعلمتُ القيادة التي أمرتني باستطلاع حقيقة هذا التحرّك وإعلامها بما يجري أولاً بأول.

كان رتلاً عسكرياً ضخماً، قوامه عربات مدرّعة ودبابات وسيارات دفع رباعي، يتمَوقَع بين تفاريتي ومحيرس قرب الحدود مع موريتانيا، ويبدو أنه يستهدف الاقتراب من الجدار المغربي.

حلَّقت فوق الرتل على ارتفاع منخفض، وكنت في موقع يسمح لي بقصف الموكب وإجباره على التراجع، لكن القيادة أوصتني بالاكتفاء بالمراقبة وإبلاغها بتطورات الوضع، كما إنّ الرتل نفسه شعر بوجودي فخفّف من سرعته، بل وتراجع عائداً إلى مواقعه.

كان بإمكاني الاكتفاء فعلاً بما وصلت إليه، بخاصة بعدما انسحبت المدرعات المعادية، لكنني وجدتني مدفوعاً بقوة خفيَّة لملاحقتها، ليقيني بأنّ هذا التحرّك يحمل وراءه الكثير من الغموض.

ثم حدَث ما لم يكن في الحسبان...

كنت قد اقتربت بدرجة كبيرة من تفاريتي، عندما (...)

بذلت كلّ ما في وسعي للمناورة والإفلات من ملاحقة صاروخ

سامّ المُضاد للطائرات، وانتابني غضب هائل وقد شعرت بأنني وقعت في كمين مُحكَم استدرجني مدبِّروه إلى المصيدة بسهولة تامة.

احتكّ الصاروخ بالجناح الأيمن، فتجاوزته بصعوبة بالغة، لكن الرادارات تأثّرت بشكل كبير، وفقدت الاتصال مع القيادة، وعجزتُ عن التحكم في مسار الطائرة بشكلٍ مريح.

واضح جداً أنها نسخة متقدِّمة من صواريخ سام الشهيرة، ويبدو أنّ الرتل العسكري الهارب كان فخاً لاستدراجي واختبار فاعلية السلاح الجديد!

لكن الصاروخ اللعين لم يكتفِ بذلك، فقد دارَ دورته واستهدفني مرة أخرى، مصيباً ذيل الطائرة التي لم تفلح مناوراتي اليائسة في تجنيبها هذا المصير.

حاولت الحفاظ على رباطة جأشي، (. . .) فقدتُ التحكُّم في مقاتلتي بشكل تام، ولأنني تلقَّيت تدريبات مكثفة للتعامل مع هذا الوضع المعقَّد، فقد (. . .)

لكن المظلة لم تفتح في الوقت المناسب، فاضطررتُ للتعامل معها يدوياً. . .

كلّ هذا وأنا أراقب بعينين متحسِّرتين ما تبقى من مقاتلتي الحربية التي هوَت بسرعة فائقة وقد التهمتها النيران، قبل أن ترتطم بالأرض ويتردَّد صدى انفجارها المدوّي في أرجاء المكان.

رغم أنّ الأمر يتعلق بكثبان رملية تستطيع تحمّل قوة الاصطدام، إلّا أنّ هبوطي بالمظلّة لم يكن سلساً، فاجتاحت الآلام الرهيبة ذراعي اليسرى، وإن أدركت بخبرتي أنه مجرد التواء بسيط وأنها لم تكسر لحسن الحظ.

لم أضيِّع وقتي أكثر من ذلك، فقد دفنتُ المظلة في الرمال، وأخرجتُ محتويات صندوق الطوارئ الصغير الذي انتزعته من كرسي قمرة القيادة قبل انفلاته.

جهاز اتصال لاسلكي، وخريطة مفصَّلة لتضاريس المنطقة، وقارورة ماء قد تساعدني على تحمّل صعوبات البحث عن أقرب نقطة تسمح لي بإجراء اتصال بالقيادة لتحديد موقعي بشكل دقيق.

تصبَّب العرق من جبيني غزيراً، وقد راودني إحساس قويّ بأنني أضعف من أن أحتمل هذه الحرارة المفرطة، لكنني تجاهلتُ كل آلامي، وخشيتي الكبيرة من إمكانية لحاق قوات العدو بي لأسري أو ربما قتلي، ثم انطلقت...

وحيداً تائهاً، في صحراء ذهبية الرمال ومترامية الأطراف...

* * *

سراييفو تستغيث!

إدانة دولية واسعة لمجزرة فاسا ميسكينا ومطالبات بتدخّل القوى العظمى لوقف العدوان الصربي

تواصلت ردود الفعل الغاضبة على الصعيد الدولي، بعدما نقلت وسائل الإعلام صور أشلاء ضحايا مجزرة فاسا ميسكينا في سراييفو، والتي استهدفت من خلالها الميليشيات الصربية يوم 27 مايو الماضي طابوراً لشراء الخبز، ما خلَّف سقوط 19 قتيلاً و157 جريحاً، وخرجت مظاهرات في دول عربية وإسلامية وأوروبية تطالب القوى العظمى بالتدخل لوقف العدوان الصربي على مسلمي البوسنة الذين يعانون من (...)

وقد ناشَدَ الرئيس البوسني علي عزت بيغوفيتش، كلّ الأطراف المعنية، وعلى رأسها حكومات الدول العربية والإسلامية، لإبداء

موقف حازم من الوحشية الصربية التي تنذر بتحوّل منطقة البلقان إلى برميل بارود قد يؤدي انفجاره إلى احتراق المنطقة بأكملها.

من جهته، دعا الأمين العام للأمم المتحدة، المصري بطرس بطرس غالي، إلى ضبط النفس والاحتكام إلى العقل في (...)

* * *

وأخيراً!

عصابة «السماوي» التي أرعَبَت ساكنة الدار البيضاء

تقع في قبضة العدالة

تمكَّنت المصالح الأمنية بمدينة الدار البيضاء من إلقاء القبض على أفراد عصابة متخصِّصة في النصب والاحتيال بطريقة «السماوي»، مكوّنة من خمسة أشخاص، ويتزعمها (م.ن) الذي ينحدر من مدينة (...) وأكدت مصادر مطلعة لصحيفة «**الوطن**» أنّ التحقيقات الأولية مع أفراد العصابة قد أثبتت ضلوعهم في النصب على سيدة أعمال شابة، سرقوا منها (...)

* * *

3- بوصلة الضياع

السبت 31 يوليو 1993

في مكان ما من الريف البوسني:

راجعت محتويات حقيبتي، وأنا أراقب قرص الشمس التي ستبدأ رحلتها نحو المغيب بعد ساعات قليلة.

سيحلّ الظلام ونحن تائهان في الريف البوسني المسكون بالصمت المخيف...

قالت نور بصوت مرتجف:

- هل ضعنا؟

تصنَّعتُ الحزم وأنا أجيبها:

- لا... ليس بعد...

انحنيتُ لأعيد ربط خيوط حذائها الصغير وأحكم إغلاق أزرار معطفها، قبل أن أضيف:

- لقد وعدتُ ماما أميرة رحمها الله بأن أعتني بك، لن أحنث بوعدي وسنبحث عن بابا رامز حتى نجده.

ثم أريتها ما أخرَجْته من الحقيبة:

- هذه خريطة صغيرة للبوسنة، زوَّدني بها الوغد رايلي فور وصولي إلى سراييفو، لم أكن أعلم بأنها قد تفيدني يوماً ما!

لكنها أشارت إلى يدي اليسرى وهي تسألني باهتمام:

- ما هذه؟

قلبت الأداة بين أصابعي ثم أجبتها:

- إنها أداة تساعدنا على معرفة الاتجاهات، قال برانكو بأننا قد نحتاجها في سفرنا هذا، لا أعرف اسمها باللغة البوسنية، لكننا نطلق عليها بالعربية اسم البوصلة.

بدا واضحاً أنها لم تفهم شيئاً، لكنها ردّدت الكلمة ببطء محاولة استيعابها:

- بو... بوص... بوصلة...

وأردفت:

- كيف تستعمل؟

قلت متلعثماً:

- إنها سهلة الاستخدام و...

صمتُّ وأنا أعتصر ذهني محاولاً تذكّر بعض الأساسيات المتعلقة بالاتجاهات، والتي أجهل فعلياً كيف تُستعمل البوصلة لتحديدها!

رسمت على وجهي ابتسامة لم أكُن بحاجة التطلُّع إلى صفحة البحيرة حتى أعلم أنها باهتة ومصطنعة، ولو أنها السبيل الوحيد لطمأنة الطفلة الخائفة.

وطمأنتي أنا أيضاً...

وضعتُ الخريطة على الأرض المنبسطة، وفوقها البوصلة، محاولاً تحديد الاتجاه بالاعتماد على موقعنا الحالي، فخاطبتُ نفسي بصوت مسموع قائلاً:

- قال العم صالح رحمه الله إننا في الأرياف الجبلية، بين بلدتَي كروتشكا وجيزيرو، على بُعد تسعين كيلومتراً من موستار جنوباً، عندما حصلت المجزرة وهربنا كان تحديد موقعنا آنذاك آخر ما يمكن أن أفكّر فيه، إلى أن وجدنا أنفسنا هنا، في هذه البحيرة الجبلية الرائعة التي تحيط بها المرتفعات وتطلّ عليها من كلّ جانب. . .

ضاقت عيناي وأنا أجاهد لفكّ الرموز الماثلة أمامي، قبل أن أكمل كلامي:

- إذا اعتمدنا على هذه الإشارات، وتتبَّعنا المسار على الخريطة، سنُدرك أننا موجودان قرب بحيرة تدعى بوراتشكو، غير بعيد عن بلدة جيزيرو، على الأقل عرفنا أين نحن الآن.

تابعتني بعينيها الجميلتين في محاولة لفهم كلامي، ما أشعرني بجسامة المسؤولية الملقاة على عاتقي، فتجاوزتُ كلّ مخاوفي أو تظاهرتُ بذلك على الأقل وأنا أربت على خدها بأنامل مرتجفة، ثم واصلتُ ترتيب المعلومات المتصارعة في ذهني:

- لا يمكننا العودة إلى موقع المجزرة بطبيعة الحال، لقد أحرقوا السيارة وكوَّموا الجثث واقتادوها عبر عرباتهم المدرعة إلى وجهة مجهولة لدفنها وإخفاء معالم الجريمة كالمعتاد، تقول الخريطة إن موستار في الجنوب الغربي من موقعنا هذا، بقي أن نحدِّد مسارنا إلى هناك.

حدَّدت بقلمي على الخريطة نقطة وجودنا قرب بحيرة بوراتشكو، ونقطة الوصول المفترضة إلى موستار، وقلت بهدوء:

- أذكر أنني تابعتُ برنامجاً وثائقياً على التلفاز، تضمَّن عرضاً مبسّطاً لطريقة تحديد الاتجاهات، من سوء حظي أنني لا أتمتّع

بذاكرة حديدية حتى أستعيد كلّ التفاصيل، لكنني متأكّد ممّا سأقوم به الآن.

نظرتُ إلى الإبرة المغناطيسية للبوصلة، وتأكّدت من ثباتها، ثم قمتُ بتحريك مؤشّر الدرجات، حتى أصبح السهم محدّد الاتجاهات متوازياً مع الإبرة.

أدرتُ الجزء المتحرّك من البوصلة، والذي يحمل الحروف المحدّدة للاتجاهات الأربعة، حتى يتطابق مع المؤشر المرسوم على الجزء الثابت، والذي يدلّ على اتجاه الشمال.

وضعت البوصلة على المكان المدرجة فيه الاتجاهات على الخريطة، ثم قمتُ بتثبيتها، وتحريك الخريطة من تحتها لتتطابق الإبرة مع اتجاه الشمال، لأبدأ الحركة بخطوات بطيئة.

حملتُ حقيبتي، ثم أمسكتُ بيد نور، وخاطبتها قائلاً:

- أعتقد بأنّ الأمور أصبَحَت أكثر وضوحاً الآن، هيا بنا!

قلتها بحماس ظاهري لم يكن ليخفي شكّي وخشيتي ممّا قد تحمله الساعات القادمة من مفاجآت، فأنا أدرك في قرارة نفسي أنّ ما قمتُ به مجرد حلّ ترقيعي لا يمكنني الاعتماد عليه كثيراً.

لكن، هل من حلّ آخر لتجاوز هذه المعضلة؟

لا أظنّ ذلك...

* * *

وكما كان متوقّعاً، حلّ الظلام ونحن ضائعان في الريف البوسني...

كان صوتاً خافتاً، إلّا أنّ صمت الجبال والوديان مكّنني من سماع صداه...

إنه أذان صلاة العشاء، القادم من مكان ما، ربما مدينة أو بلدة قريبة، ما يعني أنّ الساعة تتراوح بين التاسعة والعاشرة ليلاً.

- عمّي، لقد تعبت!

قالتها نور بصوت ضعيف، دفعني للاطمئنان بسرعة على حرارتها التي بدت طبيعية للغاية، لأتأكد بعد ذلك من أنه تعب لم تتحمّله قدماها الصغيرتان المتورّمتان.

أجبتُها بحنان بالغ:

- آسف يا حبيبتي، لقد أجبرتكِ على المشي لمسافة طويلة، تعالي، سأحملك على ظهري...

قرنت القول بالفعل وأنا أنحني لأحملها، فاعتلت ظهري ثم كتفي ببساطة شديدة قبل أن نكمل المسير وأنا أحاول إخفاء العياء الشديد الذي اجتاح كلّ ذرة في جسدي.

ساعات المشي الطويلة قادرة على كسر عزيمة أقوى الرجال، فما بالك بطفلة في الخامسة قدِّر لها أن تُعايش كلّ هذه الأهوال!

لكننا واصلنا المسير...

- ساعتي اليدوية معطّلة، لكننا سنتوقف عندما أشعر بأننا قطعنا مسافة تعادل ساعتين إضافيتين، لربما وصلنا إلى مكان آمن لنقضي فيه ما تبقى من هذه الليلة.

قلتها وأنا أراقب السماء الصافية والنجوم المتلألئة التي خيِّل إليّ أنها تحرسنا في رحلتنا الطويلة هذه...

- أرى أننا قد دخلنا إلى منطقة جبلية واسعة ومترامية الأطراف، وإذا أجرينا مقارنة بسيطة بين هذا المعطى ومعلومات الخريطة وإبرة البوصلة، سندرك أننا نقترب بالفعل من موستار!

قلتها ونحن نعبُر ضفة نهر صغير لم أستطِع تجاهل برودة مياهه التي نفَذَت إلى قدميّ المنهكتين.

لا يمكن تفسير هذه البرودة الشديدة التي لا تناسب فصل الصيف إلّا باعتبار النهر الصغير مجرّد نتيجة طبيعية لذوبان ثلوج الجبال.

ولا يذكّرني كلّ هذا إلّا بالأطلس المتوسط الذي قضيتُ فيه بضعة أشهر، بين عين اللوح وإفران، مروراً بأزرو وغيرها...

- ما هذا؟

رفعت عيني لأجد أمامي أحجاراً كبيرة الحجم متناثرة هنا وهناك، لا يمكنني القول إلّا أنها منظَّمة بشكل عشوائي، أو عشوائية بشكل منظم!

اقتربتُ منها أكثر، واستعنتُ بصفاء الليل مغالباً خوفي ومستسلماً لفضولي، فتبيَّن لي أنها بالفعل أحجار غير عادية...

نقوش غريبة وأشكال عجيبة خيِّل إليّ أنها ترمز إلى بشر، فقلت:

- لا أدري، أنا...

ثم قطعتُ كلامي عندما لاحظتُ أنّ الأحجار تشكِّل ما يشبه الطريق الممتدة، التي تبعناها فوجدنا أنفسنا أمام مقبرة حجرية غريبة الشكل.

يا إلهي، أين نحن الآن؟

مقبرة حجرية، في منطقة مقفرة لا أثر للبشر فيها!

قالت نور بصوت مرتجف:

- عمّي، أنا خائفة، لنبتعد عن هنا!

أدرتُ بصري في المكان، فتراءت لي على مرمى النظر غابات

صنوبر وشجيرات زعتر بري ونباتات أخرى لم أتبيَّن نوعها بفعل الظلام، فأجبتها:

- هذا ما كنتُ أفكر فيه، أرى من موقعي هذا تلة قريبة تغطيها الأشجار الكثيفة، سنصعد إليها ونستعين بضوء الليل الخافت، لعله يؤنس وحدتنا هنا، سننام وننطلق مع ساعات الفجر الأولى.

وكذلك كان...

وصلنا إلى قمة التلة، لترتمي نور على الأرض الخضراء المنبسطة من شدة التعب، فرمقتها بإشفاق حقيقي قبل أن أبدأ عملي.

جولة سريعة في المكان، جمعت خلالها بعض الحشائش والأغصان الجافة.

جهزت غصناً من الخشب الجافّ استخدمته كحفّار، وغصناً آخر أكبر حفرت به، ثم قمت ببناء ما يشبه العش لالتقاط النار، وفركتُ الغصن الحفار بقوة بين كفّي المنهكتين، لينتج عن احتكاكه مع الغصن الآخر ظهور ألسنة النيران، وبمجرد رؤيتها وضعتُ قطعة أخرى من لحاء الخشب لالتقاط النار، ثم قطعاً أخرى أكبر، تكفي ليلتنا هذه.

عملٌ مُضنٍ ومعقّد يتطلب الكثير من الصبر وتكرار المحاولة عدّة مرات...

قلت لنور موضحاً سبب اعتمادي على هذه الطريقة البدائية:

- لقد فقدتُ ولّاعتي، إما عند عبورنا النفق، أو بعد هروبنا من موقع المجزرة.

ثم بحثتُ في حقيبتي عن قارورة ماء استهلكنا أكثر من نصفها، وعلبة بسكويت أحضرناها معنا من سراييفو، وقدَّمتها للمسكينة التي لم تذُق شيئاً منذ منتصف النهار.

أكلَت بنهم، لكنها حدجتني بنظرة حمَلَت معها كلّ معاني الخجل وهي تقول:

- آسفة عمي، يجب أن تأكل أنت أيضاً!

ثم مدَّت نحوي علبة البسكويت، فالتقطتُ قطعة، ومنَحتها ابتسامة شاكرة.

ولأنني أعلم أنّ النوم لم يكن ليجد طريقه إلى جفوني رغم التعب الشديد، فقد بحثتُ عن قلمي وأوراقي لأمارس هوايتي الإجبارية.

الكتابة...

قالت نور وهي تطوّق عنقي من الخلف بذراعيها الصغيرتين:

- ماذا تفعل؟

أجبتها دون أن أحوِّل عيني عن الأوراق:

- كما ترين، أكتب مذكراتي...

فسألتني بفضول:

- مذكرات... ما هي المذكرات؟

صمتُّ للحظات طويلة، ثم قلت:

- المذكرات يا صغيرتي هي عندما تحاول نقل يومياتك وماضيك، بحلوه ومرّه، إلى الورق...

لكنها قاطعتني:

- الماضي؟ نعم! قالت ماما رحمها الله إن الماضي هو كلّ حدثٍ ولّى بلا رجعة، ولكن، ما دام الأمر كذلك، لماذا تكتب عنه؟ لمَ لا تنساه وترتاح من عناء الكتابة؟

انتزع مني منطقها البسيط شبح ابتسامة قلت بعدها:

- ربما معكِ حق، ولكن أثر الماضي لا يمكن تجاوزه، وإنْ ولّى بلا رجعة، أما النسيان فمجرّد مسكن مؤقت، سرعان ما ينتهي مفعوله، وحدها الكتابة، بكلّ تعبها ومعاناتها، قادرة على مواجهة هذا الأثر، قد لا تتفوّق عليه، لكنها تكبح جماحه على الأقل...

قالت بعفوية:

- عمي، أنا لم أفهم شيئاً ممّا تقول!

فأجبتُها بسرعة:

- ولا أنا، أعتقد بأنني أقول كلاماً لا معنى له...

ضحكَت ببراءة، فبادلتها الضحكة ثم واصلت الكتابة...

دقائق طويلة مرّت، عادت بعدها لتقول:

- لا أستطيع النوم، أريد أن تحكي لي حكاية، كما كان يفعل بابا!

فاجأني طلبها، فأجبتها باستغراب:

- حكاية؟ ولكنني لا أتقن سرد الحكايات يا حلوتي، كما أنّ لغتي البوسنية ما زالت ضعيفة جداً و...

قاطَعَتْني متوسلة:

- أرجوك... أرجوك!

ولأنني أضعَف من أن أحتمل توسّلها وحزنها الطفولي، فقد قرَصْتُ خدّها بلطف، ثم وضعتُ الأوراق جانباً، والتقطتُ نفساً عميقاً لأبدأ كلامي:

- حسناً، حسناً، كما تريدين، لكن لا تقاطعيني مرة أخرى، اتّفقنا؟

أومأت برأسها بسرعة، معبِّرة عن سعادتها، ثم أسنَدت رأسها بيديها الصغيرتين، وركّزت بصرها ناحيتي، علامة على التركيز التام.

- كان يا مكان، ليس في قديم الزمان، بل قبل ثلاثين عاماً فقط من الآن، طفلٌ صغير، لا داعي لذكر اسمه، وقَعَ ضحية انتقام وحسابات لا علاقة له بها، فانتُزِعَ من أرضه واختُطِف، ليعيش حياة أخرى ليست له، اسمٌ آخر، هويةٌ أخرى، لغة أخرى، دين آخر، ولم يكتشف حقيقته إلّا بعد ثلاثين عاماً، عندها بدأ رحلة البحث عن ماضيه، الماضي الذي قلتِ يا صغيرتي إنه ولّى بلا رجعة...

سألتني باهتمام:

- وهل وَجَدَ الماضي الذي يبحث عنه؟

أجبتُها بسرعة:

- ربما نعم، وربما لا!

ثم أكمَلت:

- اعتقدَ أنّ مهمّته مستحيلة، لكنه عَثَر بالصدفة على المفتاح الذي سيقوده إلى كنز الماضي المفقود.

قالت في لهفة:

- ما هو هذا المفتاح؟

ابتسمتُ في مرارة وأنا أقول:

- الحب...

ضاقَت عيناها قبل أن تُجيبني بصوت هامس:

- الحب؟ نعم... نعم! أتَعْلَم، سأُطلِعُكَ على سرّ، ذات مرة وجدتُ بابا يحتضن ماما بين ذراعيه، وسمعته يقول لها بأنه يحبّها لأن نظرة عينيها وحدها كافية ليحارب العالم كلّه من أجلها، فأجابته هي بأنّ الحب يعني لها أن هذا العالم نفسه لا يساوي لحظة أمان تعيشها وبابا معها.

تضاعفت مرارتي وأنا أقول بالعربية:

- اختفى الأب، وماتت الأم، وراح الأمان...

انعقد حاجباها في تساؤل، لكنها سرعان ما تجاهلت تعليقي وعادت لتسألني بالحماس نفسه:

- ماذا حدث بعد ذلك؟ هل أوصله هذا المفتاح إلى الكنز المفقود؟

أجبتها بابتسامة كبيرة حاولت أن أنفضَ بها كلّ آثار حزني:

- تذكّري بأنني لا أتقن البوسنية بالشكل المطلوب، قلت بأنه عثر على المفتاح، ربما لامَسَه، أو تحسّسه، لكنه لم يستخدمه قط، ربما لأنه سُرِقَ منه، أو لأنه وجده في وقت غير مناسب، المهم أنه ضاع، معيداً صاحبنا إلى نقطة الصفر، فقرّر البحث عن ماضيه بطريقة أخرى.

قطّبت جبينها محاولة فَهْم كلامي، ثم سألتني:

- كيف؟

أطلقتُ زفرة حارّة، أكملتُ بعدها:

- اختارَ أن يعيش حاضره، لكن في مكان آخر، معتقداً أنّ في البُعد نهاية، ليكتشف أنه مجرّد بداية لما هو آتٍ، فَقَد أبى الماضي إلّا أن يلاحقه، هذه المرة على هيئة طفلة صغيرة، جميلة وبريئة مثلك، عاشت ظروفاً صعبة، بل وخطّط الأشرار لأن يتحكَّموا في مصيرها ويعبثوا بكرامتها، فتدخّل صاحبنا لإنقاذها، أولاً لأنّ هذا واجبه الإنساني، وثانياً لأنه لمس في قصّتها امتداداً لمأساته، فتعاظمت خشيته من أن يتكرّر ماضيه هو مع مستقبلها هي، بعدما اقتنع بأنّ دورة الزمن هكذا، وأن الماضي هو نفسه المستقبل، لكن بصيغة أخرى...

فغرت فاها في دهشة، ثم قالت:

- هل نجح؟

شردتُ ببصري بعيداً وأنا أقول بخفوت:

- لا أدري، المهم أنه حاول، فقيمة الإنسان لا تقدَّر فقط بما فعله، بل أيضاً بما حاول أن يفعله.

ولأنني متأكّد من رجاحة عقلها التي تفوق سنوات عمرها، لم يفاجئني سؤالها المباشر:

- عمي، هل تعتقد بأننا سنعثر على بابا رامز؟

عانقتُها بقوّة ثم أجبتها:

- إن شاء الله، أتمنى ذلك. . .

ثم أضفتُ بلهجة حاولت أن تبدو مرحة:

- طيب، انتهت الحكاية، وحان وقت النوم، تنتظرنا رحلة شاقة غداً!

لم تمضِ دقائق معدودة حتى غطَّت المسكينة في نومٍ عميق، فداعَبْت خصلات شعرها الأشقر ثم نزعتُ معطفي ودثّرتها به.

عدتُ إلى أوراقي، لأشاطرها همومي، وأسكب فيها من وجع روحي سيلاً من الكلمات العابرة، لعلّها تساعدني على تجاوز وحشة الليل في أرياف البوسنة الواسعة، فأخذتني الكتابة بالفعل إلى عوالم أخرى بعيدة، لا معنى فيها للزمان أو المكان.

عوالم لم ينتزعني منها سوى صوتٍ خافت التقطته أذني بحذر. . .

اعتقدتُ بأنه حفيف أوراق الشجر، لكنه تكرَّر بشكل أكثر إصراراً، فارتعدَت فرائصي وأنا أترك الأوراق جانباً وأستدير لأتبيّن مصدر الصوت.

وتحوّلت الرعشة إلى انتفاضة قوية كادَت تقتلعني من مكاني.

ذئبٌ مخيفٌ يكاد الشَّرَر يتطاير من عينيه الحمراوين، وقد باعد بَين ساقيه وزمجر متحفّزاً للانقضاض علي...

* * *

4- النسر الجريح

قصاصات متفرقة من صحيفة «الوطن» المغربية تمّ العثور عليها في حقيبة الراوي
العدد 1365 - الثلاثاء 9 يونيو 1992:

* * *

تواصُل أعمال قمة الأرض في ريو دي جانيرو
التلوث يهدّد البشرية والعالم يدقّ ناقوس الخطر

تتواصل في مدينة ريو دي جانيرو البرازيلية أعمال قمّة الأرض المنظّمة من طرف الأمم المتحدة، والتي انطلقت يوم 3 يونيو الماضي ومن المرتقب أن تختتم فعالياتها في 14 من الشهر الجاري، وتعرف مشاركة وفود من 178 دولة من بينها المغرب الذي يترأس وفده ولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير سيدي محمد، وتهدف إلى توحيد جهود دول المعمور لمواجهة خطر التلوث الذي يهدّد الكرة الأرضية، وذلك بسَنّ قوانين منظمة للانبعاثات الحرارية، و(. . .)

من جهته، قال الأمين العام للأمم المتحدة، المصري بطرس بطرس غالي، أنّ العالم مطالبٌ بالتوحّد أكثر من أيّ وقت مضى لمواجهة هذا الخطر الجديد الذي (. . .)

(. . .) الثالثة بعد الأولى التي انعقدت في ستوكهولم السويدية سنة 1972، والثانية التي احتضنتها نيروبي عاصمة كينيا عام 1982.

تجدر الإشارة إلى أنّ الوفد المغربي (. . .)

* * *

صدمة في مصر!

اغتيال المفكّر والسياسي المعروف فرج فودة

تمّ الإعلان رسمياً عن وفاة الكاتب والمفكر المصري فرج فودة، متأثراً بالجراح البالغة التي نجمت عن محاولة اغتياله يوم أمس.

وتعود فصول الواقعة إلى السادسة والنصف من مساء أمس، عندما خرج فودة من مكتبه في «الجمعية المصرية للتنوير» بمصر الجديدة رفقه ابنه وصديقه، فاعترض طريقهم شخصان يركبان دراجة نارية، وأطلق أحدهما النار عليهم من رشاش آلي، مُصيباً فودة بجراح بالغة في الكبد والأمعاء، والصديق والابن بإصابات خفيفة، قبل أن ينطلقا هاربين بالدراجة، لكن سائق فودة تمكّن من اللحاق بهما وصدمهما بسيارته، موقِعًا مطلق النار -ويدعى عبد الشافي رمضان- أرضاً، ليقتاده إلى المستشفى حيث اعتقلته الشرطة.

وقد حاول الأطباء إنقاذ فودة، لكنه لَفَظَ أنفاسه الأخيرة بعد ستّ ساعات من الحادثة.

فرج فودة كاتب ومفكر وسياسي مصري، من مواليد دمياط في 20 أغسطس 1945، اشتهر بكتاباته المنتقدة لتيار الإسلام السياسي ودعوته الصريحة إلى فصل الدين عن السياسة وليس عن المجتمع على حدّ تعبيره، ما أثار جدلاً واسعاً بين عدد كبير من المثقفين ورجال الدين، وصلَ إلى حدّ تكفيره من قبل جبهة علماء الأزهر.

من أشهر أعماله: **النذير، الإرهاب، نكون أو لا نكون، قبل السقوط**، وغيرها.

هذا وقد خلّف اغتيال فودة ردود أفعال واسعة داخل مصر وخارجها، منها المستنكرة لما سمته بـ«إرهاب تكميم الأفواه»، ومنها المرحّبة بقتل «أحد أبرز دعاة التفسّخ والانحلال» على حدّ تعبيرها (. . .)

* * *

حكاية عائد

الحلقة الثانية: الأسر

(. . .) الذي شغلت حكايته كلّ المغاربة، إثر عودته المفاجئة من معتقلات العار في تندوف، هو الذي أسقط الانفصاليون طائرَتَه المقاتلة وأعلنوا عن (. . .)

صحيفة «الوطن» كانت سبّاقة في الوصول إلى الطيّار البطل، وأجرت معه سلسلة من المقابلات كشف من خلالها عن حقيقة لغز موته المعلن والأهوال التي واجهها كأسير في معتقلات (. . .)

ننشر محتوى هذه المقابلات على شكل حلقات أسبوعية، ترقّبوها كل يوم ثلاثاء.

أدركتُ أنّ مهمتي صعبة، إن لم تكن مستحيلة، لكنني واصلتُ الركض للوصول إلى أقرب نقطة قد تسمح لي بإجراء اتصال بالقيادة، واعتمدت على لياقتي البدنية العالية والتدريبات العسكرية المكثفة التي جهّزتني للتعامل مع وضع معقّد كهذا.

ولكن، مَن قال إن الجسد، مهما بلغت قوته، قادرٌ على مقاومة شمس أغسطس الحارقة؟

وأين؟ بين الكثبان الرملية للصحراء الغالية!

ربطت موضع الألم في ذراعي اليسرى بمنديلي، في محاولة يائسة لتجاوز الآثار القاسية لإصابة تتطلّب بالتأكيد تدخلاً طبياً عاجلاً، واحترتُ بين عطشي الشديد، وضرورة الاكتفاء برشفات صغيرة أبلّل بها شفتي حتى (...)

وهكذا خيّل إليّ أنني في وضعٍ شبيهٍ بحالة جنود طالوت في قصة عبورهم النهر واكتفاء قلة قليلة منهم بوصية قائدهم، كما ورد في الآية الكريمة[1].

إمّا أن أشرب، أو أصبر!

نعم، لا علاقة بين القصتين، لكن (...)

بعد سير طويل ومُتعب وجدتني أمام سلسلة من الكثبان الرملية، فقرّرت الاحتماء بظلّها ولو لدقائق معدودة، أرتّب خلالها أفكاري وأستعيد بعضاً من حيويتي حتى أواصل المسير.

راجعت الخريطة، فتأكّدت من أنّ مقاتلتي قد سقطت في موقع محدّد بين تفاريتي ومحيرس، وأنّ مكان هبوطي بالمظلة لا يبعد كثيراً عن هذا الموقع، ما يعني أن أقرب نقطة تتمركز فيها دفاعات قواتنا المسلحة في الجدار الأمني، بالقرب من أمغالا، تبعد عني بحوالي 70 كيلومتراً.

أمغالا، وتعني بالأمازيغية المحطّة، هي قرية صغيرة تبعد عن العيون بـ 220 كيلومتراً، وعن تندوف بـ 60 كيلومتراً تقريباً.

كانت رباطاً لقوافل الرحّل، نظراً إلى توفرها على آبار للمياه

---

(1) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ صدق الله العظيم. سورة البقرة (الآية 249).

العذبة، كما حظيت باهتمام كبير من قبل الجيش الإسباني الذي اعتبرها نقطة استراتيجية هامة في خريطة السيطرة على الصحراء، وبعد استرجاع المملكة المغربية لأقاليمها الجنوبية، شهدت أمغالا معارك عنيفة بين قواتنا المسلحة والانفصاليين المدعومين من أطراف إقليمية معروفة، خاصة سنة 1976، في ما يُعرف بمعركتي أمغالا الأولى والثانية، وكما أشرت إلى ذلك سابقاً، فهي محمية الآن بالجدار الرملي الدفاعي، الذي استهدف تأمينها في المرحلة الثانية من تشييده، بين عامَي 1983 و1984.

على أية حال، لا أظنني قادراً على الوصول إليها لوحدي، وأنا لا أملك في جعبتي سوى قدمي وقارورة ماء و(. . .)

كنت مشغولاً بدراسة موقفي الميداني وإمكانية لحاقي بأمغالا، عندما تناهى إلى مسامعي صوت ميّزتُ طبيعته بسهولة تامة.

كان هدير محركات سيارتَي جيب عسكريتين، ترفعان علم الانفصاليين. . .

وتبحثان عني بالتأكيد. . .

(. . .) إلّا أنني تحسستُ مسدسي في غمده، ثم تأكّدت من حشوه بالرصاص وانتظرتُ اقتراب السيارتين من مخبئي لـ (. . .)

كان وقعُ المفاجأة كبيراً عليهم، وربما عليّ أنا أيضاً، فرغم تعبي وآلامي إلّا أنني تمكّنت من إصابة إطار العجلة الأمامية اليمنى للسيارة الأولى، فساهم ذلك بالإضافة إلى سرعتها الكبيرة في انقلابها وإصابة مَن فيها.

انطلقت راكضاً، مستغلاً انشغال ركاب السيارة الثانية بالاطمئنان على رفاقهم المصابين، لعلّني أعثر على مخبأ أكثر أماناً.

لكن أملي لم يدُم سوى دقيقة واحدة. . .

فقد وجدتني بسرعة أمام ثلاث سيارات أخرى قادمة من الاتجاه المعاكس، لتحيط بي إحاطة السوار بالمعصم.

هنا، وهنا فقط، علمتُ بأنها النهاية، وأن المقاومة مستحيلة. . .

ألقيتُ مسدسي أرضاً، ورفعتُ يدي اليمنى كعلامة على الاستسلام، بعدما عجزتُ عن رفع اليُسرى المُصابة، وانتظرت توقّف السيارات ونزول المسلحين منها.

فَهِم أحدهم أنني مصاب، فاقترب مني بخطى هادئة، توقّعت معها أنه سيكشف على إصابتي ليعرف حجمها، لكنه هوى على وجهي بصفعة مدوية، أتبَعَها بضربة بكعب بندقيته، استهدفَت ذراعي اليسرى، فأطلقتُ صرخة ألمٍ هادرة وأنا أسقط على الرمال.

ثم لحق بهم مسلّحان آخران، أدّى أحدهما التحية العسكرية لمن يفترض أنه قائده، وقال وهو يلهث:

- انقلبت سيارة السالك وجرح كلّ مَن فيها، لقد أصابها هذا الوغد بمسدسه!

همّ قائده بالإجابة، لكنني سبقته إلى ذلك قائلاً بسخرية متهالكة لا تتناسب مع آلامي الشديدة وموقفي الصعب:

- أتحسب نفسك جندياً في جيش نظامي حتى تؤدي التحية العسكرية لقائدك؟ أنتَ مجرّد مرتزق في عصابة!

لم أكَد أكمل كلامي حتى ركلني المسلح بحذائه الثقيل، فكتمتُ ألمي، قبل أن أردّ الركلة بأخرى استهدفت بطنه.

جنّ جنونه، فوجّه بندقيته نحوي متحفزاً لإطلاق النار، لكن قائده منَعَه بحركة من يده، ثم انحنى نحوي قائلاً بهدوء مستفزّ:

- صحيح أنك صيد ثمين بالنسبة لنا، لكنها أول مرة أقابل فيها أسيراً بمثل اندفاعك وتهوّرك، إمّا أنك أحمق، أو أنك لم تقدِّر خطورة موقفك بعد، لا تقلق، سنقوم بالواجب ونستضيفك عندنا كما تقتضي الأصول، وساعتها ستعرف مَن نحن.

ثم قال بنبرة مغايِرَة وهو يوجّه كلامه إلى مرافقيه:

- مصطفى، البشير، خطري، تعرفون ما هو المطلوب منكم، أليس كذلك؟

لم يكلّف هؤلاء أنفسهم عناء الإجابة، بل انقضوا عليّ بسرعة فائقة رغم محاولاتي المستميتة للمقاومة، وكسروا جهاز الاتصال اللاسلكي، ثم نزعوا حذائي وملابسي العسكرية ووضعوها في كيس، وتعاونوا على حملي وربطوني إلى سقف واحدة من سيارات الجيب بحبال غليظة.

- أنتَ طيار متمرّس، تعلم بلا شك أنك سقطت بمقاتلتك بين تفاريتي ومحيرس، التي تبعد عن تندوف بما يقارب الـ 350 كيلومتراً، تخيّل معي أنك ستسافر إلى هناك مربوطاً إلى سقف سيارة، سيُشوى ظهرك وتذوب ملامح وجهك كالشمع، رحلة ممتعة، أليس كذلك؟

قالها قائدهم بسخرية واضحة، فأجبته ببصقة لطّخت وجهه وأجبرت أعوانه على الصمت.

- مصرّ على المكابرة؟ حسناً، يضحك كثيراً مَن يضحك أخيراً!

ثم أعطى إشارته ليبدأ الموكب رحلته الطويلة.

رحلة الهلاك، من تفاريتي إلى تندوف. . .

* * *

حرب دينية أم عرقية؟

القصف الصربي يستهدف مساجد وكنائس سراييفو!

(. . .) سراييفو، إن المدينة تتعرض لقصف مكثّف منذ السبت الماضي، استهدف كل المرافق الحيوية، مع تركيز واضح على دور العبادة، من مساجد وكنائس، يأتي ذلك مباشرة بعد مغادرة قوات الجيش الشعبي اليوغوسلافي لثكنة الماريشال تيتو القريبة من المدينة و(. . .)

سراييفو، أو «قدس أوروبا» التي تتعايش فيها كلّ الطوائف والديانات والأعراق، تتعرّض منذ أشهر لقصف مستمرّ وحصار خانق يهدّد كلّ سكانها بالموت، في حرب يُعتقد أنها لن تنتهي بسرعة، مع خشية من أن تلقى المدينة الجميلة مصير فوكوفار الكرواتية نفسه التي (. . .)

* * *

الملحق العلمي: ما هو النجم القطبي؟

وكيف تستعين بالنجوم في تحديد اتجاه الشمال؟

(. . .)

* * *

5- ذئاب... ودماء...

بين ليلة السبت 31 يوليو وفجر الأحد 1 أغسطس 1993
بليدينيا - غرب مدينة يابلانيتسا - الريف البوسني:

رغم أنني لست خبيراً بالذئاب، كما أنّ معلوماتي عنها قليلة جداً، إلّا أنني أدركتُ بحدسي أنّ الذئب خائفٌ ومتوتر، فقد أرجع أذنيه إلى الوراء، وأرخى ذيله بين ساقيه، لكنه احتفظ بتحفّزه واستعداده للانقضاض.

من الصعب الدخول في مواجهة خاسرة مع هذا المفترس، إلّا أنّ إخافته ومحاولة إبعاده ممكنة...

صحيح أنّ زمجرته خافتة، إلّا أنها كانت كافية لإيقاظ نور، التي صرخت في رعب وهي ترى الذئب يقترب منا والزبد يتطاير من شدقيه.

- اهربي يا نور، لا تخافي، سألحق بك حالاً!

أطاعتني الصغيرة وهي تركض بأقصى سرعة تسمح بها قدماها، فعُدت لمراقبة الحيوان الذي حسم أمره وانقضّ علي...

كنت قد قدّرت بعيني المسافة الفاصلة بيني وبينه، فانتظرت قفزته لأشهر في وجهه قطعة خشب مشتعلة.

كما توقعت، أحجم الذئب عن الانقضاض أمام الخطر الجديد الذي يتهدّده، فلوّحتُ بالقطعة يميناً ويساراً لأجبره على الهرب، لكنه تراجع فقط ليستعدّ لهجوم آخر.

وبالفعل، عاوَدَ هجومه، فلم أجد من خيار أمامي سوى الاستعداد للمواجهة، وقد أشهرتُ السكين في وجهه.

وبدأت المعركة الدامية...

رجلٌ يواجه ذئباً...

هناك في الأرياف المنسية...

ليست شجاعة طبعاً، لكنه الخوف الذي يحوِّلنا إلى مخلوقات صمّاء ترفض الاستسلام بسهولة!

وكذلك كان...

انقضاضٌ أكثر خطورة، تسبّب في خدش قميصي، ولولا تراجعي بخطوات قليلة وتلويحي بالسكين في الهواء لمزّقت المخالب الحادة صدري.

برقت عينا الذئب في الظلام، حتى خيِّل إليّ أنه يضحك مستهزئاً، قبل أن يستجمع قواه ويُطلق زمجرته الأخيرة.

ويهجم بأقصى سرعة وقوة...

ارتعدَت فرائصي وأنا أواجه أنيابه الكريهة، فطاوعتني ذراعي أخيراً لأعاجله بطعنة عميقة قرب حنجرته، أجبرتُه على التراخي وإطلاق أنين متحشرج، فكانت تلك فرصتي لألتقط حجراً قريباً وأجهز على الحيوان بضربات متتالية على رأسه أردته قتيلاً في الحال.

وتنّفست الصعداء أخيراً...

لقد نجوتُ من موتٍ محقّق!

لكنها لم تكُن مواجهة بلا خسائر...

سالت الدماء من فخذي بغزارة، بعدما عجزتُ عن تجنب أنياب الذئب في هجومه الأخير، فسقطتُ أرضاً وأنا أتلوى من شدّة الألم، وأحملق بدهشة في السكين التي ساهمت في إنقاذي، ملقاة إلى جانبي وقد لطّختها الدماء.

سكين سويسرية متعدّدة المهام، رافقتني طويلاً، ولم أتخيل يوماً أنها ستكون سبباً في إفلاتي من الموت.

نعم...

أشياء كثيرة ترافقنا طوال حياتنا ولا نعيرها أي اهتمام، وعندما نحتاجها يخيل إلينا أننا نراها لأول مرة!

صرختُ بكلّ ما أوتيت من قوة، مكرِّراً اسم نور بإصرار شديد.

ما من مجيب...

زحفتُ بصعوبة محاولاً الوصول إلى الحقيبة، للبحث عن أيّ ثوب أو خرقة تصلح لتضميد جرحي.

ولكن هيهات...

لم أعُد قادراً على المقاومة، فقد كان الألم أقسى من أن أحتمله.

وهكذا غبتُ عن الوعي، تفصلني عن جثة الذئب الهامدة أمتار قليلة، وبذهني صرخة واحدة تتردّد:

- أينك يا نور؟ أين؟

* * *

- جيهان...

- نعم؟

- ألا ترين معي أنّ قصتنا غريبة بعض الشيء؟

- ماذا تقصد؟

- لا أدري، لكن يخيّل إليّ أحياناً أن حبّنا ولد قبل الأوان، أو بالعكس، بعد فواته، ربما لم يكن الوقت مناسباً، أو. . .

- مخطئ مَن يعتقد أن الرائعين يلتقون في البدايات، أو في الظروف العادية الطبيعية، بالعكس، غالباً ما يفرض عليهم القَدَر خوض تجارب مرة وقاسية، تجارب تجعل حبهم الأخير أقوى وأشدّ وأقدَر على مواجهة حياة لم تكن في يوم من الأيام رحيمة بهم.

- ولكن. . .

- لا تجهد عقلك يا حبيبي، تذكر فقط أنّ أغربَ قصص الحب هي الأفضل دائماً، المهم أن تكون نهايتها كما نتمنّى. . .

- لم أفهم!

- لم تفهم لأنك رجل، والرجل لا ينسى البدايات، عكس المرأة، التي لا تفكر سوى في النهايات. . .

- ما لنا ومال النهايات؟

- لأنّ ما قلته مجرّد كلام أطمئن به نفسي، فأنا خائفة مثلك، بل ومتأكّدة من أنّ قصة حبنا أجمل من أن تكون نهايتها كما نتمنى!

* * *

- عمي عبد السلام. . .

- نعم؟

- أتظنني قادراً على الوصول إلى الاستقرار التام، والسعادة المنشودة، بعد كلّ هذا العذاب الطويل؟

- أنت تطرح السؤال نفسه الذي أفنى البشر أعمارهم منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا، باحثين عن إجابته، مع أنها واضحة وبسيطة،

يقول الله تعالى في كتابه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[1] ورغم اختلاف المفسّرين حول معنى كلمة كَبَد، إلّا أنّ أغلبهم اتفقوا على أنها تعني الشدّة والمشقّة، نعم، فهذا هو قَدَر الإنسان، أن يشقى ويتعب حتى يصل إلى مبتغاه.

- أخشى ألّا أصل إلى الإجابة الصحيحة...

- السؤال نصف الجواب، ولن تصل إلى الإجابة الصحيحة إن كان سؤالك خاطئاً!

- متى سأصل؟ متى؟

- ليس المهم متى، بل كيف؟ هل ستُجبرك مطبّات الطريق الطويلة على تغيير مبادئك، أم أنك ستصل إلى محطة النهاية كما بدأت رحلتك، نقيّ السريرة، صادق الطويّة؟

* * *

وكما فقدتُ وعيي فجأة، استيقظت فجأة...

أمسكتُ بجانبي رأسي في ألم، وقد منعتني غشاوة عيني من تبيّن تفاصيل المكان، قبل أن أتجاوز حيرتي وأقول بصوت ضعيف:

- أين أنا؟

أجابني صوت هادئ وقور:

- مهما كانت طبيعة المكان، تأكّد بأنك في مأمَن...

يا إلهي، إنها اللغة العربية!

أين أنا؟

التفتُّ ناحية مصدر الصوت، فوجدتني أمام رجل في

---

(1) سورة البلد (الآية 4).

الأربعينيات من عمره، يميل قليلاً إلى البدانة، وقد لمَعَت صلعته وزيَّنت وجهه الحليق نظارة سميكة، و. . .

ويرتدي ملابس الرهبان. . .

لحظات قليلة من التجوّل ببصري في المكان، قلتُ بعدها بالبوسنية:

- أنا في دير، أو ربما كنيسة، أليس كذلك؟

لكنني لم أترك له مجالاً للردّ، فقد أضفتُ بسرعة بعدما استعاد ذهني كلّ التفاصيل السابقة:

- نورا أين هي؟ والحقيبة. . .

لم أكَد أكمل كلامي حتى انفتح الباب ودخلت نور راكضة نحوي وهي تهتف باسمي، فحاولتُ النهوض لمعانقتها، لكن آلام فخذي منَعتني من ذلك، فانتبهتُ إلى الضمادات التي غطّت مكان الجرح بعناية.

استغلّ الراهب صمتي وانشغالي بتفقّد أحوال نور ليقول بالعربية:

- لقد أنقذتكَ الطفلة من موت محقّق، فعندما طلبتَ منها الركض والابتعاد عن المكان، نفّذت أوامرك، تاهت وضلت الطريق، لكنها لم تيأس، صرخت، بكت، ثم واصلت الركض، إلى أن اهتدت إلينا هنا، فأتينا بسرعة لإنقاذك. . .

قاطعته قائلاً:

- مَن أنتم؟

كانت نبرتي متوجّسة وعصبية بعض الشيء، لكنه أجابني بابتسامة هادئة:

- نحن في دير معزول، غير بعيد عن. . .

قاطعته في لهفة:

- غير بعيد عن موستار، نحن على مشارفها، أليس كذلك؟

انعقد حاجباه في تساؤل، لكنه سرعان ما استعاد وقاره قائلاً:

- لا، موستار بعيدة بعض الشيء، نحن في منطقة بليدينيا، غرب مدينة يابلانيتسا.

أجبته مستنكراً:

- مستحيل، لقد تتبَّعت اتّجاه إبرة البوصلة ومسار الخريطة، وتأكَّدت من أننا اقتربنا من موستار!

ثم أردفت:

- الأوراق، الخريطة، أين هي؟

نهض ليُحضر الحقيبة المحفوظة بعناية في ركن الغرفة وقال:

- اطمئنّ، كلّ محتويات حقيبتك في أمان، قُمنا بإحضارها معنا عندما عثرنا عليك في مكان الحادث.

أخرجتُ البوصلة والخريطة، وحاولتُ التأكد من موقعنا بالقول:

- لقد انطلقنا من بحيرة بوراتشكو قرب بلدة جيزيرو، وتتبعنا مسار الخريطة بعناية، أنا متأكد من حساباتي!

اقترب مني وهو يقول بهدوء:

- هل تسمح لي بإلقاء نظرة على الخريطة؟

ثم التَقَطها بلطف وراجَعَ تفاصيلها بتمعّن، قبل أن يردف بالنبرة الهادئة نفسها:

- أعتقد بأنها رحلتكَ البرية الأولى، وخبرتك قليلة نوعاً ما،

نعم، الخريطة لا تكذب، لكنك أغفلت معلومة مهمة، ساهمَت في وصولك إلى هنا، إبرة البوصلة تشير إلى الشمال المغناطيسي، لا الجغرافي!

أجبتُه بصمتٍ طويل، فأكمَلَ كلامه:

- يختلف الشمال المغناطيسي عن الشمال الجغرافي، ويتغيّر اتجاه ومقدار الانحراف من موقع إلى آخر على سطح الكرة الأرضية، هذا الاختلاف بين الشمالين نتَجَ عن حركة دوران الأرض وحركة الماغما في باطنها، ممّا أدّى لفرقٍ في قيم حقول الجاذبية، كان عليك إضافة قيمة الفرق ضمن خريطتك واستخدامها في تصحيح زاوية المسير، مع العلم أنّ زاوية الانحراف في البوسنة موجِبَة دائماً.

قلت:

- تقصد أنني ضبطتُ حساباتي على السير في اتجاه الجنوب الغربي، من ضواحي جيزيرو إلى موستار، فأوصلني الانحراف المغناطيسي إلى هنا!

ردّ مبتسماً:

- ما أنقذ الإنسان من الفناء إلّا جهله ببعض الأمور، لقد تدخّلت العناية الإلهية لحرف مساركما، أكاد أجزم أنك لو اعتمدت على المعلومة التي شرحتها قبل قليل لوقعتما بلا شك في قبضة الميليشيات الصربية التي لا ترحم أحداً...

أجبته بتهكّم:

- لكن جَهلي بالمعلومة أوقَعَني في قبضة ذئب شرس كادَ يقضي عليّ!

تنهَّد معقّباً:

- ليس من عادة الذئاب مهاجمة البشر، إلّا إذا طوّرَت سلوكاً عدوانياً فرضته عليها بعض المتغيّرات، لعلّ أبرزها هنا ظروف الحرب التي لم تسلَم منها حتى الحيوانات بعدما دمّرت القنابل والقذائف التركيبة الطبيعية للمنطقة، أنت واجهت ذئباً منفرداً خائفاً، فَقَدَ قطيعه واعتبركَ معتدياً على أرضه فحاولَ الدفاع عن نفسه، لم يقتلك لأنك مجرّد إنسان مختلف العرق والطائفة والدين، فذئاب الطبيعة أرحَم بكثير من ذئاب البشر...

لم يترك لي فرصة التمعّن في كلامه، بل غيَّر دفّة الحديث بالقول:

- غريبٌ أمرك، كنت تهذي وأنت فاقد الوعي، مرّة بالعربية، ومرة بالفرنسية، وأحياناً بالبوسنية، وتكرّر بعض الأسماء بإصرار، جيهان، بريجيت، فرانسوا، عبد السلام، رايلي، نور، هل أنت بوسني؟ أم عربي؟ قد تكون فرنسياً ربما، أليس كذلك؟

كنت ساهماً منشغلاً بمداعبة خصلات شعر نور، عندما أجبته:

- أنا؟ أنا كلّ هؤلاء...

* * *

راقبتُ نور النائمة باطمئنان كملاكٍ بريء، بعدما دثّرتها راهبة عجوز بالأغطية، فابتسمتُ في ارتياح وأنا أخطو بصعوبة نحو الشرفة المطلّة على الجبال، لأتملّى بطلعة مرتفعات الأرياف البوسنية وأنعشُ جسدي بنسمات الفجر الباردة.

- كيف حالك الآن؟

- أشعر بأنني أفضَل بكثير، وأشكُر لك اهتمامك وسرعة بديهتك، لقد فطنتَ إلى ضرورة الإسراع بتنظيف مكان الجرح بالماء والصابون، ثم تطهيره بالكحول وتطعيمي بعد ذلك.

أجابني الراهب بابتسامته الودودة:

- أنتَ طبيب وتدركَ مدى أهمية هذه الأمور، لا يمكن الجزم بأنّ الذئب الذي هاجمك مُصاب بداء الكلب، لكن الاحتياط واجب، فكان من الضروري تطعيمك باللقاح المضاد للمرض الفيروسي، تجنباً لأيّة مضاعفات مفاجئة.

صمتُّ للحظات، انشغلتُ خلالها بمراقبة السماء، قبل أن أقول:

- أتعلم، لقد راجعتُ محتويات حقيبتي قبل قليل، فوجدتُ مقالاً صغيراً في قصاصة جريدة أحتفظ بها، يتحدّث عن النجم القطبي وكيفية الاستعانة بالنجوم للاستدلال على اتجاه الشمال، لم أنتبه له من قبل بسبب انشغالي بمقالات أخرى في القصاصة، لو قرأته في وقته لأدركتُ اليوم أنني ضللتُ الطريق في الأرياف البوسنية.

ثم أضفتُ بفضول:

- بالمناسبة، ما حكاية هذا الدير المعزول؟ هل هو كاثوليكي أم أرثوذكسي؟ معذرة، لم أتمكّن من مغادرة الغرفة حتى أستطلع الأمر بنفسي.

أجابني:

- هذا بيت من بيوت الربّ، لا يهم إنْ كان كاثوليكياً أو أرثوذكسياً أو حتى بروتستانتياً، ما الفرق ما دام الربّ يُعبَد فيه بكل حرية؟

منطقٌ أبسط من أن أشغِلَ نفسي بإيجاد تفسير مناسب لمغزاه الحقيقي...

احمرّت أذناي في خجل، فأردف:

- على أيّة حال، هذا دير فرانسيسكاني، يتبع. . .

قاطَعته بسرعة:

- الرهبنة الفرانسيسكانية؟ هكذا إذاً! أتباع القديس فرانسيس الأسيزي ومذهبه الذي نشأ في شمال إيطاليا منذ بدايات القرن الثالث عشر الميلادي، وارتكزت روحانية المذهب على الاهتمام بالفقراء والعمل على تحسين أوضاعهم الاجتماعية، استناداً إلى قصة القديس نفسه الذي نشأ في عائلة إقطاعية ثرية، ليتخلى عن الثراء بعد ذلك ويهبَ كل أملاكه لفقراء قومه.

ثم لمعت في ذهني ومضة خاطفة فقلت بحماس:

- الآن فهمت! تعتبر هذه الرهبنة نفسها حامية للأراضي المقدّسة في فلسطين، وتوجد بشكل ملحوظ في بعض الكنائس الكبرى هناك، ككنيسة البشارة في الناصرة وكنيسة المهد في بيت لحم وغيرها، وهذا ما يفسِّر إلى حدٍّ ما إتقانك للّغة العربية!

أطلق الراهب ضحكة صافية وهو يلقي نظرة حذرة على نور مَخافة إيقاظها، ليقول:

- لم يفاجئني تحليلك الدقيق هذا، فقد فهمتُ من قصّتك أنك نشأت في وسط مسيحي متشدِّد بعض الشيء، ثم اكتشفتَ حقيقة أصولك فيما بعد، نعم، معك حق، لقد تكرَّرت زياراتي إلى الأراضي المقدسة عدّة مرات، وحرصتُ على إتقان اللغة العربية، وقد لاحظتُ أنّ هذيانك رغم تعدُّد لغاته إلّا أنّ لغة الضاد طَغَت عليه، فقرّرت محاورتك بها، هذا كلّ ما في الأمر!

مررتُ أصابعي على شعر رأسي، ثم سألته بعد تردّد:

- سؤال أخير، عندما قادتنا رحلتنا إلى هنا، اكتشفنا وجود بعض الأحجار غريبة الشكل، متناثرة هنا وهناك، كما لو كانت تشكِّل معالم طريق معبّدة، وعثرنا أيضاً على آثار مقبرة قديمة، أي تناقض هذا؟ منطقة جبلية معزولة لا أثَر للبشر فيها، إذا استثنينا هذا الدير، وبها مقبرة! كيف ذلك؟

أجابني:

- الأحجار آثار باقية من العصور الوسطى، وتشكِّل ما يعرف بالطرق الرومانية القديمة، أما المقبرة فموجودة في منطقة اسمها دوغو بوليه هنا في بليدينيا، وهي تعود للسكان السلاف الذين عاشوا في المكان منذ زمن طويل.

وجدتني أردِّد ببطء آية كرَّرها الفقيه عبد السلام على مسامعي عدة مرات:

- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]

أومأ برأسه متفهّماً، ثم همَّ بمغادرة الغرفة، فاستوقفته بحركة من يدي وأنا أقول:

- سنغادر الدير بعد استيقاظ نور، لا بدّ لنا من الوصول إلى موستار في أسرع وقت، أودّ أن أشكرك على...

ردّ باستنكار:

- هل نسيت يا دكتور بأنك مُطالَب بأخذ جرعة أخرى من

---

(1) سورة الروم (الآية 9).

اللقاح بعد 24 ساعة على حقنك بالجرعة الأولى؟ لن نسمح لك بالمغادرة إلّا بعد الاطمئنان عليك.

تأمّلته طويلاً، باحثاً عن كلمات مناسبة، قبل أن أقول بتأثّر حقيقي:

- أنت طيب للغاية...

عدل نظارته فوق أنفه، ثم أجابني بنبرة متفهِّمة:

- أعلم جيداً ما تفكر فيه، أنت تقارن بيني وبين الراهب فرانسوا الذي تسبّبت مخططاته الشيطانية في كلّ ما تعرّضت له من مآسي كما فهمتُ من قصتك، يبدو لي أنك لم تستوعب جيداً ما شرحه لك الفقيه عبد السلام في المغرب، حاكم الناس بأفعالهم، لا بمعتقداتهم.

قلت محنقاً:

- وما رأيك في ما رأيته بأمّ عيني من فظائع ارتكَبَتْها وحدة العقارب بحقّ الأبرياء العزَّل، وهي المتمتعة بمباركة الكنيسة الأرثوذكسية في بلغراد؟

أدهَشَني الهدوء الغريب الذي يتصرَّف به كما لو أنّ جبال الريف قد عوَّدته على ذلك.

- منذ فجر التاريخ والإنسان يتشبّه ببعض الحيوانات محاولاً استلهام قوّتها، وتحدَّث الكثير من المؤرخين عن جماعات تسمَّت بأسماء الأسود والفهود والنسور والثعالب والذئاب والعقارب، رغم أنّ هذا الإنسان ينسى أو ربما يتناسى أن وحشية الحيوان مهما طغت لن تعادل ربع وحشيته هو، قد تكون وحدة العقارب هي أشهر العصابات المسلّحة المتورّطة في ذبح الأبرياء في البوسنة، من

مسلمين وكروات كاثوليك وحتى صرب رافضين لدمويّتها، لكنها نقطة في بحر جماعات صربية متطرفة أخرى، كذئاب فوتشيك، النسور البيضاء، الدبابير الصفراء، متطوّعي الحرس الصربي، وغيرها، وكما ترى، تعتمد أغلبها على أسماء حيوانات كعلامة على الترهيب وإخضاع الآخرين بالقوة.

سألته:

- ولماذا كلّ هذا؟

ضاقت عيناه وهو يجيبني:

- لأنّ مصيبة الحرب أن تُخرج أسوء ما فينا، بذرة القتل وإراقة الدماء كامنة في أعماق كلّ واحد منا، وتنتظر فرصة معيَّنة لتظهر، أعلم أنّ الظروف مختلفة، وأنك كنت تدافع عن نفسك، ولكن، هل تخيَّلت يوماً ما بأنك قادر على مواجهة ذئب وطعنه، ثم تهشيم رأسه بضربات حجر؟ عندما عثرنا عليك وتفقَّدنا جثة الذئب، فهمنا أنّ ضربة واحدة كانت كافية لقتله، لكنك واصلتَ الضرب بطريقة جنونية حتى لطَّخت الدماء وجهك، ولا تفسير لذلك في نظري سوى تنفيسك عن الغضب الذي واكَبَ معاينتك لتفاصيل المجزرة الشنيعة التي اقترفَها وحوش وحدة العقارب، إنها دائرة دموية لن تنتهي إلّا بمشيئة الرب، ومهما تجبَّر هؤلاء القتلة فإنهم سيخسرون في النهاية، لأنها لم تكُن في يوم من الأيام لعبة رابحة لأحد، بل مراهنة خاسرة للجميع.

تشاغلتُ بمراقبة الجبال البعيدة التي داعَبت خيوط الفجر قممها، ثم قلت بصوت هامس:

- قد يخسر الجميع هذه المراهنة، لكنهم لن يدفعوا الثمن نفسه...

التقط نفساً عميقاً، كأنما يعدّ نفسه لمحاضرة طويلة، قبل أن يقول:

- فهمت ما ترمي إليه، أنا لا أقصد بأن يبقى المظلوم مكتوف الأيدي، لكن، ليس شرطاً أن نردّ على الظلم بظلم مثله، فالخير أبقى وأقوى، والشر لم يكن في يوم من الأيام قوياً إلّا على المستسلمين له، أنت تلوتَ على مسامعي تلك الآية الكريمة، وأظنّها تشرح كلّ شيء، لكلّ ظلم نهاية، ومصير القتلة والمتجبِّرين الفناء، نعم، لقد وقعَ ما وقع، وتحوّلت البوسنة إلى بحر من الدماء، وربما لم يعُد بإمكاننا استرجاع الماضي، لكننا قادرون على حماية المستقبل، ساعتها سنشعر بالأمان.

عقدت ساعدي أمام صدري، وفتحت فمي لأقول شيئاً ما، لكنه واصل كلامه:

- لن أكون مفرطاً في التفاؤل، لكنني مؤمن بأنّ البشر مجبرون على خوضِ تجارب صعبة وقاسية حتى يقتربوا ويفهموا بعضهم أكثر، ولولا مرارة الأيام الصعبة ما كنا لنستشعر حلاوة الأيام القادمة، تذكر فقط أنّ الحياة مهما بدت ظالمة أحياناً إلّا أنها تمنحنا في كلّ مرة فرصة لفعل الخير، أنت لا تعرف هذه الطفلة، ولا تربطك بها أية علاقة، لكنك تضحّي بحياتك في سبيل إنقاذها، هذه هي الفرصة التي أثق بأنك لن تضيعها أبداً.

التقطتُ عبارته الأخيرة لأسأله باهتمام:

- أخشى أن يتكرّر معنا السيناريو نفسه ونضلّ الطريق أو نقع في قبضة العصابات الصربية ويذهب كلّ هذا المجهود سدى. . .

كانت هذه أول مرة يتخلّى فيها عن وقاره، فقد ابتسم وهو يغمزني بسرعة:

- اطمئنّ، كلّ مشكلة ولها حلّ، لقد فكرت في الأمر، واهتديتُ إلى طريقة ستمكّنكما من الوصول إلى موستار بأمان وفي أسرع وقت ممكن![1]

* * *

(1) كإضافة سريعة لما ورد في هذا الفصل، فإنّ بليدينيا (أو Blidinje باللغة البوسنية) تقع بالفعل غرب مدينة يابلانيتسا (Jablanica) ضمن مناطق جبلية على مساحة 364 كيلومتر مربع. بين جبال تشفرسنيتسا (Čvrsnica) وفران (Vran)، وقد تمّ تحويلها إلى محميّة طبيعية بعد نهاية الحرب، تضم حوالي 1500 نوع نباتي، والكثير من الحيوانات البرية كالغزلان والخنازير البرية والأرانب والدببة والذئاب والفراشات النادرة وغيرها، وتحظى باهتمام كبير من قبل السياح وممارسي رياضة التزلج أو حتى الباحثين الراغبين في التعرّف على جيولوجيا المنطقة، المقابر الإيريلية والطرق الرومانية ومقبرة دوغو بوليه (Dugo Polje) ما زالت موجودة إلى يومنا هذا، كذلك هو الشأن بالنسبة إلى دير الفرانسيسكان الذي يفتح أبوابه لكلّ زوار المنطقة.

6- ثعلب تندوف

قصاصات متفرّقة من صحيفة «الوطن» المغربية تمّ العثور عليها في حقيبة الراوي

العدد 1371 - الثلاثاء 16 يونيو 1992:

***

قمة بوش - يلتسن

هل يتخلّص العالم أخيراً من خطر الأسلحة الفتاكة؟

من المنتَظَر أن تنعقد اليوم قمة كبرى بين الرئيس الأميركي جورج بوش ونظيره الروسي بوريس يلتسن، للبحث في تقليص استخدام الأسلحة الهجومية الاستراتيجية، ويرى مراقبون بأنّ هذه المباحثات قد تكون مقدّمة لتوقيع اتفاقية ستارت 2 كتكملة لاتفاقية ستارت 1 التي وقعها جورج بوش مع ميخائيل غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفياتي سابقاً في 31 يوليو 1991، للحدّ من انتشار هذه الأسلحة الفتاكة.

وكانت أول مبادرة في هذا الصدد من اقتراح الرئيس الأميركي السابق رونالد ريغان سنة 1982، لخَفض كبير في مخزون الأسلحة الاستراتيجية على مرحلتين، كتكملة لاتفاقيات سالت 1 و2.

وتهدف هذه المفاوضات إلى منع نشر آلاف الرؤوس النووية وعدد كبير من الصواريخ الباليستية العابرة للقارات، والتي (. . .)

هل سيتنفّس العالم الصعداء، أم أنّ ما تحت الطاولة أعمق وأخطر بكثير ممّا فوقها؟

* * *

تواصل استعدادات الرياضيين المغاربة المشاركين في أولمبياد برشلونة 1992

(. . .) على رأسها ألعاب القوى والملاكمة وكرة القدم، بالإضافة إلى كرة المضرب وتنس الطاولة ورفع الأثقال والمصارعة.

وقد أكّد خالد السكاح، العدّاء المغربي الفائز بنحاسية سباق الـ 10 آلاف متر في بطولة العالم لألعاب القوى التي نظّمتها طوكيو في العام الماضي، أنه عازم على إهداء المغرب ميدالية أولمبية، كذلك هو الشأن بالنسبة إلى الملاكم محمد عشيق (وزن الديك) الذي (. . .)

ولا يضمّ فريق ألعاب القوى سوى عدّاءة واحدة هي البطلة الشابة نزهة بدوان، الفائزة ببطولة أفريقيا 1990، وصاحبة المشارَكة المتميِّزة واللافتة في دورة الألعاب العربية التي احتضنتها سوريا هذا العام.

وتبدو مهمة المنتخب الأولمبي لكرة القدم صعبة للغاية، فقد أوقعته القرعة في المجموعة الثالثة التي تضمّ كلاًّ من السويد وباراغواي وكوريا الجنوبية.

ويُشارك الوفد المغربي في منافسات كرة المضرب بلاعبين شابين، تعدّ هذه تجربتهما الأولى على الصعيد الأولمبي، ويتعلّق الأمر بكريم العلمي ويونس العيناوي.

تجدر الإشارة إلى أنّ فعاليات أولمبياد برشلونة ستنطلق في 25 يوليو المقبل، ويرتقب أن تشهد مشاركة جميع الدول المنضوية تحت لواء اللجنة الأولمبية الدولية، بعد دورات عديدة تداخلت فيها السياسة والرياضة، ما أجبَرَ بعض الدول على مقاطعة الألعاب، بسبب تبعات الحرب الباردة التي انتهت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط جدارِ برلين.

* * *

حكاية عائد

الحلقة الثالثة: التحقيق

إنه النقيب الطيار في صفوف القوات المسلحة الملكية علي السلامي، الذي شغلت حكايته كل المغاربة، إثر عودته المفاجئة من معتقلات العار في تندوف، هو الذي أسقط الانفصاليون طائرته المقاتلة وأعلنوا عن موته بشكل رسمي!

صحيفة «الوطن» كانت سبّاقة في الوصول إلى الطيار البطل، وأجرت معه سلسلة من المقابلات كشف من خلالها عن حقيقة لغز موته المعلن والأهوال التي واجهها كأسير في معتقلات الانفصاليين، ثم تمكّنه من الفرار والعودة إلى حضن الوطن والأهل، وهي كلها معلومات خاصة وحصرية لجريدتنا التي عوّدتكم دائماً على التميّز في نقل الخبر.

ننشر محتوى هذه المقابلات على شكل حلقات أسبوعية، ترقبوها كلّ يوم ثلاثاء.

ووصلنا أخيراً إلى مخيمات الحمادة في تندوف...

بعدما تحوّلت إلى حطام...

لا يمكنني أن أصف أهوال الطريق من تفاريتي إلى تندوف،

مروراً ببئر الحلو، والتنكيل الذي تعرَّضتُ له، عن سبق إصرار وترصد، فهذا ممّا يعجز اللسان عن شرحه.

كل ما أستطيع قوله هو أنّ المسلحين تعمَّدوا تعذيبي، وتخريب نفسيتي بالشتائم الحاطّة من كرامتي، ولم يكن مستغرباً منهم أن يتركوني مربوطاً على سطح العربة، الذي تحوّل إلى صفيح ساخن، مع حرص واضح على إبقائي حياً طوال مدة الرحلة الشاقة، إمّا بإطعامي بالقوة، أو إمدادي بجرعات قليلة من الماء ككلب وضيع.

جحيم لا يوصَف، لكنه لم يكن سوى مقدِّمة لما هو آتٍ...

لم تكن رحلة متواصلة طبعاً، فقد توقّف الموكب عدّة مرات في نقاط عسكرية تابعة للانفصاليين، للتزوّد بالمؤونة والوقود، وتعمّد عرضي أمام المسلحين الآخرين بطريقة مهينة تمنيت معها لو أنهم أفرغوا رصاص بنادقهم في صدري وأراحوني من هذه المعاناة، لكنني تذكّرت أفراد عائلتي، أقاربي، أصدقائي، وخطيبتي التي تنتظر عودتي بفارغ الصبر، ما منحني قوة إضافية لتحمل كلّ الشدائد القادمة.

تندوف مدينة هادئة، لا تختلف كثيراً عن مدن أقاليمنا الجنوبية، فهي منبسطة من دون جبال في الأفق، ورغم قساوة المناخ إلّا أنّ الهواء نقيّ إلى حدٍّ ما.

بدَت لي من بعيد مَعالِم مَدرَج مطار عسكري تابع لجيش جيراننا الشرقيين، لم نقترب منه كثيراً، بل انطلقنا عبر طريق محوري يتجنّب المرور وسط المدينة، وعلى بعد كيلومترات قليلة انتصب أول حاجز أمني للمسلحين، وقد عرفته طبعاً من خلال العلم المزعوم والملابس العسكرية لـ (...)

مسافةِ قصيرة وصلنا بعدها إلى حاجز آخر أدخلني رسمياً إلى مخيمات الحمادة الخاضعة لسيطرة الانفصاليين.

توقّفنا بالقرب من بيت متواضع، غطّت سطحه صفائح القصدير المطليّة بالجير الأبيض، غالباً لتخفيف حرارة النهار ورطوبة الليل، ولأنّ الظلام قد حلَّ منذ ساعات طويلة فقد أضاءَت النجوم السماء وأضفَت على المكان نوراً ساحراً، فيما بدت بيوت المخيم متناثرة وإن دلّت أنوارها الخافتة على شساعة المساحة التي تشغلها.

لم يتحمّل جسدي المرتجف قساوة البرد القارس، فَسَرَت فيه رعدة قوية دفعت قائد المجموعة التي اعتقلتني إلى القول:

- لم يحِنْ وقت الارتجاف بعد، لا تستبق الأحداث يا عزيزي، فنحن...

قطع صوت جهاز الاتصال اللاسلكي كلامه، فاستمع إلى مخاطبه باحترام قبل أن يصدر أوامره.

- القيادة تطلب إحضار الأسير على وجه السرعة، يبدو أن التحقيق معه سيبدأ الآن.

سألته:

- إلى أين سنذهب؟

أطلق ضحكة ساخرة طويلة، ثم أجابني:

- إلى أين؟ إلى الرابوني طبعاً!

وكذلك كان...

سار الموكب ناحية الجنوب الشرقي هذه المرة، وقدَّرت بخبرتي أنّ معسكر الرابوني يبعد عن المخيمات بحوالي الـ 25 كيلومتراً.

وحتى أضع القارئ في الصورة الكاملة لما رأيت، سأقول بأنّ الرابوني عبارة عن مركز صغير لمباني إدارية تضمّ مقرّات ما يعتبره

الانفصاليون وزارات، أبرزها «وزارة الدفاع»، وهي عبارة عن مباني متواضعة من طابق واحد، وشوارع وأزقة متربة، تخترقها طريق مزفتة تعبُر مخيمات المنطقة وتربط بعضها ببعض.

لكن الأهم من كلّ هذا هو الجحيم الذي حكى عنه العائدون القلائل من هناك...

سجن الرابوني الرهيب...

الذي لم يحِن وقت الحديث عنه بعد...

عندما وصلنا كانت إصابة ذراعي قد تحوّلت إلى أثر جانبي لا يُقارَن بأيّ حال من الأحوال مع التسلخات التي شوّهت ظهري، والغشاوة التي أثّرت على قوة إبصاري، من فرط تعرض عيني لأشعة الشمس الحارقة، بالإضافة إلى الخدوش والجروح التي سبّبتها الحبال الخشنة والغليظة المطبقة على أطرافي، والبرد الليلي القارس الذي جمَّد جسدي المصرّ على المقاومة.

وهذا ما قصدته بتحوّلي إلى حطام إنسان، قبل انطلاق حفلة العذاب الحقيقي...

حطام واصل تماسكه رافضاً الانهيار...

(...)

وجدتني في مكتب صغير قوي الإضاءة، لا أثاث فيه باستثناء مكتب خشبي ومقاعد قليلة، أجلسوني على أحدها بلا قيود، لكنهم أحاطوا بي موجّهين فوهات بنادقهم الرشاشة إلى رأسي.

ثم دخل شخص يرتدي ملابس عسكرية أدركتُ بحُكم خبرتي العسكرية أنها لضباط جيش جيراننا الشرقيين، وتبعه آخر ميَّزتُ من سحنته السمراء ولكنته الإسبانية المختلفة أنه كوبي.

بدا واضحاً أن المسلحين يكنون احتراماً بالغاً للضابط، الذي

رمقهم باستخفاف وازدراء غير مفهوم، قبل أن يأمرهم بمغادرة المكان، باستثناء قائد المجموعة الذي قال في حماس:

- إنه صيد ثمين يا سيادة الرائد، لقد أسقطنا مقاتلته بـ. . .

- اصمُتْ. . .

قالها ببرود مخيف أجبَرَ القائد المتعجرِف على إغلاق فمه، ثم وجَّه كلامه إليّ:

- أهلاً وسهلاً بك في تندوف، أنت ضيفنا، ومن واجبنا إكرام الضيف، أليس كذلك؟

لم أجِبْهُ، فاقترب مني وقدَّم لي سيجارة، وهو يرسم على وجهه ابتسامة لزجة.

- لا أدخن. . .

كانت هذه أول عبارة أتفوه بها، فردّ بهدوء خالَطَه استهزاء خفيّ:

- ممتاز! قوامك الرياضي يشي بلياقة بدنية عالية، يبدو أن الجيش المغربي يولي عناية خاصة بطياريه.

عدتُ إلى الصمت المستفزّ الذي أجبَرَهُ على جرّ كرسي والجلوس أمامي، فيما اكتفى الكوبي بمراقبتي بعينيه الحادتين.

- اسمعْ، أعلمُ أنك ذكي، وتعرف مَن أكون، لكنني سأشرح لك بشكل أكثر تفصيلاً، أنا الرائد حسان فرقاني، يلقّبونني هنا بثعلب الصحراء، لأنني متخصّص في التحقيق مع الأسرى المغاربة وانتزاع المعلومات منهم بطريقتي الخاصة، لا أنصحك بالمكابرة، لأنك أضعف من أن تحتمل إعصار غضبي، تعاون معي فقط، وستنال ما يرضيك، مفهوم؟

أومأتُ برأسي إيجاباً، فابتسم في ظفر، لتبدأ الأسئلة المعتادة:

- اسمك؟
- علي السلامي...
- تاريخ ومكان الازدياد؟
- 13 مايو 1964، بقرية عين اللوح في الأطلس المتوسط.
- رتبتك العسكرية؟
- نقيب...
- نقيب في الثامنة والعشرين من عمرك؟
- ...

كان هذا الاستجواب بمثابة تعارف سريع يسبق ما هو أهم وأعمق، فقد نهض الضابط ليدخن سيجارة ببطء شديد، كأنما يعدّ نفسه لجولة أخرى طويلة جداً، ثم تبادل كلمات سريعة بالإسبانية مع الكوبي، ليعود بعد ذلك إلى الجلوس أمامي.

- ما من نظام أمني مُحكَم مئة بالمئة، ما هي أبرز نقاط الضعف في جداركم الدفاعي؟
- لا أعرف...
- اسمع، كلّ المؤشرات تدلّ على قرب التوقيع على اتفاق لوقف إطلاق النار برعاية الأمم المتحدة، سيتمّ ذلك خلال الأيام أو ربما الأسابيع المقبلة، والمعلومات التي ستدلي بها لن تكون ذات قيمة عسكرية تُذكَر، لا تخَف...
- قلت لك لا أعرف...
- طيب، سمعنا عن صفقات جديدة سيبرمها المغرب لتحديث سلاح الجو والمدرعات، ما هي القطعات العسكرية المغربية التي ستتمّ إعادة هيكلتها بالضبط؟
- لا أدري...

- هل تخطّطون لتنفيذ عمليات عسكرية هجومية تخترق ما وراء الجدار الرملي؟

- لا أعرف. . .

ضاقَت عيناه، وتصبّب العرق من جبينه علامة على الغضب الشديد، لكنه حاول الحفاظ على برودة أعصابه، وهو يخاطبني قائلاً:

- حسناً، سأعرف كيف أنتزع منك هذه المعلومات بطريقتي. . .

وبإشارة من يده، أنهَضَني قائد المجموعة بالقوّة، ثم سأله:

- هل ننشر خبر أسره يا سيادة الرائد؟

أجابه هذا بسرعة واستخفاف:

- نعم، نعم، كالمعتاد. . .

لكنه تدارك قوله بسرعة فائقة:

- مهلاً، هذا الأسير مختلف نوعاً ما عن الآخرين، وحساسية منصبه تخبرني بأنه يحمل في جعبته الكثير من المعلومات الثمينة، رغم محاولاته المستميتة للإنكار، ما يعني ضرورة انتهاج أساليب مغايرة في التحقيق معه، عمِّموا خبر إسقاط طائرته ومقتله، وقولوا إنكم تحتفظون بجثته، والبقية تعرفونها.

لم يمهلني قائد المجموعة كثيراً، فقد دفعني أمامه للخروج من المكتب، فيما ارتسمت على شفتي الثعلب ابتسامة أدركتُ معها أن القادم أسوأ. . .

أسوأ بكثير ممّا أعتقد. . .

* * *

الجزائر إلى أين؟

تصاعد أعمال العنف بعد الإعلان عن تأسيس الجماعة الإسلامية المقاتلة

يبدو أن الأوضاع في الجارة الشرقية الجزائر ماضية نحو المزيد من التعقيد، فقد تمّ الإعلان في الأيام القليلة الماضية عن تأسيس الجماعة الإسلامية المقاتلة التي بدأت في شنّ هجمات ضد قوات الأمن والجيش وأيضاً المدنيين ممّن اعتبرتهم متعاطفين مع الدولة.

(...) عندما أُلغِيَت نتائج الانتخابات التي فازت بها الجبهة الإسلامية للإنقاذ في ديسمبر الماضي، ما أدّى إلى (...)

هذا وقد عثرت قوات الأمن الجزائرية على جثة مقطوعة الرأس لراهب فرنسي يدعى فرانسوا دوكاستيل بالقرب من بوفاريك في ولاية البليدة، التي تُعتبر (...)

* * *

حصار سراييفو يشتد...

مواطنون يأكلون العشب ويَدفنون موتاهم في الحدائق!

أفادت تقارير صحفية قادمة من العاصمة البوسنية سراييفو أنّ الوضع الإنساني يسير من سيئ إلى أسوء، بعد إحكام الميليشيات الصربية قبضتها على محيط المدينة ومحاصرتها بالكامل، مانعةً بذلك قوافل المساعدات من الدخول إلى قلب سراييفو لإغاثة المدنيين الأبرياء.

وبسبب فقدان المواد الغذائية، اضطرّ أهالي ضاحية دوبرينيا القريبة من مطار سراييفو لطهي العشب، بعدما عجزوا عن توفير المأكل والمشرب، وتحدَّث شهود عيان عن دفن رفات 50 مواطناً

في الحدائق العامة خلال الأسبوعين الأخيرين، إثر تحوّل تشييع الجنائز في المقابر إلى مغامرة غير مضمونة العواقب.

وأمام هذا الوضع المزري، دعت هيئة الأمم المتحدة إلى (...)

* * *

7- لا شرقية... ولا غربية...

الخميس 26 أغسطس 1993
بين القسم الشرقي للمدينة الأثرية القديمة والضفة الغربية لنهر نيريتفا - مدينة موستار:

اختلفت الأوصاف والمسمّيات، وبقي الإجرام واحداً. . .

كنت أعتقد أنّ أيام الحصار الرهيبة في سراييفو قد بلغَت ذروة السادية والوحشية، لأكتشفَ بعد مغادرتها أنها مجرّد جزء صغير من صورة ضخمة تضمّ تفاصيلها كلّ أرجاء البوسنة.

لوحة سريالية مشوّهة، تداخَلَت فيها الخطوط ببعضها، حتى أصبَح الحديث عن فهم حقيقة ما يجري ضرباً من الجنون.

لم نتمكّن من مغادرة الدير الفرانسيسكاني في بليدينيا إلّا بعد مرور أسابيع طويلة، انتظرنا خلالها شفائي بشكل تام، وظهور فرصة مناسبة، ولو لساعات معدودة، تسمح لنا بالسفر بأمان، فمعارك أخرى كانت على أشدّها، ولم نكن نحسب لها أيّ حساب. . .

معارك دموية في الجنوب، داخل حدود منطقة الهرسك، أي في الطريق من بليدينيا إلى موستار.

الثيمة نفسها طبعاً، لكن مع اختلاف بسيط!

لم تكن الاشتباكات هذه المرة بين البوسنيين المسلمين والميليشيات الصربية...

بل بين المسلمين وحلفائهم الكروات!

مَن ذا الذي سيفهم شيئاً في هذا العبث؟[1]

لكن يبدو أنّ للحرب دستورها المقدس، الذي ينصّ فصله الأول على ضرورة تجنّب غدر الأصدقاء قبل مواجهة بطش الأعداء...

تذكّرت كلّ هذا ونحن نستعدّ للدخول إلى موستار من الجهة الشرقية، بعدما أوصلنا فيدران، الراهب الفرانسيسكاني، بنفسه إلى مدخل المدينة، معتمداً على فكرة في غاية البساطة.

مقبرة صغيرة على مشارف موستار، يدفن فيها الدير موتاه ومعتنقي مذهبه...

يمتلك الراهب سيارة لنقل الموتى، مزوّدة بصندوق خلفي مجهّز لحمل التوابيت، ويقودها هو بنفسه.

كلّ ما فعله هو إيصالنا إلى المقبرة وإرشادنا إلى مسلك الدخول، بعد الاطمئنان إلى الهدوء النسبي الذي عرفته جبهات القتال، والاحترام الكبير الذي يحظى به في المنطقة.

الهدوء النسبي، العبارة نفسها التي أرعبتني دوماً وأشعرتني بأنها مجرّد مراوغة بارعة يُلاعبنا بها القدر قبل الإجهاز علينا.

---

(1) في تلك الفترة من سنة 1993، تكرَّر الحديث في المحافل الدولية عن استحالة الحفاظ على وحدة البوسنة، وضرورة تقسيمها إلى دويلات على أساس عرقي، فاستغلّ كروات البوسنة هذا الوضع ونقضوا تحالفهم مع المسلمين، ثم بدأوا في شنّ هجمات على مواقع الجيش البوسني لتوسيع مناطق سيطرتهم، بمساندة من عناصر من الجيش الكرواتي، فتكشَّفت حقيقة تعاونهم السرّي مع الصرب، عكس تحالفهم الظاهري مع المسلمين!

مَرَرنا بحاجزين عسكريين، أحدهما صربي، والآخر كرواتي، لم يكلّف حراسهما أنفسهم عناء تفتيش السيارة والتابوت الفارغ أصلاً، بل اكتفوا بتحية فيدران وحثّه على الدعاء لهم بالمغفرة والنصر على الأعداء، مصدّقين كلامه عن أنني أحد منتسبي خط الرهبنة الثالثة في المذهب الفرانسيسكاني[1].

يا له من مشهد مضحك!

يحترمون رجل الدين، أكثر من الدين نفسه، الدين الذي تدعو تعاليمه إلى التعايش والتآخي ونبذ العنف!

يدعون بالنصر على الأعداء، مع اختلاف القصد والمسميات. . .

الصرب يقصدون بالأعداء الكروات والمسلمين، والكروات يلمِّحون بكلامهم إلى الصرب والمسلمين، متجاهلين أنّ أخطر عدو للإنسان هو نفسه. . .

عندما دخلت إلى موستار، ممسكاً بيد نور وحاملاً لحقيبتي الصغيرة على ظهري، تضاعفت خشيتي من أنّ المهمة الصعبة ستزداد تعقيداً.

مدّت شمس أواخر أغسطس أشعتها الذهبية لتبرز للناظر قمة جبل فيليز الذي استقرّت موستار على سفوحه، فيما خلت الشوارع المرصفة بالحجارة الرمادية والبيضاء من المارة، حتى خيِّل إليّ أننا دخلنا إلى مستوطنة أشباح، وقد أكّد ذلك الطابع العثماني العتيق

(1) تنقسم الرهبنة الفرانسيسكانية إلى ثلاثة فروع هي الرهبنة الرجالية، والرهبنة النسائية، وما يُصطَلَح عليه بالرهبنة الثالثة التي يبقى أتباعها في العالم لا في الدير، ويحقّ لهم الزواج والإنجاب، مع الالتزام بفروض الرهبنة وتأمّلاتها وصلواتها.

للمدينة، بأبنيتها القديمة التي تمزج بين الجدران الحجرية والأسقف الخشبية، ما جعلني شبه مقتنع بأنّ سيارة فيدران لم تنقلنا إلى مكان آخر فحسب، بل إلى زمن آخر أيضاً، هو القرن الخامس عشر.

لكنّ استغرابي لم يدُم طويلاً...

توغَّلنا أكثر داخل المدينة، وأنا منتبه لحركات نور وتعابير وجهها التي دلَّت على معرفتها بالمكان ومحاولتها المستميتة لتذكّر عنوان منزل أهلها، عندما فوجئنا بتعالي الأصوات القادمة من بعيد.

أصوات متداخلة هي أشبه بالشعارات الحماسية في مظاهرة حاشدة...

ولم يُجانِب ظني الصواب...

ركضتُ نحو ما اعتبرته مصدراً للضجيج، لأجدني أمام مظاهرة حاشدة بالقرب من ضفة نهر فيروزي يكاد لونه يميل إلى الخضرة.

اقتربتُ من الجموع الغاضبة، وقد ضغطتُ على كفّ نور بقوة، خشيةَ ضياعها مني وسط الحشود التي خاطبت باللغة الإنجليزية مجموعة من الجنود الأجانب، ممّن أشارت سحناتهم وقبعاتهم المميزة إلى انتمائهم إلى قوات الأمم المتحدة، وقد انشغلوا بتصويرنا بكاميرتاهم الفورية.

- لن نسمح لكم بمغادرة المدينة!

- أنتم الضمان الوحيد لبقائنا أحياء!

- سيجتاح الكروات الجانب الشرقي من موستار ويستأنفون مذابحهم ضدنا!

- أنتم تخدمون مصالح الكروات، ومتّفقون على الإجهاز علينا لإجبار مَن تبقّى منّا على الرحيل!

- لن نسمح بقيام دولة هرسك البوسنة المزعومة! ستبقى البوسنة موحّدة!

تقدَّمتُ أكثر لأسأل شاباً غاضباً بالإنجليزية:

- ماذا هناك؟ ما الذي يحصل؟

أجابني بحماس:

- أنتَ صحافي، أليس كذلك؟

ثم انتبهَ لنور التي لم تترك يدي، فعقد حاجبيه مستغرباً، لكنه سرعان ما أضاف:

- الكروات المتحصِّنون غرب نهر نيريتفا صعَّدوا من هجماتهم ضد المدينة الأثرية القديمة في القطاع الشرقي من موستار، والذي تسكنه أغلبية مسلمة، رافضين إدخال المدينة ضمن الإشراف الدولي، وهدَّدوا بقتلنا جميعاً وضمّ القطاع إلى دويلتهم المزعومة بالقوة، وعوض أن تعمل قوات الأمم المتحدة على حمايتنا من تبعات هذا الخطر الجديد، بدأت في إعداد نفسها للانسحاب، تاركة العزَّل يواجهون مصيرهم، ونحاول منعها من ذلك.

قلتُ بعصبية:

- متى ستفهمون؟ متى؟ هؤلاء ليسوا سوى منفِّذين لأجندة مرسومة سلفاً، لا يفهمون إلّا لغة القوة، يجب أن تدافعوا عن أنفسكم مهما كلَّف الأمر!

صرخَ في وجهي:

- وهل تحسبنا مكتوفي الأيدي؟ ولكن ما باليد حيلة! نحن معزولون تماماً وخطوط إمدادنا مقطوعة، لن تتمكّن قوات الجيش البوسني من السيطرة على وسط البلاد والوصول إلينا إلّا بعد وقت

طويل، أمّا الكروات فقد أعدّوا أنفسهم جيداً للمعركة، واستفادوا من اتصالهم بالحدود الكرواتية وتزويدهم بالذخيرة والعتاد بشكلٍ مستمر، ماذا سنفعل إذاً؟ الكلام شيء، والواقع شيء آخر!

هممتُ بالردّ عليه، لكن صوت أذان الظهر المفاجئ والقريب جداً أجبرني على الصمت، كذلك هو الشأن بالنسبة إلى المتظاهرين الذين احترموا قدسيته، فشاعَ بينهم هدوء عجيب انتقلت عدواه إلى الجنود.

مئذنة مسجدٍ عتيق بعض الشيء ولا يبعُد عن ضفة النهر إلّا بأمتار قليلة، صعد إليها المؤذن ليربط نداء الأرض بنجدة السماء...

الله أكبر...

الله أكبر...

أشهد أن لا إله إلا الله...

أشهد أن لا إله إلا...

وانقطع النداء فجأة، كما بدأ فجأة...

ثانية واحدة كانت كافية لنفهم حقيقة ما يحصل، ويصرخ أحد المتظاهرين محذِّراً الجميع:

- **قناصة الكروات! اهربوا!**

وسادَ الهرج والمرج، الذي استغلّه المتحصّنون بالضفة الغربية للنهر ليعاودوا إطلاق النار...

احتمى بعض المتظاهرين بالمسجد العتيق، فيما احتضنتُ أنا نور بكلتي ذراعي، محاذراً إصابتها بأيّ مكروه، ثم ركضتُ بأقصى سرعة للابتعاد عن الخطر، وقد وصل إلى مسامعي نداء باللغة الإنجليزية عبر مكبِّرات الصوت من الجانب الآخر.

- نداء من قوات HVO[1] إلى موظفي الأمم المتحدة، نطالبكم بمغادرة المدينة في أسرع وقت ممكن، أو الابتعاد عن مرمى نيراننا على الأقل، موستار عاصمة دولة هرسك البوسنة، مدينة للكروات فقط، ولا مكان فيها للمسلمين، لن تدقّ في موستار إلّا نواقيس الكنيسة الكاثوليكية، وأيّ مظاهر دينية أخرى سيتمّ التعامل معها بالطريقة المناسبة، انتهى...

كنتُ قد اقتربتُ من باب المسجد، عندما أثارني هذا البيان الوقح والمتغطرس الذي بثّته القوات الكرواتية، فقرَّرتُ الدخول.

تفقدتُ في البداية حالة مَن احتموا بالمسجد، مطمئناً إلى أنّ أحداً لم يُصَب بأذى، قبل أن أسلِّم نور الحقيبة وأنا أربت على وجنتها قائلاً:

- انتظريني هنا يا حبيبتي، سأعود حالاً، مفهوم؟

كانت علامات الرعب قد تركت آثارها على ملامحها، لكنها أجابتني بثبات مثير للإعجاب:

- حاضر يا عمي، سأبقى هنا!

قبَّلتُ جبينها، ثم حسمتُ أمري وانطلقتُ صوب المئذنة...

تسارعَت دقات قلبي، وأنا أصعد الدرجات الضيقة، وعندما وصلتُ إلى القمة وجدتُ المؤذِّن الشاب ملقى على الأرض، متأثراً بالجراح التي سبَّبتها رصاصة اخترقت ذراعه.

- لا تقلق، أنا هنا لمساعدتك!

---

(1) HVO اختصار للحروف الأولى لـ (Hrvatsko vijeće obrane) وتعني باللغة المحلية قوات «مجلس الدفاع الكرواتي» الذي تزعَّمه ماتي بوبان وأعلن عن استقلال الكروات بالأراضي البوسنية التي سيطروا عليها ضمن دويلة أسموها «هرسك البوسنة».

قلتها بهدوء محاولاً طمأنته، لكنه فاجأني بما لم أتوقعه أبداً . . .

تجاهل المؤذن الجريح وجودي، ثم زحف نحو الميكروفون الملقى على الأرض وهو يقول بصعوبة:

- يريدونها معركة بهذا الشكل؟ فلتكُن حرباً إذاً!

وأمام دهشتي العارمة، واصلَ ما بدأه بإصرار. . .

أشهد أن محمداً رسول الله. . .

أشهد أن محمداً رسول الله. . .

حيّ على الصلاة. . .

حيّ على الصلاة. . .

وانتقلَ الصوت القويّ إلى مَن احتموا بالمسجد، ففهموا المغزى وصدَحَت حناجرهم جميعاً بالنداء المزلزل:

حي على الفلاح. . .

حي على الفلاح. . .

الله أكبر. . .

الله أكبر. . .

لا إله إلا الله. . .

ومن موقعي ذاك، رأيتُ بوضوح آليات الكروات العسكرية على الضفة الأخرى من النهر، وقد استعدّت لإمطار المسجد بنيران حقدها وغضبها، فأغمضتُ عيني، موقناً بأنها النهاية. . . .

* * *

- نداء من موظفي الأمم المتحدة إلى قوات HVO، توقفوا! أنتم تضربون بالاتفاقيات الدولية عرض الحائط، إنْ قصفتم المسجد

والمدنيين المحتمين به فإنّ قواتنا سترّد على مصادر النيران! انتهى...

كان هذا ردّ أحد عناصر القوات الدولية، عبر مكبّرات الصوت، قبل أن يخيّم صمت رهيب على المكان، قمتُ باستغلاله للاقتراب من المؤذّن ومساعدته على النهوض أولاً، ثم النزول إلى أسفل.

- هل تحتفظون في المسجد بحقيبة إسعافات أولية؟

أجابني بتهالك:

- نعم، إنها في غرفتي التي...

لكنه قطع كلامه من شدّة الألم، فبحثتُ بعيني عن الغرفة، ثم أدخلته إليها ومدَدته على السرير، وقد تبعني بعض الرجال الذين حاولوا تفقّد حالته، فخاطبهم بنبرة خالطَ ضعفها إصرار غريب:

- أقيموا الصلاة، وليتقدَّم أكبركم أو أكثركم حفظاً للقرآن ليؤم المصلين...

ودارت عيناه في محجريهما، فأوصيتُه بالصمت، وطلبتُ من الرجال مغادرة الغرفة بعدما عثرتُ على حقيبة الإسعافات.

- كُنْ صبوراً، سأضطرّ لاستخراج الرصاصة دون تخدير، فأنا...

لكنه قاطعني مبتسماً:

- وما الصبر إلّا مفتاح الخلاص والفرج، ابدأ على بركة الله!

وكذلك كان...

كنت منهمكاً في ربط ضماداته، عندما فتحت نور الباب ودخلت، وخشية تأثّرها بالمشهد البشع طلبتُ منها المغادرة بلطف، لكنها أصرّت على الاقتراب.

كانت هادئة جداً كعادتها، لكنني فوجئتُ بارتجافها وهي تتطلّع إلى وجه المؤذن الشاب، فقلتُ معاتباً:

- ألم أطلب منك المغادرة؟ أنت صغيرة جداً ومشاهد الدماء لا تناسبك، لأنها...

لكنها قاطعتني مصدومة:

- إنه عمي سمير، صديق بابا رامز!

* * *

- إذاً فقد حسمتَ قرارك واخترتَ الرحيل، لم أتوقعك بمثل هذا الضعف يا ولدي!

- هذا ليس ضعفاً، لن أضيع عمري وأنا أحاول أن أكون جزءاً من دنيا ليست لي.

- ومَن قال إنها ليست لك؟

- ربما فشلتُ يا عمي عبد السلام، لأنني لم أصل إلى إجابة ذلك السؤال المعلوم بعد...

- اسمَعْ يا ولدي، أنا أتفهَّم جيداً ذلك الإحساس الممضّ بأن تفقد مَن تحبّ على حين غرّة، لكن لا تسمح لمشاعرك بأن تتحوّل إلى نقطة ضعف قادرة على كسرك، كُنْ أقوى منها ولا تعتبر ما حصل نهاية، بل بداية جديدة!

- قد تكون بداية جديدة، ولكن في مكان آخر، فأنا لم يعُد لي أيّ مقام هنا، نعم، كنت مفعماً بالأمل والتفاؤل، وخطَّطت بالفعل للبقاء والاستقرار، لكن ما لا نتوقّعه أكثر إيلاماً ممّا نحسب له ألف حساب، سأرحل لأبدأ حياة جديدة، أو ربما لأقترب من موتي أكثر...

* * *

حلّ الظلام أخيراً، بعد ساعات طويلة ثقيلة من الخوف والترقّب لأيّ جديد. . .

غادَرَ أبناء المنطقة المسجد عائدين إلى منازلهم، مطمئنين إلى تراجع الكروات عن مخططاتهم لقصف القطاع الشرقي لموستار.

ولو إلى حين. . .

صعدتُ إلى قمة المئذنة مرة أخرى، باحثاً عن بعض الهدوء، والاستمتاع المؤقت بمشهَد لمحته بطرف عيني ساعة الظهر ولم تسمَح دِقَّة الموقف وقتها بالتمعّن فيه.

مئذنةُ هذا المسجد تطلّ على كافة أرجاء موستار، بشرقها وغربها، موحِّدة ما أفرزته الحرب من تفرقة. . .

يا لها من مدينة رائعة، لا يمكن أن يُشعرك منظر شوارعها الجميلة ومحلاتها المغلقة ومنازلها المسقوفة بالخشب إلّا بالوَداعة والهناء والعودة الإجبارية إلى القرون الوسطى.

لكن يبدو أنّ قدر الجمال أن يدفع دوماً ضريبة تفرّده. . .

أخرجتُ من جيبي صورة تأمّلتها للحظات، ثم قارنتُ بينها وبين ما أراه أمامي.

جسر ستاري موست. . .

نعم، الصورة التي استعرتها من ألبوم صور عائلة كوستوفيتش، ويظهر فيها رامز إلى جانب أميرة رحمها الله وابنتهما نور بالقرب من الجسر.

آخر صورة جمَعَت أفراد الأسرة السعيدة.

أو مَن كانت كذلك. . .

عدتُ إلى باحة المسجد، ثم وجَّهت ناظري إلى السقف والقبّة البيضاء التي زيّنتها زخارف خضراء على شكل نباتات برية، والنوافذ

الصغيرة بزجاجها المطليّ بألوان صفراء وسماوية وحمراء، فيما أثارت انتباهي نقوش مطابقة للتقسيم الثماني للقبّة، للدلالة على الأسماء التي كتبت بهذه الطريقة:

الله جل جلاله، محمد صلى الله عليه وسلم، أبو بكر، عمر، عثمان، علي، الحسن، الحسين، مع عبارة رضي الله عنه المكررة مع الأسماء الستة الأخيرة[1].

غرقت في بحر من التأمّل الممزوج بصوت قراءة القرآن المنبعث من مكانٍ ما، قبل أن ينتشلني منه صوت هادئ:

- إذاً فقد ضحيت بنفسك لإنقاذ نور من أولئك الأوغاد، وتجشّمَت عناء الخروج من سرايفو والقدوم إلى موستار، رغم أنك لا تعرف الطفلة ولا تربطك بها أية علاقة؟

قالها المؤذن الشاب سمير بعربية مكسرة، فأجبته باستخفاف:

- لا تضحية ولا شيء، لم أقُم سوى بما يمليه عليّ ضميري.

ثم أضَفت:

- أمّا عن علاقتي بنور، فأشعر بأنني أعرفها منذ زمن طويل، كما لو كانت ابنتي فعلاً...

منَحَني ابتسامة مفعمة بالثقة، فسألته باهتمام:

- كيف حالك الآن؟

---

(1) لم يُشِرْ الراوي إلى اسم هذا المسجد في أوراقه، لكن الموقع والأوصاف المذكورة قد تنطبق ربما على مسجد محمد باشا كوسكي (Koski Mehmed-Pašina Džamija) الذي بُنِيَ سنة 1617م، وتعرّض لدمار جزئي سنة 1993 بفعل المعارك المستعرة في موستار، لكنه حافظ بأعجوبة على ألوانه وزخارفه الأصلية، وهو الآن تحت حماية منظمة اليونيسكو التي تصنّفه كتراث إنساني عالمي.

شردَ ببصره وهو يقول متحسِّراً:

- مصير الجسد أن يشفى مهما أثخنته الجراح، لكن ماذا عن آلام الروح؟

حَدَجته بنظرة طويلة، ثم ألقيت على مسامعه سؤالاً شغَلَ بالي طوال اليوم:

- لماذا تجاهلتَ تهديدات الكروات وواصلتَ ترديد عبارات الأذان بشجاعة؟

أطلق ضحكة صافية تجاوز بها آلام جرح ذِراعه، وقال:

- كما توقعت، كنت أنتظر سؤالك هذا!

لكنه سرعان ما استعاد نبرته الجادّة ليُضيف:

- حسنة الحرب الوحيدة أنها روت بذرة الإيمان في أعماقنا بعدما ذبلت لسنوات، عندما اندلعت الاشتباكات في كلّ أرجاء البوسنة فوجئنا بأنّ الأعداء يقتلوننا ويحرقون قرانا ويغتصبون نساءنا لمجرَّد حَمْلِنا أسماء مسلمة، رغم أننا لم نكن نعرف في الواقع أيّ شيء عن الإسلام، كان الدين بالنسبة لنا مجرّد طقوس جامدة مرتبطة بالأعياد والمناسبات، وحده الإيمان الذي أنقذنا، فما أهلك الإنسان إلّا فراغ روحه، وويل لمَن مات وهو لا يؤمن بفكرة، كيفما كانت طبيعتها، نعم، تصرّفت أنا ومَن احتموا بالمسجد بشجاعة عندما ردَّدنا الأذان، لكننا كنّا مدفوعين ساعتها بالإيمان، فلا أسهل من التضحية بالنفس في سبيل ما نؤمن به.

لم يُمهلني حتى أعقِّب على كلامه، بل واصل:

- عندما أتى رامز إلى هنا قبل عام ونصف تقريباً، كانت الأوضاع في موستار هادئة إلى حدٍّ ما، ثم تدهورت الأمور بشكل سريع، احتلّ الصرب المرتفعات المحيطة بالمدينة، وحاصَروها مثل

سراييفو، ولو أنّ قبضة الحصار كانت أخفّ من مثيلتها هناك، عجزَ رامز عن العودة إلى العاصمة، وانقطَعَ اتصاله بزوجته وابنته، ما أجبره على البقاء، منتظراً حدوث معجزة ما، وبالفعل، تعاون أبناء المدينة من مسلمين وكروات على مواجهة العدوان الصربي وتمكّنوا من إبعاد الميليشيات المتطرّفة عن موستار ومحيطها...

قاطعته أنا وقد دوت في أذني كلمات سابقة للفقيه عبد السلام:

- وعوض التعاون على إعادة إعمار ما دمّرته الحرب في موستار، تقاتلتم فيما بينكم حول مَن يحكم الأنقاض المدمرة، أليس كذلك؟

هزّ رأسه نافياً، ثم قال:

- موستار قبلة الجميع منذ قرون، ولن أردّ على ادّعاءات الكروات القائلين بأنها مدينتهم منذ الأزل، هم الذين لم يستقرّوا فيها إلّا مع مطلع هذا القرن، المهم أنّ تدفّق اللاجئين المسلمين على المدينة هرباً من جحيم آلة القتل الصربية لم يُعجب الكروات الذين ادّعوا أنّ هذا يخلّ بالتوازن العرقي والديني للمدينة، فحوّلوا بنادقهم ومدافعهم إلى صدورنا، لنكتشف مع مرور الوقت حقيقة أطماعهم الانفصالية، التي تجاوزَت كلّ الأعراف والقوانين.

قلت بعصبية:

- القوانين؟ أنا لم أعُد أعترف بهذا الهراء الذي يتلاعب به الجميع ويخرقونه خدمة لمصالحهم...

أجابني بهدوء:

- ربما معك حق، ولكن لا تتجاهل نقطة في غاية الأهمية، سهل جداً أن تخرق قانون البشر وتتلاعب به خدمة لمصالحك، لكنك لن تراوغ أو تزعزع قانوناً آخر أقوى وأصلب، مهما فعلت...

ثم أضافَ بحزم:

- القانون الإلهي. . .

اتّسعت خطواتنا بعد مغادرتنا للمسجد العتيق، وأشعَرَتني الأضواء الخافتة المبعثرة هنا وهناك بخوف مبهَم لا أدري كنهه.

نعم، لا أمان مع الصمت أحياناً، وإن أوحى بالسكينة والطمأنينة الخادعة. . .

- المهم، ما الذي حصل لرامز؟

قلتها فجأة لأبدِّد مخاوفي، فأطلق سمير زفرة حارّة متحسِّرة، قبل أن يُجيبني:

- مشكلة الكروات أنهم يحاولون فرض واقعٍ جديد لم نُعايشه من قبل، يريدون طَردنا من المدينة، أو على الأقل تقسيمها إلى قطاع شرقي مسلم وغربي كاثوليكي، فحشرونا جميعاً هنا، واحتجزوا المسلمين الباقين في الضفة الغربية لنهر نيريتفا كرهائن.

قلت بسرعة وقد فهمت قصده:

- تقصد أنّ رامز وعائلته محتَجَزون في الجانب الآخر من المدينة؟

أجابَني بانفعال:

- تقريباً، فقد أجرينا صفقة لتبادل الأسرى مع الكروات منتصف هذا الشهر، وأطلقوا بالفعل سراح بعض العائلات المسلمة التي عبَرَت جسر ستاري موست والتحقت بنا إلى هنا، لكنني علمتُ من مصادري أنهم أصرّوا لسبب غامض على الإبقاء على عائلة كوستوفيتش، وألحَقوا رامز بمعتقل سرّي يضمّ عدداً كبيراً من شباب القطاع الغربي الرافضين للتعاون معهم، بَمن فيهم بعض الكروات أيضاً!

*   *   *

- سؤالٌ واحد قد تدفعني إجابتك عنه إلى البقاء هنا والتخلّي عن فكرة الرحيل، هل تحبّينني أم لا؟

- أحبك، ولكن. . .

- لا مطلق في هذه الحياة باستثناء الحب، إمّا أن يكون قوياً جباراً عاتياً أو لا يكون، ولا معنى لكلمة «لكن» مع الحب.

- أنت تحمِّلني ما لا أطيق!

- وأنت تتركينني وحيداً في منتصف الطريق!

- لا تجرحني بكلامك، أتوسّل إليك. . .

- جراح الكلمات سهلة الالتئام، فدواؤها التجاهل والنسيان، وحدها الأفعال التي تذبحنا بسكينها من الوريد إلى الوريد، أنت الآن خطيبة البطل العائد، شريكة في قصة حبّ أسطورية يتناقل الجميع تفاصيلها!

- ليس شرطاً أن تولَد قصص الحبّ العظيمة وسط أحداث صعبة ومعقَّدة، بالعكس، قد يكمُن سرّ قوة الحب وعظمته في البساطة التي ولد بها. . .

- وما دمتِ تعرفين ذلك، لماذا تهدمين كلّ ما بنيناه؟

- لأنّ قساوة ما عايشته أوصلتني إلى قناعة مفادُها أنّ ما في العقل، يتحكّم بما في القلب.

- اعكسي الآية، واجعلي ما في قلبك، يتحكّم بما في عقلك، ساعتها ستتغير نظرتك للأمور.

- الكلام سهل، والتطبيق صعب. . .

- لكن الخيانة أصعب!

* * *

رغم تعطّلها منذ ما يقارب العامين، إلّا أنني كنت متأكداً من أنّ الساعة تشير فعلاً إلى منتصف الليل، ربما أقلّ أو أكثر بقليل.

احترم سمير رغبتي في الاستفراد بنفسي لبعض الوقت، وبالفعل تركني وحيداً، قرب حافة جسر ستاري موست، أتطلّع إلى مياه نهر نيريتفا، وأستعيد مع تيارها الجاري ما ترسّب في ذاكرتي من أحداث فقدت الأمل في نسيانها، فوجدتني مجبَراً على التعايش معها.

ربما لأننا أضعف من أن نقف في وجه طوفان الماضي، مهما تظاهرنا بالعكس...

عقدتُ ساعدي خلف ظهري، عازماً على العودة، وقد راودني شعور قوي بأنني تماديت كثيراً باجتيازي بضعة أمتار في الجسر، الذي تحوّل إلى همزة الوصل الوحيدة بين ضفَّتَي النهر، بعدما دمرت المعارك كلّ القناطر الصغيرة الأخرى.

على الأقل لم يمسّوا ستاري موست بسوء، محترمين رمزاً عمره 427 سنة، كما أخبرني بذلك سمير.

إنه أمل، وإن كان واهياً ضعيفاً، في ألّا تنقطع وشائج الحب والوئام بين أبناء الوطن الواحد إلى الأبد...

الأمل، الذي كان آخر ما تبادر إلى ذهني، فقد حاصرتني على حين غرة أشباح متَّشحة بالسواد، قيَّدت حركتي بالقوة وكمَّمت فمي لتمنعني من الصراخ وطلب النجدة، ثم اجتازت بي جسر ستاري موست.

إلى الضفة الأخرى...

* * *

عكس كلّ مظاهر الدمار الذي مزَّق المدينة، سواء في قطاعها الشرقي أو نظيره الغربي، كانت الغرفة التي اقتادوني إليها أشبه

بجناح ملكيّ في فندق فخم لا علاقة له بموستار، بل بالبوسنة بأكملها.

مكتب مصنوع من الخشب الثمين، استقرّت فوقه أوراق وملفات مرتَّبة بعناية، وتلفاز كبير الحجم وُضِعَ فوقه جهاز التحكّم عن بُعد، وجهاز اتصال لاسلكي لا يحمله عادة إلّا كبار القادة العسكريين.

مِلتُ برأسي قليلاً، فلمحتُ بطرف عيني سريراً ضخماً يتَّسع لشخصين، في غرفة نوم صغيرة ملحقة بالغرفة الرئيسة، وإلى جانبه ثلاجة متوسّطة الحجم بقي بابها مفتوحاً، كاشفاً عن صفّ من زجاجات الخمر الفاخرة.

ويسكي اسكتلندي، وآخر ألماني، كونياك شارنت فرنسي، نبيذ جيروند بوردو، شامبانيا أصلية من منطقة شامبان أردان الفرنسية، وفودكا روسية ثقيلة...

أصختُ السَّمْع، فتبيَّن لي أنّ القادم يغيِّر ملابسه بعد أخذه حماماً دافئاً، بل إنه أطلق صفيراً مَرِحاً منغوماً، كما لو أنّ خطورة الوضع في موستار لا تعنيه تماماً.

كنت وحيداً في غرفة المكتب، بلا حراس، وبلا قيود، لكنني فضَّلت البقاء واقفاً عوض التقدّم أكثر نحو غرفة النوم.

دقائق سريعة مرَّت، ثم ظهر القادم أخيراً...

- تزوّد ثلاجتك بأفخم أنواع الخمور، وتترك أهالي الضفة الشرقية للنهر، على مرمى حجر منك، يوشكون على الموت جوعاً!

قلتها بهدوء مستفزّ، فأجابني وهو يحكم إغلاق أزرار قميصه الحريري الأحمر:

- حسبتُ أنّ ظهوري سيكون مفاجئاً لك، لكن يبدو أنّك قد توقّعت وجودي هنا...

اقتربتُ منه قليلاً، واضعاً يدي في جيبي كعلامة على الاستخفاف، ثم قلت ببساطة:

- بمجرّد وصولي إلى موستار وانخراطي في المظاهرة التي حاولَت منع أفراد القوات الدولية من مغادرة المدينة حتى أدركتُ أنك هنا بعد انتباهي لمشاركة بعض مساعديك في صدّ المحتجين، وانتظرتُ ظهورك بالفعل، لكنني لم أتوقَّعك بمثل هذه البلادة، أسلوب رجالك في مهاجمتي لا يليق بموظفين محتَرَمين في هيئة الأمم المتحدة، بل بمرتزقة في عصابة.

حاول العقيد رايلي أن يجاريني في الهدوء، لكنني أدركتُ مدى عصبيته، إذ قال بنبرة جافة:

- شتان ما بين الأمس واليوم، كنتَ مذعوراً كفأر، قبل أن تُميتَ أهوال البوسنة قلبك!

أجبتُه بسرعة:

- أو ربما أحيَتْه من جديد، مَن يدري؟

ثم أضفت:

- كيف انتقلتَ بسرعة من سربرنيتسا إلى موستار؟

قالَ بعد صمتٍ طويل:

- مهمّتي إطفاء الحرائق التي يُشعلها هؤلاء الأغبياء...

قاطعته:

- أو ربما تسعيرها أكثر!

أكمل متظاهِراً بأنه لم يسمَع تعليقي:

- كنت من بين المشرفين على تحويل سربرنيتسا إلى منطقة آمنة بموجب اتفاق برعاية دولية، كما أخرجنا الميليشيات الصربية من المدينة مقابل إقناع المقاتلين المسلمين بتسليم أسلحتهم...

لكنني قاطعته مرة أخرى:

- منطقة آمنة، أم ملجأ آمن؟

لم يُجِبْني، فقلتُ هامساً:

- يعلم الله وحده ما الذي يدور في أذهانكم بشأن هذه المدينة...[1]

مطّ شفتيه مستخفّاً، ثم أضاف:

- وبعد اشتداد المعارك في الجنوب، جئتُ إلى هنا في محاولة للتدخّل وإيقاف نزيف الدماء بين أبناء مدينة لا يمكن إلّا أن أعترف بجمالها الأخّاذ.

قلت بنبرة محتدّة:

- تعلَم جيداً من المعتدي، ومن المدافع عن نفسه...

عقَدَ حاجبيه متسائلاً، لكن ملامح الفهم سرعان ما ارتسمت على وجهه:

---

(1) قد يبدو للقارئ العادي أنه لا فرق بين مصطلحَي «منطقة آمنة» و«ملجأ آمن»، لكن تفسيرهما السياسي مختلف تماماً، وربما كان هذا الخلط أحد الأسباب التي أدَّت إلى وقوع مجزرة سربرنيتسا الشهيرة بعد ذلك (صيف 1995)، فمصطلح «ملجأ آمن» (Safe haven) يعني أنّ القوات الدولية مطالَبَة بالتدخل لحماية السكان، أمّا مصطلح «منطقة آمنة» (Safe area) فلا يُلزمها بذلك، وهذا ما دفع الميليشيات الصربية إلى معاودة الهجوم على المدينة بعد حصارٍ طويل، ثم ارتكاب أبشع مجزرة في أوروبا ما بعد الحرب العالمية الثانية راح ضحيتها 8 آلاف شخص، وعندما لجأ أبناء المدينة إلى الكتيبة الهولندية التابعة للقوات الدولية (والتي عوَّضت نظيرتها الكندية قبل عام تقريباً)، قام عناصر هذه الأخيرة بتسليمهم للصرب، بل وشارك بعضهم أيضاً في اغتصاب النساء اللواتي طلبنَ حمايتهن، في واحدة من أقذر فضائح الأمم المتحدة عبر تاريخها.

- آه فهمت، واضح جداً أنّ ساكني القطاع الشرقي قد لعبوا أمامك دور الضحية المستضعفة، إنها الحرب يا عزيزي، كلّ طرف يتقمَّص هيئة الملائكة ويلصق بأعدائه صورة الشياطين، ليكُن في علمك أنهم يحتجزون أيضاً بعض المدنيين الكروات كرهائن ويقصفون الضفة الغربية لنهر نيريتفا من حين إلى آخر.

اقتربتُ من المكتب، متجوّلاً ببصري بين الأوراق، ثم أجبته:

- إنه ردّ فعل طبيعي على حصار وتجويع 55 ألف مسلم وحشرهم كالفئران في المدينة الأثرية القديمة، فيما يرفل آخرون في النعيم هنا، وعلى رأسم أنت يا رايلي! نعم، إنها حرب دموية تلطّخ بقذارتها الجميع، لكن أعداد القبور تشهَد، مَن المُعتدي، ومَن الضحية...

حاوَل تغيير دفّة الحديث بالقول:

- مَن تعتبرهم ضحايا قاموا باستقدام إرهابيين من مختلف الدول العربية ليقاتلوا إلى جانبهم ضد الصرب[1].

ضاقَت عيناي وأنا أردّ على كلامه بسرعة:

- وماذا عن المرتزقة البلغار والروس والأوكرانيين والرومانيين، والدلائل الواضحة على تزويد إسرائيل للصرب بالسلاح؟[2]

---

(1) يقدَّر عدد المقاتلين الملتحقين بالبوسنة بحوالي ألفي مقاتل من مختلف الدول العربية والإسلامية، بعضهم ممّن حاربوا في أفغانستان، بالإضافة إلى مستشارين عسكريين إيرانيين ومقاتلين من حزب الله اللبناني (أعلم أنّ هذه المعلومة قد تبدو غريبة للبعض، لكن هؤلاء جميعهم قاتلوا جنباً إلى جنب ضد الميليشات الصربية، بما يتعارض بشكلٍ تام مع الانقسام الطائفي والاقتتال الدموي بينهم اليوم).

(2) مع توالي أيام الحرب، اتّضح بما لا يدَع مجالاً للشكّ أنّ الميليشيات الصربية تستعين بمرتزقة من الدول المذكورة، أغلبهم طبعاً من المسيحيين =

وكما لو كانت مواجهة كلامية بيننا، يحاولُ كلّ طرفٍ فيها إسقاط الآخر بالضربة القاضية، ألقى على مسامعي بما اعتبرها ورقته الأخيرة:

- مَن تُدافع عنهم يا عزيزي هدَّدوا باستخدام السلاح الكيماوي ضد الصرب...[1]

أطلقتُ ضحكة قصيرة قبل أن أقول:

- كالعادة، إنسانيتكم انتقائية، تملؤون الدنيا صراخاً على ما يُعارض أهواءكم، وتغضّون الطرف عمّا يوافقها، ليس على المضطر حرج...

ثم انتزعتُ بعض الصور من ألبوم وجدته فوق المكتب، وأشهرتها في وجهه مكمّلاً:

- المهم ألّا يكون وحشاً مثلك يا جوناثان!

كانت حركتي مفاجئة له، حتى أنه تصلَّب في مكانه كتمثال رخامي، فصرختُ في وجهه:

- تستغلّ لجوء نور إلى مركز رعاية الأطفال في سراييفو،

= الأرثوذكس، وتحدَّث حامد باهتو، أحد قادة معركة الدفاع عن سراييفو، عن وقوع بعض المرتزقة كأسرى في يد الجيش البوسني، والعثور على وثائق تُثبت تزويد إسرائيل لهذه الميليشيات بدبابات وقطع غيار طائرات!

(1) كنتُ قد تحدّثت في هامش سابق عن الوضع الميداني الصعب شرق البوسنة خلال تلك الفترة من سنة 1993، وأمام هذا التدهور الخطير، هدَّد المحاصرون في مدينة توزلا باستخدام أسلحة كيماوية من صنع أيديهم للدفاع عن أنفسهم، كما أعلن القائد العسكري البوسني حازم باديتش عن إعداد قواته لكميات كافية من غاز الكلور السام لضرب القوات الصربية إنْ هي استمرّت في تطويق جورازدي بالمدرعات وتدمير دفاعاتها، وطبعاً ثارت ثائرة القوى الكبرى واعتبرت هذه التصريحات بمثابة انزلاق خطير في مسار المعارك وتوازن القوى بين الأطراف المتحاربة!

وتلتقط لها عشرات الصور، من زوايا مختلفة لا توحي أبداً بوجود نوايا بريئة، أنت مريض نفسياً!

قال بلهجة جامدة:

- وماذا في ذلك؟ كلّنا مرضى نفسيون، وإن بدرجات متفاوتة...

حاولتُ استعادة هدوئي، لكن صوتي بدا مرتجفاً وأنا أقول:

- أوهَمْتَني بأنك تخشى على الطفلة من تبِعات الحرب، وأقنعتني بضرورة إلحاقها بمركز رعاية الأطفال، لكنك خطَّطت بدهائك لأمرٍ آخر، وعندما علمتُ أنا بحقيقة المؤامرة الدنيئة لتلك العصابة التي ترتدي ثوب الطهارة والعفاف قمتُ بتهريب نور وخضتُ رحلة محفوفة بالمخاطر لأوصلها إلى ما كنت أعتقد أنه برّ الأمان، أمّا أنت فقد غبتَ عن الأنظار في سربرنيتسا مساهِماً في التخطيط لأمر آخر لا أعلمه، ثم جئتَ إلى موستار، وأدركتَ أنني قادم بالطفلة فتدخَّلت بعلاقاتك وطلبتَ من الكروات الإبقاء على أفراد عائلة كوستوفيتش كرهائن، وربما كنتَ أنتَ السبب في اعتقال رامز والد نور، وعندما وصلنا علمتَ بوجودي عن طريق الصور التي التقَطها أعوانك للمظاهرة، فأحضَرتَني إلى هنا.

صفَّق بيديه متهكماً، ثم أجابني:

- تحليل ممتاز، لكنه ليس دقيقاً مئة بالمئة، ربما ساهمتُ بعلاقاتي في تأخير إطلاق سراح عائلة كوستوفيتش، منتظراً قدومك الذي تأخّر لسببٍ لا أعلمه، فحتى لو أتيتَ على قدميك من سراييفو إلى موستار ما كانت رحلتك لتستغرق شهراً بأكمله، أمّا فيما يخصّ رامز والد نور، فأنا لا أعرفه، ولا علاقة لي به، وقد جرى اعتقاله قبل مقدمي بفترة طويلة، كلّ ما هنالك أنني راجعت كشوفات

المعتقلين، فعثرتُ على اسمه، وأصررتُ على الإبقاء عليه في قبضة الكروات للسبب نفسه.

تحرَّكت شفتي لأتفوّه بشيء ما، لكنه أوقَفَني بحركة من يده ليقول بصوت قويّ:

- مسألة أخرى أكثر أهمية أيها الأحمق، أنا لستُ منحرفاً جنسياً كما تظن، حتى أفكِّر في العبث بطفلة عمرها خمس سنوات، لكن جمالها الملائكي يمثِّل بالنسبة لي مكسباً كبيراً لا يمكن أن أتنازل عنه بسهولة، أتعلم كم عَرَضَ عليّ وسيط المنظمة إياها كعمولة مقابل تهريب نور إلى الولايات المتحدة الأميركية؟ مليونا دولار نقداً!

رغم كلّ محاولاتي المستميتة للتحكّم بأعصابي المنفلتة، إلّا أنّ غضبي كان أشدّ وأنا أقول:

- يا لك من وضيع! تدمِّر حياة طفلة بريئة مقابل ثمن بخس، ألا تخاف الله؟

صمتَ للحظات، كأنما يحاول استيعاب عبارتي، قبل أن ينفجر ضاحكاً:

- أما زلت مؤمناً بهذا الهراء؟ نحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين، ولا مكان لهذا الكلام الفارغ في قاموس العالم الجديد، أنا لا أؤمن سوى بإله واحد، المال. . .

قالها بسخرية واضحة، ثم اقتربَ مني وأضافَ بجدّية:

- ماذا جنيتُ أنا من هذه الوظيفة؟ دولارات قليلة وعمل متواصل بلا انقطاع في أخطر بقاع العالم، من حقي أن أبحث عن تقاعد مريح ومستقبل مضمون لأبنائي!

قلتُ مصدوماً:

- تبحث عن تقاعد مريح على حساب طفلة في الخامسة من عمرها!

لانَ صوته وهو يردف:

- اسمَعْ، ستسلِّمني الصغيرة، ثم نتّفق سوياً على سيناريو مَحبوك يُقنع والدها وعائلتها بموتها، وأعدُكَ بأنني سأقنع الوسيط برفع قيمة العمولة إلى مليونين ونصف، ومنحك خمسمئة ألف دولار كاملة، أنا أبحث عن تأمين مستقبل نور بعيداً عن هنا، صدِّقني!

تحوَّل غضبي إلى إعصار هادر، فأجبتُه بلكمة حمَلَتْ معها كلّ حقدي، ثم صرختُ في وجهه:

- تأمين مستقبلها باستغلال جمالها ورميها في وحل الدعارة والأفلام الإباحية؟ ولا حتى خمسة ملايين يا رايلي، نور في مكان آمن لن تصل إليه يدَكَ القذرة، حتى لو مزَّقتني إرباً!

كانت اللكمة قوية جداً، حتى أنها أسقطته أرضاً، لكنه اكتفى بابتسامة لا مبالية:

- دور الملاك لا يليق بك يا عزيزي...

قالها بتهكُّم، لكنني قاطعته بلهجة حازمة:

- أنا لستُ ملاكاً، ولن أكون كذلك، لكنني أبذُل كلّ ما في وسعي لأكون إنساناً...

نهَضَ من سقطته بصعوبة، والتقَطَ منديلاً ورقياً مسح به خيط الدماء التي سالت من فمه، ثم أجابني بصوت مخيف:

- حسناً، أنت تدفعني إلى إجبارك على القبول، ستسلّمني الصغيرة، أو أصدر أوامري للقوات الكرواتية بإحراق المدينة الأثرية القديمة بمَن فيها، طفلة واحدة مقابل 55 ألف محاصر، ما رأيك؟

***

8- في جحيم الرابوني

قصاصات متفرقة من صحيفة «الوطن» المغربية تمّ العثور عليها في حقيبة الراوي

العدد 1377 - الثلاثاء 23 يونيو 1992:

* * *

حزب العمل يطيح بالليكود ويفوز بالانتخابات الإسرائيلية
إسحاق رابين أبرز المرشحين للفوز بمنصب رئيس الوزراء

تمّ الإعلان بشكل رسمي عن فوز حزب العمل بقيادة إسحاق رابين في الانتخابات الإسرائيلية، مطيحاً بحزب الليكود الذي قاد الحكومة لسنوات.

(. . .) إلى أنّ رابين سيجري مشاوراته مع حزبي «ميريتس» و«شاس» لتشكيل حكومة جديدة، تنتظرها ملفات ثقيلة لعلّ أبرزها مسار المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات، وضبط الأوضاع في الجنوب اللبناني المحتلّ، بعدما حذّرت تقارير استخباراتية أميركية وإسرائيلية من تعاظم قوة حزب الله، المقاوِم الشرس للاحتلال، والذي تولّى أمانته العامة شاب في الثانية والثلاثين من عمره، يدعى حسن نصر الله، إثر اغتيال الأمين العام السابق عباس الموسوي شهر فبراير الماضي.

إسحاق رابين من مواليد عام 1922، وهو أحد أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية الإسرائيلية، شغَلَ منصباً قيادياً في قوات البلماخ التابعة لعصابات الهاجاناه الإرهابية قبل نكبة عام 1948، وتعتبر هذه ثاني مرّة يصل فيها إلى رئاسة الحكومة، بعد (...)

* * *

حكاية عائد

الحلقة الرابعة: العذاب

(...) إثر عودته المفاجئة من معتقلات العار في تندوف، هو الذي أسقط الانفصاليون طائرته المقاتلة وأعلنوا عن موته بشكل رسمي!

صحيفة «الوطن» كانت سبّاقة في الوصول إلى الطيار البطل، وأجرت معه سلسلة من المقابلات كَشَفَ من خلالها عن حقيقة لغز موته المُعلَن والأهوال التي واجَهَها كأسير في معتقلات الانفصاليين، ثم تمكّنه من الفرار والعودة إلى حضن الوطن والأهل، وهي كلها معلومات خاصة وحصرية لجريدتنا (...)

ننشر محتوى هذه المقابلات على شكل حلقات أسبوعية، ترقّبوا الحلقة الأخيرة والخاصة جداً (صفحتان كاملتان) يوم الثلاثاء القادم.

من أين سأبدأ؟

هل سأستعيد يوميات الكابوس الذي جثَمَ على صدري لأشهر طويلة، ولم أتخلّص منه إلّا عندما تأكّدت من عودتي إلى أرض الوطن؟

أنا مجبرٌ على ذلك، فمن حقّ المغاربة وكلّ شرفاء العالم أن

يعرفوا حقيقة ما يجري في معتقلات العار من تعذيب وتنكيل وقتل ربما لم تسمع به البشرية من قبل[1].

تمّ إلحاقي بالسجن المركزي في الرابوني، إلى جانب سجناء آخرين. . .

لا، لا يتعلق الأمر بأسرى عسكريين فقط، فقد وجدتني أمام مزيج عجيب من الجنود المغاربة والمدنيين المختَطفين منذ السبعينيات، بالإضافة إلى مواطنين موريتانيين. . .

كلهم أسرى، وكلهم ضحايا جرائم الانفصاليين الوحشية. . .

تعدَّدت لقاءاتي بالرائد حسان فرقاني، والتي تظاهر خلالها بالتقرّب مني، والتعامل معي بنوع من الطيبة، لكنه لم يصل إلى هدفه، فحاول اتِّباع أسلوب مغاير، ورمى في وجهي بورقته الأخيرة، كأنما يتعمَّد إهانتي ودفعي إلى الاستسلام. . .

نسخة من جريدة مغربية، تحمل صفحتها الأولى صورتي وعنواناً بارزاً:

إسقاط مقاتلة مغربية من طراز إف 5 في معارك الصحراء، ومصرع قائدها الطيار علي السلامي.

كانت مفاجأة صاعقة بالنسبة لي، ما دفَعَ الرائد للقول باستهزاء:

- لا تُكابر، قيادة الجيش المغربي والسلطات المعنية تعتبرك ميتاً الآن، لقد سلّمناهم ملابسك العسكرية وأشلاء متفحّمة لضحية

---

(1) كلما حكى أحدهم عن تجربة مروّعة تعرّض خلالها لأبشع صنوف التعذيب والحطّ من الكرامة الإنسانية إلّا وقال إنه عايَشَ ما لم تسمع به البشرية من قبل، ولأنني سمعتُ هذه العبارة أكثر من مرّة في مختلف بؤر التوتر حول العالم، فقد اقتنعتُ بأنّ وحشية الإنسان قاعدة، و«إنسانيته» استثناء!

أخرى عبر وسيط معين، وبالتأكيد دفنوها معتَقِدين أنها لك![1]

- لماذا فعلتم ذلك؟

- لن أكرِّر ما أقوله كلّ مرة يا علي، أنت كنز ثمين بالنسبة لنا، موتك الظاهري هذا سيسمح لك بالتعاون معنا بكلّ حرية، أنا أعرض عليك تزويدنا بالمعلومات التي تهمّنا، وأعدك بأن أخرجك من هذا الجحيم، ستبتعد عن تندوف وتعيش شمالاً، معزّزاً مكرّماً مرتاحاً.

اعتصر الألم قلبي، وأنا أرى صورتي وخبر موتي يتصدّران صفحة الجريدة، وتخيَّلت آثار الفاجعة على أسرتي وخطيبتي المسكينة، فصمتُّ طويلاً، ليعقب الرائد:

- هيه، اتفقنا؟

واجهته ببصري لدقيقة كاملة، ثم اقتربتُ منه لأقول بلهجة باردة متحدِّية:

- نجوم السماء أقرب لك يا ثعلب الصحراء، أو أياً كان اسمك، لن تنال مني حرفاً واحداً، وعرضك هذا مرفوض، مهما كلّف الثمن!

حوَّلته عبارتي الأخيرة إلى وحش كاسر، فصرخَ في وجهي:

- مها كلَّف الثمن؟ نعم، مهما كلف الثمن! سنرى أيّ ثمن ستدفعونه يا عبيد الـ. . .

ورغم فارق القوة الذي يميل لصالحه، أنا الأسير المحطّم المثخن بالجراح الغائرة، إلّا أنني لم أسمح له بالحطّ من كرامتي وإهانة بلدي، فركلته بكلّ ما تبقّى لدي من قوة حتى سقطَ على ظهره.

---

(1) وجب تذكير القارئ بأن الحديث هنا عن بداية التسعينيات، وساعتها لم تكن اختبارات الكشف عن الحمض النووي مُتاحة بهذا الشكل الذي نراه اليوم!

لا داعي لوصف ما حدث بعد ذلك، المهم أنه أمرَ بإلحاقي بمعسكرات الأشغال الشاقّة وتعريضي لشتى صنوف التعذيب و(. . .)

وكانت هذه أوضح نقطة فهمتُ عبرها كيف تسير الأمور هناك. . .

المسلّحون الانفصاليون مجرّد أدوات، مهمّتها تنفيذ أوامر وتوجيهات الرائد حسان فرقاني وأمثاله.

منذ اللحظة التي أصيبت فيها مقاتلتي بصاروخ سام وأنا متأكد من ذلك.

نحن نملك معلومات دقيقة عن البنية التنظيمية للانفصاليين، وحجم تسلّحهم، وندرك أنهم وإن امتلكوا وسائط الدفاع الجوي المتطوّرة، إلّا أنهم لا يملكون الرادارات المتقدّمة والقادرة على رصد طائراتنا، إلّا إذا تولت هذه المهمة أطراف أخرى معروفة.

ولأنهم يجيدون لعب دور الضحية، فقد حرصوا في كلّ مرة تزورهم فيها هيئات حقوقية أو بعض وسائل الإعلام، على إخفاء عتادهم المتطوّر وحَمْل بنادق عتيقة تُظهِرهم أمام العالم كمساكين يدافعون عن أنفسهم ضدّ عدوّ غاشم، مع أنّ هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة!

وبدأت حفلة العذاب، في معسكرات الاعتقال. . .

تمّ تحويلنا إلى عبيد، نعمل في حفر الآبار والمخازن الأرضية للأسلحة والمدافع والدبابات، لما يقارب الـ 18 ساعة يومياً، في ظروف حيوانية، جعلتنا نحسد جِمال وإبل الصحراء الواسعة على ترفها!

افتراش الأرض إجباري، وكلّ مَن افترش حجراً أو كتلة رملية يضرب بالأسلاك الكهربائية حتى يلتهب ظهره.

يتمّ الاكتفاء بوجبة واحدة، صحن صغير صدئ به حفنة من الأرز المسلوق، لن يصدِّقني أحد إن قلت إن أحد المسلّحين كان مكلّفاً فقط بالبصق عليه قبل تقديمه إلينا، ولأنه أرز من النوع الرديء فقد أصيب معظمنا بالإمساك الذي دمَّر أمعاءنا.

نشرب مياهاً ملوّثة مخزَّنة داخل براميل كانت مخصَّصة للوقود، ولا يُسمح لنا بقضاء حاجتنا إلّا لدقائق معدودة يومياً.

وعندما يعودون بنا إلى السجن بعد يوم طويل من العمل الشاق، يسلِّطون علينا الأضواء القوية لحرماننا من النوم، ثم يتسلّون بإطلاق أجراس الإنذار متى أرادوا، حتى نستيقظ من نومنا بسرعة، والويل كلّ الويل لمن خالف الأوامر...

- أنتم عبيد هنا، مَن لا ينفذ الأوامر مصيره الموت، لا، بل العذاب الذي يحوِّل الموت إلى حلم تتمنّونه ولا تنالونه.

هذا ما كانوا يردِّدونه على مسامعنا كل مرة...

طبيعي أن يحوِّل هذا العذاب أقوى الرجال إلى هياكل عظمية تتمشى على قدمين، وكثيرون ممّن خطّ الشيب رؤوسهم وشواربهم صدمت عندما علمتُ أنّ أعمارهم لا تتجاوز منتصف الثلاثينيات!

تخيلوا معي أن يقع مجنّد في التاسعة عشرة من عمره في قبضة هؤلاء، فيقضي زهرة شبابه معذَّباً منتظراً الموت!

أو أن يتمّ اقتياد عجوز في عقده السابع للقيام بأعمالٍ مضنية لا قبل له بها!

رغم أنني لم أقضِ هناك إلّا بضعة أشهر، إلّا أنني تحوَّلت بسرعة فائقة إلى عدو الحراس الأول...

فقط لأنني رفضتُ هذا الذل، وبذلتُ كلّ ما في وسعي لمقاومته.

أتذكّر بحسرة كيف انهالوا بالهراوات والأسلاك الكهربائية على الجسد المتهالك لعجوز في الخامسة والستين من عمره، اسمه المحجوب الطالبي وكنا نناديه «با المحجوب»، فقط لأنه عجز عن حمل أكياس الرمل على ظهره.

وعندما تدخَّلتُ لمساعدته، ضربوني أيضاً، ففقدتُ أعصابي وغرست أظافري الطويلة المتَّسخة في عنق أحدهم، ليكون عقابي عسيراً...

شهر كامل وأنا مرمي في حفرة...

نعم حفرة!

عميقة وضيقة، يرمون لي بالطعام من فتحتها كأيّ كلب أجرب، ولا يسمحون لي حتى بقضاء حاجتي خارجها!

وحده الرائد فرقاني مَن زارني عدّة مرات، ليكرر السؤال نفسه:

- هل اقتنعتَ بأنك أضعف من أن تقفَ في وجهي؟

فألقي على مسامعه الجواب نفسه:

- اذهَبْ إلى الجحيم أنت وأسيادك!

ثم يأتي قائد المجموعة التي أسرتني ليقول باستهزاء:

- كم أنتَ عنيد، الرائد فرقاني يعرض عليك التعاون وأنت ترفض، لكنني متأكّد من استسلامك في النهاية يا كتلة القمل والقذارة...

أجيبه دوماً ببصقة هي أقلّ ممّا يستحق، فيضاعفون مدّة حبسي في الحفرة العميقة مرات ومرات.

ذات مرة جمعونا، وحضر قيادي انفصالي بارز، ألقى خطاباً مستفزّاً سَخِرَ فيه من المغاربة، وقال إنّ مسلّحيه يدافعون عن

الصحراء وشرف أبناء الصحراء، فصرختُ يومها بصوت هادر لم تفلح قساوة جحيم الرابوني في لجمه:

- الصحراء مغربية وأبناء الصحراء مغاربة رغماً عن أنفك، ولا يدافع عن الشرف إلّا مَن يملك الشرف أصلاً!

أخرسَتْه كلماتي، فتمَّت إعادتي إلى الحفرة طبعاً، أنا الذي غادرتها قبل أسبوع واحد فقط!

ضابط الصف الأسير خالد بلمعطي، حاول الهرب، وتمكَّن بالفعل من مغادرة المعتقل، لكنهم أعادوه بسرعة وعاقبوه على فعلته.

كبَّلوا يديه ورجليه بالأصفاد، ثم تركوه يموت عطشاً في العراء...

عرضوا علينا جثته، ثم قالوا:

- الصحراء أمامكم، والمعسكر وراءكم، هيا، اهربوا! فوالله لن تجدوا إلّا العطش والموت بانتظاركم!

كنتُ أشاطر الملازم الأسير عبد الحميد الطويل حنقي، فيقول وسط نوبة عنيفة من السعال:

- هم مغاربة مثلنا، لكنهم مخدوعون، ومضحوك عليهم...

أسأله باستهزاء غاضب:

- مضحوك عليهم؟ وهذا العذاب؟ لو أنّ أسيراً من الانفصاليين وقع في قبضتنا، هل كنّا سنعامله هكذا؟

فيُجيبني بصعوبة:

- لا تقارن نفسك بهم، ولتعلم أنّ القوي لا يفعل ذلك، فقط الضعيف هو مَن يهدِّد ويعذِّب ويقتل، لأنه خائف!

(...) وقع في الأسر بعد معركة أمغالا الشهيرة سنة 1976،

أصيب بمرض الربو، يعاني بشدّة ويعلم أن الاعتناء به أو علاجه من سابع (...)

صارحني ذات مرة قائلاً:

- أنا عاشق حقيقي للأدب، كنت أحلم دوماً بكتابة رواية، ومنعتني طبيعة عملي من تحقيق هذا الحلم، لكنني لم (...)

ثم فاجأني بكتابته مذكرات سرّية على قطع ممزّقة من أكياس الإسمنت الكرتونية، وبقلم رصاص سرقه من أحد الحراس، مع الحرص على دفن القطع في الرمال خشية اكتشافها.

- أعلمُ أنّ أيامي معدودة، وقد سمعتُ بأنّ أيّ وقف لإطلاق النار برعاية الأمم المتحدة سيؤدي إلى الإفراج عنا، إذا ما حصل ذلك عدني بأنك ستحوّل هذه المذكرات إلى كتاب يُظهر للعالم حقيقة ما يجري هنا من انتهاكات، اتفقنا؟

لم يكَد يكمل كلامه حتى قفزت إلى ذهني صورة جيهان، خطيبتي الشابة التي تعشق المطالعة والكتابة أيضاً، ثم تخيّلتني إلى جانبها، نحقّق أمنية الملازم عبد الحميد و(...)

كان صادقاً في الشق الأول من توقّعه، فقد وافته المنية بعد أيام قليلة، لكنه أخطأ في اعتقاده بأنّ الإفراج عنّا قريب، أو حتى مُدرَج في حسابات قادة الانفصاليين.

أمّا أنا فقد حسمتُ أمري...

لن أقضي ما تبقّى من عمري مستسلماً لعذابات جحيم الرابوني، مهما كلَّف الأمر...

* * *

مسرحية الدم...

كاراديتش يهنئ مقاتليه بعد إحكام السيطرة على محيط سراييفو

والمجتمع الدولي عاجز عن إنقاذ البوسنة من الضياع

حصد القصف الصربي المتواصل على العاصمة البوسنية سراييفو، 19 قتيلاً و87 جريحاً، في حصيلة جديدة تناقلتها وسائل الإعلام، كما اشتعلت كلّ الجبهات التي تشهد قتالاً ضارياً بين القوات البوسنية والمسلَّحين الصرب.

هذا وقد جدَّد الرئيس البوسني علي عزّت بيغوفيتش دعوته (...)

من جهته، هنَّأ رادوفان كاراديتش، الزعيم السياسي لصرب البوسنة، مقاتليه بعد سيطرتهم شبه الكاملة على محيط سراييفو، وبثّ التلفزيون الصربي مَشاهد له وهو يعتلي قمة جبل ويراقب قصف العاصمة بمنظاره المقرب.

ويبدو أنّ المجتمع الدولي عاجز أو ربما غير مبالٍ بما يجري في البوسنة، والتي أشارت عدة تقارير إلى أنها تتعرّض لعملية تطهير عرقي ممنهجة، تستهدف البوشناق المسلمين والكروات الكاثوليك على السواء، بالنظر إلى أنّ (...)

* * *

9- بين الهنا... والهناك...

الثلاثاء 9 نوفمبر 1993[1]

بين الغرب والشرق - مدينة موستار:

تسلَّل شعاع ضوء عبرَ كوّة صغيرة في أعلى الجدار الصخري، مشيراً إلى استقرار الشمس في كبد السماء.

لم يكُن شعاعاً قوياً، بل خالَطَه بعض الشحوب، فقد حلَّ فصل الخريف منذ زمن طويل، إلّا أنّ تباشيره تأخَّرت ربما في الإعلان عن نفسها، أو أنّ الكوة الصغيرة لا تكفي بأيّ حالٍ من الأحوال لتبيّن ما يجري ويدور في الخارج، كيف لا ونحن في مكانٍ أقلّ ما يُقال عنه أنه لا يعترف بأية إحداثيات، من طول أو عرض أو ارتفاع، أو حتى زمن؟

إنه العدم، ولا شيء سواه.

وحده خيط النور الصباحي الخافت ما يربطنا بالخارج، ما يفصل بين الهُنا، والهناك. . .

---

(1) تاريخ آخر لم يُشِرْ إليه الراوي في أوراق مذكّراته، وأضفته بنفسي نظراً إلى ارتباط محتوى هذا الفصل بحدثٍ لن ينساه البوسنيون، بخاصة أبناء مدينة موستار.

خيط يذكِّرنا بأننا ما زلنا نتنفّس هواء أرض منكوبة، وأنّ هذا معتقل تابع للقوات الكرواتية في الجانب الغربي من مدينة موستار، وليس مقبرة جماعية دفن فيها العشرات أحياء منذ...

رباه، كم لبثنا هنا؟ يوماً أو بعض يوم؟

لا أدري!

كلّ ما أعلمه هو أنّ حديثاً هامساً دارَ بين الجنود الكروات يوم أمس، لم ألتقط منه سوى كلمةٍ واحدة:

نوفمبر...

هل نحن في أوّله، منتصفه، أم آخره؟

لا يهمّ، فعندما تفقد الأسماء قيمتها، ينتفي معها أيّ تفسير أو معنى...

- هل من جديد بخصوص الانفجارات المدوية التي سمعناها يوم أمس؟

قالها صوت لاهث تلاحقت أنفاسه بصعوبة بالغة، فأجبته بتهكّم:

- عندما نستيقظ من النوم نقول صباح الخير...

ثم أضفت:

- لا جديد يُذكر، لكن صفوت يقول إن طبيعة الأصوات توحي بحدوث أمر غير مألوف، بالقرب من نهر نيريتفا، بعيداً عن الاشتباكات المعتادة، هو مقاتل سابق، وخبرته العسكرية كبيرة كما تعلم.

سكت صاحب الصوت طويلاً، حتى خيِّل إليّ أنه قد عاد إلى نومه، لكنني فوجئت به منخرطاً في نشيج صامت، لينطق أخيراً ويقول بنبرة طعنتني بسكين الألم:

- هل سأموت هنا قبل أن أرى ابنتي؟ هذا إن كانت حية أصلاً!

العبارة نفسها التي تحوّلت إلى طقس يومي، أضطر معه في كلّ مرة لمعانقة الباكي والتخفيف عنه بكلمات مواسية أدرك جيداً أنها بلا معنى، ما دمت أنا أيضاً غير عالمٍ بما قد تحمِله الأيام القادمة من أحداث...

- اهدأ يا رامز، اهدأ، أنا متأكّد من أنّ النجدة قادمة، نور في أمان ولن يمسّها أحد بسوء، سمير صديقك الوفي، وسيفديها بروحه إنْ اقتضى الأمر!

نعم، أنا واثق من ذلك، ولكنني غير مطمئنّ ما دمت عاجزاً عن تبين الحقيقة.

حقيقة ما يحصل في «الهُناك»...

أسندتُ رأسي إلى الجدار الصخري، ثم أغمضتُ عيني في محاولة لاستعادة ما جرى من أحداث طوال الفترة الماضية.

وما دام الكروات يتحدّثون عن شهر نوفمبر، فمن الواضح إذاً أنّ القدر قد أرادَ لهذه الفترة أن تمتدّ لأشهر طويلة.

طويلة جداً...

* * *

عندما هدَّدني رايلي بإحراق المدينة الأثرية القديمة بمَن فيها، كنت موقناً بأنّه مجرّد كلام فارغ أطلقه بعدما أعمَت شهوة الدولارات عينيه، هو الذي اعترف صراحة بأنّ المال إلهه الأوحد، فمهما بلغت درجة تواطئه مع الكروات، لا يمكنه أبداً إصدار أوامر غبية كهاته، فلهؤلاء مصالحهم وحساباتهم الميدانية التي لن تخضع لهذه التخاريف.

وصدق ظني...

انتبهت متأخراً إلى أننا لم نكن لوحدنا في «الجناح»، فقد غادرت غرفة النوم مَن قالت بصوت حازم:

- أنت تهذي يا رايلي، أتحسب الجيش الكرواتي لعبة في يدك حتى تُطلق تهديداتك التافهة الجوفاء؟

قد تكون في بداية الثلاثينيات من عمرها، ممشوقة القوام، كستنائية الشعر، جَمَعَت ملامحها بين القسوة والبهاء في مزيج غريب قلَّ نظيره، ورغم جمال عينيها الزرقاوين إلّا أنّ نظراتها المُخيفة كانت أشبه برصاصات مدفع رشاش، قاتلة لا ترحم...

- ولكن يا مارتينا، أنا...

أسكتته بحركةٍ من يدها، فأدهشني انكماشه صامتاً كطفل صغير تلقّى لتوه تقريعاً قاسياً من أمه.

كانت ترتدي قميص نوم أسود اللون مفتوح الصدر، لا يتجاوز طوله ركبتها، وعندما تحرَّكت بقدميها الحافيتين نحوي اهتز ردفاها وانكشَفَ جزء من فخذيها المكتنزتين ليظهر وشمٌ صغيرٌ لأحرف مفهومة المعنى:

HVO

جميلة فعلاً، لكن جمالها مرعِب غير مألوف، ويبعث الرعشة في قلوب الشجعان من الرجال.

نعم، فشتّان بين حُسْن ظبيةٍ برية مسالمة وفتنة أفعى سامة غادرة...

التقطت من المكتب علبة سجائر أميركية شهيرة لا أدري كيف وصلت إلى هنا رغم ظروف القتال المستعر والحصار الخانق، وولاعة فضية لامعة، ثم أشعلت سيجارة بحركة أنيقة، قبل أن تُداعبها بأصابعها الطويلة وتقترب مني قائلة:

- ما قصّتك أيها الوسيم؟

كانت أنفاسها الحارة أشبه بالنسيم العليل، لكنه نسيم كادَ يقتلعني من مكاني كإعصار مدمر، فأظهرتُ التجلّد وأنا أقول متسائلاً:

- ماذا؟ لم أفهم!

أجابتني وهي تنفث دخان سيجارتها في وجهي:

- لقد حكى لي جوناثان عنك، قال إنك طبيب فرنسي أو شيء من هذا القبيل، وإن ماضيك مجهول وإتقانك للغة العربية مثيرٌ للشكوك، وتحدّث أيضاً عن الغموض المحيط بشخصيتك، كل هذا لا يعنيني، ما يثير استغرابي هو إصرارك على انقاذِ ابنة رامز كوستوفيتش بهذا الشكل، لا يمكن أن يكون ما تفعله طبيعياً!

قلتُ في ضجر:

- لقد سمعتُ هذا السؤال أكثر من مرة، إنها وصيّة ماتت صاحبتها بين يديّ، وما عليّ سوى تنفيذها إكراماً لروحها.

رفعت حاجِبَها الأيسر وخفضته، فأضَفْت:

- كثيرون ممَّن يعيشون بأجسادهم بيننا قلوبهم ميتة، وكثيرون ممَّن دفنّا أجسادهم بأيدينا ما زالت قلوبهم حيّة بيننا.

اقتربت مني أكثر، حتى لامسَت بصدرها النافر طرف معطفي، ثم سألتني باستخفاف:

- عظيم، ومَن صاحبة الوصية؟

أجبتُها بلهجة حازمة:

- أميرة خافيروتش، والدة الطفلة طبعاً!

وانقلبَ كلّ شيء رأساً على عقب...

ما إن أنهيتُ عبارتي حتى انتفضت بقوة، وسقَطت السيجارة من

يدها، وقد ارتجفت أصابع يديها بطريقة غريبة لا تعكس أبداً تلك الهالة من القوة والسيطرة التي شهِدتها قبل قليل.

وأمام دهشتي العارمة، قفَزَت بسرعة إلى جهاز الاتصال اللاسلكي وقرَّبته من شفتيها قائلة بصوت مرتجف:

- **لوكا، أحضر الرجال واتبعوني إلى هنا، فوراً!**

هنا تخلّص رايلي من صمته ليصرخ قائلاً:

- **ما الذي تنوين فعله؟**

فأجابته بصوت هادرٍ مخيف:

- **اصمُتْ يا جوناثان وإلّا اقتلعتُ حنجرتك بأسناني ورميتُ جثتك العفنة للكلاب، تعلَم جيداً أنني قادرة على فعل ذلك!**

تزامَنَ كلامها مع دخول المسلّحين الكروات إلى الجناح، ورغْم احترامهم أو ربما خوفهم الواضح ممّن قال رايلي إنّ اسمها مارتينا، إلّا أنني لم أغفل استراقهم النظر إلى تفاصيل جسدها، هم الذين لم يتعوّدوا على رؤيتها هكذا من قبل.

- **أوامركِ يا سيدتي.**

قالها أحدهم، فأشارت إليّ بأصبعها وهي تجيبه:

- **اذهَبوا به إلى المعتقل، لا أريده أمامي لحظة واحدة...**

لكن رايلي تدخّل صائحاً:

- **ماذا دهاكِ يا مارتينا؟ أنتِ تدمّرين كلّ مخططاتي، ولن أسمح لكِ بذلك!**

قالها وهو يحاول محاصرتها بجسده، لكنها فاجأته بضربة خاطفة بركبتها اليمنى بين قدميه، أجبرته على الانبطاح والتلوي في ألم شديد.

ولم تكتفِ بذلك. . .

ذهل أحد المسلحين الكروات وهو يرى مارتينا تنتزع منه بندقيته وتجذب مشطها بحركة سريعة محترفة، لتُسكت برصاصها صوت رايلي، الذي تدفَّقت الدماء من كلّ شبر في جسده بغزارة.

لا، لا يمكن. . .

لا يمكن أن تكون هذه الـ«مارتينا» بشرية على الإطلاق!

أخرستني الصدمة، فيما صاح قائد الفرقة:

- ما الذي فعلته يا سيدتي؟ العقيد جوناثان رايلي قائد بارز في صفوف القوات الدولية، ستدمَّر علاقتنا معهم تماماً بسبب هذا التصرف!

وجَّهَت البندقية إلى صدره وهي تقول:

- هذا ليس من شأنك، اصمُتْ وإلّا ألحقتكَ به يا لوكا. . .

لكنها سرعان ما ألقَت السلاح بعيداً لتُضيف بنبرة أخفّ حدّة وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة شيطانية عجيبة:

- احملوا جثته وألقوا بها في نهر نيريتفا، لن يشكّ أحد في أنّ سكان المدينة الأثرية القديمة هم مَن قتلوه، والسبب معروف طبعاً!

احتفظَ لوكا بصمته لبعض الوقت، كأنما يحاول فَهْم قصدها، قبل أن يجيبها بابتسامة مماثلة:

- هكذا إذاً، كما تريدين يا سيدتي![1]

---

(1) يشير أرشيف يوميات الحرب البوسنية إلى أنّ يوم الخميس 26 أغسطس 1993 قد شهد بالفعل مظاهرة حاشدة لسكان المدينة الأثرية القديمة في موستار كما وصفها الراوي في مذكّراته، حاولوا من خلالها منع عناصر القوات الأممية من مغادرة المنطقة خوفاً من استئناف الكروات لمذابحهم بحقّ المحاصرين، وقام السكان باحتجاز بعض موظفي الأمم المتحدة =

رمقتني مارتينا بنظرة صامتة طويلة لم أكُن لأتجاهل بريقها الخافت، ثم قالت بلهجة عسكرية جافة:

- مهلاً، تنتظركم مهمّة أخرى بعد اقتياد هذا الوسيم إلى المعتقل...

تحرّكت بخفّة نحو المكتب، وسلَّمت لوكا إحدى صور نور مضيفة بصرامة:

- أحضروا هذه الطفلة الصغيرة إلى هنا، لا أريد أن تشرق شمس الغدّ إلّا وهي معي، مفهوم؟

أدّى لوكا التحية العسكرية، وتسلَّل الحماس إلى نبرة صوته وهو يجيبها:

- كما تأمرين!

وهكذا اقتادوني بقسوة خارج الجناح، وعندما التقَت نظراتي بنظرات الحسناء الكرواتية لآخر مرة، قفَزَ إلى ذهني سؤالان لا ثالث لهما.

أولاً، أيّ شيطان هذا الذي دفعَها إلى ارتكاب فعلتها المسعورة بمجرَّد سماعها لاسم أميرة خافيروتش رحمها الله؟

ثانياً، وهذا هو الأهم، هل سينجح سمير في حماية نور كما وَعَدَني بذلك؟ أم أنّ الأيادي القذرة ستتمكن من الوصول إليها؟

* * *

- سمير، اسمعني جيداً، أنا في وضع صعب للغاية، لقد التقَط

= كرهائن للضغط على أصحاب القرار، يُفهَم من هذا السياق أنّ المقصود من الحوار هو رمي جثة العقيد رايلي في نهر نيريتفا وإلصاق التهمة بالمحاصرين في الضفة الشرقية للنهر!

موظّفو الأمم المتحدة صوراً للمظاهرة، وبالتأكيد سأظهر فيها ومعي نور، وقد يُرسل العقيد جوناثان رايلي الذي حدّثتك عنه أعوانه لاختطافها أو اقتيادي أنا إليه، حياتي لا أهمية لها، وفقَدَت قيمتها منذ زمن طويل، لكن الخوف كلّ الخوف من تعرّض نور لأيّ مكروه، قد أقتل، وقد لا أعود، لا أدري، المهم ألّا تتعرض الصغيرة لسوء إلى حين عودة والدها وأفراد عائلتها سالمين، مفهوم؟

- أنا ورامز أكثر من مجرّد أصدقاء، نحن إخوة، ونور ابنتي أيضاً، اطمئنّ، ستكون في حمايتي، حتى لو كلَّفني الدفاع عنها حياتي!

- الاحتفاظ بها في المسجد ليس حلاً، يجب نقلها إلى مكان آخر، فأنا لا أضمن احترام رايلي أو الكروات لقداسة المكان.

- لا تقلق، لقد فكَّرت في الأمر، ستبقى نور في ضيافة عائلتي، نتقاسم معها الفتات الذي يُبقينا أحياء، وحتى لو افترضنا قيام الكروات أو المدعو رايلي بحملة تفتيشية في المنطقة، فإنّ الحلّ موجود.

- ما هو؟

- الشرداق. . .

- ماذا؟

- بما أننا في المدينة القديمة، والتي يعود بناؤها إلى العصر العثماني، فإنّ المنطقة مليئة بالأقبية الحجرية السرية التي نلجأ إليها أحياناً حال اشتداد القصف الكرواتي، الشرداق كلمة فارسية تعني القبو، لن يعثر رايلي على الصغيرة حتى لو قلب أحياء المدينة الأثرية القديمة رأساً على عقب!

* * *

ودُقَّت أجراس الكنائس بشكلٍ متواصلٍ وغير مألوف. . .

طبيعي أنْ نسمَعَ صوتها من هنا، لكن حدَّتها اليوم لم تكن طبيعية.

تعالَت الهمهمات بين الأسرى، كلّ واحد منهم يفسِّر ما يجري على هواه، ولو أننا لا نملك جميعاً الخبر اليقين.

ساخرٌ هو القدر، عندما يربط مصير حياتك بصوت، مجرد صوت عادي، لكنه قد يحمل معه قرار إعدامك، أو بشارة انعتاقك وولادتك من جديد.

- يبدو أنهم قد تمكّنوا من إحراز نصر ميداني كبير! ويعبّرون عن سعادتهم بذلك!

- أم تراهم تعرّضوا لهزيمة نكراء ويحاولون شحذ هِمَم مقاتليهم للنهوض من جديد؟

- أجراس الكنائس لا تُدقّ بمثل هذه القوة إلّا إذا كان الحدث عظيماً، سعيداً كان أم حزيناً!

- أنا أتوقّعه سعيداً!

- لماذا يا ذكي؟

- لأنّ الحياة عوّدتني على أنّ الأخبار السيئة تصل دوماً بسرعة فائقة، الكروات صامتون، وهذا يعني أنّ كل شيء على ما يرام!

كل هذا الكلام لم يكن له أي معنى بالنسبة لي. . .

تدهور حالة رامز هو ما يشغل بالي، فالمسكين لم يحتمل قساوة هذا السجن، وسعاله لا يبشّر بالخير.

يا إلهي، لماذا يراودني إحساس قوي بأنني عايشتُ مثل هذا المشهد من قبل؟ أم تراني قرأتُ عنه ونسيت؟ أم هي الذاكرة الخبيثة التي تهوى مُلاعبتي من وقت إلى آخر؟

لا أدري...

- إنْ متّ هنا، وتمكّنتَ أنتَ من الخروج، بلِّغ سلامي لنور، وقُلْ لها بأنني أحبّها، أميرتي الصغرى بعدما أفقَدَني الأوغاد أميرتي الكبرى، وها أنذا أرحل دون أن أراها...

قالها رامز بصوت متحشرج، فاقترب منا باقي السجناء، فيما أجبتُه أنا بنبرة بذلتُ كلّ ما في وسعي لتبدو ساخرة رغم شلال الدموع التي أوشكت على الانهمار:

- يا أخي ما لك وهذا التشاؤم؟ قلتُ لكَ ألف مرة إنها مجرد وعكة بسيطة، أرجوك لا تقلّد تلك الأجواء السخيفة التي نراها في الأفلام، فأنتَ ممثّل فاشل بصراحة!

صرخ أحد الحراس:

- اصمتوا، وأخْرِسوا صاحب هذا الصوت المزعج، فليُحتضر في صمت وإلّا اختصرت عليه المسافة إلى الجحيم برصاصة سريعة، فأنا...

ثم حدَثَ كلّ شيء بعدها في لمح البصر...

سمعنا صوت الارتطام العنيف للمسلّح بالأرض، ثم فتح باب الزنزانة الصدئ بحركة عنيفة، قبل أن يمكِّنني الشعاع الخافت من تبيّن القادمين، الذين أخفوا وجوههم بأقنعة سوداء.

قلتُ بخوفٍ بالغ:

- رباه، ما الذي يحصل هنا؟

فأجابني صوتٌ قوي:

- لا تقلقوا، نحن أعضاء الفرقة التابعة للقوات الخاصة في الجيش البوسني، قمنا بعملية خاطفة لتحريركم، لا وقتَ لدينا لنضيعه، هيا بنا!

صرَخَ أحد السجناء في فرح:

- يا لسعادتي! هل وصلت طلائع الجيش البوسني إلى موستار؟

لم يجبه صاحب الصوت القوي، ولم نشعر سوى بمن يساعدنا على النهوض، فخاطبتهم قائلاً:

- إنه مريض جداً ولن يحتمل المشي، فليساعدني أحدكم على حمله. . .

أجابني أحدهم:

- سأحمله على ظهري، اطمئن!

وبالفعل، انقسم أعضاء الفرقة إلى قسمين، أحدهما في المقدمة، والآخر في المؤخرة، ونحن بينهما، وشغل أحدهم مصباحاً يدوياً ليقودنا عبر ممرّ المعتَقَل المظلم إلى الخارج، ما مكَّنَنا من تبيّن آثار المعركة الصامتة.

كان عدد المسلحين المكلّفين بحراسة المعتقل المتموقع في قلعة حجرية قديمة قليلاً، لكن جثث معظمهم تناثرت عبر ردهات الممرّ، ما يوحي بحدوث اشتباك خاطف ومفاجئ لهم.

ألقيتُ نظرة على بنادق أعضاء الفرقة، فتبيَّن لي أنها مزوّدة بماسورات طويلة لا يمكن إلّا أن تكون كواتم صوت، ما يفسِّر عدم سماعنا لأيّ إطلاق نار في المعتقل قبل وصول النجدة إلينا.

معركة نظيفة وبلا خسائر، كما يقول العسكريون.

وعندما غادرنا القلعة الصغيرة علمنا أننا قَبَعْنا في المعتقل لأشهرٍ طويلة أجبرتنا على حجب أعيننا عن أشعة الشمس بمجرد رؤيتنا لها، رغم أنها كانت شاحبة كما توقعت في الصباح.

ولاحَ لي جسر ستاري موست من بعيد. . .

- لقد أحدَثنا ثغرة في الدفاعات الكرواتية، ما مكَّننا من

الوصول إليكم، فالقلعة قريبة بعض الشيء من الجسر، لكننا مطالبون بالانسحاب بسرعة، هيا بنا!

قالها أحد أعضاء الفرقة، فسألته باهتمام:

- والعائلات المحتجَزَة؟ عائلة كوستوفيتش بالخصوص!

ردّ بسرعة:

- نجحت فرقة أخرى في تحريرها فجر اليوم، وقُمنا باستغلال حالة الفوضى التي تسبَّب فيها القصف المدفعي المتبادل في تنفيذ العملية الثانية لإنقاذكم.

أطلقتُ زفرة ارتياح، وإنْ حمَلَت معها أطناناً من التوجّس والشكّ...

هل اقتربَ لمّ الشمل أخيراً؟

رامز، عائلته، وابنته...

هل تمكَّن سمير من حماية نور، أم أنَّ ما أخشاه قد وقع؟

هل سينتهي هذا العذاب أخيراً؟

وجاء الجواب، على هيئة قذيفة انفجرت بالقرب منا، ما أجبَرَنا على الانبطاح أرضاً...

- انهضوا بسرعة! الكروات مشغولون بالردّ على مصادر النيران، لكن قذائف الهاون العشوائية قد توقِعُ بنا في أية لحظة، يجب أن نصلَ إلى الجسر أو ما تبقى منه في أقرب وقت ممكن، فهو طوق نجاتنا الوحيد!

قالها أحدهم صارخاً، فخاطبته مذهولاً:

- ما تبقّى منه؟ ماذا تقصد؟

لم يُجِبْني، فعلمتُ أنّ الوقت غير مناسبٍ لطرح سؤال كهذا، وواصلتُ الركض، نحو الخلاص...

دقّت أجراس الكنائس مرّة أخرى، بشكلٍ أقوى وأعنف.

ونحن نقترب...

قذيفة أخرى أطاحت بثلاثة أسرى، فتعاونّا على حَملهم رغم يقيننا بأنّ جراحهم مميتة.

ونحن نقترب...

سقط أحد أعضاء الفرقة برصاصة قادمة من مكان ما، فاضطررنا للمواصلة من دونه.

ونحن نقترب...

ظهر مسلّح تبادَلَ معنا إطلاق النار، قُتِلَ هو وأصيب ثلاثة منّا.

ونحن نقترب...

إلى أن لاحت أمام أعيننا المفاجأة الصاعقة...

ستاري موست، رمز موستار والبوسنة، شبه مدمّر...

ووقف جميع الأسرى مصعوقين.

هل فَعَلتها الحرب، ودمَّرت رمز موستار والبوسنة بأكملها؟

كيف تجرّأ مَن قام بهذه الفعلة النكراء على تدمير ماضٍ عمره 427 سنة؟

مستحيل!

إمّا أنه كابوس مزعج، أو حقيقة ترفض عقولنا تصديقها!

لا...

إنها الحرب، يدمّر الأحفاد في دقائق ما بناه الأجداد في قرون...

ثم انتزعتنا تكبيرات الأذان من ذهولنا، وبعدها القذائف التي انهالت علينا فجأة من كلّ حدبٍ وصوب.

جَرس الكنيسة هنا، وأذان المسجد هناك...

ألمح بطرف عيني من بعيد مصوّراً يُخاطر بحياته لتخليد هذه اللحظة الفارقة، ثم أواصل الركض.

ووصل مَن تبقى منا إلى الجسر، أو ما تبقى منه.

جرس الكنيسة هنا، وأذان المسجد هناك...

كان منظرُ الجسر المدمَّر مرعباً، بعدما انهارت معظم أساساته، وأصبح عبوره مخاطرة حقيقية، لكننا واصلنا الجري.

ثلاثون متراً فقط، لكنها بدت من شدّة طولها أشبه بثلاثين كيلومتراً...

تعثّر أحدنا، واختلّ توازنه ليسقط من العلو الشاهق نحو مياه نيريتفا، لكننا أكملنا عبورنا.

ووصلنا أخيراً...

أذان المسجد هنا، وجرس الكنيسة هناك...

وجاءَت الضربة القاضية، القذيفة الأخيرة التي دمّرته تماماً ودفَعَت ما تبقى من أساساته إلى مياه نيريتفا الفيروزية.

أذان المسجد هنا، وجرس الكنيسة هناك...

انقطع الخيط الأخير يا موستار!

انفصل شرقك عن غربك...

وودّع مسجدك هنا، كنيستك هناك![1]

* * *

(1) قد تبدو هذه العبارات التي كتبها الراوي مضطربة ومرتَجَلة وغير مترابطة، لكنها تجسّد بحق واحدة من أقسى اللحظات الفاصلة في تاريخ الحرب البوسنية، عندما دمّرت القوات الكرواتية جسر ستاري موست الأثري الذي يعود بناؤه إلى سنة 1566، وهذا بعد وصول الجيش البوسني إلى موستار وخوف الكروات من خسارة مناطق نفوذهم، ليستهدفوا الجسر عصر الاثنين =

سعَلَ رامز بقوة، وهو راقدٌ على سريره بالمستشفى الميداني الصغير الذي أنشأته القوات البوسنية في الجزء الشرقي من المدينة الأثرية القديمة، ثم خاطبني قائلاً:

- **نور، أين هي؟ أريد أن أراها!**

منَحته ابتسامة مشجِّعة قبل أن أجيبه:

- **اطمئن، هي وكلّ أفراد عائلتك بخير، لقد...**

وقطعَت كلامي صرخة طفولية قادمة من مدخل القاعة.

- **بابا!**

واندفَعَت نور قادمة نحونا، وخلفَها سمير وأشخاص قدَّرت أنهم من عائلة كوستوفيتش المحرّرة.

نهَضَ رامز من سريره، متناسياً مرَضَه، راكضاً نحو ابنته، التي ألقَت بنفسها بين أحضانه، فاعتصرها بذراعيه وهو يقبّلها باشتياق بالغ، ثم تشارَكا بكاء طويلاً اختلَجَ له قلبي بين ضلوعي.

- **بابا، اشتقتُ إليك!**

- **أنا أيضاً يا نور، أنا أيضاً!**

- **ماما رحلت، وأنت لن تتركني بعد الآن، أليس كذلك؟**

- **أبداً يا حلوتي، أبداً...**

- **أحبّك كثيراً!**

لحق بهما أفراد العائلة، خاصة الجدّة التي عانقت حفيدتها وهي تبكي وتشهق، والأعمام الذين أحاطوا برامز شاكرين الله على اللقاء الذي حسبوه في وقت من الأوقات مستحيلاً.

= 8 نوفمبر 1992 بحوالي 60 قذيفة (ما يفسِّر سماع الأسرى لأصوات انفجارات في اليوم الماضي)، قبل أن ينهار كلياً يوم الثلاثاء الموالي كما وصف الراوي ذلك في مذكراته.

أمّا أنا فقد غالبتُ دموعي وأنا أحاول مغادرة المكان بهدوء، لكن سمير استوقفني مستفسراً:

- إلى أين؟

كانت الدموع قد غطّت عيني، فأجبته بتأثُّر بالغ:

- إلى اللامكان، أعتقد بأنّ مهمتي قد انتهت، وحانَ وقت الرحيل!

لكنني شعرتُ بيدٍ صغيرة تجرّني من ساقي، لأجدَ نور وهي تُجبرني على التوقف قائلة:

- عمي، ستعيش معنا هنا، كلنا نريد ذلك!

رفعتها إليّ كما كنت أفعل دائماً، فيما اقترب مني رامز المتعَب ومعه باقي أفراد العائلة ليقول:

- نحن مدينون لك بحياتنا ولمّ شمل عائلتنا بعد تمزّقها، أنتَ واحد منا الآن.

صمتُّ طويلاً، وأنا عاجز عن الإتيان بحركة، قبل أن أستجمع قواي وأردّ:

- قَدَرُ الغريب أن يرحل، فلا مكان له ولا وطن...

فقال سمير بنبرته الهادئة:

- لا معنى لكلّ تلك المسميات والحدود التي صنَعَتْها حماقة البشر، أنتَ ترى بأمّ عينك كيف كنّا أبناء وطن واحد، لتحوّلنا الحرب إلى غرباء بعضنا عن بعض.

وأضاف رامز:

- أينما وَجَدَ الإنسان مَن يحبّه فثمّة وطنه.

وتدخّل صوت ثالث:

- والأبطال الحقيقيون هم الذين تعاندهم الظروف فيصنعون أقدارهم بأيديهم...

التفتّ إلى صاحب الصوت، فوجدته قائد الفرقة التي حرَّرتنا من الأسر، بزيّه العسكري وقناعه الأسود الذي لا يُظهر سوى عينيه، وقد أكمل كلامه قائلاً:

- ولأنك أبله فعلاً، فقد عجزتَ عن التعرّف عليّ حتى الآن!

ثم نزَعَ قناعه ببطء، فاتّسعت عيناي وتدلّى فكي في دهشة وأنا أهتف:

- أنت!

* * *

سِرْنا متجاورين بين الأحياء القديمة، نعاين ما صنعته يدُ البشر من خراب، وقد اكتفينا بالتطلّع من بعيد إلى موقع حصن هيليبيحا في الجانب الأيمن من الجسر المنهار، فقلت:

- كيف تمكّنتم من الوصول إلى هنا يا برانكو؟

شرَدَ ببصره للحظات، أجابني بعدها بدقّته المألوفة:

- تأخّر وصول الجيش البوسني إلى الجنوب بفعل انشغاله بمعارك الشمال والوسط الضرورية لفتح طرق الإمداد والربط بين المدن والبلدات البوسنية، عكس الوضع المتدهور في المدن الشرقية المعزولة والمحاصرة، لكن هذا الربط مكّننا من مضاعفة أعداد قواتنا وكميات أسلحتنا وذخائرنا وبالتالي تحسين وضعنا القتالي، فانتصرنا على الكروات في ترافنيك وزينتسا وكونيتس وكاكان وغيرها، وسيطرنا على مصنع للذخائر في كونيتس، ثم استطعنا دخول موستار من بوابتها الشرقية، والبقية تعرفها، دمّر الكروات الجسر وانقسمت

المدينة بالفعل إلى جانب شرقي مسلم وآخر غربي كاثوليكي، كلّ واحد منهما ينظر إلى الآخر بعدائية وكراهية.

تأمّلته طويلاً، ثم قلت متردِّداً:

- هل هي نهاية ستاري موست؟

ردّ بثبات:

- ستاري موست رمز، والرموز لا تموت، وإن نسفوا أساساتها واقتلعوا حجارتها.

همستُ مخاطباً نفسي:

- ربما لأنّ بعض الأحجار أغلى ممّن دمّرها بحقده.

أما هو فقد أضاف:

- قد يُعاد بناؤه، هذا ممّا لا شك فيه، لكن السؤال الأهم هو هل ستَبنيه أيادٍ متصالحة أم لا؟ هل سترمّم الأحجار ما أفسدته الحرب؟ أم أنّ الخيط الذي انقطع لن يعود أبداً كما كان؟[1]

حسبتُ أنه أنهى كلامه، لكنه قالَ بلهجة مغايرة:

- طيب، دَعْنا من هذا الكلام الآن، لقد أبعَدْتُك عنَ عائلة كوستوفيتش لأطلِعُكَ على أمرٍ مهمّ للغاية، اتبَعْني!

---

(1) بعد نهاية الحرب، وبالضبط في 28 سبتمبر 1997 نقلت وسائل الإعلام الدولية عملية وضع حجر الأساس لإعادة بناء الجسر بالشكل السابق نفسه، بإشراف وتمويل من اليونيسكو وهولندا وإيطاليا وتركيا وكرواتيا، وبدأ العمل على بناء الجسر الجديد في 7 يونيو 2001 وتم الانتهاء منه في 23 يوليو 2004 في احتفال عالمي كبير، وبُني إلى جانبه متحف يحكي مأساة موستار وقصّة دمار الجسر التي خلّدها المصور البوسني نجاد قاسيموفيتش بكاميرته (قد يكون هو مَن رآه الراوي في أثناء عبوره الجسر المدمّر) والفيديو المسجّل لقصف وانهيار الجسر متوفر على موقع YouTube لمن يريد الاطّلاع عليه.

تعجَّبتُ ممّا قاله، لكنني نفَّذت أمره في صمت، فسرتُ خلفه بين الشوارع الضيقة، وصولاً إلى مبنى شوَّهته ثقوب الرصاصات، ثم دخلت إلى جانبه.

سِرْنا بين الردهات التي يحفّها السكون، قبل أن نصل إلى مكتب فسيح ضمَّ عدداً من قيادات الجيش البوسني، وبعد إلقاء التحية العسكرية، تقدَّمني برانكو نحو غرفة جانبية قائلاً:

- لقد طَلَبَتْ رؤيتك أنت بالذات، سأترككما لوحدكما، فهذا أفضل...

هتفتُ مستغرباً:

- وحدنا؟ مَن تقصد؟

اختار الصمت والانسحاب، وعندما أغلق عليّ الباب وجدتني في غرفة خافتة الإضاءة، أمامي طاولة صغيرة ومقعدان ما إن رأيت الجالسة على أحدهما حتى تجاوزتُ آثار استغرابي السابق قائلاً بهدوء أخفى بعضاً من توجّسي:

- هذه أنتِ يا مارتينا!

نعم هي، هيئتها مغايرة تماماً بلباسها العسكري الممزَّق الذي زينه شعار القوات الكرواتية الشهير بمربّعاته البيضاء والحمراء الصغيرة، وشعرها المبعثر وملامحها المكدودة.

العينان وحدهما حافَظَتا على تلك النظرة المخيفة السابقة، كما لو أنّ الزمن توقّف عندهما، غير آبهٍ بما حملته الأيام السابقة والساعات الماضية من تقلّبات صادمة.

- إذاً فقد وقعتِ في أسر الجيش البوسني...

لم تُجِبْني، فذَرَعْتُ الغرفة جيئة وذهاباً، محاولاً استجماع أفكاري، ثم بدأتُ كلامي:

- مارتينا بلازفيتش، في الواحدة والثلاثين من عمرك، درستِ الأدب في موستار وعملتِ كمترجمة متعاونة مع بعض المؤسسات الإعلامية في يوغوسلافيا المنهارة، وبعد اندلاع الحرب تحوَّلتِ إلى قيادية بارزة في مجلس الدفاع الكرواتي، اعتقدَ الجميع أنّ للأمر علاقة بمنصب والدك المرموق في هذا التنظيم، لكن صلابتك في ميادين القتال ووحشيتك المُبالَغ فيها في التعامل مع الجرحى والأسرى جعلتكِ مضرب الأمثال في الشجاعة والإقدام، بحسب المنظور الكرواتي طبعاً، معلوماتي صحيحة، أليس كذلك؟

حدجتني بنظرة ثابتة طويلة، دون أن يحمل وجهها أي علامة تعبِّر عن التفاعل مع كلامي، فجلَسْتُ على المقعد المقابل لها وواصلت:

- ما لا يعلمه إلّا قليلون هو أنّ نزعة التوحّش لم تظهر في سلوك مارتينا إلّا مع اندلاع الحرب، فقد كانت مثالاً للرقة والعذوبة الأنثوية والجمال الأسطوري الأخاذ، وعاشت خلال سنوات دراستها في الجامعة قصة حبّ ملتهبة، لكنها من طرف واحد. . .

ثم ألقيتُ على مسامعها بما أعلم أنه سيُذيب جليد صمتها:

- أحبَّت زميلاً لها يُدعى رامز، رامز كوستوفيتش.

وكما توقّعت، سرَت رجفة واضحة في أطرافها، ثم انفرَجَت شفتاها عن عبارة مقتضبة:

- أنتَ مخطئ، أنا لم أكُن أحبّ رامز. . .

لكنها أضافت بصوت متهدِّج ضعيف:

- بل كنتُ أذوب عشقاً فيه!

همستُ قائلاً:

- اسم الحبيب ترياق يداوي جراح قلوبنا المنهكة، واسم الغريم سمّ يسقينا بعلقمه ليذكّرنا في كلّ مرة بعذاباتنا الأبدية. . .

دارت عيناها الواسعتان في محجريهما، وسالت منهما دمعتان أدركتُ معهما أنها قد فهمَت القصد الحقيقي من عبارتي السابقة.

كان قلبي قد رقَّ لحالها، لكنني تصنَّعت اللامبالاة وأنا أواصل سردَ أطوار القصة:

- بمجرّد سماعك لاسم أميرة رحمها الله، تغيَّرت سحنتكِ وأصابك اضطراب عجيب أدّى إلى قتلك لرايلي ببساطة شديدة، ورغم خطورة وضعي آنذاك إلّا أنني شعرتُ بأنّ في الأمر سراً غامضاً، وبالفعل، بمجرّد نقلي إلى معتقل القلعة ولقائي برامز فيما بعد، وهو اللقاء الذي تمّ في ظروف تأكّدت فيما بعد أنها مقدَّرة بمشيئة قادر، سألته عنكِ، فروى لي كلّ شيء عن ماضيكما، ولو أنه استغرب مني هذا السؤال وعَجِزَ عن الربط بين الماضي والحاضر، قال إنكِ كنتِ زميلته في الكلية، يُعاملك باحترام ويعتبرك مجرد زميلة لا أكثر، والواقع أنكِ كنت غارقة في حبّه حتى الأذنين، لدرجة أنك غالبتِ غرورك وصارحته بمكنونات قلبك، فاعتذَرَ بلطف وقال بأنه يعتبرك مجرَّد زميلة دراسة لا أكثر، لا أعلم سبب رفضه لك صراحة، قد يكون للأمر علاقة باختلاف الديانات والعادات أو ما شابه. . .

قاطعَتني بحدّة:

- كلامٌ فارغ، لم تكن لهذه التفاصيل التافهة أية أهمية آنذاك، مسلم أو مسيحي لا فرق، لم تتغيّر الأمور إلّا بعد اندلاع الحرب.

لم أستطِع مَنْعَ نفسي من الابتسام وأنا أكمِل:

- على أيّ حال، أتوقّع أنك قد انسحبتِ من حياته بهدوء، وتحطَّم قلبك عندما تزوّج بأميرة خافيروتش ونسيك تماماً، ثم

اشتعلَت نيران الحرب فانغمستِ في واقعكِ الجديد، قيادية عسكرية محترفة لا يشقّ لها غبار، تلطّخ يديها بالدماء لتنسى خيبتها القاتلة.

قالت في شراسة مشُوبَة بالتأثّر:

- أنت مخطئ، أنا لم أنسَه قط!

لتضيف بعد برهة صمت:

- ذاكرة الرجل قصيرة في الحب، وحده قلب المرأة الذي يعاني في صمت، فضعفه المقيت يحرمه من نعمة النسيان.

أجبتُها وقد اختلج قلبي بين ضلوعي:

- ومَن قال لك ذلك؟ قد تجدين ذاكرة معطوبة هنا، أو قلباً مزيّفاً هناك، هذا ممكن، لكن قدر العشاق الحقيقيين ألّا ينسوا، مهما تعاقبت الأيام وتوالت الأعوام.

ثم تصاعَدَت حدّة نبرتي وأنا أقول:

- مارتينا، أنت العقل المدبر لجريمة اغتصاب أميرة، والمنفّذون كروات وليسوا صرباً كما اعتقد الجميع، أليس كذلك؟

ارتَجَفَت يداها بشكلٍ ملحوظ دلّ على اضطرابها، فتابَعَت:

- العاشق الحقيقي لا يكرَه، فهو يملأ قلبه بالخير والنقاء، لا بالحقد والرغبة في التدمير، تسألينني كيف خاطرتُ بنفسي لإنقاذ طفلة بريئة لا أعرفها، ولا تسألين نفسك كيف طاوعتك على ارتكاب جريمة بشعة بحقّ إنسانة لا تربطك بها أيّ علاقة؟

قاطعتني صارخة:

- مَن تُسمّيه أنت عاشقاً حقيقياً، عندما يُقابَلُ بالتجاهل والغدر ممّن أحبه، يصعُب عليه أن يواجه نفسه أو يصارحها، فكيانه المهزوم يرفض التنحي بسهولة.

انتقلَت عصبيّتها إليّ وأنا أهتف:

- ونور، ما ذنبها؟

انتفضت كالمصعوقة، وبَدَت لي دهشتها حقيقية، قبل أن تقول باستنكار:

- هل جُننت؟ أتحسبني على علاقة بمخطّطات رايلي القذرة للمتاجرة بالطفلة وما إلى ذلك؟ أبداً!

ضحكتُ في سخرية غاضبة لأجيبها:

- اسمعوا مَن يتحدّث عن القذارة، يا لوقاحتك!

لكنها لم تعبأ بملاحظتي مكملة:

- عندما قَدِمَ رامز إلى هنا وأجبَرَتْه ظروف الحرب واستحالة العودة إلى العاصمة على البقاء، شعرتُ بأنّ روحي قد بُعثَت من جديد بعدما خيِّل إليّ أنها دُفِنَت إلى الأبد، كانت هذه فرصتي الذهبية لاستعادته وبدء حياة جديدة يكون فيها ملكاً لي وحدي، قمتُ باستغلال حالة الفوضى التي شَهِدَتها سراييفو قبل انسحاب القوات الصربية من المدينة ومحاصرتها للجبال المحيطة بها، تمكّنت بواسطة شبكة علاقتي من التواصل مع بعض المرتزقة الكروات وتدبير عملية اختطاف أميرة واغتصابها بتلك الطريقة الوحشية، وقد يتبادر إلى ذهنك سؤال عن سبب تفضيلي لاغتصابها عوض قتلها والتخلّص منها...

قاطعتها بسرعة:

- الحقد طبعاً! أعظم إهانة للمرأة أن يغتال وحش آدمي شرَفها، لو قتلوها لماتت مرة، أمّا وقد لحق بها العار فإنّ الموت يُلازمها في كلّ يوم ألف مرة...

بدا لي أنها تتلذّذ بما تستعيده من ذكريات، فقد ارتسمَت على شفتيها ابتسامة بدّدت كلّ اضطرابها السابق:

- توقّعت أن تدمّر حياتها، لعلها تذوق بعضاً ممّا قاسيته أنا طوال سنوات، المهم أنني اعتقدتُ بأنّ خطَرها قد زال، بعد اكتمال حصار سراييفو وتفرُّق المغتصبين وانقطاع كلّ الأخبار القادمة من هناك، فانتقلت إلى المرحلة الثانية والمتعلقة برامز، فكنت أنا المتسببة في اعتقاله، لإضعافه وتسهيل ظهوري مرة أخرى في حياته بعد ذلك.

ثم أردَفَت ضاحكة باستمتاع:

- أو ربما معاقبته على تخلّيه عني وتعذيبي لسنوات، لذلك ساهمتُ في رميه بمعتقل القلعة دون علمه بوقوفي وراء ذلك طبعاً، ثم أصدرت أوامري للجنود بإخضاعه لجلسات تعذيب تحطّم معنوياته وتشفي غليلي ممّا فعله بي.

قلت بهدوء مستفزّ:

- ورغم ذلك حرصت على زيارته بشكل يومي للاطمئنان عليه...

ارتفع حاجبها في دهشة، وبدا واضحاً أن عبارتي قد باغتتها، إذ تلعثمَت وهي تقول:

- كيف... كيف عرفت؟

احتفظتُ بالنبرة نفسها مجيباً:

- أتحسبينني مغفلاً؟ رامز المسكين كان يعاني، اشتدّ عليه المرض والشوق لرؤية ابنته المفقودة، ففاته الانتباه، أمّا أنا فقد لاحظتُ تكرّر زيارة ليلية يومية غامضة، يقترب صاحبها من باب الزنزانة، يقف طويلاً، ثم يغادر، ورغم الظلام الدامس الذي يلف المكان، إلّا أنني لم أكن بحاجة لتفكير عميق حتى أعلم أنّ الزائر الغامض هو أنتِ!

ألجَمَها كلامي، فانشغَلَت بمداعبة خصلات شعرها المبعثر، ثم فضَّلت الهروب من الإجابة بالعودة إلى السرد:

- مضى كلّ شيء كما أريد، إلى أن ظهر رايلي في موستار، تعلَم جيداً أنّ هذه الفترة قد شهدت انسداد كلّ آفاق الحلّ السياسي للحرب البوسنية، واقتناع الجميع بأنّ التقسيم هو الحلّ الوحيد، الصرب يسيطرون على سبعين في المئة من مساحة البلاد، وتحالفنا مع المسلمين لا جدوى منه، فكان قرارنا بإعلان استقلالنا بالهرسك وجعلها دولة للكروات عاصمتها موستار، ومن الضروري إذاً أن نحاول إقناع القوى الكبرى بذلك.

قلت وأنا أعقد ساعدي أمام صدري:

- وطبعاً كان رايلي هو الوسيط بينكم وبين صنّاع القرار. . .

أجابتني بازدراء:

- لكَ أن تتخيّل صبري على أنفاسه الكريهة وملمَس جسده الخشن حتى أصل إلى مرادي منه.

قلت بتهكّم مبطّن:

- طبعاً، كم من قرار مصيري غيَّر مستقبل دولٍ بأكملها، كانت بدايته شهوة عابرة على فراش اللّذة!

لم تلقِ بالاً لتعليقي الساخر وهي تواصل سردَها:

- انفكَّت عقدة لسانه ذات ليلة تحت تأثير الخمر، فحكى لي عن وفاة أميرة وتشرّد ابنة رامز التي أراد تهريبها إلى أوروبا ومنها إلى الولايات المتحدة مقابل عمولة ضخمة، قبل أن تتدخّل أنت وتقرِّر البحث عن والدها بنفسك، وتحدَّث ساخراً عن الفخّ الذي أعدّه لك هنا، لم يكن يعلم أيّ شيء عن علاقتي الوثيقة بالقصة، كما أنني

خدعته بدفعه لتمديد اعتقال رامز، بعدما أجبرني هذا التطور الجديد على تغيير خططي.

قلت بلهجة ذات مغزى:

- كالعادة، إنه العقل الأنثوي، الغامض والجبار!

تلقّفت عبارتي هذه المرة لتجيب:

- كم تبالغون بتصوّركم أنّ المرأة مخلوق تلفّه الأسرار، الأنثى أبسط بكثير من ذلك، فهي لا تبحث سوى عن الأمان المرتبط بالحب، وتستعد للتضحية بكل شيء في سبيله، فقط!

ثم سعلت، كعلامة على التعب، لكنها تابعت كلامها:

- عندما علمتُ بأنك قريب من الوصول إلى موستار ومعك الطفلة، قرّرت أن أستغل الفرصة وأغيِّر مجريات الأحداث لصالحي، اتّضح لي في البداية أنّ التعويل على رايلي لتحقيق مكاسب سياسية مجرد رهان خاسر، منحته جسدي مرات ومرات دون أن أظفر منه بشيء ذي قيمة، فاقتنعتُ بأنّ التخلّص منه ضروري، حتى لو تسبَّب ذلك في إلصاق التهمة بسكان القطاع الشرقي وتعقيد وضعهم أكثر، ثم فكّرت في انتزاع الصغيرة منك وإيهام رامز فيما بعد بأنني أنا التي أنقذتها من الضياع، لربما ساهَمَ ذلك في استعادته ودفنه بين أحضاني إلى الأبد، كنت سأرحل بهما إلى مدينة سبليت الكرواتية لنبدأ حياة جديدة، بعيداً عن كلّ هذا الدمار، أمّا الطفلة فلم أكن أنوي إيذاءها قط، أقسم لك!

ثم أطلقَت زفرة حارّة قالت بعدها:

- لكن الطفلة ماتت للأسف، ولا علاقة لي بمقتلها...

قاطعتها ضاحكاً:

- هذا لأنكِ أرسلت إلى المدينة الأثرية القديمة حفنة من المسلحين الحمقى!

رسمَت الدهشة آثارها على وجهها، لكنني لم أمنحها فرصة التقاط الأنفاس مكملاً:

- ما لا تعلمينه يا عزيزتي أن سمير، الذي تركتُ الطفلة أمانة عنده، قد لاعبكم ببراعة منقطعة النظير، في البداية اختفى عن الأنظار، ورغم بحث المسلحين المستميت عنه تلك الليلة إلّا أنهم لم يعثروا له على أثر، وعندما فهم أنّكم لن تتركوه وشأنه وأنكم ستكرِّرون المحاولة مرات ومرات، ظهر فجأة بعد أيام طويلة شهدَت قصفاً مدفعياً عنيفاً على الأحياء القديمة عقاباً لها على «قتل» رايلي، وقال بأنّ الصغيرة قُتِلَت جراء سقوط قذيفة طائشة، وعرض ملابسها الممزقة والملطخة بالدماء، فانطَلَت الحيلة البسيطة على رجالك.

هتفت في حنق:

- أنا المغفّلة الحقيقية، لأنني لم أقتلك، فقد أعجبتُ رغم كلّ شيء بشجاعتك وشهامتك، لأقرِّر الإبقاء عليك حياً والاكتفاء بسجنك. . .

قاطعتُها مرة أخرى:

- لكن يد القدر تدخّلت مرة أخرى لتوجِّه مسار الأحداث كما تريد، كان من الطبيعي أن يقتادني المسلحون إلى زنزانة بعيدة عن زنزانة رامز، وهذا ما حدث بالفعل، لكن قصفاً مضاداً مصدره الضفة الشرقية للنهر دمر جزءاً من أساسات القلعة، ما أجبر المسلحين على تجميعنا في مكان واحد، وهكذا التقيتُ به، والبقية معروفة!

قالت في مرارة:

- للأسَف، تعقَّدت الأمور خلال الفترة السابقة، بعد اقتراب

وصول طلائع القوات الحكومية إلى موستار، ما أجبَرَني على تأجيل ظهوري في حياة رامز مرة أخرى، ثم تسارعت وتيرة الأحداث ووقعتِ أسيرة في قبضة الجيش البوسني، ليضيع كل شيء...

التقطتُ نفَساً عميقاً، قبل أن أحسم النقاش الطويل بالقول:

- واضح جداً أنّ البوسنيين لن يتساهلوا معك يا مارتينا، فقد أوغلت في دماء الكثير من الأبرياء، ولائحة الاتهامات الموجَّهة إليك طويلة جداً، ما يعني أنّ موقفكِ صعبٌ للغاية، لكن ما أريد قوله أهم من ذلك بكثير، ما بُنِي على باطِل لا يمكنه أن يستمر على حق، ولا يُعقل أن تدمّري حياة إنسان لتبني على أنقاضها حياة أخرى جديدة، رامز اجتمع بابنته وعائلته، وأنت ستقبعين في السجن في أفضل الأحوال، لأنني لا أستبعد إقدام هؤلاء على إعدامك، وأوّلهم رامز الذي سيمزّقك إرباً إنْ عَلِمَ بوقوعك في الأسر، ماذا جنيتِ إذاً من كلّ هذه الخطط والمؤامرات؟ لا شيء! مجرد دائرة أخرى لا متناهية من الشر والدماء!

قلتُها ثم نهضتُ من مقعدي متوجِّهاً نحو الباب، وعندما اقتربتُ منه التفَتُّ لألقي عليها نظرة أخيرة، فوجدتُها منخرطة في نوبة مؤثرة من البكاء الممزّق لنياط القلوب.

كنت على وشك العودة إليها لمواساتها والتخفيف عنها، لكنني حسمتُ أمري أخيراً وغادرتُ المكان.

- أيّ نقاش هذا الذي جمعكَ بمارتينا بلازفيتش؟ وما علاقتك بها أصلاً؟

قالها برانكو باستغراب، فأجبته بلهجة ذات مغزى:

- سأحكي لك عنها يا عزيزي، بعد أن أفهم منك سبب إيهامي

لأشهر طويلة بأنك مجرّد شاب عشريني عابث، مع أنك مقاتل بارز في صفوف القوات الخاصة البوسنية!

احمرَّت أذناه خجلاً وهو يبتسم، فأضَفْتُ بجدّية خالَطَها بعض التأثر:

- أعلم أنه ليس من حقي التدخل، لكن لو كان الأمر بيدي لأطلقتُ سراح مارتينا، قد تكون قاتلة محترفة، أو حتى مجرمة حرب، لكنها في نهاية المطاف مجرد امرأة عاشقة، وقوانين البشر لا تسري على العشاق، ما دامت قلوبهم بِيَد خالقهم...

* * *

10- الانعتاق الأخير

قصاصات متفرقة من صحيفة «الوطن» المغربية تم العثور عليها في حقيبة الراوي

العدد 1383 - الثلاثاء 30 يونيو 1992:

*** * ***

تواصل الاحتفالات في الدنمارك بعد فوز المنتخب بكأس أمم أوروبا

ما زال الجمهور الدنماركي منتشياً بفوز منتخب بلاده المفاجئ بكأس أمم أوروبا، بعد عودة اللاعبين إلى كوبنهاغن وحَمْلِهم الكأس التي لم يتوقّع أشدّ المتفائلين أنّ رفاق بيتر شمايكل سينتزعونها من أنياب كبار القارة الأوروبية.

وكانت المباراة النهائية التي جمعت الدنمارك بالماكينات الألمانية يوم الجمعة 26 يونيو في غوتبورغ السويدية قد انتهت بفوز أصدقاء لاودروب بهدَفين مقابل لا شيء، من توقيع ينسن وفيلفورت، عكس كلّ التوقعات التي اعتبرت أنّ الألمان سيوقفون المغامرة الدنماركية عند هذا الحدّ.

وكانت الدنمارك قد تأهّلت إلى بطولة أمم أوروبا المُقَامة في

السويد بعد استبعاد منتخب يوغوسلافيا لأسباب سياسية مرتبطة بتبعات حرب البلقان، وأوقعتها القرعة في مجموعة صعبة ضمَّت كلاً من السويد البلد المنظّم وفرنسا وإنجلترا، لكنها تأهلت كثانية المجموعة خلف السويد لتلاقي في نصف النهاية المنتخب الهولندي حامل اللقب وتتفوق عليه بـ (. . .)

تجدر الإشارة إلى أنها أول بطولة تعتمد قانون الحراس الجديد، والذي يمنع حارس المرمى من لمس الكرة بيده إذا ما مرَّرها له لاعبو فريقه بشكلٍ متعمّد، كما شهدت ولأول مرة مشاركة ألمانيا بمنتخب يجمع لاعبي ألمانيا الغربية ونظيرتها الشرقية بعد سقوط جدار برلين وتوحيد شطري البلاد.

* * *

بارقة أمل لوقف الحرب؟

الرئيس الفرنسي يزور سراييفو والمساعدات الإنسانية

تصل إلى المدينة لأول مرة منذ ثلاثة أشهر

تسارَعَت وتيرة الأحداث بشكل ملحوظ في العاصمة البوسنية سراييفو خلال الأيام القليلة الماضية، فبعد الزيارة المفاجئة التي قام بها الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران للمدينة، واطّلاعه على أوضاعها المزرية، تسلَّمت قوات الأمم المتحدة مهمّة الإشراف على مطار العاصمة ابتداءً من يوم أمس، وسمحَت بإدخال مساعدات إنسانية إلى سراييفو، هي الأولى منذ اندلاع الحرب قبل ثلاثة أشهر.

من جهة أخرى، تعرّض مبنى جريدة بوسنية شهيرة في العاصمة لقصف مباشر، كما أعلنت محطة باتشيفو عن توقّف إمدادات المياه، ما يهدّد سكّان سراييفو بالموت عطشاً، إذا لم يتحرك المجتمع الدولي لوقف الغطرسة الصربية التي يبدو أنها (. . .)

(. . .) ويأتي ذلك في إطار جهود الأمم المتحدة لاحتواء الوضع في البوسنة، حيث أعلنت عن تعاونها مع منظمة أطباء بلا حدود لإرسال كفاءات طبية متخصِّصة إلى البلد المنكوب، ودَعَت كلّ أصحاب الوزرة البيضاء حول العالم إلى التواصُل مع مكاتب المنظمة لـ (. . .)

* * *

حكاية عائد

الحلقة الخامسة والأخيرة: الهروب

إنه النقيب الطيار في صفوف القوات المسلّحة الملكية علي السلامي، الذي شغلت حكايته كلّ المغاربة، إثر عودته المفاجِئة من معتقلات العار في تندوف، هو الذي أسقط الانفصاليون طائرته المقاتلة وأعلنوا عن موته بشكل رسمي!

صحيفة «الوطن» كانت سبّاقة في الوصول إلى الطيار البطل، وأجرَت معه سلسلة من المقابلات كشف من خلالها عن حقيقة لغز موته المعلَن والأهوال التي واجَهَها كأسير في معتقلات الانفصاليين، ثم تمكّنه من الفرار والعودة إلى حضن الوطن والأهل، وهي كلها معلومات خاصة وحصرية لجريدتنا التي عوّدتكم دائماً على التميّز في نقل الخبر.

رسمت خطة مُحكَمة للفرار من الرابوني، معتمداً على ثقتي بالله عزّ وجل، ثم إيماني بأنّ كلام الرائد فرقاني عن استحالة وجود أنظمة أمنية مُحكَمَة مئة بالمئة صحيح تماماً، فجمعت من زملائي في المعتقل كلّ قصص الهروب السابقة التي انتهت بالفشل، حتى أحلّل أخطاء مَن سبقوني وأعمل على تلافيها، فأعظم خطوة للانتصار على عدوك هي تقدير قيمته الحقيقية.

فهمت أنّ الهروب من المعتقل ثم المشي سيراً على الأقدام في فيافي الصحراء مستحيل عملياً، فأنا لستُ ابن المنطقة ولن أعرف أسرار طرقها وتضاريسها إلّا إذا استعنتُ بخرائط دقيقة ومفصَّلة، كما أنّ المسلحين سيلحقون بي بسهولة تامة، اعتماداً على الآثار التي ستتركها أقدامي على الرمال، كيف لا وهُم يحفظون كلّ شبر في الصحراء عن ظهر قلب؟

الاستيلاء على سيارة رباعية الدفع صعب جداً، فحتى وإن ابتعدتُ عن المكان بأقصى سرعة ممكنة إلّا أنّ الاعتماد عليها غير مضمون النتائج، فمشكل جهلي بتضاريس المكان قائم أيضاً، كما أنّ الحملات التمشيطية القادمة من بئر الحلو مثلاً ستُوقع بي بسرعة فائقة.

وماذا إن مزجتُ بين الطريقتين؟

وهنا التمَعَت في ذهني فكرة. . .

بدأتُ برصد تحرّكات الآليات القادمة إلى المعسكر، فلاحظتُ أنّ شاحنة معيَّنة تغادر المكان فجر كلّ يوم، قبل أن تعود مساء اليوم نفسه، وعندما استفسرتُ عنها، فهمتُ أنها تقوم بتزويد بعض النقط العسكرية التابعة للمسلحين في بئر الحلو وتفاريتي بالمؤن الضرورية من مياه ومواد غذائية، ولأنهم يتلذّذون بتعذيبنا، فإنّهم يفضّلون كلّ مرة اختيار واحد منّا بشكل اعتباطي لينقل هذه المؤن من المخازن إلى الشاحنة على ظهره.

يقود الشاحنة مسلّح واحد فقط، يتمّ تغييره كلّ شهر، ويجري اختياره بطبيعة الحال من بين عدد من الشباب المتحمّسين الذين يعرفون مسالك الصحراء وأسرارها.

أتممتُ مرحلة المراقبة، ثم انتقلتُ إلى التنفيذ. . .

انتظرتُ مَقدَم شهر أبريل، الذي يشهَد هبوب رياح قوية تخفي الآثار التي تطبعها الأقدام والعجلات على الرمال، ثم رصدتُ الشاب المسلَّح الذي تولى مهمة قيادة الشاحنة ذلك الشهر، وقارنتُ بيني وبينه، فوجدتني أطول منه قليلاً وربما أقدَر على مواجهته.

نعم، لقد فقدتُ من قوّتي الكثير، وبضعة أشهر من الاعتقال والتعذيب الوحشي كانت كافية لتحطيمي، فأنا لم أعُد ذلك الشاب قوي البنية، المفتخر بلياقته البدنية العالية، لكنني موقِن بأنّ إرادة الحرية أقوى بكثير من مجرّد عضلات مفتولة أو طول فارع.

وهكذا قمتُ بتحديد ساعة الصفر: فجر الجمعة 24 أبريل 1992.

عندما أتى الحراس لاختيار واحدٍ منا، حتى يحمل أكياس المؤونة على ظهره، أبديتُ رغبتي في ذلك، فوافقوا على الفور، متحدّثين بسخرية عن الدواب التي أَلِفَت العبودية وعشِقَتْها.

كتمتُ غضبي ولم أردّ، فلا داعي للعصبية التي قد تدمّر كلّ مخطّطاتي.

قمت بعملي على أكمل وجه، ونقلت أكياس الأرز والدقيق والسكر إلى الشاحنة، وقد أحاطَ بي خمسة مسلحين يراقبون تحرّكاتي بانتباه شديد.

تصرّفت بشكلٍ طبيعي للغاية، تجنّباً لإثارة الشكوك، ثم وقفت منتظراً إعادتي إلى الزنزانة كما جرَت العادة.

وهنا بدأ الجزء الأول من خطّتي، اعتماداً على استنتاجٍ مهمّ أسفرت عنه مراقبتي المستمرة لروتين العملية المتكرِّرة بشكلٍ يومي.

يعود أربعة مسلحين إلى المهاجع، ويرافق الخامس السجين إلى

زنزانته، ليتأكد بعد ذلك من مغادرة الشاحنة للمعسكر ويلحق بزملائه (...)

ما إن اقتربنا من باب الزنزانة، حتى طلبت منه أن يسمح لي بقضاء حاجتي.

كان رفضه حاسماً قاطعاً، لكنني توسَّلت إليه، متعلِّلاً بإصابتي بمغص معوي، فوافق بتفزّز وعلى مضض، لكنه أصرّ على مرافقتي إلى المراحيض، غير مدركٍ بأنني أستدرجه إلى الفخ.

عاجلتُه بضربة مفاجِئة صدمت رأسه بالحائط، وقبل أن يُصدر صرخة ألم واستغاثة انتزعتُ منه بندقيته وهويتُ بكعبها على وجهه، ففَقَد وعيه من شدّة الضربة.

لم أضيع الكثير من الوقت، فقد نزعتُ أسمالي البالية، وارتديتُ ملابس المسلح بسرعة، ثم حملتُ بندقيته وغادرتُ المكان.

قمتُ باستغلال الظلام الحالك، والعواصف الرملية التي أجبَرَت المسلحين على ارتداء اللثام الأسود، لأخفي ملامحي، ثم اقتربتُ من باب الشاحنة لأحيي السائق بحركة من رأسي علامة على أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّ بإمكانه الانطلاق.

وما إن أدار المحرِّك وسار لبضعة أمتار حتى لحقتُ به بخفّة وقفزتُ إلى داخل الشاحنة واختبأتُ بين الأكياس والصناديق محاذراً من إصدار أيّ صوت قد يكشفني.

لم أفعل ذلك إلّا بعد دراستي لخطّ سير الشاحنة لشهور طويلة، وتأكّدي من أنها مُجبَرَة على اجتياز ممرّ ترابي طويل، يكون فارغاً في أغلب الأحيان، قبل الوصول إلى نقطة حراسة تغادر بعدها المعسكر.

(. . .) فتحركت بسرعة بعدما تأكّدت من ابتعاد الشاحنة عن الرابوني بمسافة كافية وتوجّهها نحو الجنوب الغربي، ليقيني بأنّ المسلحين سيشعرون حتماً بغياب صديقهم، ما سيدفعهم لإجراء تفتيش مفاجئ لـ (. . .)

تعمَّدت إصدار أصوات متعاقبة، بطَرْقي على جدار الشاحنة عدّة مرات، ما أجبر السائق على التوقف لاستطلاع حقيقة ما يجري، وما إنْ أزاح الستار الخلفي حتى وجَدَ هو الآخر كعب البندقية بانتظاره، مع حرصي على عدم استخدام القوة المفرطة التي قد تفقده الوعي، نظراً إلى حاجتي الشديدة لخدماته، هو الذي يحفظ مسالك الطريق وأسرارها.

أغرَقَت الدماء فكّه، فلويتُ ذراعه ودفعته أمامي إلى المقاعد الأمامية للشاحنة، مستغلاً قوة الضربة وأثر المفاجأة التي منعته من القيام بأيّ ردّ فعل، ثم جرَّدته من سلاحه وأجبرته على حرف الشاحنة عن مسارها المعتاد، للاقتراب من الجدار الدفاعي المغربي في نقطة المحبس، التي تبعد عن تندوف بأقل من 90 كيلومتراً.

كان على وشك البكاء، وهو يتحدّث عن المسلحين الذين سيلحقون بنا بسهولة ليُعيدوني إلى جحيم الرابوني ويقتلوه هو بتهمة التعاون معي، لكنني أمَرته بالصمت ومواصلة القيادة، وهدَّدته بإفراغ رصاصات بندقيتي في رأسه إنْ هو حاوَلَ التلاعب بي.

أعلم أنّ المسكين مجرَّد عبد مأمور، لا حول له ولا قوة، لكنني أخُوض معركة حياة أو موت، لا مكان فيها للضعف أو الاستسلام للمشاعر الجياشة.

وكما كان متوقعاً، أصدَرَ جهاز الاتصال الداخلي في الشاحنة أزيزاً متقطّعاً، أتبعه صراخ أحد المسلحين، الذي أمَرَ السائق بتحديد

موقعه وهدَّده هو الآخر بقتله بتهمة الخيانة، فما كان مني إلّا تخريب الجهاز وقطع أسلاكه.

سيمنحني قطع الاتصال مع قيادة المسلحين في الرابوني وقتاً ثميناً، بالإضافة طبعاً إلى الرياح التي (...)

ولكن، قد يرسلون دوريات تمشيطية قادمة من مواقعهم في بئر الحلو لمحاصرتي!

أَضِفْ إلى ذلك أنني أتعامل مع محترفين على قدرٍ عالٍ من الخبرة، وبالتأكيد سيدركون أنني سأتحرّك نحو المحبس لأنها النقطة الأقرب، وسينسّقون جهودهم للإطباق عليّ...

لم يستغرق تفكيري سوى دقيقةٍ واحدة، تجاهلتُ بعدها حقيقة خوضي مخاطرة غير محمودة العواقب، ألعبُ فيها بنار قد تحرق أصابعي، ثم أمرتُ السائق بتغيير المسار الذي حدَّدته في البداية، للحاق بنقطة الفارسية، فأطاعني مستسلماً.

(...) نعم، إنها مساكن الرحل!

ألقيتُ رشاشي الكلاشينكوف أرضاً، بعدما تأكَّدت من فراغ خزانَتَي رصاصهما، ثم توجّهت بخطى منهارة نحو الأمل الذي ساقه الله إليّ، أنا الذي أوشكت على الموت برصاص الانفصاليين إثر الاشتباك السابق، رغم أنّ المطاردة ما زالت مستمرة، و(...)

- مرحباً بك، اطمئن، أنت في ضيافتنا ولن يمسّك أحد بسوء!

قلت لاهثاً:

- أنا طيار مغربي، اسمي علي السلامي، كنت أسيراً في سجون الانفصاليين، وتمكّنت من الهرب، وكانت خطّتي على وشك النجاح، حتى آخر لحظة، عندما اعترضتنا دورية لهم، اشتبكتُ معهم من بعيد، وتمكّنت من قتل مسلّح وإصابة آخر، لكنهم دمّروا إطار

الشاحنة الخلفي، وقتلوا مرافقي، وتمكَّنت من الإفلات بعد تبادل طويل لإطلاق النار معهم، لكنهم سيلحقون بي، امنَحني الأمان، فأنا . . .

رغم كبر سنه الواضح، إلّا أنّ صوته الجهوري العميق الذي قاطعني بعَثَ في نفسي الارتياح:

- اسمع، نحن أولاد دليم، أحفاد جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي رضي الله عنه، لا نردّ مَن جاءنا، لا نخون مَن عاهدنا، وضيوفنا في حمايتنا، حتى لو كلَّفنا ذلك حياتنا.
(. . .)

وأمام دهشتي العارمة أنشدَ كلمات ما زال صداها يرنّ في أذني:

«ارفع راسك ولا تحسب حساب لحدا
احنا عرب قاهرين العدا
روحنا وحياتنا ودمنا للوطن فدا
أنا ما احكي حكي ليسمعوا حدا
ولا احكي شعر ليقولوا فلان رمى شعر في المدا
هذا وعد مني وليشهد رب السما
أنا دليمي ورافع راسي للسما»

(. . .) وقال بعد ذلك بلهجة عميقة الدلالات:

- أنتم تدافعون عن الأرض، عن الوطن، عن كلّ حبة رمل في هذه الصحراء الغالية، لكن أجبني بصراحة، هل تعرفون عن تاريخها شيئاً؟

شعرتُ بخجل شديد، وقد فهمتُ مغزى كلامه، ثم انتبهتُ للشرح الذي قدَّمه مفسّراً قصده:

- يتوزع أبناء قبيلة ولاد دليم، بين الصحراء المغربية والموريتانية، وحتى داخل الجزائر أيضاً، وقد استقرّ جزء القبيلة الغربي في الأراضي الممتدة من الساقية الحمراء شمالاً حتى آكنيتير جنوباً بالقرب من سواحل المحيط الأطلسي، أما بالنسبة إلى الجزء الشرقي فإنه يوجد في (. . .) بخاصة خلال فترة الترحال النشيط الذي سبق وصول القوى الاستعمارية الأوروبية إلى المنطقة، ولنا حضور كبير بمنطقة الرأس الأبيض وعموم وادي الذهب أيضاً، وكلها تحظى بمكانة مميّزة عند سكان منطقة تراب البيضان الذين (. . .)

ولم أغفل البريق الذي لمع في عينيه وهو يحكي عن أمجاد قبيلته المعتزّة بأصلها:

- تشهد رمال الصحراء بأننا قاومنا المحتلّ بكلّ ما أوتينا من قوة، نحن أبطال معركة أم التونسي، التي قادها سيدي بن الشيخ بن العروسي، وإبراهيم السالم بن ميشان، وسيدي أحمد بن الكوري بن علي سنة 1932، عندما قهر البطل إبراهيم السالم بن ميشان جنود الفرقة الفرنسية، والتفّ عليهم من الخلف بسرعة البرق، مُوقِعاً 3 فرنسيين و7 رماة لوحده، هؤلاء رجالاتنا، عنوان عزّتنا ومفخرتنا، ولا عزاء لمن يعادينا.

ثم مالَ على أذني قائلاً:

- المشاريع الانفصالية معروفة الأهداف، لكن أصلها فكرة، والفكرة تواجَه بنظيرتها، بالحجّة القوية والدليل القاطع، الفكرة شمس مُشرقة تُنير بأشعّتها العقول المظلمة وتحرّرها من الجهل والتبعية، أرى آثار التعذيب واضحة على محيّاك وربما جسدك أيضاً، وأعتقد بأنك ستتقاعد مبكراً، أو تستلم وظيفة مكتبية، لا أدري،

المهم بالنسبة لي ألّا تتوقف، أديت واجبك ودافعت عن وحدة بلدك بالحديد والنار، احمِه الآن وأبعِدْ عنه كيد الكائدين بصوتك، بقلمك، بفكرتك، اكشِفْ للعالم كلّه حقيقة ما يجري في معتقلات الرابوني، وأنا متأكّد بأن وَقْعَ كلماتك لن يقلّ أثراً عن تضحيات رفاقك في جبهات القتال.

قلت في حماس:

- نعم، لقد حملتُ معي مذكّرات أسير وافَتْهُ المنيّة، كتبها بصعوبة بالغة، ويحكي فيها تفاصيل المعاناة الرهيبة التي يعيشها الأسرى في جحيم الرابوني، سأجمعها وأنشرها بالتأكيد، لأنني (. . .)

(. . .) فسمحَت لي القيادة بالعودة إلى أسرتي، لتقودني قدماي إلى منزل خطيبتي في حسان.

ليلة الأحد 3 مايو 1992.

التاريخ الرسمي لعودتي الرمزية من الموت إلى الحياة. . .

قد يبدو الأمر غريباً بعض الشيء، فمن المفروض أن أتوجّه رأساً إلى بيتي، لأبشّر أمي الغالية وأبي الحبيب بعودتي من الموت، لكنني اخترتُ طَرق باب منزل جيهان أولاً، ليقيني التام بأنّ المسكينة قاسَت الأمرّين بعد «موتي»، هي التي وعدتُها قبل التحاقي بزملائي في جبهات القتال بأنني سأقضي ما تبقّى من عمري إلى جانبها، فأنا مؤمن بأن العشق وعد، ومَن لم يلتزم بوعده تجاه مَن يحبّ، **فليعلم بأنه لم يكن عاشقاً منذ البداية**[1].

---

(1) وجدتُ آثاراً دقيقة لقلم حبر تحت هذه العبارة بالذات، وبعد تفكير عميق وصلتُ إلى استنتاج مفاده أنّ الراوي المجهول قد سطّر عليها في أثناء قراءته للقصاصات لسبب يبقى غير معلوم.

(انتهى)[1]

* * *

الجزائر... إلى المجهول؟

اغتيال الرئيس المنتخب محمد بوضياف

في دار الثقافة بمدينة عنّابة

ازدادت الأوضاع تعقيداً في الجارة الجزائر، بعدما اغتيل يوم أمس الرئيس محمد بوضياف في دار الثقافة بمدينة عنابة، وهو الذي تسلَّم منصبه قبل ستة أشهر فقط، وعد خلالها بإخراج البلاد من الأزمة الاقتصادية والسياسية التي ضربتها إثر إلغاء الجيش نتائج الانتخابات وتعاظم المخاوف من جرّ الجزائر إلى حرب أهلية طويلة.

وقد أكّدت التحقيقات الأولية أنّ منفذ العملية هو أحد حراس بوضياف ويُدعى مبارك بومعرافي، وما زالت دوافع إقدامه على هذا العمل مجهولة.

(...)

تجدُر الإشارة إلى أنّ محمد بوضياف الملقّب بسي الطيب الوطني هو أحد أهم وأشهر رموز ثورة التحرير الجزائرية، ولد سنة 1919 بمدينة المسيلة، واشتهَرَ بكونه أحد القياديين الذين اختطفتهم

---

(1) للأسف الشديد، كانت هذه القصاصة الأكثر تضرّراً، رغم أهميتها الكبيرة، فبقيت بعض التفاصيل المتعلقة بطبيعة الاشتباك الذي حصل بين الطيار علي السلامي والمسلحين غامضة ومبهمة بعض الشيء، كذلك هو الشأن بالنسبة إلى الحوار الطويل وعميق الدلالات الذي جمع الطيار بالشيخ الصحراوي، والطريقة التي ساعَدَ بها أبناء قبيلة أولاد دليم ضيفهم على الوصول إلى برّ الأمان واللحاق برفاقه في الجدار الدفاعي المغربي.

السلطات الاستعمارية الفرنسية سنة 1956، رفقة كلٍّ من حسين آيت أحمد وأحمد بن بلة ومحمد خيضر والكاتب مصطفى الأشرف عندما كانوا على متن الطائرة المتوجّهة من الرباط إلى تونس.

اعتزلَ العمل السياسي بعد عام 1979، وتفرّغ لإدارة مصنعٍ للآجر بمدينة القنيطرة المغربية، قبل أن يعود إلى بلده مَطلع هذا العام لتولي منصب الرئاسة، لكن يبدو أنّ بعض الأيادي الخفيّة لم تمهله للقيام بمهامه وتنفيذ وعده بالقضاء على الفساد.

* * *

11- اللاعودة...

الثلاثاء 23 نوفمبر 1993

رحلة العودة من موستار إلى سراييفو:

لحظاتي الأخيرة في موستار. . .

أخذتُ نفَساً عميقاً وأنا أتطلّع إلى السماء الغائمة التي حجَبَت السحب شمسها، ثم التفتُّ إلى برانكو الذي قال:

- سننطلق بعد دقائق، كنْ مستعداً. . .

ثبّتَ بصره على نقطة ما خلفي، وأضاف:

- ودّع أحبابك بسرعة، كلما طالت مدة الوداع إلّا وازدادت رغبتنا في البقاء!

* * *

- ألن تعانِقني كما كنت تفعل دائماً؟

- كلّما عانقتك إلّا وشعرت بضعفي أمامك، وقد يدفعني ذلك للتراجع عن قراري بالرحيل!

- نحن نحتاج دائماً إلى عطف مَن هُم حولنا، ولا علاقة لذلك بالضعف أبداً، ولا يَدَّعي عكس ذلك إلّا كاذب أو مكابر. . .

- قد أكون مكابِراً، لكنني على الأقل واضح في مشاعري، لم

أتردّد أو أتلعثم عندما فرضَتْ عليّ الظروف الاختيار بين طريقين اثنين، بين قلب صريح وعقل مراوغ.

- أنت ترى الأمور من زاويتك الخاصة فقط، والمعتمد على الأحلام لن يعيش أبداً على أرض الواقع، هذا هو قانون الدنيا.

- كلّ القوانين خاضعة للنقض أو الاستئناف...

- إلّا مع المتطرفين في مشاعرهم وأحلامهم، فالأحكام بشأنهم نهائية.

- ومنذ متى كان للاعتدال مكان في الحب؟ روعة العشق يا حبيبتي في غلوّه وتطرّفه.

- اعتنِ بنفسك، يقولون بأنّ البوسنة بلد خطر جداً!

- ربما، لكن خطره أهون بكثير من البقاء في مكان أتجرّع فيه مرارة الهزيمة على يدك.

- أنت تقتلني بكلماتك...

- وماذا عن صدمتك التي دَفَنَتْ جثتي في مقابر الضياع إلى الأبد؟

* * *

سبقت نور الجميع وهي قادمة نحوي، فتلقفتها بذراعي وعانقتها بقوة، لتقول ببراءة:

- ألن أراك بعد الآن يا عمي؟

تسلَّلت دمعة عبر مقلتي، لكنني غالبتها بابتسامة وأنا أجيبها:

- سأعود يا حبيبتي، مصير الحرب أن تضع أوزارها في النهاية، وساعتها سأعود إليك وربما أعيش معك دائماً!

تبعها رامز وباقي أفراد عائلة كوستوفيتش، ومعهم سمير الذي قال:

- لو انتظرتما قليلاً، ربما تمكّنت القوات الحكومية من فتح منفذ إلى موستار، ولكن هذا لا يعني أنّ كل شيء على ما يرام...

أيّد رامز كلامه بالقول:

- الكروات يحشدون قواتهم في الجانب الغربي من موستار، بعد استقدام خمسة آلاف مقاتل ومرتزق من كرواتيا، والصرب صعَّدوا من هجماتهم على المواقع المسلمة بعد استشعارهم خطر تعاظم قوة الجيش البوسني، لو بقيتم هنا لكانَ ذلك أفضل، قد نكون شبه محاصَرين، لكن حالنا أفضل بكثير من الأرياف والقرى العارية والمفتوحة أمام الهجمات المعادية المباغتة!

تدخَّل برانكو في الحوار موضحاً:

- يجب أن نعود إلى سراييفو في أقرب وقت، القيادة تطلبني هناك على وجه السرعة...

ثم لكَزَني بكوعه مضيفاً:

- وهناك ممرِّضة حسناء تنتظر عودة الدكتور الوسيم على أحرّ من الجمر...

كلّهم ضحكوا، إلّا أنا...

تقدّمت نور نحوي مرة أخرى، وهي تخفي بين يديها شيئاً ما، قبل أن تقول:

- عمّي، هذه هديتي لك...

فتحت كفّها ليظهر قلم حبر جميل الشكل، التقطته بين أصابعي بإعجاب حقيقي، فيما أضافت هي:

- أنت مشغول دائماً بالكتابة، خُذْ هذا القلم لتتذكّرني به كلما كتبت شيئاً جديداً في أوراقك!

قبّلت وجنتها وداعبتُ خصلات شعرها الذهبي كما كنتُ أفعل دائماً، وقلتُ مبتسماً:

- كما تريدين يا أميرتي الصغيرة...

ثم أكملتُ بنبرة خافتة:

- ولو أنّ الأوراق التي بين يدي توشك على النفاد، ولا أدري فعلاً إنْ كنتُ سأواصل الكتابة أم لا!

عانقتها مرة أخرى، تاركاً لدموعي مهمّة التعبير عن مشاعري، فيما اهتزّ جسدها الصغير من شدّة البكاء، فربت برانكو على كتفي، هامساً في أذني:

- ألم أقُل لك؟

وكذلك كان...

ودّعت الجميع بالدموع والأحضان، ثم تبعته إلى سيارة جيب رباعية الدفع، وعندما ألقيت نظرة أخيرة على سماء موستار، فوجئت بأشعة الشمس متسلِّلة عبر الغيوم، لتغمر بنورها أرجاء المدينة، فقال برانكو مبتسماً:

- أرأيت؟ قد تحجب الغيوم أشعة الشمس لبعض الوقت، لكن العبرة بالخواتيم، الغيوم تمضي في النهاية، والشمس تبقى في مكانها!

بادَلته الابتسامة، ثم جلست في المقعد الخلفي للسيارة، إلى جانب مسلّحين اثنين، فيما احتضن برانكو بندقيته واتخذ مكانه في المقعد الأمامي بالقرب من السائق، فقلت بنبرة ساخرة:

- ألن تفارق بندقيتك؟ قل لي بالله عليك ما الذي تمثّله بالنسبة لك حتى تحبّها هكذا؟

التقَط عبارتي بسرعة ليردّ على الفور:

- أنتَ لا تُدرك ما الذي تمثّله هذه البندقية بالنسبة إلى محارب خبر ميادين القتال مثلي، الأسلحة يا عزيزي مثل النساء، جميلة جداً، رقيقة جداً، وخطيرة جداً، ومهما حاولت المراوغة لا يمكنكَ إلّا أن تستسلم لسحرها في النهاية.

لم يستمر سكوتي طويلاً، فقد سألته باهتمام:

- رغم صداقتنا الطويلة إلّا أنني لا أعرف عنك شيئاً يا برانكو، مَن أنتَ مثلاً؟ وما الذي تنوي فعله بعد انتهاء الحرب؟

أجابني ضاحكاً بعفوية:

- أنت لم تسألني خشية اضطرارك للقيام بالأمر نفسه، جميعنا نعلم أنك تتعمَّد إخفاء الكثير من التفاصيل عن ماضيك، وهذا حقك، ففي قلب كلّ واحد منّا صندوق أسود، لا نجسر على فتحه أو حتى الاقتراب منه...

ثم أضاف:

- ماذا سأفعل بعد انتهاء الحرب؟ سأعود لخطيبتي التي تنتظرني بفارغ الصبر، لنحيا بسلام ونقضي الليالي الهادئة متعانقين نناجي القمر، قد أكمِل دراستي، وأعيش بشكل طبيعي، هذا إن بقيتُ على قيد الحياة طبعاً!

هممتُ بقول شيء ما، لكنه واصل:

- قبل أن تطرح عليّ هذه الأسئلة، كنْ لبقاً وألقِ التحية على رفاقنا في رحلة العودة إلى سراييفو!

احمرّت أذناي بعد سماعي لتعليقه المستفز، فصافحت المسلحين الجالسين بجواري، فيما تولى هو مهمّة تعريفي بهما:

- علي القادم من الجنوب اللبناني، هو العقل المدبّر لعملية

تحريركم من المعتقل الكرواتي، وعمر مصري الجنسية، مقاتل صلب وشجاع، هو الذي حمل رامز على ظهره بعد انسحابنا من الموقع.

صافحتهما بخجل باحثاً عن كلمات مناسبة للاعتذار، فيما ربت برانكو على كتف السائق.

- وهذا حميد، ابن سراييفو البار الذي دافع عنها بمساهمته الفعالة في معارك جبل إيجمان الاستراتيجي!

اعتقدتُ بأنه أنهى كلامه، لكنه تعمّد إثارة أعصابي بالقول:

- كعادتك، تنسى كلّ ما يحيط بك وتنشغل إمّا بشرودك التام أو أوراقك الغريبة، أكاد أجزم بأنك تعيش خارج إطار الزمان والمكان، ولو سألتني عن الدليل لوجّهت إصبعي نحو ساعتك اليدوية المتوقّفة التي تشير عقاربها دائماً إلى ساعة الصفر 00:00.

شلَّت الدهشة حركتي، وقد شعرتُ بأن عبارته الساخرة لم تكن بعيدة تماماً عن الواقع، لكنني سرعان ما تجاوزتُ ذلك منتزعاً الساعة المعطّلة من يدي لأدسّها في حقيبتي بحركة عنيفة.

- ارتحت؟

قلتُها محنقاً، فابتسمَ برانكو مفضّلاً الصمت، فيما أدار حميد المحرّك وانطلق بالسيارة في رحلة العودة.

من موستار إلى سراييفو...

* * *

الريف البوسني، مرة أخرى...

ما إن توقّفت بنا السيارة ونزلنا لأخذ قسطٍ من الراحة، حتى سَرَت رجفة قوية وغير مألوفة في أطرافي، فخاطبني برانكو قائلاً:

- معذرة يا كاتبنا المبجّل، لقد انتزعناك بتوقفنا هذا من خلوتك الإبداعية!

لم أغفل نبرة التهكّم في كلامه، فأجبته:

- لا اطمئن! الأوراق على وشك النفاد، ربما بقيت صفحتان أو ثلاث، لكنني غير مطمئن لهذا التوقف، أخشى تكرار ما حصل في رحلة الذهاب، عندما هاجمنا مسلحو وحدة العقارب كما حكيتُ لك.

تدخَّل علي في النقاش قائلاً بالإنجليزية:

- تذكّرني هذه الطبيعة الخلابة بالجنوب اللبناني، لكنني أتساءل لماذا لا تغطي الثلوج المنطقة، مع أننا في أواخر شهر نوفمبر؟

انفرجَت شفتا برانكو ليجيب، لكن عمر سبقه إلى ذلك مجيباً:

- لأن الجنوب البوسني قريب من البحر الأدرياتيكي، ما يمنحه طقساً متوسطياً معتدلاً بعض الشيء، لا تقلق، كلما اقتربنا من سرايفو إلّا وازداد الطقس برودة!

تشاغل برانكو بتنظيف بندقيته، قبل أن يوجِّه كلامه إليّ:

- خائف؟

أجبته بتردُّد:

- قليلاً، هذا العراء رائع ومخيف في الآن نفسه...

لم تفارق الابتسامة شفاهه وهو يقول:

- ما دمت معنا فلا تخشَ شيئاً، البشر يا صديقي هم الذين يُشعروننا بالأمان، لا الأسوار والجدران!

ثم أردف:

- كلّ شيء مرتبط بأعماقنا لا بظروفنا، قد يصدمك القويّ بلحظات ضعفه، والضعيف باستجماع قوته، بقلب الشرير نقطة نور قد تدفعه يوماً لفعل الخير، وقد يفعل مَن تعوّدنا منه دوماً على الخير

شراً، الخوف والشجاعة، القوة والضعف، الحبّ والكره، الوفاء والخيانة، الخير والشر، كلها ثنائيات مرتبطة بدواخل الإنسان، لا بمحيطه وظروفه، ولو أدرك بنو البشر ذلك، لأجابوا عن معظم الأسئلة التي تؤرق بالَهُم.

قلت هامساً:

- وما الحياة إلّا مجموعة أسئلة نقضي أعمارنا باحثين عن إجاباتها...

ثم أكملتُ بصوت أعلى:

- أتعلم يا برانكو، بدأت معاناتي بقراءة كرّاسة مذكرات صغيرة، كتَبَتْها إنسانة عشت لسنوات طويلة معتقداً أنها أمي، رحلت تاركة خلفها سؤالاً واحداً، مَن أنا؟ هو مجرّد سؤال بسيط من كلمتين، لكنه أكبر من أن تستوعبه هذه الجبال المطلّة بقممها هنا.

أطرقَ صامتاً، محترماً ربما رغبتي في الكلام، فواصلتُ:

- ومن هنا انطلقت الرحلة الشاقّة، بدأت برغبة عارمة في الانتقام ممّن كانت ألاعيبه الشيطانية سبباً في كلّ ما حَصل، لكنني عثرتُ في طريق الأشواك هذا على مشاعر نورانية أثبَتَ نقاؤها أنّ الردّ على الإساءة بمثلها لم يكن حلاً ولن يكون كذلك، ثم اكتشفتُ متأخراً أنّ هذه المشاعر لا قيمة لها ما لم تولَد في الوقت أو المكان المناسبين وإن كان الشخص المعني بها مناسباً، اخترتُ الرحيل، لبدء رحلة جديدة أو ربما إتمام الرحلة السابقة، الأمر سيان، المهم أن أصل إلى السعادة التي اختطفتها مني ذاكرتي المجروحة، بين الماضي المفجوع والمستقبل المجهول، فظهرت نور في حياتي وفهمت أنني بتدخّلي لمساعدتها وإنقاذها إنما كنت أنقذ نفسي من الضياع، فلا سعادة ننالها إلّا بتضحيتنا في سبيل من نحب.

شرد ببصره ناحية عمر وعلي المنشغلين بتأمّل طبيعة المكان، وحميد الذي اكتفى بالبقاء في السيارة، ثم قال:

- الحياة كلّها رحلة لا راحة فيها، تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت، وما بينهما تيه وضياع لا سبيل لتجاوزه إلّا بالبحث في أعماقنا المظلمة عن بوصلة توجّهنا إبرتها نحو الهدف المنشود.

أجبته ببطء:

- الإيمان. . .

لم يعقّب، بل سألني باهتمام:

- طيب، وماذا عن سؤالك الأول، هل وصلت إلى إجابة؟

مرَّرتُ أصابعي على شعري ولحيتي التي طالت في المعتقل الكرواتي، ثم أطلقتُ زفرة حارّة حائرة، قلت بعدها:

- يحمل جواز سفري هوية فرنسية واسماً فرنسياً كذلك، اندلعت معركة بحثي عن الهوية هناك في مارسيليا، لتقودني مذكرات الراحلة إلى مسقط رأسي في المغرب، معتقداً بأنّ وطن الإنسان أصله، لكنني لم أعثُر على إجابة عن سؤالي بعدما أيقنتُ بأنّ الاندماج أصعب بكثير ممّا ظننت، وأن وطناً بلا حب مجرّدُ أرضٍ قاحلةٍ خالية وإن فاضَ ماؤها وكَثُرَ ناسها، حسمتُ أمري ثم حزمتُ أمتعتي ورحلت، حاملاً معي سؤالي إلى هذه الأرض، إلى البوسنة، صرختُ ملء جوفي «مَن أنا؟» فوجدتُ هنا أناساً تائهين مثلي، لكنهم يذبحون بعضهم بعضاً ويُريقون الدماء أنهاراً ليجيبوا عن السؤال نفسه، ربما سيَصلون إلى الإجابة لكن بعد فوات الأوان، وبمذاق مرّ لوَّثته دماء الأبرياء، مَن أنا؟ أنا إنسان، لا أكثر ولا أقل، إنسان خُلِقَ ليترك أثراً في هذا العالم، لا ليُجبِر الآخر على تقفّي أثره. . .

حدَّقَ برانكو في عينَيّ للحظات، أتبَعَها بقوله:

- وهذا ما قصدته منذ البداية، لن يجيب عن سؤالك أحد غيرك، ولن تملأ فراغ روحك إلّا بما وصلتَ إليه بإيمانك، نعم، نحن نقتل بعضنا اليوم وقد نتصالح غداً، ولكن الأهم من كلّ هذا، هل سيستفيد آخرون من هذه التجربة مستقبلاً؟

أجبته:

- لا أظنّ ذلك، صخرة سيزيف تعود إلى الوادي كلما اقتربنا بها من القمة، المنطقة مليئة بالحمقى، وقدر الإنسان أن يكرِّر الخطأ نفسه كلّ مرة...

عاد إلى الشرود، لكنه طرح عليّ بعد برهة قصيرة سؤالاً لم أكن أملك أمامه إلّا الصمت:

- رحلة الحياة لا تنتهي إلّا بالموت، فهل يعني وصولك إلى إجابة مُقنِعَة عن سؤالك، بعد طول عناء، أن ساعة الرحيل قد دقت؟

* * *

وأعلنت شمس هذا اليوم عن مغيبها...

تابعنا رحلتنا صوب سراييفو، وحميد يطوي بالسيارة المسافات الطويلة، متجنِّباً المرور من المناطق المشكوك في أمانها أو القريبة من حدود السيطرة الصربية أو الكرواتية، فيما عاد برانكو إلى صمته، وانشغل عمر وصديقه علي بتبادل الضحكات والقصص المسلية التي بدَّدت بعضاً من وحشة المكان.

وأنا أكتب...

- يا إلهي، ما هذا الذي أراه؟

قالها حميد فجأة، فرفعتُ رأسي كما الجميع ناحية إشارته، لتُطالعنا ألسنة اللهب القوية التي بلغَ دخانها عنان السماء.

قال برانكو بانفعال:

- إنها قرية صغيرة تُدعى لوتا، تابعة لمحافظة كالينوفيك[1]، ما الذي يحصل هناك يا ترى؟

أوقف حميد السيارة، فتمسَّكتُ بأوراقي وحقيبتي، وحمل عليّ منظاراً مقرّباً حاول أن يتبيَّن به حقيقة ما يحصل، معتمداً على ما تبقّى من نور قبلَ حلول الظلام، قبل أن نتطلع جميعنا إلى القادم من بعيد.

رجل ممزّق الثياب، يلوِّح بيدين غطَّتهما الدماء، ومنَعَه التهالك من المقاومة، فتهاوى على الأرض، ليهبّ برانكو وحميد لنجدته على الفور.

- رباه، لا يمكن أن يكون ما أراه حقيقياً، مستحيل!

قالها علي بدهشة عارمة، وهو منشغل بالمراقبة عبر المنظار المقرب، فسألته بحذر مشوب ببعض الخوف:

- ماذا هناك؟

أجابني بسرعة:

- مائير زائيفي، ضابط الموساد المعروف الذي تركته هناك في بنت جبيل اللبنانية، ما الذي أتى به إلى هنا؟ ما الذي يفعله مع قوات فرقة العقرب في هذه القرية؟

ثم أتى برانكو ليقول:

- الرجل مراسل صحفي بريطاني، يقول بأنه أتى إلى القرية لمقابلة بعض الأهالي ممّن رفضوا المغادرة رغم خطورة الوضع في

---

(1) في تلك الفترة من سنة 1993، كانت قرية لوتا تابعة لمحافظة كالينوفيك، وبعد انتهاء الحرب وتوقيع اتفاقية دايتون أواخر عام 1995، تمّ إلحاقها بمحافظة كونيتس كما أشرتُ إلى ذلك في البداية.

المنطقة، ليصدموا جميعاً بهجوم وحشي لقوات العقرب، التي أحرقت البيوت وقتلت الكثيرين، وتستعد للإجهاز على عائلة واحدة متبقية، وقد تمكّن هو من الهرب بأعجوبة!

يرتجف القلم بين يدي وأنا أكتب هذه الكلمات، رغم علمي بأنه آخر وقت ملائم لتدوين ما أفكر فيه، لكن برانكو صرخ في وجهي:

- ما هذا الجنون؟ هذا ليس وقت الكتابة، سنقوم بواجبنا في الدفاع عن الأهالي، أو مَن تبقى منهم، أمامك دقيقة واحدة، ستجد في الصندوق الخلفي بندقية إضافية، احملها واتبعنا...

ثم حسم أمره بالقول:

- إن لم يكن للموت من بُدّ، فليكن بشرف إذاً!

* * *

ما بعد النهاية
(وقد تكون بداية جديدة!)

بيروت...

كم تشبهين أميرة البلقان يا درة لبنان، تتظاهرين بحبّ الحياة والإقبال على مباهجها، فيما تنوء أعماقك بجراح لا أعتقد بأن خمساً وعشرين سنة كافية لمداواتها!

أنت أيضاً قسَّمتك الحرب إلى شطرين، أحدهما غربي والآخر شرقي، كما هو الشأن بالنسبة إلى برلين وموستار وغيرها أمس.

وحلب اليوم...

أهو قدرُ الشرق والغرب بألّا يلتقيا أبداً؟ أم أنها حكمة الجمال الذي تكمن روعته الحقيقية في نقصانه وعدم اكتماله؟

لا أدري...

لم أضيع من وقتي الكثير، فبمجرد وصولي إليك تركت حقائبي في الفندق متجاهلاً تعبَ السفر الطويل وتأخّر الوقت، ثم هرعت إلى شوارعكِ الشهيرة، أتنفس هواءها وأراقب مرتاديها.

وأسمح لذاكرتي المتعبة باستعادة ما جرى في الفترة الماضية...

أسابيع طويلة مرّت بعد إتمام عملي المتمثّل في صيانة الأوراق وترتيبها، ثم نقل محتواها بالكامل إلى الحاسوب، كلّ هذا وأنا

أنتظر رداً من بيروت بخصوص بحث إمكانية نشرها، وجواباً حاسماً من قاسم ديفيتش بشأن نتائج الكشف عن هُوية أصحاب الرفات التي عَثَر عليها فريق البحث في مقبرة لوتا، رغم أنني لم أطلعهُ بعد على محتوى الأوراق.

أطالع بريدي الإلكتروني بشكل يومي، ولا جديد، حتى تسلَّل اليأس إلى قلبي، وبدأتُ في العودة تدريجياً إلى حياتي الطبيعية، أنا الذي أدخَلَني الراوي المجهول إلى عالمه المتشابك والمعقّد حتى خيِّل إليّ أنني لن أعود إلى حاضري أبداً.

كنت يومها في مكتبي بالكلية، منهمكاً في مراجعة بعض الملفات، عندما رنّ جرس هاتفي المحمول، فأثار الرقم الظاهر على الشاشة استغرابي، لأنه يحمل رمزاً دولياً، لكنني لم أتردَّد في الإجابة.

- ألو...

- مساء الخير، الأستاذ وحيد سيباهيتش؟

خَفَقَ قلبي بقوة بمجرد سماعي للغة العربية الوقورة واللكنة اللبنانية الواضحة، فأجبت:

- نعم هو...

- أحدِّثك بخصوص المخطوطة التي راسَلْتَنا بشأنها قبل بضعة أسابيع...

- نعم، نعم، أهلاً بك!

- لقد طالعت لجنة القراءة العمل، واتّفق أعضاؤها على أنّ النقاش حول هذه المذكرات الغامضة عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني غير كافٍ، لذلك فأنا أدعوك بصفتي مدير الدار لزيارتنا في لبنان، ما رأيك؟

ارتجفت يدي الممسكة بالهاتف، وفَقَدَ صوتي نبرته المميّزة وأنا أقول:

- يشرّفني ذلك طبعاً! سأرتّب أموري وأتصل بحضرتك لتحديد موعد للقاء، ممكن؟

أعتقد بأنّ مدير الدار قد أحسّ باضطرابي، فقد ردَّ ضاحكاً:

- بالتأكيد، خُذْ كامل وقتك، ومرحباً بك في لبنان من الآن!

وبمجرّد إتمامي لبعض الإجراءات الإدارية الروتينية في الأيام القليلة الموالية، قمت بحزم أمتعتي وركبتُ أول طائرة متوجِّهة إلى بيروت.

أنا الوحيد الذي شاءت الأقدار أن يكون لحياته المتقلّبة نصيب من اسمه، وأن يولد وفي فمه بطاقة سفر.

وكما كان متوقعاً، حدَّد الناشر صباح اليوم التالي لوصولي كموعد للقاء، في مقهى معروف بشارع الحمراء أو «الحمرا» كما يُطلق عليه البيروتيون، ملتقى الشعراء والفنانين والأدباء، وقلب بيروت الثقافي النابض، بمسارحه ومقاهيه ومكتباته التي تجمع رواد الكلمة وعشاق الحرف العربي من كلّ حدب وصوب.

هو في منتصف الستينيات من عمره، جمعَ هندامه بين الأناقة والبساطة، لكن نظرته الثابتة والعميقة أكَّدت لي أنني أمام شخص خبر الدنيا جيداً، وربما ساعدته على ذلك طبيعة عمله المميّز كناشر قضى معظم سنوات عمره بين الكتب.

تبادل معي عبارات التحية والترحيب والشكر، وأيضاً التندّر اللطيف على لكنتي العربية المميزة، ثم دعاني إلى الجلوس في ركن هادئ من المقهى، والاستئناس بصوت شاعر فلسطين الراحل محمود درويش الرنان وهو يلقي أشعاره الخالدة عبر أمواج الإذاعة.

وضع على الطاولة الصغيرة أمامنا حاسوباً محمولاً صغيراً، ومطبوعاً ألقيتُ نظرة سريعة عليه فتبيَّن لي أنه يضمّ محتوى مذكّرات الراوي المجهول مع بعض الملاحظات بقلم حبر أحمر هنا وهناك.

- لندخل في الموضوع مباشرة، من عادتنا كدار نشر عريقة ومحترمة، عرض مسوّدة أيّ عمل على لجنة قراءة تضم ناقداً أكاديمياً وروائياً وقارئاً غير متخصّص، وقد اتفقوا جميعهم على أننا أمام عمل مختلف وغير تقليدي...

شعرتُ بارتياح عميق وأنا أسمع كلامه، لكنني واصلتُ الاستماع لما يقوله بانتباه شديد.

- وهذا طبيعي ما دمنا نتحدث هنا عن مذكرات حقيقية، عرض فيها صاحبها تجربته الإنسانية المعقّدة بصدق عفوي وألم ملموس، وإنْ بدا واضحاً أنه قد كتبها لنفسه ولم يكُن يخطِّط بأي حال من الأحوال لنشرها، فهو لم يُشر إلى اسمه الحقيقي ولو بكلمة واحدة أو إشارة عابرة، ولولا يقيننا التام بأنه لقي حتفه في الاشتباك الأخير بين أصدقائه والقوات الصربية في قرية لوتا لأبدَينا رغبة عارمة في مقابلته والتعرّف عليه أكثر.

أجبتُه بحماس:

- لن تصدِّقني يا أستاذ إنْ قلتُ لك بأنني عشت معه كلّ أطوار رحلته الطويلة، من مارسيليا إلى لوتا، مروراً بالرباط وعين اللوح وسراييفو وموستار، وآلمني جداً موته بهذه الطريقة، عاش بطلاً ومات دون أن يعرف عنه أحد شيئاً!

ابتسم بوقار ثم قال:

- كلّ القصص الإنسانية مؤلمة، مهما اختلفت الأعراق والطوائف والأديان، كلّ جرح هو مؤلم، خاصة عندما يكون من

صنع الإنسان، الأبطال المزيّفون يملؤون الدنيا صراخاً، والأبطال الحقيقيون هم الذين يعيشون ويموتون بصمت.

أطرقتُ برأسي مفكّراً، فأكمل:

- لا بدّ لنا من الإشادة أيضاً بالمجهود الكبير الذي قدّمته يا أستاذ سيباهيتش، جمع الأوراق وصيانتها وترجمة المذكرات المكتوبة بالفرنسية، وأيضاً الهوامش التي ساهمت في توضيح الصورة الكاملة للأحداث، بخاصة المعلومات المتعلقة بجغرافية البوسنة ويوميات الحرب وتفاصيلها الميدانية التي لا نعلم عنها نحن إلّا القليل، ومعلومات دقيقة كهذه لم يكن ليقدّمها إلّا مَن عايش تلك الفترة الرهيبة يوماً بيوم، بعيداً عن مجال تخصّصك كأستاذ للتاريخ، شكراً لك!

قلت بهدوء:

- أنا بوسني، ومن واجبي المساهمة في التعريف بالمأساة التي عاشها بلدي، لعلّها تفيد القارئ أينما كان!

أيَّد كلامي بالقول:

- بالضبط، وهذا ما دفعني إلى اقتراح مقولة عميقة للأديب والمفكّر العربي الراحل عبد الرحمن منيف، لنفتتح بها العمل، يقول فيها «مَن يقرأ الماضي بطريقة خاطئة سوف يرى الحاضر والمستقبل بطريقة خاطئة أيضاً، ولذلك لا بد أن نعرف ما حصل كي نتجنب وقوع الأخطاء مرة أخرى، ومن الغباء أن يدفع الإنسان ثمن الخطأ الواحد مرتين»، ما رأيك؟

راقتني الفكرة فأومأتُ برأسي مؤيداً، أما هو فقد أطفأ حاسوبه ونزع نظارته، ثم قال بلهجة مختلفة عن الأسلوب الرسمي السابق:

- طيب، دعنا من هذه التفاصيل الآن، ولنناقش العمل كقرّاء

عاديين يتملَّكهم الفضول لمعرفة بعض التفاصيل، ما الذي حصل برأيك بين الراوي وحبيبته جيهان حتى اختار الرحيل عوض البقاء في مسقط رأسه؟

أجبتُه مستعيراً ابتسامته الوقورة:

- هذه المسألة بالذات أثارت انتباهي، اكتفى الراوي ببعض المقتطفات القصيرة والمقتضبة من حوارات جمَعَته بحبيبته عوض سرد ما جرى بالتفصيل، ولا تفسير لذلك سوى أنه عاش صراعاً نفسياً مريراً بين عقله الراغب في النسيان وقلبه الرافض للانصياع لهذه الرغبة، يبدو أنّ العودة المفاجِئة للطيار علي السلامي قد قلَبَت كلّ شيء رأساً على عقب، وأعادت صاحبنا إلى نقطة الصفر، بعدما فضَّلت جيهان الاحتكام لعقلها والعودة إلى خطيبها السابق، عوض تلبية نداء قلبها، وبما أنها كانت الخيط الوحيد الذي ربَطه بتلك الأرض فقد فضَّل الابتعاد بعد انقطاع الخيط، وربما لم تفهم جيهان إلّا متأخرة أنها لم تكن مجرّد حبّ عابر في حياة الراوي، بل كانت كل شيء بالنسبة له.

داعَب بأصابعه فنجان القهوة ثم قال:

- على ذكر الطيار علي السلامي وتجربته الرهيبة في معتقلات الانفصاليين، لا أكاد أصدِّق بأنّ عقولاً بشرية قادرة على ابتكار أساليب تعذيب بهذه الوحشية، نحن أيضاً عايشنا أياماً صعبة خلال فترة الحرب الأهلية اللبنانية، اختطاف وترهيب وقتل، لكنني لا أتصوّر بلوغ إنسان ما هذه الدرجة من السادية في التعذيب!

أجبته:

- للأسف الشديد، لم أتمكن من إنقاذ محتوى قصاصات الصحيفة بشكلٍ كامل، لكنني أجريت بحثاً حول هذا الملف الشائك

الذي أقرّ صراحة بأنني لم أكن أعرف عنه أي شيء، فتبيَّن لي أن شهادة الطيار علي السلامي واقعية ومطابقة تماماً لما رواه عددٌ كبير من الأسرى العائدين من جحيم معتقل الرابوني في تندوف، وأتطلّع فعلاً إلى تتبع أخبار السلامي بعد كلّ هذه السنوات، وهل نَفّذ وعده بتأليف كتاب عن تجربته الدامية أم لا.

تصفَّح المطبوع للحظات، وقال دون أن يرفع عينيه عن الصفحات المذيَّلة بمجموعة كبيرة من الملاحظات:

- بقيت بعض الأمور مُبهمة وبلا تفسير، دين الراوي مثلاً، هل اعتنق الإسلام أم بقي على مسيحيته؟ ولماذا أبدى الفقيه عبد السلام تخوّفه من تلك المؤسسة المهتمة برعاية الأطفال في قرية عين اللوح؟

حافظتُ على ابتسامتي الواثقة قائلاً:

- فكَّرت في ذلك أيضاً، أرى أنّ الراوي لم يهتم بذكر ديانته رغم التحوّل العميق الذي مسَّ روحه خلال رحلته الطويلة، ربما لأنه اعتبر علاقته بخالقه مسألة شخصية وإن كانت مذكراته مجرّد بَوح لم يكن ينوي مشاركته مع أحد، أما فيما يتعلق بقضية المؤسسة الغامضة، فقد تبيَّن لي أنها كانت مسرحاً لفضيحة ترحيل بعض العاملين الأجانب فيها بتهمة التبشير بالدين المسيحي بين الأطفال سنة 2010، اعتقدتُ بأن شكوك الفقيه مرتبطة بهذا الأمر، رغم الفارق الزمني الشاسع بين المسألتين، لكنني قرأت بعد ذلك أن السلطات المغربية عادت وبرّأت هؤلاء العاملين من التّهم الموجَّهة إليهم سنة 2013، ما يجعل القصة غامضة فعلاً ومفتوحة على مجموعة من الاحتمالات.

داعَبَ ذقنه مفكراً، ثم سأل:

- مسألة أخرى، لاحظتُ بأنّ سؤال «لماذا تضحي بنفسك

لإنقاذ طفلة لا تربطك بها أي علاقة؟» قد تكرَّر أكثر من مرة، ومع ذلك كانت إجابة الراوي تختلف عن سابقتها، قال إنه ينفّذ وصية الراحلة أميرة بالاعتناء بالصغيرة، وإنه لا يقوم سوى بواجبه في زمن أصبح فيه القيام بالواجب عملاً بطولياً، ولأنه رأى في نور مستقبله، وخشي أن يتكرّر معها ما حصل له، ما السبب في نظرك؟

وضعتُ ساقاً فوق ساق، بعدما تخلَّيت عن توتري وشعرتُ بأنني أكثر ارتياحاً، وأجبتُه:

- لقد فسَّرت هذه المسألة من منظورٍ آخر، تغيَّرت إجابة الراوي بسبب تدرج علاقته المضطربة مع الزمن الذي جسَّدته ساعته اليدوية المتوقفة، عندما قال إنه ينفّذ وصية أميرة كان كيانه أسير الماضي الذي كبَّله بأغلاله، وعندما تكلَّم عن القيام بالواجب حاول بذلك معايشة حاضره، ثم انتقل إلى الحديث عن الخوف من تكرار مصيره هو مع الطفلة بسبب تخوفه المبهم من المستقبل المجهول، إنها علاقة الإنسان الطبيعية مع الزمن بكلّ أسراره وتقلباته، بين سطوة الماضي وعجلة الحاضر ورعب المستقبل.

قلتها ثم أخرجتُ من جيبي تلك الساعة اليدوية المعطّلة:

- توقف عقارب ساعة الراوي في منتصف الليل، أو ساعة الصفر (00:00)، لم يكن اعتباطياً، بل رسالة مشفّرة بعث بها إليه القدر، لكن يبدو أنه لم يفهم مغزاها إلّا متأخراً.

هزّ رأسه في اقتناع، لكنه عاد وسألني:

- ألا ترى معي وجود تشابهٍ معيّن بين قصة الراوي وتجربة الطيار الهارب من معتقلات تندوف؟

قلت بحذر:

- لم أفهم. . .

فأضاف:

- كلاهما تاهَ في رحلته، وعندما أوشك على اليأس أنقذَه أحدٌ ما!

لم يستمرّ صمتي طويلاً، إذ قلت:

- ألا ترى معي بأنّ الجميع اشتركوا في هذا التيه، وليس فقط الراوي والطيار؟ بريجيت وصلت إلى مارسيليا تائهة محطّمة فأنقذَها أحمد من الضياع، جيهان صُدِمَت بوفاة حبيبها فحاولت الانتحار قبل أن يتدخّل الراوي لإنقاذ حياتها، كادت نور أن تسقط في شباك تلك المنظمة الإجرامية فخاطر الراوي بنفسه لحمايتها، تعرَّضت حياة رامز للخطر بسبب المرض وطول فترة الاعتقال في القلعة الكرواتية فجاءت نجدة فرقة القوات الخاصة البوسنية في الوقت المناسب، أنا أحلِّل الأمور من وجهة نظر مغايرة، أتذكر عبارة وردت في الأوراق على لسان العقيد جوناثان رايلي، عندما قال إنّ الحقيقة حمّالة أوجه؟ أرى أنّ وجه المذكرات الظاهري قريب ممّا تقول، أشخاص تاهوا في رحلاتهم المصيرية ثم أنقذهم القدر بعد ذلك، أما الوجه الباطني فأجده أعمق من ذلك بكثير، إن ما ورد في هذه المذكرات اختزال لحياة الإنسان، أينما كان، وكيفما كان، الإنسان الذي يعيش ما بين ولادته ومماته هائماً تائهاً، إلى أن تتدخل رحمة الله سبحانه وتعالى لتنقذه من الضياع، إن هو تمسَّك بإيمانه وأمله، كما أن. . .

قاطعني بضحكة قصيرة قال بعدها:

- مهلاً، مهلاً! أنتَ قمت بصيانة الأوراق وجمعها وترتيبها، وأنا سأنشرها في أقرب وقت ممكن، فلنترك للقرّاء والنقاد المتخصّصين مهمة سبر أغوارها وكشف أوجهها الظاهرية والباطنية كما تسمّيها، أليس كذلك؟

اعتقدتُ بأنه سيسمح لي بالإجابة، لكنه واصل:

- بالمناسبة، لقد تناسيت مسألة مهمة بإغفالك وضعَ عنوان مناسب للعمل! هل لديك أيّ اقتراحات بشأن ذلك؟

فتحتُ فمي لأجيب، لكن جرس هاتفي المحمول قاطعني، فألقيتُ نظرة سريعة على شاشته، لأفاجأ برقم قاسم ديفيتش.

- ألو، وحيد؟ أين أنت؟ بحثتُ عنك في الكلية ولم أجدك!

شعرتُ بأن في حديثي بالبوسنية أمام الناشر قلّة احترام له، فنهضتُ بعدما طلبتُ منه الإذن، وابتعدتُ قليلاً عن المكان.

- أهلاً قاسم، أنا في بيروت...

- بيروت! ماذا تفعل هناك؟

- هي قصة طويلة سأحكيها لك فيما بعد، المهم أنّ لها علاقة بالحقيبة التي عثرتُم عليها في مقبرة لوتا.

- وهذا سبب قدومي إلى الكلية للبحث عنك يا وحيد، لقد ظهرت نتائج مقارنات الحمض النووي أخيراً، وتمّ التعرّف على هوية أصحاب الجثث السبعة، لم أصبر فقرَّرت المجيء إليك بنفسي، لكنني لم أجدك!

تسارعَت دقات قلبي وأنا أقول:

- حقاً! ماذا تنتظر إذاً؟ أطلِعْني على النتائج!

- ما زلت تحت تأثير المفاجأة يا وحيد، إنها أغرب مقبرة جماعية أقابلها في حياتي، عالَم بأكمله اجتمع في مقبرة منسية!

قلتُ بنفاد صبر:

- لا تتلاعب بأعصابي يا قاسم، أنت لا تعلم مدى أهمية هذه النتائج بالنسبة لي!

- واضحٌ جداً أنّ معركة حامية الوطيس جرت أطوارها في المكان، فقد أثبتت التحاليل المخبرية وجود آثار طلقات نارية في الجماجم وعظام الصدر وغيرها.

خيِّل إليّ أنني أسمع صوت تبادل إطلاق النار الذي شهدته القرية الصغيرة، لكن عصبيتي كانت أقوى وأنا أهتف:

- قاسم، لا داعي لهذه المقدمات، أريد أسماء الضحايا، فقط لا غير!

- حسناً، حسناً، يتعلق الأمر ببرانكو رازناتوفيتش، من صرب البوسنة، مقاتل شاب شارك في معارك الدفاع عن سراييفو والتخطيط لبناء نفق دوبرينيا، كان عضواً بارزاً في فرقة القوات الخاصة التابعة للجيش البوسني.

شعرتُ بانقباضٍ شديد وأنا أسمع اسم برانكو، لكنني واصلتُ الإنصات.

- ستيفن غالاوي، مراسل صحفي إنجليزي يعمل لحساب الإذاعة البريطانية، أعلنت هذه الأخيرة عن اختفائه أواخر سنة 1993، بعد سفره لتغطية أجواء الحرب في الريف البوسني، بعيداً عن العاصمة سراييفو، عمر عبد المنعم الملقب بأبي سكينة، مصري الجنسية، كان من أوائل المقاتلين العرب الملتحقين بجبهات القتال ضد الصرب في الحرب البوسنية، علي الموسوي الملقّب بذي الفقار، قيادي في المقاومة اللبنانية، التحَقَ بالبوسنة أيام الحرب للمساهمة في تدريب وتأطير وحدات الجيش البوسني المشكَّل حديثاً آنذاك، كما شارك بنفسه في بعض العمليات النوعية التي نفّذتها فرقة القوات الخاصة في محيط سراييفو وريف الهرسك وصولاً إلى موستار، جيوفاني بوسمان، من المفروض أنه هولندي الجنسية، لكن

تحقيقاتنا أثبتت بأنه دخل إلى البوسنة بجواز سفر مزوّر، فهو ضابط مخابرات إسرائيلي واسمه الحقيقي مائير زائيفي، حميد كارافليش، أحد أبناء سراييفو ممّن انضموا للجيش البوسني، ورادومير ميسيتش، أحد المنتسبين الصرب لفرقة العقارب الشهيرة.

قلتُ في لهفة:

- مفهوم، وماذا عن الراوي مجهول الهوية؟

أجابني باستغراب:

- الراوي؟ أنا لا أفهم ماذا تقصد! ألا تتقن العدّ يا صديقي؟ عثرنا على رفات سبعة أشخاص هم الذين تَلَوت أسماءهم على مسامعك الآن! ماذا تريد أكثر من ذلك؟

هتفتُ مذهولاً:

- مستحيل! هنالك خطأ ما في الموضوع!

فردّ بحزم:

- لقد تمّ عرض العينات على مختبرين مختلفين وكانت النتائج متطابقة بشكل تام، بالمناسبة، أنتَ لم تُطلِعني على محتوى الأوراق التي...

لم أسمع بقية كلامه، فقد أطفأت الهاتف وأنا أبذل كلّ ما في وسعي لأحافظ على توازني وتماسكي.

ما هذا الذي سمعته الآن؟

أين ذهبت رفات الراوي المجهول؟

أم تراه...

مستحيل!

هل نجا من معركة قرية لوتا؟

أم أنه لقي حتفه ودُفِن في مقبرة أخرى ما زال موقعها مجهولاً؟

عقلي مشوّش من آثار الصدمة القوية، لكنني أحاول رسم سيناريو متخيَّل لما جرى. . .

أحرق العقارب القرية، واقتربوا من الإجهاز على عائلة واحدة متبقية، هل تولى الأصدقاء مهمة مواجهة المسلحين الصرب، ليسمحوا للراوي بتهريب المدنيين اعتماداً على دليل خلوّ المقبرة من جثة أي مواطن من أبناء قرية لوتا؟

ممكن. . .

ولكن المقبرة لا تضمّ بين رفاتها سوى جثّتين لمن يفترض أنهم المعتدون على القرية، جثة مقاتل صربي وبقايا ضابط مخابرات اسرائيلي، ومن المعروف أنّ أيّ فرقة مهاجِمَة لا بد وأن تضمّ عشرين أو حتى ثلاثين مسلحاً على الأقل، أين ذهب الباقون؟ دفنوا الجميع وهربوا خوفاً من وصول نجدة بوسنية؟

ممكن. . .

لنفترض أنّ الراوي قد تمكَّن من النجاة، أين هو؟ ولماذا لم يظهر له أي أثر؟

هل أكمَلَ طريقه إلى سراييفو؟ أم فضَّل العودة إلى موستار؟

أم تراه تناسى كلّ شيء وعاد إلى حياته السابقة في فرنسا أو حبيبته الوحيدة في المغرب؟

يا إلهي، يكاد رأسي ينفجر، فأنا لم أضَع كلّ هذه الاحتمالات في الحسبان!

أيّ لغز هذا يا. . .

تمنيت لو أنني أعرف اسمَك على الأقل!

ولكن مهلاً. . .

هنالك طرف خيط نسيته تماماً ويمكنني الاعتماد عليه لبدء رحلة بحث جديدة عن الراوي المجهول!

قوات الأمم المتحدة...

سأراجِع أرشيفها القديم وأحصر البحث في الأطباء الفرنسيين الملتحقين بالبوسنة في تلك الفترة.

أو أبحث في سراييفو عن الممرِّضة مديحة بيتروفيتش، التي يتجاوز عمرها الآن الأربعين عاماً، ربما تزوجت وبدأت حياة جديدة، لكنني سأجد عندها بالتأكيد ما يفيدني.

قد أذهب إلى موستار، لأقابل رامز كوستوفيتش وابنته نور، التي تعيش الآن حياتها، متمتِّعة بشبابها وجمالها، ربما تعمل أو تتابع دراستها في الجامعة، ذكية مثلها لا يمكن إلّا أن أتوقّع لها مستقبلاً مشرقاً.

مَن يدري، قد أسافر حتى إلى المغرب، لأبحث عن جيهان الحسني والطيار علي السلامي، ربما تزوّجا وأنجبا أطفالاً ونسيا الراوي تماماً، لكنني سأفتّش عنهما وأجمع خيوط القصة كاملة مهما كلّف الأمر.

نعم، نشر مذكرات الراوي المجهول لم يكن نهاية، بل مجرّد بداية جديدة لما هو آتٍ...

أشعَرَتني هذه الخاطرة الأخيرة بأنني أفضَل حالاً، فعدتُ إلى الناشر مبتسماً، وصوت درويش ينساب عبر أمواج الإذاعة...

أنا من هناك، أنا من هنا

ولستُ هناك، ولستُ هنا

لِيَ اسمان يلتقيان ويفترقان

ولي لُغَتان، نسيتُ بأيِّهما

كنت أحلَمُ. . .
لي لُغةٌ إنكليزيّةٌ للكتابةِ
طيِّعةُ المفردات
ولي لُغَةٌ من حوار السماء
مع القدس، فضيَّةُ النَبْرِ
لكنها لا تُطيع مُخَيّلتي
والهويَّةُ؟ قُلْتُ
فقال: دفاعٌ عنِ الذات. . .
إنَّ الهوية بنتُ الولادة لكنها
في النهاية إبداعُ صاحبها،
لا وراثة ماضٍ. أنا المتعدِّدَ. . . في
داخلي خارجي المتجدِّدُ. لكنني
أنتمي لسؤال الضحية. لو لم أكن
من هناك لدرَّبْتُ قلبي على أن
يُرَبي هناك غزال الكِنَايةِ. . .
فاحمِل بلادك أنّى ذهبتَ وكُنْ
نرجسيّاً إذا لزم الأمرُ
منفىً هوَ العالَمُ الخارجيُّ
ومنفىً هوَ العالَمُ الباطنيّ
فمَن أنت بينهما؟

وحيد سيباهيتش - بيروت

2016-02-09

عبد المجيد سباطة

ساعة الصفر 00:00

«- أين أنا؟ مَن أنت؟

أعرف أنّ هذا الهدوء سينتهي بعد دقائق وربما لحظات، عندما يعلم الطبيب الشاب بخبر استعادة جيهان لوعيها، وقد يلحق بها والداها إلى هنا، فمن الطبيعي أن يتّصل بهما مفتّش الشرطة لإخبارهما بما وقع لابنتهما، مَن يدري؟

غموضٌ كبير يُحيط بهذه الحادثة، ولا وقت لديّ...

ألقيتُ نظرة خاطفة على ساعتي اليدوية، ففوجئتُ بتعطّلها إثر تسرّب المياه إليها، والمفارقة هنا أنّ عقاربها المعطّلة خلّدت توقيت الحادثة بالضبط.

ساعة الصفر (00:00)، منتصف الليل...».



عبد المجيد سباطة، كاتب مغربي من مواليد الرباط عام 1989، تم اختياره للكتابة ضمن الفريق الرئيس لمدوني شبكة «الجزيرة»، التي يقدّم عبرها سلسلة تدوينات أسبوعية يتناول فيها مواضيع أدبية وثقافية وأخرى تاريخية تحظى بمتابعة مهمة، كما يعمل ضمن الفريق المرن لمنصة «ساسة بوست» التي يقدم عبرها مجموعة من المقالات الفكرية والتاريخية المتخصِّصة.



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-855-8
